فرانكو كارديني

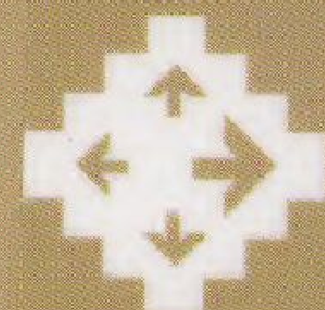
أوربا والإسلام

تاريخ من سوء التفاهم

ترجمه عن الإيطالية
د. عماد البغدادي







دراسة

أوربا والإسلام

تاريخ من سوء التفاهم



دار شرقيات للنشر والتوزيع

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب:

Europa e Islam
Storia di un malinteso
Franco Cardini

Questo libro e` stato pubblicato con il contributo del
Ministero degli Affari Esteri Italiano

أوربا والإسلام : تاريخ من سوء التفاهم
فرانكو كارديني
عن: دار النشر لاترتسا

ترجمه عن الإيطالية: د. عماد البغدادي

الطبعة الأولى: دار شرقيات ٢٠٠٨

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
الرقم البريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت ٢٣٩٠٢٩١٣ فاكس: ٢٣٩٣١٥٤٨
sharq_ca@yahoo.com
www.dar-sharqiyat.com/admin

غلاف: عمرو الكفراوي

كارديني، فرانكو
أوربا والإسلام : تاريخ من سوء التفاهم / فرانكو كارديني ؛ ترجمه عن الإيطالية:.د. عماد البغدادي — ط ١. – القاهرة : دار شـــرقيات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨.
٤١٢ ص ؛ ٢٤X١٧ سم.

تدمك 977-283-267-4 رقم الإيداع [redacted] / ٢٠٠٧
أ – العنوان

ديوي ٩٢٠،٧

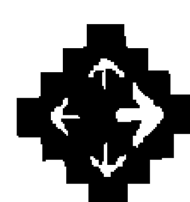
أوربا والإسلام

تاريخ من سوء التفاهم

فرانكو كارديني

ترجمه عن الإيطالية

د. عماد البغدادي



دار شرقيات للنشر والتوزيع

تمهيد للطبعة الأولى

بقلم: جاك لو جوف

إن أوربا تبني نفسها. وهو أمل كبير سوف يتحقق فقط إذا أخذنا التاريخ في الحسبان : فأوربا بلا تاريخ ستكون يتيمة وبائسة. لأن اليوم ينحدر من الأمس، والغد هو مستقبل الماضي. وهو ماض لا ينبغي أن يشل الحاضر، ولكن يجب أن يساعده لكي يكون مختلفا في الوفاء، وجديدا في التقدم. وبين الأطلنطي وآسيا وأفريقيا توجد بالفعل قارتنا أوربا منذ زمن موغل في القدم، وقد رسمتها الجغرافيا وشكلها التاريخ، منذ أن أعطاها اليونانيون اسمها. ولابد للمستقبل أن يستند إلى هذه المواريث التي أثرت أوربا بالتدريج، منذ ما قبل التاريخ، مما جعلها خلاقة بصورة غير عادية في وحدتها واختلافها، وأيضا في إطار عالمي أرحب.

وقد نشأت سلسلة "Fare l'Europa" (اصنع أوربا) من مبادرة لخمسة ناشرين من لغات وجنسيات مختلفة (بيك في ميونيخ بافاريا، وباسيل بلاكويل في أكسفورد، وكريتيكا في برشلونة، ولاترتسا في روما وبارى، وسوي في باريس) وهي تهدف لإلقاء الضوء على بناء أوربا ونقاط قوتها التي لا يمكن نسيانها، دون إخفاء المصاعب الموروثة من الماضي. وفي توجهها نحو الوحدة، عاشت القارة خلافات وصراعات وانقسامات وتناقضات داخلية. وهذه السلسلة لن تخفيها : فالالتزام بالعملية الأوربية يجب أن يتم مع معرفة الماضي كله بالكامل مع تصور المستقبل. ومن هنا جاء العنوان الإيجابي للسلسلة. ويبدو لنا أنه حانت ساعة كتابة تاريخ مختصر لأوربا. والكتب التي نقترحها ترجع إلى أفضل مؤرخينا الحاليين المعروفين وغيرهم من غير الأوربيين أيضا. وسيواجهون الموضوعات الأساسية للتاريخ الأوربي في مختلف الميادين – الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والديني والثقافي – استنادا للتقاليد التأريخية الطويلة التي تمتد من هيرودوت إلى المفاهيم الجديدة التي أعدت في أوربا أثناء القرن العشرين، وخاصة في العقود الأخيرة،

وجددت بعمق العالم التأريخى. وبفضل رغبتهم في الوضوح فإن هذه الكتب أصبحت متاحة أيضا لجمهور عريض. وطموحنا هو أن ننقل عناصر للرد على الأسئلة الكبيرة التي تواجه أولئك الذين يصنعون وسيصنعون أوربا، وأولئك المهتمين بأوربا في العالم بأسره. "من نحن؟ ومن أين جئنا؟ وإلى أين نذهب؟".

جاك لو جوف

مقدمة

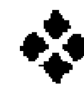
الهدف من هذه الصفحات هو أن نتتبع بإيجاز المسيرة التي قطعتها أوربا للاتصال بالإسلام، والطرق والأسباب التي تم بها هذا، والعملية التاريخية التي تطورت بموجبها العلاقات، وتعدد المظاهر والمفاهيم وأشكال الحكم المسبق وتشويه المعلومات والمعلومات المضادة التي أثرت على رؤية الطرف الأول للطرف الثاني. وهذا الكتاب ينقصه عن قصد التصور المتبادل الذي يمكن الوصول إليه من نقطة انطلاق ممتازة تتمثل في مؤلفات مثل كتاب ب. لويس، *I musulmani alla scoperta dell'Europa*، الترجمة الإيطالية، روما- باري ١٩٩١.

والإسلام الذي نتحدث عنه هنا هو قبل كل شيء وفوق كل شيء الإسلام البحر أوسطى. وهذا أمر مشروع وملزم إلى حد ما نظرا لواقع العملية التاريخية التي نعرض لها، لأن الأوربيين سارعوا بالاتصال بها وظلوا متواصلين معها فوق كل شيء. ولا يجب أن ننسى من ناحية أخرى أن الإسلام ليس واقعا متجانسا على الإطلاق : بل إنه توجد أنواع من الإسلام – كما توجد أنواع من المسيحية –، على وعى بالوحدة العميقة التي تربط أمة جميع المؤمنين ولكنها تطورت في نفس الوقت عبر التاريخ إلى أشكال وطبقا لخصائص مختلفة. والتقاليد والثقافة التاريخية-الفقهية الأوربية الجنوبية حساسة أحيانا بصورة حصرية أو قاصرة بصورة زائدة على أي حال على أنواع الإسلام التركي والشرق أوسطى والشمال أفريقي، المتصلة بعمق فيما بينها. ولهذا السبب فإن من يقبل هذا التقليد وهذه الثقافة يجب أن ينظر باهتمام لمجالات أوربية أخرى تطور فيها الخطاب التاريخي والسياسي أيضا بطريقة مختلفة : لأن الاهتمام منذ القرن الثامن عشر والتاسع عشر في العالم الألماني والبولندي والروسي (وإلى حد ما البلطيقي وفى وسط أوربا) تركز أيضا على الواقع المعقد في الشرق الأوسط وفى آسيا الوسطى ؛ بينما تطورت في العالم الإنجليزي والبرتغالي والهولندي حساسية منتبهة أيضا للهند وآسيا الشرقية وهو ما استبعدته عادة البلاد الأوربية الجنوبية من مجال اهتمامها. ونحن نشير على الأقل إلى مجال المعرفة المتوسط، المتأثر بالتعليم المدرسي والمعدلات القياسية في وسائل الإعلام. وفى هذا الشأن يجب أن

نلاحظ أننا حرصنا دائما على التمييز بين الشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى وتجنبنا العادة الإيطالية السيئة في إطلاق اسم "الشرق الأوسط" على المنطقة الواقعة بين بحر الشرق، الفرات وشبه الجزيرة العربية. ونحن نتساءل بالطبع حول ما إذا كانت هذه التعبيرات "مستغربة" : ولكن ربما كانت كذلك التعبيرات "آسيا الغربية"، و"آسيا الوسطى" و"آسيا الشرقية"، نظرا لأن مفهوم القارة نفسه هو ثمرة التقليد الثقافي الغربي. وربما يكون كل جهد *politically correct* أكثر تضليلا هنا عن أي مكان آخر : حيث إنه مهما كانت اللغة التي نستخدمها فإنه ستكون هناك حتما مركزية عرقية ثقافية حادة تقريبا، ومتمشية مع النسيج اللفظي والبنائي للغة نفسها. راجع على أي حال الآراء التي أيدناها لـ ج. فيرتشيللين، *Fine della storia, storia orientale e orientalistica* في "دراسات تاريخية"، ٣٢ ،١ ، ١٩٩١، ص ٩٧ – ١١٠.

وقد قدم لي العديد من الأصدقاء والزملاء العون الفعال والسخي في كتابة هذه الصفحات. وبالنسبة لي، وأنا غير المتخصص في الدراسات الإسلامية، كانت هناك توجيهات قيمة خاصة من سلفاتورى بونو وماسيمو كامبانينى، وخالد فؤاد علام ومحمود سالم الشيخ وكليليا سارنيللى تشيركوا. وأوجه شكرا خاصا لجان بيير باردو لقراءته الدقيقة والذكية.

ولكل التوجيهات الأخرى، التي أدين لها بالعرفان، أكتفي بالشكر الجماعي.



١

نبيّ وثلاث قارات

أوربا وآسيا، المسيحية والإسلام

مقارنات والتباسات

إن المقارنة بين أوربا والإسلام، أيا كانت الرغبة في ترتيبها، تتضمن دائما رائحة من التضاد : ربما لأن البعض لا يزال يعتبرها – أو على الأقل يلحظها ضمنيا – نوعا من الاستمرار أو المواصلة للقاء–الصدام بين المسيحية والإسلام ؛ على الرغم من أنه لابد أن يكون من الصعب الإشارة مرة أخرى للفصل بين الكلمتين *Christenheit oder Europa*، الذي اقترحه نوفاليس، واعتبره فصلا بالفعل. وعملية العلمنة، المتمشية مع الحداثة الغربية، تمنع الاستمرار في النظر إلى أوربا على أنها المسيحية ذاتها، أو أنها ببساطة كيان مسيحي. ولكن، على الأقل منذ أن تابع العالم الغربي – الذي لم يعد بدوره يتطابق تماما مع أوربا – بقلق متزايد انتشار الحركات الإسلامية التي تسمى خطأ "الأصولية" (على الرغم من أنه لا يمكن بالطبع مطابقة الإسلام كله بمختلف الوجوه المتعددة للمجرة "الأصولية")، نسجل في أوربا ميلا شائعا للنظر إلى الإسلام على أنه عدو محتمل على الأقل. وهو ميل يمكن اعتباره جديدا : ولكن الكثيرين من الأوربيين يعيشونه وكأنه إحياء وعودة وذكرى لشيء رأوه من قبل، وإعادة ربما لتضاد قديم ويتمشى، إذا جاز التعبير، مع واقع جغرافي تاريخي وجغرافي هيكلي عميق.

وربما يتساءل البعض إذن حول ما إذا كانت المواجهة بين أوربا والإسلام، في الحدود التي يمكن أن توصف فيها أو على الأقل يمكن أن تدرك فيها على أنها مجابهة، لم نعشها غالبا من ناحية كمرادف غير مكتمل للمواجهة بين الغرب والإسلام (أو بين الحداثة والإسلام : وهو ما قد يدخل عنصر تعقيد آخر، يدخل ضمنا في الميل لاعتبار الغرب والحداثة لا ينفصمان)، ومن الناحية الأخرى كاستمرار لـ "مواجهة–مبارزة" كلاسيكية وقديمة، وهي المواجهة بين أوربا وآسيا، التي لمحها إسخيلوس في *I Persiani,* وفسرت بالتالي في الـ *De*

aeribus الذي كتبه أبقراط على أساس قيم مناخية- بيئية بقدر ما هي سياسية- مؤسسية (فالمواسم المعتدلة والحكم الملكي قد يجعل الآسيويين واهنين، والمواسم الأشد قسوة ومؤسسات الحرية تجعل الأوربيين نشطاء ومولعين بالحرب) وفى كتاب *Politica* لأرسطو، كنتيجة لاختلاف "طبيعي" في الطباع. ولكن بالطبع، إذا كان الربط بين المسيحية وأوربا صعبا ولا يمكن طرحه، فإنه سيكون من المستحيل بالأحرى أن نقصر آسيا على الإسلام أو العكس : فليست كل آسيا مسلمة، كما هو معروف، ومن ناحية أخرى تمتد دار الإسلام، "أرض الإيمان"، إلى ما وراء حدود القارة الآسيوية.

ويضاف إلى ذلك "عدم التناسق" الظاهر على الأقل بين نفس ألفاظ "أوربا" و"الإسلام". فأحدهما يشير بالفعل إلى قارة والآخر إلى ديانة. ولكن ها نحن أمام أول مفتاح للمفاهيم للخروج من معضلتنا، حيث يعلق برنارد لويس قائلا في هذا الشأن:

"إن عدم التناسق ظاهري أكثر منه حقيقي. و"أوربا" هي مفهوم أوربي، مثل كل النظام الجغرافي للقارات، وأولها أوربا. لقد حملت أوربا وأنجبت ، واكتشفت أمريكا وأعطتها اسمها وصنعتها إلى حد ما. وقبل ذلك بقرون كانت أوربا قد اخترعت سواء آسيا أو أفريقيا، اللتين كان مواطنوهما، حتى القرن التاسع عشر – حقبة التفوق العالمي الأوربي – غير واعين تماما بالأسماء والهويات وحتى بهذه التصنيفات التي اخترعها الأوربيون لاستخدامها واستهلاكها.

والإسلام ليس مكانا ؛ إنه ديانة. ولكن كلمة "الدين" بالنسبة للمسلمين ليست لها نفس الملامح بالنسبة للمسيحيين أو التي كانت عند المسيحيين في العصور الوسطى [...]. إن الإسلام بالنسبة للمسلمين ليس فقط نظام إيمان وعبادة [...] إنه يشير بالأحرى إلى مجموع الحياة وتتضمن قواعده عناصر من القانون المدني والقانون الجنائي وحتى من القانون الذي يمكن أن نسميه بالقانون الدستوري*".

ولكن التناقض بين أوربا وآسيا، مثل التناقض بين الغرب والشرق، يعرف لائحة جغرافية وجغرافية سياسية منذ أمد بعيد يتجاوز التوتر بين أوربا والإسلام ؛ على الرغم من أن هناك من يرون أن الصراع الأوربي الآسيوي والصراع الغربي- الشرقي في بعض الفترات – على سبيل المثال في حقبة الحملات الصليبية، أو في حقبة الهيمنة التركية العثمانية على البحر المتوسط الشرقي والبلقان – اتخذ مظهرا اعتدنا الإشارة إليه على أنه "الصراع بين الصليب

* ب. لويس ، *L'Europa e l'Islam* ، روما- باري ١٩٩٥ ، ص ص ٥-٦ ، في مواضع متفرقة.

والهلال" (مع كثير من عدم الدقة، على الأقل على المستوى الرمزي). والآن، بصرف النظر عن إشارات الجغرافيين القدامى، إذا طرحنا مشكلة كيف ومتى ولد الضمير الحديث لأوربا والهوية الأوربية، فإننا سندرك إلى أي مدى كان الإسلام، وربما "بالسلب"، من بين العوامل التي ساعدتها على أن تحدد نفسها. فالاعتداء الإسلامي المتكرر على أوربا – بين القرنين السابع والثامن والعاشر، وبعد ذلك بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر –، الذي كان اعتداء فعليا من الناحية الموضوعية أو فسره الأوربيون على هذا الأساس على أي حال، كان "مولدا" عنيفا لأوربا. وإذا كان بعض المؤرخين قد حيّا (وهل هذه مفارقة؟) النبي (صلعم) إذن "كأب مؤسس" لأوربا، فهناك من يتساءل حول ما إذا كان هناك دور مماثل للسلطانين التركيين محمد الثاني وسليمان الكبير فيما بعد، واللذين أجبرا القارة على الدفاع عن نفسها والبحث عن طرق وأساليب للقيام بعمل موحد، فدفعاها أيضا، بالنظر إلى المستقبل، لأن تحدد نفسها بصورة أفضل أمام نفسها وأمام "الآخر".

المسلمون وراء "المغرب الأقصى"

وربما كان الرأي القائل بأن أوربا كانت مقرا للمسيحية بامتياز – إن لم يكن حصريا – رأيا خاطئا ولكننا يمكن أن نقول إنه كان الرأي المتفق عليه بين مؤلفي العصور الوسطى. ومع هذا الرأي ترسخت فكرة أن من لم يكن مسيحيا، حتى لو كان يقيم على الأرض الأوربية، يكون قد استقر فيها كأجنبي أو كغاز. وهكذا فإن رجل الدين الطليطلي المجهول الذي كان يستطرد في كتابه *Continuatio Hispanica* في سرد القصص التي بدأها إيزيدورو دي سيفيليا، في منتصف القرن الثامن تقريبا، وكان يحيي الفرنكيين المنتصرين في معركة بواتييه في ٧٣٢ (يرى آخرون أنها وقعت في ٧٣٣) على أنهم من الأوربيين. ولكننا يمكن أن نتساءل ما إذا كان يشعر هو بدوره أنه أوربي لأنه مسيحي، أو ببساطة في الحدود التي كانت فيها شبه الجزيرة الأيبيرية ضمن أوربا طبقا للحدود الجغرافية الرومانية ؛ أو أنه لم يكن يستطيع أن يعتبر نفسه كذلك، منذ أن قام العرب البربر بغزو شبه الجزيرة الأيبيرية وأدخلوها في دار الإسلام. وهو ما قد يقتضي بالضبط حدودا متحركة واختلافا صارما بين أوربا والإسلام ؛ وقد يستبعد إمكانية الحديث عن

"أوربا مسلمة" إن أراد الإشارة إلى أراض من القارة الأوربية غزاها الإسلام وسكنها أناس مسلمون أو اعتنقوا حديثا الديانة الجديدة.

وهناك مناقشة قديمة ومتلكئة حول ما إذا كانت بواتييه قد أوقفت الغزو الإسلامي لأوربا، أو كانت بالأحرى أحد أعراض تعب الغزاة، الذين لم تعد لديهم الانطلاقة للتقدم أكثر من ذلك : سواء لأن ذلك الحدث الحربي يبدو محصورا تماما، أو لأنه لا يصح التحدث عن الغزو ، أمام غزو الإسلام في القرون السابع-العاشر. فالعرب لم يكن بمقدورهم أبدا أن يمتلكوا داخل مجتمعهم، محاربين كثيرين لدرجة احتلال أراض ممتدة من أعمدة هرقل إلى نهر الهند وإلى نهر سير داريا في اتجاه خط الطول ومن القوقاز إلى النوبة في اتجاه خط العرض في بضعة عقود : ومنذ حملات الخلفاء الذين أعقبوا النبي (صلعم) مباشرة، أي بداية من الثلاثينيات في القرن السابع، لم يكن توسع الإسلام موازيا لغزو عسكري جرار ولا يتوقف – ولا حتى *Völkerwanderung* –، ولكنه كان بالأحرى عملية غير متلاحمة دائما وغير مستمرة من الغزو ولم يكن أبدا عملية تحول مثارة ولا حتى مفروضة لجماعات منتمية لمجتمعات متعبة أو في أزمة – سواء أكانوا من المسيحيين الموحدين في سوريا ومصر، والذين عوملوا بشدة من قبل سلطات الحاكم البيزنطي، أو الشعوب الخاضعة للشاه الساساني –، وراغبة في إزاحة الممالك القديمة والمتحجرة عن كاهلها وإعادة تحديد أنفسها حول عنصر جذب جديد، وهي كلمة الخضوع لله بعد أن نشرها رسوله محمد (صلعم) ؛ على الرغم من أن الكثيرين فضلوا بعد ذلك البقاء على العكس من ذلك مخلصين لعقيدتهم مع قبول دفع ضريبة الرؤوس (الجزية) والضريبة الواجبة من غير المسلمين على الأرض (الخراج) بالإضافة إلى اعتبارهم ذميين – وبالتالي "محميين"، و"خاضعين" أيضا – ؛ مع التظاهر في نهاية المطاف باعتبار حكومة الكفار أفضل من حكومة إخوانهم في الدين.

وعلى أي حال فإن أسطورة بواتييه، وتؤيد ذلك صفحة موحية لإدوار جيبون، سارت وأسهمت إلى حد ما في ترشيد كل تاريخ أوربا كتاريخ للتعارض مع الإسلام : فلولا بواتييه وبطولة كارلو مارتيللو – كما قيل – لأعلن المؤذنون عن اسم الله من أعلى أبراج أكسفورد، ولدرس القرآن في تلك الجامعة الشهيرة ولتغيرت أحداث العالم.

ولا جدوى من تقليص ثقل ودور معركة بواتييه : وعلى الرغم من أن من العدل الدعوة للحذر في عمليات التصغير و"إزالة الأساطير"، يجب أن نقول أيضا إنه لا يوجد أحد الآن يعتقد بعد في أهميتها القاطعة. و"أسطورة" ذلك الصدام لا

تزال باقية اليوم خاصة كقول شائع في وسائل الإعلام : ومن ناحيـة أخـرى لا يوجد شيء أصعب في اقتلاعه من قول شائع في وسائل الإعلام. ونحن نعلم جيدا أن الدعاية الفرانكية والبابوية هي التي مجدت النصر الذي تحقق على الطريق بين مدينة تور وبواتييه، على بعد بضعة كيلومترات شمال شرق التقاء نهر فيين مـع كروز، للتأكيد على مجد الأمة "الأولى في كنيسة روما". وفي نفس الوقـت ربمـا كانت هناك النية في إسدال الستار على شهرة الملـك البيزنطـي ليـوني الثالـث إيزاوريكو، الذي كان قد أجبر المسلمين في عام ٧١٨ على التخلي عن الحـصار المفروض في العام السابق على القسطنطينية والذي واجه بشجاعة سـلطتهم فـي البحار بإبقاء سيطرته على البحر الأسود وبحر إيجة ووسط البحر المتوسط حتـى أثناهم لوقت طويل عن القيام بمزيد من محاولات الاختراق فـي شـبه الجزيـرة الأناضولية. ولكن أتباع الكنيسة اللاتينية لم يكن بوسعهم بـالطبع تكـريم ليـوني الثالث، عدو التقاليد ؛ وفيما بعد، ربما طورت الثقافة الغربية أيضا حكمـا مـسبقا شديدا ضد الثقافة البيزنطية، باعتبارها غير أخلاقية وجبانة ومنحلة ومنحطة. وما أسهمت أسطورة بواتييه في إخفائه عنا نحن المحدثين هو الأصوات النادرة وغير الدقيقة للمصادر الأوربية المعاصرة للإسلام، إن لم يكن الصمت الفعلـي. ومـن المعروف من ناحية أخرى أن الفترة الموازية لتفجر الغزوات الإسـلامية كانـت أيضا فترة طويلة من الكساد في العالم الأوربي الغربي : فالصمت أو الأخبار غير المناسبة ترجع في نفس الوقت لخطأ في المعلومات والجهل. ولكن الحقيقة أيـضا هي أن مناخ ذلك الوقت، ربما كان من الصعب فيه، وغير المفيد في نهاية الأمـر التمييز بين المسلمين والغزاة أو المغيرين الآخرين : ولم يكن هنـاك معنـى لأن نضفي عليهم أهمية ومعنى بصفة خاصة. ولقد كتـب أن سـقوط الإمبراطوريـة الرومانية الغربية، في النصف الثاني من القرن الخـامس، كـان "سـقوطا بـلا صخب"؛ وربما كان التقدم الإسلامي بالمثل بالنسبة لأوربا أيضا، على الأقل فـي القرن الثامن، بلا صخب. أو بمعنى أصح، كان صخبه يختلط مع أنواع أخرى من الصخب. وبالمقارنة، على سبيل المثال، فإن بواتييه تتحدث عنها أكثر المـصادر الإسلامية، التي تعرف الواقعة باعتبارها "بلد الشهداء"، وتنسب إليها مع ذلك أهمية قليلة.

ولا يمكن بالطبع أن نتعجب مما حدث في الغرب الأوربي المتأخر، حيـث إن نفس المصادر البيزنطية الأكثر دراية قد تنبهت متأخرا نسبيا إلى أن المسلمين لـم يكونوا متسولين مثل الآخرين ؛ ولا أدركوا على الفور أهمية الإسلام كديانة جديدة ومن خلال بيزنطة تصل إلى أوربا في بداية العصور الوسطى هدية غير متوقعة وطاغية. كلمة سحرية : *Sarraceni*، التي صححت بعـد ذلـك *Saraceni* وبـصيغة

خاطئة جدا من القراءة السهلة *lectio facilior* فسرت على أنها "أبناء سارة". كانت الكلمة غير صحيحة، لأنها كانت تستخدم للإشارة في الأصل لشعب كانت أصوله المؤكدة ترجع إلى الـ *Arabia felix*، مع ربطه بالذرية التي انحدرت طبقا لرواية سفر التكوين من زواج إبراهيم ليس من زوجته الشرعية سارة، ولكن بالأَمَة المصرية هاجر، والآن إذا كان التقليد الموثق ينظر إلى أهالي الصحراء على أنهم أبناء أبي الأنبياء وأَمَته – وبالتالي إخوة غير أشقاء لشعب إسرائيل عن طريق ابنهما إسماعيل (الذي اشتق منه اسم *Ismailitae*) –، فإن الكلمة التي ستكون أنسب لهم وهي الكلمة الموثقة بقوة عادة، ربما تكون "هاجريين". ولكن القول بأن كلمة سراسنة مشتقة من "سارة"، ربما يكون تفسيرا زائفا لأصل الكلمة ومن الواضح أنه جاء في وقت لاحق، على أساس تشابه صوتي وسوء فهم لصوت جاء من العربية أو السريانية. وقد قربت من بعض الكلمات العربية: ومن المحتمل أن تكون مشتقة من كلمة **شرق**، حيث كانت الموجة الإسلامية الأولى التي اجتاحت سوريا قادمة ربما من الجنوب – إلا إذا كان للكلمة أصل مصري –، بينما قد تكون موحية جدا العلاقة التي تربطها برياح الصحراء **شروق** (ولا يجب أن يختلط ذلك مع **الشرقية**، الرياح الشرقية). ولكن آخرين ركزوا أبصارهم على طابع الكثرة الذي كان يتسم به غزاة الصحراء، أو خاصيتهم في المشاركة بين القبائل للقيام بغاراتهم: وأشاروا إلى مفاهيم **شارك**، "الأناس المتحدون"، أو **الشركة**، "المجتمع"–"الشركة". وقد اقترح أيضا أن السراسنة أسماهم هكذا السكان المقيمون الذين كانوا خصوما لهم وكثيرا ما كانوا ضحايا لهم وعلاقة ذلك بمفهوم **سَرْق** ("سرقة") والفعل **سرق** ("يسرق")، ومنها المفاهيم المماثلة لسارق "لص"، و**سرّاق** "سارق، نشال".

وأولئك الذين تصفهم النصوص بأنهم *Ismailitae* أو *Agareni*، أو *Sarraceni*، سرعان ما يطلون على مسرح الأحداث على حدودنا. ونحن نعلم القليل جدا عن الاتهام الموجه إلى البابا مارتينو الأول (٦٤٩-٦٥٣) بأنه حاول إقامة علاقات مع السراسنة لمواجهة الملك البيزنطي كوستانتي الثاني ومذهبه التوحيدي وقد كانت هذه على أي حال التجارب الإسلامية الأولى لغزو البحر المتوسط، وهو ما كان يشغل بيزنطة في تلك السنوات. وبالطبع لم تكن هذه المجموعة من الشعوب، في نهاية القرن السابع وأوائل القرن الثامن، وهم في جوهر الأمر ورثة التقاليد التي تلقوها من الجزء الغربي للإمبراطورية الرومانية، الذي بزغ في نهاية القرن الرابع من التنظيم التيودوزياني، الذي أضيفت إليه الإسهامات "البربرية" والممالك التي نشأت عنها – أي "الأوربيون الغربيون"، كما يمكن أن نسميهم –، لم تكن هذه الشعوب تمتلك الأدوات التي تستطيع إعدادها للعاصفة السراسينية التي

ستنقض أيضا على سواحلها وفى البحار القريبة منها، بعد بضع عشرات من السنين.

ولكن مغامرة الغزو الإسلامي للبحر المتوسط كانت قد بدأت بالفعل. فبعد أن تعرضت سوريا وفلسطين لغزو العرب بين عامي ٦٣٣ و ٦٤٠ ومصر بين عامي ٦٣٩ و٦٤٦، كان البحارة السريانيون والمصريون قد اعتنقوا الدين الجديد أو ربما وضعوا أنفسهم على أي حال رغما عنهم في خدمة أتباع النبي (صلعم)، فقد كانوا في معظمهم من المسيحيين الفرنشيسكانيين وبالتالي كانوا معرضين للاضطهاد والتمييز من قبل الإدارة الإمبراطورية البيزنطية. وفى عام ٦٤٩ هاجم جزيرة قبرص قائد قدر له أن يتولى الخلافة، وهو حاكم سوريا معاوية ابن أبي سفيان وهو ابن عم الخليفة عثمان والمؤسس القادم لعائلة الخلافة الأموية ؛ وفي ٦٥٢ حدثت بعض الغارات المتواضعة في صقلية، التي كانت لا تزال منتمية للمنطقة التي تسيطر عليها بيزنطة ؛ وبعد ذلك بثلاث سنوات، رسمت معركة بحرية كبيرة غير بعيدة عن سواحل ليتشا أزمة السيادة البحرية الرومانية الشرقية. وقد هزم فيها كوستانتى الثاني نفسه، الذي كان على رأس أسطول من ٥٠٠ سفينة.

ولم تكن شعوب أوربا الغربية المتأخرة في ذلك الوقت تعلم شيئا عن كل هذه الأحداث، ولم يكن بوسعها أن تفهم شيئا تقريبا على أي حال، وكانت أوربا الغربية لا تزال في معظمها بحر أوسطية : فحدودها الشرقية كانت عند نهر الراين والشمالية عند المجرى المرتفع لنهر الدانوب. ولكن لكي ندرك قليلا عن قرب الصمت أو المعلومات القليلة جدا، لا يجب أن نلح على الجهل بالظاهرة الإسلامية من قبل المصادر الغربية – التي كانت موجودة أيضا بلا شك –، ولكن ربما يجب أن نركز بصفة خاصة على عدم اكتراثها. وبالفعل، كان كاتب الوقائع الفرنكي المعروف باسم فريديجاريو، والذي كان يكتب نحو عام ٦٥٨، كان يلمح إلى نبوءات من النوع التنجيمي الذائعة في الإمبراطورية في عصر الملك البيزنطي هرقل، والتي تقول بأن القاعدة البيزنطية ستهزمها وتغزوها سلالة من المختونين وبيّن أنه يعرف الكثير من الأمور عن التوسع الإسلامي الأول في آسيا الصغرى. وفى العالم الفرنجي أيضا، في أوائل القرن الثامن كان هناك راهب يدعى بيترو يقوم بالترجمة من اليونانية إلى اللاتينية لنص أصله سرياني، وكان آتيا من شمال بلاد ما وراء النهرين، وربما يكون سوريّا : وهذه هي الـ *Revelationes* لما يسمى بالـ *Pseudo-Metodio* الذي استخدم بعد ذلك عدة مرات في أعقاب الدعاية الأخروية ذات الطابع السياسي. وطبقا لهذا النص فإن الإسماعيليين القادمين من

صحراء "إثريبوم" (وبالتالي يثرب المدينة المفضلة عند النبي (صلعم)'، وهي (المدينة) سيقومون بغزو الشرق، وسيهاجمون صقلية وسيصلون حتى قرب روما؛ وستجتاح أعمالهم أيضا الغابات والجبال والمدن. وكان من المقرر أن يسبق ذلك الهجوم للإسماعيليين مباشرة مجيء المسيخ الدجال : ولكن إمبراطورا مسيحيا سيقوم في النهاية بإخضاع قادة العدو. أي أن شيئا ما كان معروفا في نهاية الأمر: ولكنه كان يُسجل دون اكتراث.

وكان لابد أن تتغير الأمور قليلا مع الاحتلال الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية وستيمانيا (لينجوادوكا) خلال العقد الثاني من القرن الثامن. وفى العالم القوطي الغربي في أسبانيا – الذي عبرته رواسب الخلاف الآري والخصومات داخل طبقته الأرستقراطية – ساورت المخاوف الناس لفترة طويلة أمام التقدم العربي بطول سواحل أفريقيا الشمالية. وفى أثناء المجلس الكنسي في طليطلة في ٦٩٤ أطلق الملك إيجيكا الإنذار. وانتشرت شائعة بأن اليهود، المستائين من الإجراءات التعسفية التي تمارس تجاههم، استعدوا لتقديم يد العون للبرابرة الجدد الذين كانوا يتقدمون من الشرق. وكانت تتفاقم في نفس الوقت حرب أهلية بين الطامحين للعرش القوطي في طليطلة ويبدو أن واحدا منهم، بدلا من أن يضطر للاستسلام، توجه ليطلب المساعدة من الـ *Mauri*، من العرب الغزاة وأيضا من البرابرة المستعربين والمتأسلمين الذين كانوا يعيشون معهم : أولئك الذين سيصبحون منذ ذلك الحين وإلى الأبد *los moros*، وهم الأعداء المتوحشون والساحرون رفاق المسيحيين الأسبان. وقد رأى البعض أيضا إن القادمين الجدد ربما لم ينظر إليهم نظرة سيئة على الأقل من جانب من السكان، في اسبانيا وفى ستيمانيا، كما حدث في جانب كبير من الأقاليم البيزنطية السابقة التي فتحها المسلمون، وأن نير حكمهم كان مفضلا على نير حكم الأمراء المسيحيين المستبدين، لأنه أقل ثقلا وتنكيلا.

وكان الإقليم الروماني القديم من أفريقيا، الذي كان العرب يسمونه إفريقيا (ويشمل ليبيا وتونس والجزائر الحالية)، كان قد فتحه المسلمون في ٦٤٧ ؛ ولكن بعد ذلك بخمسة عشر عاما فقط كانت المقاومة البيزنطية والبربرية بصفة خاصة قد بدأت في الاستسلام. وكان العرب يميزون، في المنطقة التي يقومون بفتحها، بين ثلاثة أعراق اجتماعية : الروم، وهو لفظ كان يشير أساسا للبيزنطيين، أي رعايا الإمبراطورية الرومانية (وهى كلمة مشتقة من اليونانية *(Romàioi)* ولكن اللفظ كان يشير شمال مدينة سيرت إلى أناس من أصل لاتيني أو يتحدثون اللاتينية على أي حال ؛ والأفارقة، وهم مواطنون أصليون اعتنقوا المسيحية ؛

وأخيرا البربر، وهي كلمة مشتقة من اللاتينية *Barbarus*، وكانوا قد بقــوا خــارج الحضارة الرومانية واعتنقوا المسيحية فقط جزئيا وفى تاريخ حديث. وقد انتهــى بهم الحال بقبول الإسلام ولكن لم يشبهوا العرب أبدا. فقد كــانوا بــدورهم، مثــل العرب يتمردون على حياة البحر : ولكن نداء البحــارة الــسوريين والمــصريين سرعان ما سمح لهم بالنظر إلى البحر المتوسط. وكان المسلمون بالفعل منذ عــام ٦٦٥ يستخدمون قاعدة جلولة البحرية، التي انتزعت من البيزنطيين ؛ وفى عــام ٦٧٠ أسست مدينة القيروان، التي اتخذت الاسم الذي يشير في اللغة العربية إلــى المعسكر الحربي ؛ ومنذ عام ٧٠٠ أنشئ ميناء جيد في تونس، حيث انتقــل مــا يقرب من مائة من العائلات المصرية الخبيرة في فن بناء السفن ؛ وبعد ما يقرب من خمس سنوات ،كانت كل إفريقيا الشمالية، حتى ما كان يعتبره العرب المغرب الأقصى، وهو المغرب، في أيدي الفاتحين بينما كانت تبدأ العملية العسيرة لأسلمة وتعريب البربر. وربما كان في نهاية يوليو من عام ٧١١ أن قام أسطول إسلامي كبير، بقيادة البربري طارق ابن زياد بالرسو في أرض خليج الجــسيراس، التــي تعرضت للإغارة في العام السابق. كانت القوات العربية البربرية تبلغ ربما عشرة آلاف رجل تقريبا. وبعد هزيمة قوات القوطي رودريجو، اتجه الغزاة دون إبطــاء نحو أشبيلية واحتلوا بعد ذلك قرطبة وفى ٧١٣ استولوا على طليطلة. وقد فتحــت أراجونا في العام التالي ؛ وخلال عام ٧٢٠ كان المــسلمون قــد احتلــوا أيــضا كاتالونيا وستيمانيا أي جميع أقاليم الملكية القوطية القديمة جنوب وشمال البرانس. وقد فتح ما كان يسميه العرب الأندلس (وكانوا قد تعلموا تسميتها هكذا في أفريقيا، حيث كانت لا تزال "أرض الونداليين") بسرعة كبيرة حتى أن البعض، لكي يفسر ذلك، لجأ إلى ذريعة تواطؤ اليهــود والمرتــدين والفــصيل القــوطي المعــادي لرودريجو.

وبعد أن قاموا باحتلال ناربونا في عام ٧١٨، تقدم العرب أمام تولــوز فــي ٧٢١ واستولوا على نيم وكاركاسون في ٧٢٥. وأصبحت بروفنسا الآن كلها مــع حوض الرودانو مسرحا لعملياتهم. وأحرقت أوتون في ٧٢٥، أو فــي ٧٣١ فــي رأى آخرين.

ومن أسبانيا وستيمانيا إلى جنوب بلاد الغال، الذي يسيطر عليه الفرنجة منــذ بداية القرن السادس – وحيث كانت المؤسسات هشة والهياكل الاجتماعية ضعيفة- كان يمكن أن تكون الخطوة قصيرة. وقد شجع أسقف روما جريجوريــو الثــاني، الذي كان يتابع باهتمام جميع الأحداث المتعلقة بالشعب الفرنكي، "الابــن البكــر" لكنيسته، أوردونى دوق اكويتانيا، على مقاومة المسلمين فــي عــام ٧٢١، أمــام

تولوز ؛ وعلى سبيل المديح أرسل له بعض الأقمشة التي كانت قد استخدمت كغطاء لمذبح القديس بطرس. وبعد أن تحولت إلى قصاصات صغيرة ابتلعها المحاربون المسيحيون على سبيل التقديس.

ولكن فتح السراسنة لشبه الجزيرة الأيبيرية لم يكن شاملا ؛ حيث كانت لا تزال هناك بين المناطق الوعرة في جبال البرانس وكانتابريتشي بؤر للمقاومة المسيحية. ونظم القوطي بيلاجو في إقليم أستوريا، في ٧٢٠ إمارة ستتحول بعد ذلك بعشرين عاما إلى مملكة وستضع عاصمتها في مدينة جديدة، هي أوفييدو، التي أسست في عام ٧٦٠. وقد استطاعت الشعوب الباسكية- النافارية التي قاومت أيضا القوط الغربيين – الحفاظ من جانبها على استقلالها : وهكذا نشأت في العقد الثالث–الرابع من القرن التاسع بين أهالي جاليتسيا وكانتابريتشي واستوريا، بمساندة حفنة من المحاربين القوط الغربيين الذين لجأوا إليهم، إمارة نافارا الصغيرة، التي ستصبح مملكة بعد ما يقرب من مائة عام. وستبدأ بعد ذلك بقليل حركة الـ *Reconquista* من أستوريا ونافارا وأراجونا الشمالية.

وبالتالى فإن معركة بواتييه ستكون، في حد ذاتها، أقل أهمية من الأسطورة التي خلقتها : ولكن لكي نعطي فكرة عن السياق الذي تندرج فيه، فإننا لا يجب أن ننسى حوادث أخرى ربما أكثر أهمية. مثل حادثة الزعيم البربري مونوز أو موسورا الذي تولى الحكم بين جبال البرانس الشرقية، في تشيردانيا، وتزوج ابنة الدوق أودونى، دوق أكويتانيا قبل أن يهزم في عام ٧٢٩ على أيدي أمير قرطبة الذي تمرد عليه ؛ أو حادثة الدوق مورونتي دوق بروفنسا، الذي فتح أبواب أفينيون أمام المسلمين في عام ٧٣٤.

لم تكن أفينيون قد أوقفت الكفار : ففى عام ٧٣٤ لم تحتل أفينيون فحسب، ولكن نهبت أيضا آرليس واجتيح كل إقليم بروفنسا ؛ وفى ٧٣٧ وصل الغزاة حتى بورجونيا حيث أسر عدد هائل من العبيد اقتيدوا إلى أسبانيا. وقد أدى هذا إلى الحملات المستمرة لكارلو مارتيللو ضد المسلمين جنوب بلاد الغال بين عامي ٧٣٦ و٧٣٩ : ولكن اللعب المزدوج والخيانة كانا سائدين، ولم تكن أي من هذه الأعمال فعالة حقا. وكان العرب- البرابرة، بغاراتهم، يشكلون جزءا من معركة سياسية معقدة سيكون من الممكن بعد عشرات السنين أن ننسب إليها مبررات دينية أيضا، في الذاكرة الجماعية التي تغذيها وربما توجهها الأعمال الملحمية.

وعلى أي حال فإن مثل هذه الأحداث تعطى الحق للأصوات القلقة التي بدأت ترتفع في الغرب: من الترجمة اللاتينية للـ *Pseudo-Metodio* التي أعدت في الدير البنيديكتي في سان جيرمان إلى ملاحظات بيدا الفينيرابيلي الذي كان يذكر بقلق تقدم السراسنة وكان يذكر العمل الحربى في بواتييه وهو يراجع كتابه *Historia*

ecclesiastica gentis Anglorum في عام ٧٣٥ – وكان قد أصبح قريبا من نهاية حياته. وتعد المصادر الأنجلوسكسونية مرصدا معقولا يجعلنا ندرك أنه ربما كانت تعرف عن الإسلام أمورا أكثر مما كان يعتقد، حتى وإن كان ذلك بصورة غير مستمرة ومجزأة : فقد علمنا على سبيل المثال، من مجلسين كنسيين عقدا في تلك المنطقة في عام ٧٨٦، أن الناس عرفوا بصورة ما تقاليد رمضان، ربما من خلال معلومات من المبعوثين البابويين والأخبار التي وصلت من الرهبان البنديكتيين المنتشرين جدا في الجزيرة.

وفى نفس الوقت، عرف تاريخ الإسلام الذي امتد لقرون طويلة، كما نعلم، فترات قصيرة ولحظات محدودة من الوحدة الفعلية : بخلاف ما سيعتقد الناس خلال العصور الوسطى، عندما كان الناس يميلون إلى يَلْمحوا في بنائه وحدة مشابهة لتلك التي لم تكن حتى موجودة بين المسيحيين، على الرغم من أنهم كانوا يقولون بالإجماع إنه لابد أن تكون فيه هذه الوحدة. وبالنسبة لنا، وقد استعدنا على البعد التصور الشامل المطلوب للأشياء، يبدو مع ذلك أن هذا الحكم المسبق للأوربيين في العصور الوسطى له ما يبرره تقريبا – حتى وإن كان ذلك لمجرد المصادفة –، عندما ننظر إلى تاريخ التوسع الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثامن في منطقة تصل من المغرب الأقصى إلى الحدود مع الصين وتمتد من الأناضول حتى القرن الأفريقي. وفى عام ٧١٧ وجد العرب أنفسهم مرة أخرى – كما حدث قبل ذلك بأربعين عاما تقريبا – تحت أسوار القسطنطينية، عندما كان الذي يقودهم هو **مسلمة**، شقيق الخليفة الأموي ؛ وكان الملك البيزنطي ليوني الثالث قد صدهم بصعوبة بفضل استخدام "النيران اليونانية" أيضا. وفى نفس الوقت، في الخمس عشرة سنة الأولى من القرن الثامن، كان حاكم ماوراء النهرين **الحجاج** يخضع خوارزم، ويمر بأكسوس (اليوم أمو داريا)، ويحتل بخارى وسمرقند ويصل إلى بلوشستان : كانت الإمبراطورية الفارسية القوية، التي أحبطت الرومان والبيزنطيين لقرون طويلة ،قد ذابت مثل الجليد تحت الشمس. ورسمت معركة طلاس في عام ٧٥١ الحدود بين التوسع الإسلامي والتوسع الصيني لعائلة تانج عن طريق اقتسام المنطقة الألطائية.

ولكن هذا الانطلاق كان يبدو أنه توقف في كل مكان عند منتصف القرن تقريبا. وبفضل الجهد الذي لا يكل لليوني الثالث، بدا أن البيزنطيين قد استطاعوا السيطرة على الضغط الإسلامي واحتواءه في آسيا الصغرى ؛ وتوقف الاندفاع شرقا عند الحدود مع الإمبراطورية الصينية ؛ والعرب البرابرة أنفسهم الذين كانوا قد فتحوا شبه الجزيرة الإيبيرية (والذين انضم إليهم الكثير من المسيحيين المحليين

الذين اعتنقوا الإسلام) رأوا نفاد قوتهم الدافعة. وفى ٧٣٢ أو ٧٣٣، على الطريق بين بواتييه وتور، كان كل ما كان يريده القائد المسلم عبد الرحمن (ويجب أن ننتبه إلى أنه لم يكن قليلا)، هو نهب الضريح القومي للفرنجة، سان مارتينو: وربما لم يكن في نيته التقدم لأكثر من ذلك، ولا كانت لديه القوات للقيام بذلك. وقد تم إيقافه على أي حال كما رأينا. وبعد بضع سنوات، في عام ٧٥٩، كان الفرنجة بقيادة بيبينو البريفى – ابن المنتصر في بواتييه – يطرد الكفار من ناربونا ويتعقبهم حتى جبال البرانس. وكان أيضا صدى الحروب بين الفرنجة والمسلمين في هذه الفترة، إلى جانب معركة رونشيسفال في عام ٧٧٨ التي احتفل بها كثيرا والأحداث التالية مباشرة، هي التي قدمت مادة للأناشيد الملحمية التي ستكتسب شهرة مع ذلك وستسجل بالكتابة بعد ذلك بثلاثة قرون تقريبا. وعلى أي حال انجذب الفرنجة في اوسترازيا إلى أكويتانيا، بعد بواتييه : وربما رسم هذا نهاية لعملية بدأت بالفعل، وكانت ستؤدي بإقليم أكويتانيا لأن يحصل على هوية أقوى "كمنطقة عازلة" نشطة بين الفرنجة والمسلمين.

ومن الصعب أن نقول إلى أي مدى أثر تغيير الخلافة بين الأمويين والعباسيين، في عام ٧٥٠، على الأزمة وتوقف هذه الموجة الأولى من التوسع الإسلامي. وبالطبع كان للحزب الموالى للخلفاء الدمشقيين المعزولين اليد الطولي في شبه الجزيرة الأيبيرية، ولكن ليس بلا مواجهة عنيفة مع أنصار العائلة الجديدة: فلم تكن حياة إمارة قرطبة، ذات الصبغة الشرعية الرسمية، سهلة في البلاد. وكان تفتت الإسلام أيضا إلى شيع وطوائف، وظهور خلافات جديدة، وهجوم "الطوائف" الشيعية – الإسماعيلية والقمع العباسي الوحشي، كانت في النهاية من عوامل تفكك البناء الإسلامي وظهور تلك الأزمة وتوقف ذلك التوسع.

شارلمان بين الأندلس وبغداد

كان كارلو ملك الفرنجة، ابن بيبينو، موجودا في عام ٧٧٧ على الأرض السكسونية، في بادربورن، في أوج الحملة العسكرية. وتقدم منه سليمان بن العربي، الوالي المسلم في برشلونة وجيرونا وسرقسطه : وكان قد عبر كل المملكة الفرنجية – ولا نعلم للأسف بأي مسار، ولا حتى بأي متاعب – ليطلب مساعدة جاره المسيحي القوى ضد طغيان أمير قرطبة : وكان يعد بولاء العديد من المراكز جنوب جبال البرانس، بداية من مدنه المزدهرة نفسها. كانت أسبانيا

المسلمة – كما يؤكد سليمان – قد أصبحت مقسمة بلا رجعة : وكانت تكفي جهود قليلة لفتحها. وعلى الرغم من المراجعة السياسية والملحمية اللاحقة لكل هذه الأحداث، التي ستغطيها بطبقة دينية كثيفة، فلا يبدو أن أي حكم مسبق قد ظهر من أي من الطرفين المتعاقدين بشأن اختلاف الدين أو أن المسلمين أعداء أمير قرطبة سيضطرون للقتال إلى جانب المسيحيين ضد إخوانهم في الدين.

وفى عيد الفصح في عام ٧٧٨ تحرك جيش الحملة الفرنجية – بمباركة البابا أدريانو الأول – نحو أسبانيا. وكان يبدو أن كل شيء يبدو كما هو متوقع، وأثبت المسلمون من خصوم الأمير القرطبي أدلة جيدة على وفائهم بوعدهم : وهزم الوالي قوات الأمير، وانضم إليه زملاء آخرون. ولكن عندما قرر الفرنجة التمركز في سرقسطه ليجعلوا منها مركزا لحملة قادمة على طول مجرى نهر إيرو، تمردت المدينة على ما يبدو ضدهم وضد حاكمهم نفسه ؛ أو ربما يكون هذا الأخير قد قام بتحول مفاجئ، لتخوفه من التطورات التالية للكفار أو لعدم ثقته في أن شعبه سيتبعه في مواصلة التمرد ضد الأمير. وتعد أحداث هذه الفترة الزمنية غير واضحة تماما: والحقيقة هي أن كارلو لم يبق أمامه، بعد انحسار التمرد على الأمير، سوى أن يسلك طريق العودة بعد أن سوى بالأرض – جزئيا على الأقل – أسوار سرقسطه، على سبيل الانتقام. وفى أثناء الانسحاب حدثت (في ١٥ أغسطس، طبقا للتقليد المقبول) واقعة مذبحة الحرس الخلفي الفرنجي في مداخل حصون رونشيسفال على أيدي سكان الجبال الباسك المتوحشين وسوف ينقل التصوير الشعري هذا الحدث الحربي المتواضع – الذي تحول إلى صدام مع المسلمين في أسبانيا – إلى الخيال الملحمي المسيحي عبر القرون.

ولم يحاول الأمير عبد الرحمن الأول على الفور القيام بأي عملية انتقامية ضد الغازي وراء جبال البرانس. ولكن ابنه هشام (٧٨٨–٧٩٦) بدأ في عام ٧٩٣ هجوما عنيفا ضد ستيمانيا الفرنكية التي كان يحكمها في تلك اللحظة ابن عم الملك، الدوق جوليلمو. وانقضت الموجة الإسلامية مرة أخرى على ناربونا، التي لم يتم غزوها مع ذلك ؛ ثم اتجهت صوب ساركاسون. وعلى الرغم من الخسائر فإن الحملة التي كان يقودها الحكم ابن الأمير، كانت ناجحة : ويبدو أنهم مولوا جزئيا أعمال بناء المسجد الكبير في قرطبة بالغنيمة التي كانت ثمرة الغارة. وكان استثمارا جميلا. وفى نفس الوقت كانت تنطلق من سواحل الأندلس ومن سواحل المغرب الغارات الأولى البحرية السراسينية ضد جزر الباليارى، التي توجه أهلها إلى الإمبراطور الفرنكى للحصول على المساعدة.

وفي أعقاب هذه الأحداث بدأ شارلمان حملة ستؤدي إلى تكوين *Marca di Spagna* : وكان الدوق جوليلمو هو بطل العملية الجديدة، التي أدت في عام ٨٠١ إلى الغزو المسيحي لبرشلونة على الرغم من أنها لم تستطع الوصول إلى حدود نهر إيرو والتمركز بصورة مستقرة في المدينة الواقعة عند مصب ذلك النهر، تورتوزا. بل إنه تحددت منطقة عازلة بين برشلونة وتورتوزا ستزال فقط في القرن الثاني عشر بفضل التقدم الأراجوني الجديد. وفي نفس الوقت فإن شارلمان، الذي كان البابا قد توجه إمبراطورا – ولابد أن الاتصالات الدبلوماسية مع ولاة برشلونة ومع إمبراطورة بيزنطة، الملكة إيريني، قد علمته أشياء كثيرة عن اتساع وتعقد العالم أكثر مما كان يمكن أن يتعلمه من المحادثات الثقافية مع أكوينو دي يورك وباولينو داكويليا – كان ينظر حوله بحثا عن أطراف جدد يستطيعون مساعدته بصورة مباشرة في السيطرة بصورة أفضل على علاقاته مع أسبانيا. وقد عثر بالفعل على أطراف ممتازة.

وفي نفس الوقت، كان هناك من سبقه لذلك على نطاق واسع. وإذا كانت ملكية شارلمان – وريثة الملكية الميروفنجية* والمتحالفة مع البابوية والمرتبطة بالتالي بالآفاق الجغرافية الثقافية للاثنتين – لديها فكرة محدودة إلى حد ما عن القوى في الميدان في العالم الأوربي– الآسيوي–البحر أوسطي في القرن الثامن، فإن البانوراما كانت تسيطر عليها مراصد أخرى تماما. على سبيل المثال من القسطنطينية ومن بغداد، الحريصتين تماما على أن تراقب كل منهما الأخرى بالتبادل وأن تلتقط سواء الحلفاء المحتملين أو "الأصدقاء الأعداء" وبالتالي الخصوم الفعليين، على رقعة القوى الموجودة. وفي بلاط الخليفة الذي تولى الحكم منذ قليل في العاصمة الجديدة لبلاد ما وراء النهرين – الواقعة على بعد بضعة أميال من مدينة *Ctesifonte* – التي تأسست في عام ٧٦٢، وأطلق عليها في البداية الاسم الافتتاحي العربي مدينة السلام، ربما كانت هناك بوادر قوية لعدم الاكتراث بالحضارات المختلفة عن الحضارة الإسلامية وهي خاصية للثقافة التي خرجت من الثورة الدينية لمحمد (صلعم) والتي ستصبح على المدى الطويل أحد مكونات أزمتها الحديثة ؛ وفي نفس الوقت، كان الناس ينظرون إلى بيزنطة، والهند والصين دون أن يعبأوا كثيرا – وفي تلك الفترة لم يكونوا مخطئين في ذلك – بأولئك البربر في أقصى الشمال الغربي الذين كان يبدو أنهم غير جديرين بالاعتبار. ومع ذلك، سرعان ما تبين أنه كان لابد أن يؤخذ في الاعتبار أنه كان بوسعهم خلق بعض المشكلات سواء للأمويين القرطبيين الذين كانوا يعاندون في

* ميروفنجي أي له علاقة بالأسرة الفرنكية (الفرنجية) الأولى التي تولت الحكم في بلاد الغال وألمانيا من حوالي ٥٠٠ إلى ٧٥١ ب. م. (المترجم) .

الاعتراف بسلطة الخلافة الجديدة، أو بإمبراطورية الروم، وهو ما نسميه نحن بيزنطة.

وقد كان هناك بالفعل بين عامي ٧٦٥ و٧٦٨ تبادل للسفراء بين العباسي أبي جعفر المنصور (٧٥٤-٧٧٥) وبيبينو. وكان هناك سببان لدى ابن هذا الأخير لإعادة العلاقات مع الخليفة الجديد، هارون الرشيد العظيم (٧٨٦-٨٠٩)، ملك **ألف ليلة وليلة**. قبل كل شيء، كان هناك الموقف الأيبيري، حيث كان الصدام مستوطنا بين أمراء قرطبة الذين كانوا لا يزالون مرتبطين بالعائلة الأموية القديمة (أو الذين كانوا يتذرعون بهذه الذريعة من أجل سياسة ما ومن أجل الاحتفاظ بالمكانة الدينية الخاصة بهم) والولاة الذين كانوا يفضلون النظر إلى "أمير المؤمنين" المقيم في بلاد ما وراء النهرين البعيدة (أو الذين كانوا يعتبرون ولاءهم ذريعة مريحة لعدم الخضوع للعائلة الأموية المزروعة في الأندلس) ؛ وفى ٧٩٩ كان الحاكم الساراسينى هويسكا قد بعث إلى كارلو في أكويسجرانا هدايا قيمة والوعد بأن المدينة ستعطى له، إن هو بدأ حملة جديدة وراء جبال البرانس. وبعد ذلك، كانت هناك مدينة القدس التي يسيطر عليها العباسيون وكانت مقصدا لعدد متزايد من الحجاج الغربيين : وكان الملك الفرنكي قد استقبل بعثة من بطريرك القدس الذي بادله الزيارة وحصل منها على بركات ورفات مقدسة، رغبة منه في الدخول بصورة ما في الحوار بين رجال الدين والأضرحة في المدينة المقدسة والمسيحية، وهو حوار لم يكن ينوى أن يتركه لاحتكار الملوك البيزنطيين. وتتحدث الـ *Annales regni Francorum* عن "تسليم مفاتيح" كنيسة القيامة مع كنائس الجمجمة وقبر السيد المسيح، وربما مع المبالغة في بعض تعبيرات الحفاوة الدبلوماسية.

وفى نفس الوقت، كان كارلو قد أرسل سفارة في عام ٧٩٧ أيضا إلى الخليفة، بعد أربع سنوات بالكاد من غارة الحكم، بينما كان يقوم بتنظيم الـ *Marca di Spagna* : وكانت السفارة مكونة من العلمانيين لانتفريدو وسيجيسموندو واليهودى إيزاك. وطبقا لنص ورد من دير رايخناو، والـ *Miracula sancti Genesi* سيقومان برحلة الذهاب معا برفقة اثنين من رجال الكنيسة المرسلين من جبهارد كونت تريفيزو في مهمة للحصول على رفات القديسين جينيزيو وأويجينيو.

وفى يونيو من عام ٨٠١، تلقى الإمبراطور، الذي كان يقيم في تلك اللحظة في بافيا وكان قبل ذلك بشهرين قد صرف مبعوثي أسقف القدس، تلقى خبرا بأن سفراء الخليفة كانوا قد رسوا في ميناء بيزا : وكان هذا هو الرد على رسالته قبل

ذلك بأربع سنوات. وقد كان أحدهما بالفعل ممثلا للخليفة والآخر مبعوثا لأمير العباسية (وهى اليوم الفسطاط في تونس)، وأعلناه بأن الشخص الوحيد الباقي على قيد الحياة من السفراء الثلاثة الذين أرسلهم إلى بلاط بغداد في ٧٩٧، وهو اليهودي إيزاك، كان عائدا إلى أوربا بهدايا أمير المؤمنين : ولكنه اضطر للتوقف على الساحل الأفريقي حيث كانت إحداها كبيرة جدا.

وقد أرسلت في نفس الوقت فرقة من السفن الفرنكية لأخذ إيزاك، الذي استطاع في أكتوبر التالي النزول في بورتوفينيرى وهو يحمل معه، مع أشياء أخرى، هدية كان الإمبراطور ينتظرها بقلق : الفيل أبو العباس. ولكن لم يكن مناسبا بالطبع إجبار الحيوان الكبير على مواجهة رحلة على جبال الألب في الشتاء، حيث كان كارلو قد عاد في نفس الوقت لمدينته أكويسجرانا. وبالتالي فقد أجبر على الانتظار حتى يوليو ٨٠٢ قبل أن يتمكن من مقابلة ذلك الحيوان الذي تتحدث عنه كثيرا القصص الرومانية ولكن لم يكن أحد يرى نماذج منه في الغرب منذ قرون طويلة. وللأسف لم يحتمل أبو العباس طويلا مناخ الراين القاسي بالنسبة له وهو القادم من الهند الدافئة (وكانت تستورد من هناك بالفعل الأفيال المستأنسة إلى فارس). وقد مات بصورة محزنة في يونيو ٨١٠، مصحوبا بألم الملك الفرنجي الذي أحبه وفضول الناس الذين كانوا يتوقعون رؤية عظامه وهى تتحول إلى عاج، طبقا للأسطورة.

ومن المحتمل على أي حال، بصرف النظر عن الفيل، أن يكون هارون الرشيد قد قدم لكارلو بعض المزايا حتى وإن كانت شرفية فقط بشأن قبر السيد المسيح في القدس (وهو ما كان واضحا أنه حركة تهدف لتقليص السلطة التقليدية التي كان الملك البيزنطي يحتفظ بها على الأماكن المسيحية المقدسة) ؛ وأن المسالة التي بحثها الاثنان بصورة ما كانت هي المسألة الأسبانية، ولكن المصادر العربية تصمت هنا. والأقل احتمالا هو أن يكونا قد تحدثا أيضا في الشئون الاقتصادية : ولم تكن الـ *pallia fresonica* المرسلة كهدية إلى كارلو من هارون، وهى أقمشة جيدة من الصوف، مبهرة ببريقها في بلاط بغداد ؛ ولا يبدو أن الكثير من البضائع والعملات الإسلامية التي أشار إليها كاتب الوقائع تيودولفو دورليانز في ٨١٢ في بلاد الغال الجنوبية، حيث كان ينشط ميناء مرسيليا الكبير، لا يبدو أنها يمكن أن تشهد على أي حال على العلاقات الوثيقة بصورة خاصة مع الشرق (لأن السلع الإسلامية التي كان يمكن العثور عليها هناك كان لابد أن تكون كلها أيضا من مصدر أيبيري أو شمال أفريقي). وقد استقبل كارلو على أي حال، في عام ٨٠٧ سفارة أخرى من الخليفة ؛ واستقبل في نفس العام مفوضية من بطريرك القدس.

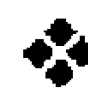
وقد استسلم الأمير الأموي **الحكم** (٧٩٦-٨٢٢) لقبول حقيقة أن الحـدود مـع مملكة الفرنكيين تصل حتى نهر إيرو، نظرا لقلقه من العلاقات الدبلوماسـية بـين أكويسجرانا وبغداد والانتفاضات المتتالية داخل مملكته، والتي كانـت أيـضا قـد مست قرطبة وطليطلة. وقد نجمت عن ذلك سلسلة من المعاهـدات بينـه وبـين كارلو، في عامي ٨١٠-٨١٢. ولكن الانتفاضات فـي أسـبانيا المـسلمة كانـت تتواصل : وأمكن السيطرة على انتفاضة قرطبة في ٨١٤ فقط بقمع دمـوي مـن جانب حرس الأمير، وهم الجنود العبيد الذين يسمون بالمماليك (وكلمـة مملـوك تعنى عبدا في العربية). ولم تتحسن الأمور مع الخليفة التالي عبد الرحمن الثـاني (٨٢٢-٨٥٢)، الذي تعين عليه مواجهة تمرد ميريدا وطليطلة وحاول عبثا إعـادة غزو برشلونة : وهى حركة خرقاء كان من أثرها أيضا تدعيم الهويـة الكتلانيـة الوليدة – وذلك بفضل الرد السريع لدوق ستيمانيا، برناردو.

وقد تكاثفت سحب جديدة عند أفق البحر المتوسط. ، وبالتـالي عنـد الأفـق الأوربي الجنوبي أيضا. وتعتبر الغارات النورمانديـة التـي هاجمـت ودمـرت السواحل الأوربية في ذلك القرن وفى السنوات الأولى من القرن التـالي – مـع الغارات البحرية للسراسنة وغارات الهنغاريين البرية – من بين العوامل الحاسمة لأزمة تلك الفترة، التي تميزت أيضا بتفتت السلطة في المناطق التـي تعرضـت لتجربة شارلمان والصراعات بين ممالك ما يسمى بالـ*"eptarchia"* فـي انجلتـرا والكساد الاجتماعي والاقتصادي. ولكننا عندما نستعيد هذه الصورة في الأذهـان، يجب أن نضع في الاعتبار أن الإسلام كان يمر بدوره بمرحلة نشطة جـدا. فقـد فقدت القاعدة الهائلة للخلافة في بغداد بالتدريج السيطرة على أقاليم بعيـدة غنيـة، شرق سيناء وشمال شرق فارس تحديدا : فأصبح الأغالبة مستقلين في تونس فـي أوائل القرن الحادي عشر وشرعوا مع مطلع عام ٨٢٧ في حملة غـزو لـصقلية ستؤدى بهم، فيما يقرب من خمسة وسبعين عاما، لامـتلاك الجزيـرة ؛ وحقـق الطولونيون السيطرة على مصر فـي ٨٦٩ ؛ وبـين ترانسوكـسيانا Transoxiana وخوارزم وسيستان كانت هناك منطقة هائلة –واقعة بين سير داريا وبحيـرة آرال والمحيط الهندي – سيطر عليها تدريجيا الطاهرية والصفويون والسامانيون، بينما حدثت في نهاية القرن التاسع ثورة "المرتدين" القرامطة، التي بدأت في البحـرين على الساحل العربي للخليج الفارسي، وألحقت أضرارا بالتجارة من وإلى البصرة وبالتالي باقتصاد العاصمة، مما أدى إلى انتقال تدفق البضائع التي كانت متجهـة من الشرق الأقصى إلى مصر والبحر المتوسط وبيزنطة تجاه القـرن الأفريقـي والبحر الأحمر.

وفى نفس الوقت لم يرحم النورمانديين، المغيرون المتوحشون على السواحل الأوربية، سواحل الأندلس. وفى عام ٨٤٤، هاجم نانتس ما يقرب من خمسين سفينة قوية وأبحرت حول السواحل الأطلنطية لشبه الجزيرة الأيبيرية في محاولة لنهب لشبونة، وظهرت عند مصب نهر *Guadalquivir*؛ ومن هناك اتجهت مجموعة من السفن إلى قادش بينما كان معظم الأسطول يبحر حتى أشبيليه وقام بغزوها وإخضاعها لنهب رهيب وانسحب تحت ضغط المسلمين الأيبيريين، الذين استطاعوا الرد مع ذلك بصورة مناسبة، وهزموا المهاجمين وأجبروهم على العودة لركوب سفنهم في هرولة. وربما ذهب عدد كبير من الأسرى، في تلك المناسبة، لكي يزيد بمرور الزمن الفريق الكبير من الأسبان المسلمين من ذوى الشعر الأشقر والعيون الزرقاء، وهم ورثة الونداليين والقوطيين، الذين سيضاف إليهم مع الزمن العديد من العبيد القادمين من العالم السلافى (وكلمة *"slavo"* بالذات تشهد على ذلك).

وقد دفع الهجوم النورماندى في ٨٤٤-٨٤٥ الأمير الأموي لبناء الرباط، وهى سلسلة من القلاع الساحلية لا تختلف كثيرا عن "الأبراج السراسينية" القديمة والمجيدة التي تنتشر على السواحل الأوربية حتى بحر إيجه وكانت قلاع الرباط يعهد بالعناية بها للمتطوعين، المرابطين، الذين استقروا فيها للقيام بمهام الجهاد والحياة فيها للصلاة في نفس الوقت. وبفضلهم، أصبح النورمانديون بعيدين عن الأندلس منذ ذلك الوقت : على الرغم من أنهم نجحوا في عام ٨٥٩ في حرق مسجد *Algeciras*، في حين أوقع الدانمركيون بالعرب الأيبيريين هزيمة أخرى مدوية، بعد ذلك بأكثر من قرن، في عام ٩٦٦، بقيادة هارالد بلاتاند *("Dentazzurro")*.

ولم يكن المسلمون بالتالي الأبطال الوحيدين على الإطلاق في الغارات على طول السواحل الجنوبية الأوربية وفى جزر البحر المتوسط التي ميزت القرنين الأخيرين من العصور الوسطى المبكرة، وهى من أصعب القرون في تاريخ أوربا: بل إنهم كانوا أحيانا الضحايا كما رأينا. ولكن من المؤكد أن الأوربيين الغربيين اعتبروا الهاجريين المسئولين الأوائل وربما المباشرين عن هذه الغارات؛ بل إن ذكرى الهجمات في البحر المتوسط والحروب في شبه الجزيرة الأيبيرية ستتضخم وستعبرها وتتقلها التقاليد البطولية وستعتبر بحق أو بدون حق "التحدي" الذي ستكلف الحملات الصليبية بتقديم "رد" عليه.



٢

بين ألفيتين

خلاف على البحار والجزر والسواحل

في الحقيقة لم تهدأ أبدا المجادلات التي أثارها الرأي الشهير لهنري بيرن بشأن كسر وحدة البحر المتوسط التي ترجع للظهور السريع للإسلام وبالتالي لانكماش أوربا الغربية على نفسها، وتحولها للزراعة، في بداية "العصور الوسطى" : وهو ما يجب أن يقع بالتالي ليس منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، ولكن منذ النصف الثاني من القرن السابع. وما يبدو اليوم واضحا على أي حال هو أن أزمة اقتصادية وتجارية كانت جارية حتى قبل القرن السابع، وأن انحدارا شديدا ترك أثره على عمليات التجارة ومستويات المعيشة خاصة غرب البحر المتوسط بين القرنين السادس والسابع والقرنين التاسع والعاشر : ولكن هذه أو تلك كانت متأثرة بعملية بطيئة وراجعة لسلسلة من الأسباب المجتمعة، وليس من المقبول في نفس الوقت إرجاعهما لمجرد تأثير الضغط الذي تمارسه البحرية السراسينية. وقد تأكدت نظرية بيرن في نواتها، ولكنها كذبت في أصلها. وكان للنشاط القرصاني للمسلمين على أي حال وزن هائل وحاسم في بعض الحالات، في إحداث الأزمة وفى الآثار الاجتماعية والاقتصادية والعقلية والثقافية التي ترتب عليها: انحسار شديد للأنشطة البحرية، وتضاؤل أو حتى اختفاء الموانئ والمراكز الساحلية المسيحية، وانتشار الفقر، وانكماش وندرة الاقتصاد النقدي، وشيوع القلق والخوف المنتشرين.

وقد بدأت إذن من سواحل أسبانيا وأفريقيا التي دخلت الإسلام الغارات ضد الجزر والسواحل المسيحية في البحر المتوسط الغربي. ومنذ القرن الثامن كانت الغارات تضرب ليس فقط الجزر اليونانية، ولكن أيضا صقلية وسردينيا، وقد أدت إلى تدمير المراكز الاستيطانية الساحلية وهروب السكان إلى مركز الجزيرة الذي يتعذر الوصول إليه والأكثر أمنا. وعادة ما كان هدف المغيرين هو النهب

السريع، ونقل أناس من الشباب في الغالب لتغذية تجارة العبيد، وفرض ضـــرائب وإتاوات من حين لآخر ونادرا ما كانت تتمخض الغـــارة عـــن غـــرس "عـــش" قرصاني يمكن أن نعتبره مستعمرة تجارية-عسكرية صغيرة.

ونحن نعلم أن جزر الباليارى كانت قد تعرضت للاجتياح، حتـــى وإن كـــان غزوها النهائي من جانب زعيم إسلامي أيبيرى سيتم فقط فـــي عـــام ٩٠٢. وقـــد رسمت بداية احتلال صقلية على أيدى الأمير الأغلبى زياد الله الأول، فـــي عـــام ٨٢٧، نقطة الانطلاق الحقيقية لما يقرب من قرنين من التفوق السراسينى في كل الرقعة الشاسعة من المياه بين شبه الجزيرة الأيبيرية وشـــبه الجزيـــرة الإيطاليـــة والمغرب. وواجه البيزنطيون بشجاعة على أي حال التقدم الإسلامي في الجزيرة، وخاصة في المنطقة الشرقية : وفى بدايات القرن العاشر فقـــط أمكـــن اعتبـــاره مكتملا. وكان الاستيلاء على كريت في ٨٢٧ وعلى مالطا في ٨٧٠ قد انتزع من بيزنطة القواعد التي كانت تسمح لها بالتدخل بفعالية في البحر المتوسط الغربـــي : ومنذ ذلك الحين تركت صقلية وسردينيا لتواجها مصيرهما.

تحدث الكثيرون في كثير من الأحيان في الماضي، عن الغارات والمستوطنات أو محاولات الاستيطان السراسينية كنتيجة لرغبة توسعية مستقلة، تكمن وراءهـــا خيارات محددة. لم يكن يحدث دائما هكذا. على العكس، فقد كان السراسنة يدخلون في معظم الأحيان في خلافات محلية ليقفوا في البداية مع هذا الفريق أو ذاك مـــن المتخاصمين : بل لم يكن نادرا أن يستدعيهم هؤلاء بالذات. فعلى سبيل المثال كان السراسنة الذين قاموا بغزو صقلية، بل استولوا منذ قليل على بـــاليرمو، مـــدعوين من حكام مدينة نابولي في مناسبات عديـــدة لمـــساعدتهم ضـــد اللونجوبـــارديين والبيزنطيين. وكانوا في غاية المهارة في اســـتغلال الفوضـــى وضـــعف القـــوى المختلفة التي كانت تتصارع في إيطاليا الجنوبية، ووضع السراسنة أنفـــسهم دون مواربة في خدمة هذا تارة وذاك تارة أخرى وكانوا يفعلون ذلك في الواقع كسادة.

وفى وقت متأخر جدا، أدركت مدن كامبانيا، التي كانت قد اعتقدت أنها يمكنها الاستعانة دون عقاب بالعرب البرابرة، الخطأ الذي ارتكبته. وبالتالي فقد اتحـــدت مع الأمراء اللونجوبارديين لطلب المساعدة من جديد من الإمبراطـــور الرومـــانى الجرمانى لوتاريو (٨٤٠-٨٥٥) : الذي لم يكن سيتحرك مع ذلك لو أن السراسنة الذين كانوا يحتلون شبه الجزيرة لم يشعروا بالأمان لدرجة دفعتهم في عـــام ٨٤٦ حتى أوستيا، وصعود نهر التيبر والانهماك في نهب كنيسة القديس بطرس.

كان الموقف قد وصل إلى ذروته. فقد نزل لودوفيكو، ابن الإمبراطور لوتاريو إلى شبه الجزيرة بجيش مؤلف من الفرنجة والبورجونديين والبروفنساليين، الذين انضم إليهم البابا سيرجو الثاني (٨٤٤-٨٤٧)، ودوق فينسيا ودوقا سبوليتو ونابولي. ولكن أمير بنيفينتو كان في نفس الوقت قد استأجر المرتزقة المسلمين الذين كانوا يتحركون الآن بحرية وكانوا قد انهمكوا في الإغارة والنهب لكل ما حولهم، مندفعين حتى أراضي دير مونتي كاسينو.

ولكن أديلكي، أمير بنيفينتو لم يتنازل عن الاستعانة بهؤلاء المرتزقة على الرغم من عدم انضباطهم. وبالتالي فقد أجبر أهالي باري، الذين ظلوا على وفائهم له، على قبول حماية الزعيم البربري *خلفون*، الذي ربما كان قادما من صقلية عن طريق تارانتو : وكمكافأة سمح له بنهب وحرق المباني المقدسة، وذهب البربري إلى أبعد من ذلك حتى أنه قام عمليا بتسوية مدينة كابوا بالأرض، وأعيد بناؤها فيما بعد. وفي ٨٤٨، كان **خلفون** في النهاية سيدا على عاصمة بوليا الجميلة. وتمكن الأمير لودوفيكو، الذي وصل إلى جنوب إيطاليا آنذاك بالذات، من تحرير بنيفينتو فقط من المرتزقة الذين كانوا يسيطرون عليها وإقرار السلام بين الأمراء اللونجوبارديين المتخاصمين وقام بدور الضامن لتقسيم أراضي بنيفينتو إلى إمارتي بنيفينتو وساليرنو ومقاطعة كابوا.

لم يكن هذا حلا مشرفا : وعلى أي حال، لم يكن البابا ليوني الرابع (٨٤٧-٨٥٥) هادئا ولا راضيا بذلك، وكان يقوم بإحاطة منطقة سان بيترو بالأسوار محولا إياها إلى قلعة حتى لا يتكرر التدنيس الذي وقع في عام ٨٤٦. وتحت رعايته هزم أسطول جمعه أهل كامبانيا السراسنة في عام ٨٤٩ في عرض البحر أمام سواحل أوستيا. وتحرك لودوفيكو من جديد ضد باري، وكان قد تلقى بدوره في نفس الوقت التاج الإمبراطوري كحاكم مشارك واندفع للعملية بعد توسلات رهبان مونتي كاسينو وسان فينتشنتسو ألفولتورنو : ولكن الأمراء اللونجوبارديين ساندوه بكسل شديد ونفاق كثير مما دفعه للانسحاب مستاء ودون أن يحقق شيئا. واستمر يحكم باري أمير كان يستقطع ممتلكات أديرة مونتي كاسينو وسان فينتشنتسو وكان يتحرك بمهارة بين القوى المحلية، دون أن يهمل مع ذلك منح التصاريح بسخاء للحجاج الأوربيين الذين كانوا يمرون بمدينته في محاولة لركوب البحر نحو الأرض المقدسة مع التعامل بكثير من الود مع الجالية اليهودية المزدهرة والمثقفة في أوربا.

لم يكن الإمبراطور لودوفيكو الثاني على أي حال قد ابتلع هزيمة بوليا. وبمجرد أن بقي في الحكم بمفرده حاول بالتالي إعادة غزوها، بتشجيع من راهب

مونتي كاسينو وكذلك من السادة اللونجوبارديين في بنيفينتو وكابوا (ولكن ليس من حاكم ساليرنو الذي كان على خلاف معهم). وبقي مشروع العملية الجديدة، الذي عهد به لـ *Constitutio* عام ٨٦٥ وكان ينص على تركيز قوات في لوتشيرا في مارس التالي. ولكن الأمر تطلب أيضا عاما حتى يتغلب الإمبراطور على الارتياب ويحبط الألاعيب المزدوجة والثلاثية لرعيته اللونجوبارديين والكامبانيين الخائنين. وقد انتهت الحملة التي بدأت في عام ٨٦٧ بعد أحداث معقدة بعد ذلك بأربع سنوات، في عام ٨٧١. واستفاد الإمبراطور أيضا من قوات الفرنجة التي أرسلت إليه من شقيقه لوتاريو الثاني (ولكنها أصيبت بوباء الطاعون)، ومساندة أسطول بيزنطى وآخر من فينيسيا مع تعزيزات كرواتية ودالماتية وكذلك من تحالف أمير بنيفينتو أديلكى وأهل جايتا (وليس أهل نابولي، الذين كانوا يقدمون ميناءهم على العكس من ذلك لأساطيل السراسنة)، واستطاع في النهاية التغلب على آخر أمراء بارى، **صدوان**، الذي حارب كالأسد – وتمكن أيضا من نهب ضريح كبير الملائكة ميكيلى على نهر الجارجانو، في إحدى الغارات – واستطاع الانسحاب إلى بنيفينتو في سجن مذهب لدى صديقه تقريبا، الأمير أديلكى.

هل كانت شهامة الإمبراطور إزاء الأمير خطأ؟ بالطبع، فقد أعيد غزو بارى وكان المجد الذي حققه من العملية كبيرا حقا. ولكن الإمبراطورية البيزنطية التي خرجت بدورها في نفس الوقت من أزمة طويلة، كانت تعيد تنظيم نفسها بفضل العمل النشط والجريء لبازيليو الأول (٨٦٧–٨٨٦)، مؤسس العائلة المقدونية : الذي شجع بأسطوله كثيرا على انتصار "ملك الألمان" لودوفيكو – وكان يتحاشى تماما اعتباره زميلا في الدرجة الإمبراطورية –، ولكن لم تكن لديه أية نية للسماح له بتأكيد سلطته على إيطاليا الجنوبية التي كان ملوك البيزنطيين في القسطنطينية يعتبرونها أرضهم، منذ أيام غزو شبه الجزيرة من قبل جوستينيانو، وكانت غنية بالعديد من المدن الساحلية وكانت السيطرة عليها تعنى التحكم في مدخل الأدرياتيكى وكانت للثقافة اليونانية كثير من الجذور العميقة هناك. وقد حققت مكائد بازيليو الأول وصدوان الأثر المطلوب : فقد أدت ثورة اللونجوبارديين في بنيفينتو إلى أسر الإمبراطور لما يقرب من شهرين، بين أغسطس وسبتمبر من عام ٨٧١، بينما كان أمير القيروان يرسل إلى بوليا بجيش غاز جديد، تبلغ قوته هذه المرة ما يقرب من ٢٠٠٠٠ من الرجال ، واجتاح بقوة كالابريا وكامبانيا. ووجد لودوفيكو الثاني الطاقة لكي يهرع من جديد إلى الجنوب الإيطالى وهزم المسلمين في عام ٨٧٣ في كابوا : ولكنه مات بعد ذلك بعامين.

وفي نفس الوقت لم يتوقف السراسنة عن العمل من قلعتهم الباقية في تارانتو، التي كانت مركزا كبيرا لتجارة العبيد. ومن هنـــاك كانــت التهديــدات تتــربص بأراضي بوليا وكامبانيا حتى الفولتورنو. ولم يعد لدى أهالي باري الآن مبرر من جانبهم للإبقاء على علاقتهم مع الإمبراطورية الجرمانية : وبالفعل توجهــوا فـــي عام ٨٧٦ إلى السلطات البيزنطية في أوترانتو وحصلوا على موافقة بأن تــصبح مدينتهم عاصمة لـــ*thema* لونجوبارديا. ونجح البيزنطيون في عام ٨٨٠ في إعادة غزو تارانتو أيضا : ولكنهم لم يكونوا يستطيعون منع المــسلمين مــن مواصــلة غاراتهم في البحر الأدرياتيكي ليصلوا حتى كوماكيو وإلى جرادو.

وكان العرب البرابرة بالفعل أبعد ما يكونون عــن الهزيمــة. وبينمــا كـــانوا يستكملون احتلال صقلية بغزو سيراكوزا في عـــام ٨٧٨ وتاورمينــا فـــي ٩٠٢، تغلغلوا في كامبانيا، وتحالفوا مع كابوا ومع ساليرنو، ووصلوا مـــن جديــد إلـــى الأراضي التي يسيطر عليها أسقف روما ليجبروه على دفع ضريبة، ودمروا أديرة سان فينتشنتسو ألفولتورنو ومونتي كاسينو، وأقاموا عند مصب الجاريليـــانو فـــي ٨٨٢ قاعدة تسمح بوضع مدينة روما أيضا في مرمى النيران : وفي عـــام ٩١٥ فقط أزيل ذلك الكابوس.

واستطاع الأمراء الكلبيون من جانبهم، بمجرد التمركز فـــي صــقلية تحــت السلطة الرسمية للخلفاء الفاطميين في القاهرة، الانهماك في الهجوم المنظم خـــلال القرن العاشر على سواحل إيطاليا الجنوبية، وخاصة ســـواحل بوليـــا وكالابريـــا. وكانت هناك رؤوس جسور تقام من وقت لآخر، كما في أجروبولي في كامبانيـــا وسانتا سيفيرينا في كالابريا – وقاومت لوقت طويل. وفي عـــام ٩٨٢ تحطمــت بالقرب من كابو كولونا محاولة الإمبراطور السكسوني أوتوني الثاني، الذي شـــن حملة جديدة نشيطة أسوة بما كان قد فعله سلفه لودوفيكو الثاني قبل ذلـــك بقـــرن. ومنذ ذلك الحين يمكن القول بأن هجوم السراسنة في إيطاليا الجنوبية لـــم يعـــرف حدا حتى موت الأمير الأكحل في عام ١٠٣٦ وما أعقب ذلك من التفتيت السياسي للإسلام الصقلي إلى غير رجعة. وبقيت سردينيا وكورسيكا حتى أوائـــل القـــرن الحادي عشر *no man's land*، وكانت موانيها كلها تحت سيطرة السراسنة.

وتعززت في نفس الوقت القواعد الساحلية المغربية، وهي نقاط أساسية لقـــوة السيادة البحرية المسلمة في البحر المتوسط الشرقي. وبـــين عـــامي ٩١٥ و٩٢٠ أسست المدينة–القلعة المهدية على شاطئ الساحل، تقريبا عنـــد مـــستوى جزيـــرة بانتيلليريا ؛ وفي عام ٩٦٠ أسس القائد البربري بولـــوجين ابـــن زيـــري مدينـــة

الجزائر ؛ وفيما بعد، أسست على الساحل بين مدينتى الجزائر وبونا، في عام ١٠٦٠، مدينة بوجا.

وعلى رقعة البحر المتوسط الشمالي الغربي تفاقمت حرب القراصنة السراسنة انطلاقا من القواعد الأسبانية ومن الجزر. وفى عام ١٨٩٠، أي في تزامن تقريبا مع تمركز السراسنة على نهر الجاريليانو، كان مسلمون آخرون قد وصلوا إلى الساحل البروفنسالى : ومن هناك نجحت مجموعة منهم في تنظيم معقل رائع في فراكسينيتوم (التي تسمى اليوم *La Garde-Freinet*)، وهى لا تبعد كثيرا عن سان تروبيه، ومن هناك لم يكونوا فقط يغيرون على السواحل – حتى مرسيليا وطولون ونيس – والمناطق المجاورة الواقعة خلف الساحل، ولكنهم نجحوا أيضا في تنظيم حملات نحو الأماكن البعيدة نسبيا. ووصلوا حتى قوس جبال الألب الغربية، حيث كانوا يهاجمون قوافل الحجاج والتجار العابرين : وفى ٩٠٦ دمروا دير نوفاليزا.

كان القراصنة القادمون من أفريقيا يجوبون في نفس الوقت المنطقة الواقعة بين خليج ليونى والبحر التيرانى : مثل أهالي المهدية الذين وصلوا إلى مهاجمة جنوا بين عامي ٩٣٤ و٩٣٥. ولكن قراصنة فراكسينيتوم، الذين كانوا قد نجحوا أيضا في إبرام اتفاقيات مع بعض الـ *domini loci*، على سبيل المثال مع أوجو دى بروفنسا، بالغوا في النهاية : ففي ٩٧٢-٩٧٣ وضعوا أيديهم – هل مصادفة؟ هل دون قصد؟ – على راهب بنديكتي بنية اختطافه والمطالبة بفدية عنه. وكان ذلك الراهب هو القديس مايولو، كبير قساوسة كلونى : وكانت هذه جرأة كبيرة أجبرت الأرستقراطية البروفنسالية على التحرك للقضاء دفعة واحدة على معقل فراكسينيتوم.

هل كان الذين قاموا بإحياء هذه المراكز السراسينية الساحلية التي غالبا ما كانت تنجح في السيطرة أيضا على مناطق شاسعة خلف الساحل مجرد قراصنة، أو حتى لصوص بحر؟ لم يكن نشاطهم يختلف عن نشاط المدن البحرية على السواحل الإيطالية، بل إن أوجه التشابه النوعية بينهم قوية جدا، على الرغم من أن الأسبقية الزمنية، بل المبادرة، كانت بلا شك من نصيب المسلمين ؛ وهو ما طرح في نفس الوقت مشكلة نهضة (أو مجرد ميلاد) قوى المدن الساحلية في أوربا الغربية المسيحية، ووضع التوسع الإسلامي بين العوامل التي أدت إليها. وليس من قبيل الصدفة أن العلاقات على البحر بين القوى المسيحية والقوى الإسلامية (أيا كان حجمها) كانت تتميز بهجمات عسكرية مفاجئة ومصادمات بحرية متعاقبة بالتناوب مع علاقة حسن جوار تجارى محدود. وربما يجب أن

نلاحظ كيف أن المبادرة انقلبت قرب بدايات القرن الحادي عشر : قبل ذلك الحين كانت مستوطنات السراسنة هي الأكثر نشاطا وديناميكية باستمرار ؛ ومنذ ذلك الحين فصاعدا ستتحول إلى المواقف الدفاعية بينما كانت المسيحية تسجل نموا وقوة في تزايد مستمر.

وكان أحد العوامل الرئيسية لنمو هذه "الجمهوريات" الصغيرة من البحارة- القراصنة- التجار المسلمين البحريين هو أسر العبيد والاتجار فيهم : وكان مميزا في هذا الشأن نمو ألميريا خلال القرن العاشر، والذي يرجع أساسا لهذا النشاط المزدهر. وكان الصقالبة، العبيد البيض، بضاعة مطلوبة بصفة خاصة : وكان يهود بيكينا القريبة يشتغلون في عملية متخصصة، وهي الخصي.

كانت الأمور في حوض البحر المتوسط الشرقي تسير سيرا مختلفا : فبفضل الهجوم المضاد الذي قام به الملوك البيزنطيون من العائلة المقدونية، عادت جزيرتا قبرص وكريت، في النصف الثاني من القرن العاشر، تحت السيطرة البيزنطية. وكانت العمليات التجارية أيضا، بعد أكثر المراحل حساسية في التوسع الإسلامي على البحر بين النصف الثاني من القرن السابع وأوائل القرن الثامن، تستعيد قوتها شيئا فشيئا : على الرغم من أن الأوربيين الغربيين لم يكونوا بالطبع أبطالها ولا أفضل زبائنها. وحول منتصف القرن التاسع كان ابن خرداذبَه، يتحدث في كتابه *Libro delle rotte e dei regni*، عن التجار القادمين من أوربا الغربية والمقيمين هناك بالطبع، ولكن لا يمكن وصفهم بالضبط على أنهم من الأوربيين الغربيين : وهم اليهود الذين كان يقال لهم "رودانيون" (أي المقيمون عند مصب نهر رودانو؟) الذين كانوا يحملون إلى الشرق بضائع غربية مثل العبيد والسلاح والفراء، وكانوا ينزلونها في موانئ دلتا نهر النيل، ومن هناك كانوا يواصلون رحلتهم بالطريق البرى على ظهر الجمال حتى البحر الأحمر وكانوا يشحنونها بالتالي إلى ميناءي الجار وجدة، ثم نحو الهند والصين. ومن تلك البلاد البعيدة كانوا يستوردون بعد ذلك المسك وخشب الصبر والكافور والحبّهان التي كانوا يوصلونها ليس فقط إلى مصر ولكن حتى القسطنطينية وإلى بلاط أوربا الغربية التي كانت، بالمقارنة، بدائية. ولكن من المهم أن التجارة وبالتالي المعرفة الجغرافية عند العرب المسلمين لا يبدو أنهما كانتا تهتمان بين القرن التاسع والعاشر تقريبا بالمرة بالبحر التيرانى شمال أمالفى وجايتا ولا بالعالم الأوربي الغربي. وكان الاتجاه المميز للثقافة الإسلامية التقليدية، الذي يكمن في تجاهل الثقافات المختلفة عنها، ظاهرا حتى السنوات الأولى للإسلام.

ولكن مناسبات الاتصال كانت موجودة بـــالطبع – إلـــى جانـــب المناســـبات العسكرية والتجارية. وفي أحيان كثيرة كان يمكن أن تكون إحدى هذه الفرص هي السجن أو العبودية، المؤقتة ربما. كما حدث ربما في نهاية القرن التاسع لـــشخص يدعى هارون بن يحيى – ولا يفهم من الاسم ما إذا كان مسيحيا أم مسلما –، قـــام رغما عنه، برحلة جميلة قادته لزيارة "مدينتي روما" واحدة تلو الأخرى : الجديدة والقديمة. وبالفعل، ألقي القبض عليه على الساحل الفلسطيني ربمـــا أثنـــاء حملـــة قرصنة : ولكن ليس من الواضح ما إذا كان الذين أسروه من القراصنة المجربين البيزنطيين أم كان ينتمي هو نفسه لطاقم من القراصنة العرب (ولا يمكن أن يكون بينهم أيضا مسيحيون) تعرض للهزيمة في هجومه على سفينة يونانية. وقد اقتيـــد عبدا إلى القسطنطينية : ومن هناك لا نعلم كيف ولا لماذا (ربما في صحبة سفارة بيزنطية)، صعد من جديد شبه الجزيرة البلقانية ووصل عبر إقلـــيم فينيتـــو إلـــى إيطاليا، التي عبرها حتى مدينة روما. وقد وصلتنا الأهوال والتجارب التي مر بها عن طريق رواية الجغرافي ابن روستا، في القرن العاشـــر. وبتطبيـــق المعـــايير الأسطورية، من النوع المماثل للأسطورة التي ربما نبعت منهـــا الـــــ *Mirabilia* – الحية في العالم البيزنطي، الذي نقلها إلى العالم الإسلامي –، يحدثنا النص الـــذي يروى هذه الأهوال عن الضفاف البرونزية التي يجرى بينها نهر التيبر والطـــائر الآلي المعجز على قمة عمود أمام القديس بطرس، والثروات اللانهائية والـــسكان الكثيرين في مدينة يتضح على العكس من ذلك أنها كانت خالية من الـــسكان إلـــى حد ما وتعانى من الكساد، بين القرنين التاسع والعاشر.

والمعلومات الأكثر واقعية هي التي قدمها لنا العراقي ابن حوقل، الذي قام في منتصف القرن العاشر تقريبا برحلة طويلة من فارس إلى أسبانيا ووصف باليرمو المسلمة، ولكنه توغل أيضا في الجزر الإيطالية والجنوب الإيطـــالي الـــذي كـــان لونجوبارديا وبيزنطيا آنذاك : وزار ساليرنو وميلفي ونابولي نفسها حيث يؤكد أنه قيّم شخصيا نوعيات التيل وهو من أفخم سلع الاستيراد في المدينة.

ومن سلع التصدير القليلة التي كان بوسع العالم "الفر نكـــي" تقـــديمها للعـــالم الإسلامي، كانت أكثر السلع المطلوبة هي الحديد : وخاصة إذا كان على شكل تلك "السيوف الفرنكية" التي كانت تضاهي في متانتها وجمالها الـــــ *gauhar* الـــصلب الأبيض اليمنى، الجميل، كما كان يقال كقماش ثمين. وهناك سلعة أخـــرى قيمـــة، كان يمكن أن تأتي من "بلاد الفرنجة" أو العالم البيزنطي عـــن طريـــق الأنهـــار الروسية والبحر الأسود إلى دار الإسلام، وهي الأخشاب. ولا يدهشنا بالفعل، لهذا السبب بالذات، أن البابا ليوني الثالث أبلغ شارلمان في عـــام ٨١٣ بـــأن بعـــض

السفراء السراسنة فضلوا القيام برحلة إلى صقلية على سفن من فينسيا، *"in naavigiis Beneticorum"*. وهذا الخبر يؤكد ليس فقط ندرة الأخشاب في العالم الإسلامي وبالتالي المصاعب التي كان على البحريات المغربية نفسها أن تصارعها، ولكن أيضا الذهاب المتكرر لأهل فينسيا إلى البلاد الإسلامية. وأسوة ببيزنطة، كان أهل فينسيا قد أصدروا لزمن طويل قوانين تقضي بأنه لا يجب الإتجار مع الإسكندرية ومصر التي غزاها المسلمون، وبصفة عامة مع أي أرض يحتلها الـ *nefandissima gens Sarracenorum*.ولكن واقعة تهريب الإنجيلي مرقص من الأسكندرية على أيدي تجار من فينسيا، في الثلث الثاني من القرن التاسع، قد يبدو أنه يريد أن يكرم ويمحو على طريقته مخالفة قاعدة لم يكن يجب أن تتبع كثيرا على أي حال، إذا كان لا يزال هناك من يؤكد في عام ٩٦٠ على خطر الإتجار بالعبيد ونقل الركاب الأجانب على سفن فينسيا وفى عام ٩٧١، كان هناك إقرار في وثيقة أخرى، بأن أهل فينسيا اعتادوا نقل الأخشاب والمعادن والأسلحة لبيعها في أسواق الإسكندرية. والحقيقة هي أن البانوراما الاقتصادية والتجارية في فينسيا ستتغير بعد ذلك بقليل كلية مع الدوق بيترو الثاني وأورسيولو (٩٩١-١٠٠٨)، غازي إيستريا ودالماتسيا، الذي ترجع إليه العودة المكثفة للعلاقات التجارية سواء مع القسطنطينية – كما نرى من الخاتم الذهبي الشهير في عام ٩٩٢ – أو مع الخليفة الفاطمي في القاهرة .و نحن نعلم القليل عن الاتفاقيات مع مصر، ولكن نظرا للصداقة القائمة منذ ذلك الحين بين فينسيا وذلك البلد على أي حال فإنها ستبقى بالفعل قوية تماما على مر القرون لتتجاوز أيضا صدمات الحركة الصليبية، وإسقاط الخلافة الفاطمية في القرن الثاني عشر، والهجوم العسكري المملوكي المفاجئ في القرن الثالث عشر.

والواقع أن ندرة المصادر المكتوبة سواء المباشرة أو غير المباشرة عن التجارة بين العالم الإسلامي والعالم "الفرنكي" كانت تتناقض جزئيا بين القرنين التاسع والعاشر (ونذكر بصفة خاصة أموال الـ Geniza في القاهرة، التي كانت أيضا في غاية الأهمية) مع العديد من الآثار التي وضعت مؤخرا تحت تصرف دارسي الآثار تحت الماء – حطام السفن والمواد الخزفية – التي تبرهن على وجود حركة كبيرة للبضائع في البحر التيراني الشمالي في تلك الفترة.

والأهمية التي كانت للتجارة العربية في البحر المتوسط نكتشفها أيضا من انتشار العملات النقدية الإسلامية، التي سرعان ما سارت جنبا إلى جنب وفى مناطق عديدة استبدلت أو حلت محل هيمنة الـ *denarius* البيزنطي، الـ*"lperperd"* الشهير أو "البيزنط". وفي نفس الوقت كان الـ *denarius* البيزنطي، أسوة بالدينار

العربي، – ونحن نعرف جيدا الظروف العربية–الصقلية – كان يزن ٤،٢٥ جراما من الذهب : ولكن الأكثر انتشارا منه كان الربع دينار الـ *ruba'i*، الذي انتشر بسرعة ليس فقط في صقلية ولكن أيضا في الجزر الإيطالية الجنوبية حيث اتخذ اسم "طري" ("طازج" : وبالتالي عملة مصكوكة لتوها) الذي سيبقى بعد ذلك تقليديا في صك العملات في تلك المنطقة حتى الأزمنة الحديثة. وكانت الأنواع الفضية ممثلة أساسا في الدرهم (وقد انتقل الاسم عن طريق الفارسية، وهو مشتق من "دراخمة") ويزن ٢,٩٠ و"الخروبة" الصغيرة التي تزن عشري جرام. وقد كانت العملات "الطرية" مطلوبة ومنتشرة جدا حتى أن أهل أمالفي وساليرنو كانوا ينتجون منها عملات مشابهة كانت تعرف جيدا مع ذلك حيث إنها كانت مميزة بنقوش مكتوبة بأحرف ما يسمى بالأحرف الكوفية الزائفة، التي تعيد إلى الأذهان الأبجدية العربية، ولكنها في الواقع بلا معنى. وفى الـ 'Rus أيضا كانت تنتشر العملة العربية :الذهبية قليلا ، وربما كانت تختزن بعناية كبيرة – بسبب الندرة المزمنة أيضا للمعادن النبيلة في تلك المنطقة –، ولكن الفضية كانت منتشرة جدا : " وكانت العملة القديمة–الروسية *nogata* توازي الدرهم العربي وكانت تستمد اسمها من الكلمة العربية نجد، "العملة الجيدة""*.

الأزمة والتحول في الإسلام. الشرق

تتداخل العمليات التجارية والغارات بقوة في تاريخ البحر المتوسط في القرون الثامن–الحادي عشر : لدرجة أننا لا نستطيع دائما التمييز بوضوح بين هذه وتلك. ومن المؤكد علي أي حال أن الظروف التي نشأت في البحر المتوسط في القرن السابع عن اقتحام الإسلام كانت قد بدأت تتغير ليس تدريجيا – بل بصورة غير متصلة ولا تخلو من مراحل من التغيير المتكرر للاتجاه – وخاصة بداية من النصف الثاني من القرن العاشر. ونتيجة لنوع من التناسق العرضي تماما في الظاهر – وغالبا أيضا في الجوهر – وربما بين سلسلة من الملابسات العرضية (مدعومة مع ذلك بعناصر موضوعية في أزمة مؤسسية وهيكلية داخل هيكل الإسلام)، اتجهت الهجمة الإسلامية في كل البحر المتوسط الغربي وداخل الأرض

---

* ف. كامبفر ، *Russi e slavi occidentali* ، فى مجموعة مؤلفين ، *Storia d'Europa, III, Il medioevo* ، إعداد ج. أورتاللى ، تورينو ١٩٩٥ ، ص. ٦٢٠.

المجاورة للهبوط أو التوقف تقريبا في كل مكان. وقد حدث هذا لأسباب متعددة ومستقلة فيما بينها، بين نهاية القرن العاشر وخلال الثلث الأول من القرن الحادي عشر.

كانت سطوة الخلافة العباسية في بغداد قد اهتزت من ميلاد خلافتين متنافستين، الأموية السنية في قرطبة في ٩٢٩ والفاطمية الشيعية الإسماعيلية، التي ظهرت بين بربر الجزائر الشرقية في ٩١٠ ولكنها استقرت في مدينة القاهرة المصرية الجديدة، التي أسست في ٩٦٩ ومقدر لها أن تشهد مستقبلا عظيما كمركز تجاري نيلي كانت تصل إليه البضائع القادمة من اليمن ومن زنزبار ومن إثيوبيا (وأيضا التوابل الثمينة من الهند والصين) والتي كانت ترسو في دهب على البحر الأحمر ومن هناك كانت تجتاز على ظهر الجمال مسافة قصيرة من الصحراء، ثم تواصل بالطريق المائي بطول النيل حتى موانئ الدلتا. وقد كان يتدفق على المدينة المصرية الكبيرة ذهب المناجم ليس فقط من النوبة – الذي كان في طريقه للنفاد – ولكن أيضا من السودان : وقد كان يحمله مبعوثو ملوك غانا، الذين كانوا يتاجرون إلى جانب المعدن الأصفر الثمين، في الذهب الأبيض (العاج) والذهب الأسود (العبيد الأفارقة) وكان ميلاد القوة المصرية الجديدة، المستقلة الآن عن الخلافة العباسية وفى تنافس إن لم يكن في صراع سافر معها، كان فقط أحد مظاهر – ومن وجهة نظر معينة أعراض – انهيار الخلافة في بغداد، الذي كانت له علاقة أيضا بثورات مستمرة تدعمها طوائف الخوارج والقرامطة. وقد أحدث هذا اتجاها متزايدا، من جانب الخلفاء، للاعتماد على حماية المرتزقة الأتراك القادمين من آسيا الوسطى، والذين كانوا قد أسلموا خلال القرن وتغلغلوا داخل الإمبراطورية أيضا بفضل تواطؤ عائلة السامانيين الفارسية التي عهد إليها بحراسة المنطقة الشمالية الشرقية من الدولة العباسية. وفى نهاية القرن العاشر كان الخان التركي ألب تكين قد استفاد من ضعف السامانيين لكي يحتل غزنة، في أفغانستان الحالية، ليؤسس فيها بلاطا رائعا سيستضيف العالم البيروني والشاعر الفردوسي. وفى عام ٩٩٩، في نفس الوقت، احتل الأتراك الـ karakhanidi مدينة بخارى وأسسوا فيها عائلة جديدة. وقد استبدل الأمراء والحكام الفرس تقريبا في كل مكان : واضطر الخلفاء للتكيف مع الواصلين الجدد من الأتراك المسلمين السنة المستجدين والمتشددين بالتالي. وسرعان ما تميز بينهم أعضاء اتحاد من القبائل يسمى Oghuz، كانت قد استوطنت في منتصف القرن العاشر المراعي الواقعة شمال بحر قزوين وبحيرة آرال وكانت معروفة باسم السلاجقة، تكريما لاسم مؤسس العائلة شبه الأسطوري، سلجوق.

والأتراك السلاجقة، الذين كانوا في البداية على علاقات طيبة مع الـسامانيين الفرس، أزاحوهم بعد ذلك نحو عام ١٠٤٠ وحلوا محلهم وأسـسوا إمبراطوريـة تمتد من خراسان إلى وسط إيران. وفي ذلك العهد كان خليفة بغداد مقيـدا جـدا وكان عمليا رهينة لعائلة من "معلمي القصر" من الشيعة، الـبويهيين– وكان هـذا ظرفا دينيا قدم للخان التركي السلجوقي توغرول بك الذريعة للـسير فـي عـام ١٠٥٥ نحو العاصمة، واحتلالها مقدما الاحتلال التركي على أنه "تحريـر سـني" وإقناع الخليفة بأن يضع نفسه تحت حمايته. وبعد إعلانه سـلطانا، أي ملكـا *in temporalibus* تقريبا مع الخلافة، أعلن القائد السلجوقي بمهابـة برنامجـا حربيـا طموحا يهدف ليس فقط لتحرير الدولة العباسية من الأزمة التي كانت تمسك بهـا، ولكن للسماح للإسلام باستئناف تلك المسيرة المظفرة التوسعية التي انتهت في آسيا منذ ثلاثة قرون (والتي، كما رأينا وسنرى بصورة أفضل بعد قليـل، كانـت قـد تباطأت في البحر المتوسط منذ أقل من قرن وكانت تفسح المجال تدريجيا لصحوة هادرة للفرنجة الغربيين).

وكان أول الخصوم الذين يحتمون أمام السلاجقة، المصممين علـى اسـتئناف التوسع وغزوات الإسلام السني نحو الغرب، هم البيزنطيون والخلفاء الشيعة فـي مصر. وبدأ الأتراك تجاه المنافسين المصريين صراعا للـسيطرة علـى سـوريا وفلسطين : وجاء ذلك الحج المسلح المحير إلى تلك المنطقة وهو ما اعتدنا علـى تسميته "الحملة الصليبية الأولى"، في ١٠٩٦ – ١٠٩٩ليضع نهاية جزئية للعـداوة بين العباسيين السلاجقة والفاطميين، التي تعقدت من الخـصومة بـين الأتـراك والعرب. ولكن عندما أطل الأتراك على الحدود الشمالية لسوريا أرسـل الخليفـة الفاطمي في مصر سفراء له مكلفين بالتحقق مما إذا كان من الممكن التحالف مـع "الفرنجة" أو على الأقل استخدامهم ضد الأتراك.

وكان السلطان الجديد ألب أرسلان (١٠٦٣ – ١٠٧٢) قد حقق ضد بيزنطـة في عام ١٠٧١ النصر الكبير في مانـزيكرت – اليـوم مـالازجيرت – علـى المجرى المرتفع من نهر الفرات، غير بعيد عن بحيرة فان ؛ وقد سمح لـه هـذا، بعد ذلك ببضعة أعوام، بتأسيس" سلطنة الروم" وعاصمتها إيكونيو (اليوم كونيـه) والتي بفضلها كان السلاجقة يسيطرون على مركز شـبه الجزيـرة الأناضـولية. وكلمة الروم ("روما") كان يوصف بها في العالم الناطق بالعربية – وبالتالي فـي الإسلام – ذلك الكيان الذي اعتدنا على تسميته خطأ "الإمبراطوريـة البيزنطيـة " بكل اتساعها الجغرافي. وبالتالي فقد كان الأناضول تابعا للروم. وأصـبحت الآن جبال أوزيني في الشمال وتاورو في الجنوب تفصل الغزاة المسلمين الجـدد عـن

سواحل البحر الأسود وخلجان أنطاليا والإسكندرية على البحر المتوسـط، والتـي كانت لا تزال بيزنطة تسيطر عليها. ولكن الناس في العاصـمة الواقعـة علـى البوسفور كانت قد بدأت ترتعد كما لم يحدث منذ حصار ٧١٧-٧١٨. فقـد وجـد الملك البيزنطي ألسيو الأول كومنينو نفسه مضطرا لمواجهة ما يقرب من ثـلاث موجات بربرية في آن واحد : في الغرب، النورمانديون الذين كانوا قد هـاجموا الساحل الإبيروتي بقيادة روبرتو الجويسكاردو، الذي كان يقوم آنذاك – بمـساندة بابا روما – بتدعيم سلطته على إيطاليا الجنوبية بينما كان شقيقه روجيرو قد بـدأ حملة غزو صقلية ؛ وفى الشمال كان هناك السكان الأوراليـون الألطـائيون dei peceneghi، الذين عرفوا فيما بعد باسم الــ cumani (الــ polovzi فـي المـصادر الروسية)، الذين اندفعوا بعد الإغارة على البلقان في ١٠٩٠ حتى أصبحوا تحـت أسوار مدينة القسطنطينية وتم صدهم ببعض الجهد ؛ وفى الشرق وفى الجنـوب، الأتراك الذين كانوا يقتسمون الأناضول الوسطى والشرقية والتي كانت مـع ذلـك موضع خلاف بين سلطانين متنافسين، سلاجقة إيكونيو والــ danishmenditi فـي ميليتيني (اليوم مالاتيا).

وكان يمكن لحالات اعتناق الإسلام لجماعات عرقية غفيـرة مـن الأتـراك المغول بين القرنين التاسع والعاشر والتي زادت من رقعة دار الإسلام في آسـيا الوسطى، أن ترسم بطريقة مختلفة ليس فقط التـاريخ الـديني للقـارة الأوربيـة الآسيوية الكبيرة – والتأثير في نفس الوقت على العلاقات بين أوربا والإسـلام –، لو أن فرصا أخرى لأسلمة الشعوب الهند أوربية والتركية المغولية قد انتهـزت. وربما كان هذا البناء الخاص للأمة المسلمة وعدم وجود مؤسسات دينيـة وأدوار أسقفية داخلها – مثل الإبراهيمية –، أحد الأسباب التـي أدت إلـى سلـسلة مـن الفرص الضائعة. وربما كانت هنـاك أعـراق أخـرى قريبـة مـن الـسلاجقة والكاراخانيديين مستعدة لقبول الديانة القرآنية. وسوف يـستأنف بالفعـل التغلغـل الإسلامي في تلك الدوائر وفى تلك المناطق : ليس فقط أثناء النصف الثاني مـن القرن الثالث عشر، غداة عاصفة غزوات جنكيزخان. وبالفعـل، فإنـه يبـدو أن الإسلام وصل إلى العديد من مناطق آسيا الوسطى منذ بداية القرن العاشـر مـن خلال قنوات التجارة : وهكذا دخل الإسلام البلغار فـي *magna Bulgaria* – عنـد الانحناء الكبير لنهر الفولجا – والـ *chazari* أنفسهم، الذين كانوا – أو على الأقـل كانت الطبقة الحاكمة فيهم – قد اعتنقوا اليهودية في السابق. وتؤكد أخبار الراهب الروسي نيستوري، في القرن الثالث عشر، أن البلغار المسلمين في عـام ١٩٨٦، كانوا قد تقدموا لفلاديمير أمير كييف، الذي كان لا يزال وثنيا، واقترحـوا عليـه

اعتناق الإسلام، وهو ما لن يقبله الأمير في نفس الوقت، لأنه لم يكن يتقبل الختان والامتناع عن النبيذ وأكل لحم الخنزير. وبعد ذلك بعامين اختار فلاديمير (الذي سمي بعد ذلك بالكبير) المسيحية اليونانية التي اقترحها عليه البيزنطيون.

ومبررات هذا الاختيار يمكن أن تبدو عادية ؛ أو أن تقديمها بهذه الألفاظ، من قبل كاتب الأخبار، كان أمرا ساذجا. ولكن بصرف النظر عن آفاقه والجمهور الذي كانت الأخبار موجهة إليه، ما هي العواقب التي كانت ستترتب على أي انضمام محتمل لروسيا *للإسلام بالنسبة لتاريخ أوربا؟ كانت أوربا المسيحية ستجد نفسها بين فكي كماشة : في البحر المتوسط لم تكن الأساطيل الفارياجية – السلافية ستحارب من أجل اليونانيين، ولكن من أجل العرب. وكان الإسلام سيقيم حصنا على الجانب الشرقي من أوربا، مع احتمال امتداده إلى اسكندينافيا قبل أن يصل إليها المبشرون المسيحيون!

وهذا دليل إضافي على أن التاريخ لا يمكن فقط، بل يجب أن نتخيله بصيغة الشرط، مع كل كلمات "إن" و"لكن" الممكنة : هكذا فقط يمكن أن يظهر وزن الأحداث الفعلية بكل واقعها المثقل بالنتائج، كبديل عن طرح تلك الاحتمالات التي استبعدتها مع ذلك لعبة العلاقة بين رغبة الأفراد والجماعات، وقيود الماضي والبيئة وأخيرا الظروف الطارئة التي لا يمكن تقديرها.

الأزمة والتحول في الإسلام. الغرب

في أسبانيا، كان الأمير عبد الرحمن الثالث (٩١٢-٩٦١) قد قاد الأسرة الأموية الجديدة في قرطبة إلى أقصى درجات الروعة ومنح نفسه في عام ٩٢٩ مكانة الخليفة، ونجح في بسط سلطانه أيضا على جزء من المغرب الغربي. وكان سكان قرطبة في ذلك الوقت حوالي ٣٠٠٠٠٠ نسمة على ما يبدو. ولا تزال هناك، شاهدة على تلك الحقبة من العظمة، المدينة-القصر، مدينة الزهراء، "مدينة الزهور". فقد كانت تتلألأ بالرخام والكريستال والفسيفساء الذي لجأت لصنعه لأفضل الفنانين البيزنطيين ؛ حتى أنه كانت هناك حكايات تحكى عن نافورة من

* المرجع السابق ، ص ٦٠٩

"الفضة الحية"، أي الزئبق، الذي كان يستخدم لإدهاش الضيوف وخلق شرر وشلالات من الضوء وسط قاعة ينعكس فيها بريق الذهب.

لم يكن العرب والبربر قد انصهروا تماما فيما بينهم فالأرستقراطية المتباهية لأولئك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم وحدهم الورثة الحقيقيين للنبي (صلعم) كانت تحتقر الـ *parvenus* الأفارقة. ولكن سرعان ما تغلب الاندماج المعتدل والمتزايد بين العرب البربر من ناحية وأحفاد الـ *celtiberi*، والأيبيريين اللاتين، والـ *gotosvevi* من الناحية الأخرى. وظل التمييز الحقيقي المحدد للنوعية هو بين المسلمين المنحدرين من الغزاة، والمحليين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي على فترات مختلفة (المولدين) والمسيحيين الأوفياء لدينهم ولكنهم تعربوا في اللغة والعادات على الرغم من عدم نسيانهم للغة اللاتينية أو بمعنى أصح للغة العامية التي تطورت عنها (المستعربة، الذين يعرفهم الغربيون جيدا بكلمة "المزرابيين"، التي انتقلت إلى الأسبانية).

وكان الأمويون قد نقلوا من البداية للعالم الأسباني المسلم السمات الأساسية للثقافة السريانية العظيمة التي ميزتهم ؛ ولكن جاذبية النموذج العباسي بدأ الناس يشعرون بها من خلال بلاط الإسلام المغربي. وكان هذا الكنز الثقافي قد سحر الذميين المسيحيين أنفسهم : ففي القرن التاسع، كان Alvaro di Córdoba يشكو من أن الدارسين المسيحيين يبددون وقتهم في تقليد الحروف العربية على حساب كتابة وأعمال آباء الكنيسة.

وكانت العلاقات بين خلفاء قرطبة و"الفرنجة" شمال البرانس طيبة في مجملها. وفي عام ٩٥٣، كان الملك جوفاني قد استقبل الأب جورزي، مبعوث أتوني ملك ألمانيا ،الذي طلب من الخليفة أن يساعده على التحرر من أوكار السراسنة عبر جبال الألب: وقد رد الخليفة بأن أرسل للملك، الذي أصبح بعد ذلك إمبراطورا، الأسقف المزرابي ريتشيموندو المعروف بأنه الذي تلقى كتاب الـ *Antapodosis*، هدية من ليوتبراندو أسقف كريمونا.

وبعد عبد الرحمن الثالث، لم تعرف الخلافة ملوكا آخرين على مستواه. ولكن هناك ملكا آخر ترك ذكرى طيبة عن نفسه، وهو الحكم الثاني (٩٦١-٩٧٦)، الذي زين ووسع مدينة قرطبة وكان من حظه العاثر سياسيا أن استطاع الاعتماد على وزير ومساعد نشيط جدا حتى أنه بدا بالفعل أنه يحل محله واستأنف عمله : وهو محمد ابن أبي عامر، الذي سمي لأعماله الرائعة بالمنصور، "المنتصر" (*l'Almanzor* في الأخبار والشعر البطولي الأسباني). كان هذا الوزير من أصول

عربية نقية للغاية، وكان لثلاثين عاما تقريبا، بين ٩٧٨ و١٠٠٨، سيدا لأسبانيا والمغرب : وقد أجبر مملكة ليون المسيحية على الاعتراف بتبعيتها لخليفة قرطبة وفي ٩٩٧ هاجم ضريح سانتياغو دو كومبوستيللا. ولكن عند موته تفجرت في عائلة الخلافة خلافات عائلية فتتت أسبانيا المسلمة كلها إلى دستة وأكثر من الإمارات المتناحرة فيما بينها معظم الوقت، وهي معروفة في التقاليد الأسبانية باسم *reinos de taifas* ("ملوك الطوائف"). وعلى أي حال، كررت ممالك الأمراء وواصلت في معظم الأحيان، ربما على مستوى أكثر تواضعا، نموذج المناصرة عند الخلفاء.

وقد كان الأوربيون الغربيون – على الأقل حتى القرن الثاني عشر – يجهلون كل شيء تقريبا عن الإسلام شرق القدس لدرجة أن برتا ماركيزة توسكانا كتبت في عام ٩٠٦ لخليفة بغداد **المكتفي** لأنها علمت مؤخرا فقط وبمحض الصدفة (من أسرى أسروا على السفن القادمة من أفريقيا) بوجود حاكم مسلم أهم من الأمير الأغلبي في القيروان، الذي كانت تربطها به علاقات طيبة (لم تكن تستبعد بالطبع الحرب القرصانية).

على العكس من ذلك، كان ملوك الطوائف أكثر أهمية للغربيين دائما. وكان أحدهم هو أمير دينيا، المجاهد، الذي خطط في السنوات الأولى من القرن الحادي عشر وكان على بعد خطوة واحدة من تنفيذ مخطط سياسي محكم وواسع يهدف إلى السيطرة على جزر البالياري وكورسيكا وسردينيا : وهو ما كان يعني عمليا، كل البحر المتوسط الشمالي الغربي من بلنسيه حتى البحر التيراني. وكان مجاهد قد اقتطع سلطته منذ عام ١٠١٠ مستغلا أزمة الخلافة وبدعم من بعض قادة الأسطول كان يفرض سيادته على جزر الباليارى: وكان يهدف للسيطرة على منطقة هائلة، حتى سردينيا والبحر التيراني. وقد تحالفت ضد هذا التهديد، بتشجيع على ما يبدو من البابا بنديكت الثامن، مدينتا جنوا وبيزا البحريتان، اللتان كانتا قد تعرضتا، في السنوات السابقة لهجمات غير قليلة من جانب السراسنة: وبين عامي ١٠١٥ و١٠٢١، بعد حرب طويلة وصعبة، نجحتا في النهاية في التغلب على خصمهما. وكانت عملية بيزا وفينسيا ضد مجاهد أولى الفرص الكبرى التي وجدت فيها القوى المسيحية نفسها متحدة ضد عدو مسلم مشترك وأثبتت أن هذا الجهد الحربي كان ينطوي أيضا، ضمنيا أو صراحة، على انتصار ديني بصورة ما – وهذه خاصية ظهرت في القرن الحادي عشر، في علاقة أيضا مع الإعداد النشط لموضوعات دينية وكنسية بدعم من بعض المراكز مثل دير كلوني.

ومنذ العصر القسطنطيني كانت المسيحية معتادة على الإشارة إلى المبررات والعوامل والمكونات والرموز الدينية لدعم وربما حتى لتبرير– وهناك من يقــول حتى لتقديس – جهودها الحربية. وفى بيزنطة كانت موضوعات "الجيوش المقدسة " و"الحرب المقدسة" شائعة، على أســاس أن كــل مــا كــان يتعلــق بالــسلطة الإمبراطورية كان يعتبر مقدسا : وكان يمكن للكفاح ضد الوثنيين ونشر المسيحية والدين أن يتخلل الخطابة والرموز العسكرية. ولكن الكنيــسة البيزنطيــة كانــت مبتعدة دائما عن عملية تقديس الأسلحة والحرب. وكانت حالة الكنيــسة اللاتينيــة مختلفة، فقد وجد الناس أنفسهم فيها مضطرين لقبول تقاليد حربية قديمة مرتبطــة بعوامل أسطورية–دينية وتحييدها وطمسها جزئيا وكانــت الــشعوب الجرمانيــة ترفض التخلي عنها ؛ بينما أدى الربط المستمر بقوة بين الطبقة العليا لرجال الدين وممارسة السلطة خاصة بداية من العصر الكارولي إلى عسكرة للقيم والعــادات، تمثلت جيدا في الــطقوس الدينية الرومانية– الجرمانية فــي مباركــة الأســلحة والــ *novi milites*، النواة الأولى للأخلاق والممارسات النبيلة. وفى سياق من هــذا القبيل، كان من السهل أن تتضج نزعات ومطالب تهدف لتحويل فــرص الــصدام الحربي ضد الشعوب المسلمة إلى لحظات قتال ديني أيضا، تقيس فيه كــل ديانــة الأخرى – بجرعة كبيرة من العقلية الذاتية –، فيما يشبه المحنة، لتحديــد أيهمــا الأقوى والأفضل بالتالي. ومن المهم أن نوضح أن هذه العقلية كانت، خاصة فــي البداية ضمنية أكثر منها صريحة وأكثر انتشارا بين العلمانيين عنها بــين رجــال الدين الذين ربما كانوا يتسامحون فيها ويشجعونها على الأكثر في حالات محدودة جدا فقط.

ولكن الشعائر الكنسية في مباركة الأعلام والأسلحة – التي تندرج في ســياق مجتمع كان يبارك فيه كل شيء، بداية بأدوات العمل، ولم يكن هناك عمل إنساني لا يجد مكانه في عالم مشبع بالقدسية – والتقاليد الدائمة التي كانت ترى أنه لابــد من الدفاع ليس فقط عن الأرواح والممتلكات ولكن عن الكنائس والرفات أيضا في مواجهة المسلمين، من القرن السابع، كانت تشجع الناس على النظر إلى الحــرب ضد الأعداء الجدد على أنها "عادلة" بالتأكيد، وربما "مقدسة" أيضا. وعلى الــرغم من هذا، فإن "الإسماعيليين"، "الهاجريين" أو "السراسنة" كانوا يوصفون كذلك على أساس ألفاظ لم تكن تشير إلى أعراقهم بدقة ولكنها كانت على الأقل تــشير إلــى أنسابهم كما هي مذكورة في الرواية التوراتية لسلالة أبى الأنبياء إبراهيم. بمعنــى أصح، لم يكن العدو أبدا يسمى باسم يؤكد بصورة سلبية على وضعه الديني كغير مسيحي وبهذا يعطى الانطباع بأننا نريد تبرير الحرب ضده باسم هذا الاخــتلاف في الديانة. وعندما يتحدث نص في منتصف القرن الثامن، وهو الــ *Vita* للقــديس

أوكريو دورليانز عن العداء لـ "أمة الإسماعيليين المشئومة، التي خرجت من ديارها لدخول إقليم أكويتانيا وإخلائه من السكان"، فإنه لا يلمّح بأي صورة من الصور للعقيدة الدينية لأبناء إسماعيل: ويقتصر على توضيح صفات الوحشية، بصورة لا تختلف عما اعتادت علي عمله المصادر اللاتينية منذ قرون إزاء مختلف السلالات البربرية.

ولكن شيئا ربما تغير خلال القرن التاسع، عندما إستأنف البابوات الرومانيون، المهددون عن قرب من القراصنة المسلمين ،مواقف اتخذت من قبل، حتى وإن كان ذلك بصورة غير منتظمة : على سبيل المثال، عندما أرسل جريجوريو الثاني أقمشة مستعملة للمذبح البابوي إلى دوق أكويتانيا المشغول مع العرب أمام تولوز في ٧٢١، أو عندما حث أدريانو الأول شارلمان للقيام بالحملة الأسبانية في ٧٧٨. ولكن قد يكون من الصعب أن نحدد في حركة جريجوريو الثاني بعض الدلائل على موقف يتسم بـ "الحرب المقدسة" : أما فيما يتعلق بالمحاربين الفرنكيين، الذين مزقوا تلك الأقمشة وابتلعوا قصاصاتها الممزقة، فإن الأمر يتعلق بحركة إيمانية ربما تصل إلى حد ممارسة السحر، ولكنها لم تكن تنطوي إطلاقا على الوعي بأن خوض الحرب ضد الكفار في حد ذاته عملية جديرة بالثناء روحانيا. وتختلف عن ذلك حالة ليونى الرابع الذي كان قد وعد، غداة هجوم السراسنة على روما في ٨٤٦، بالحياة الأبدية لمن يقبل التضحية بنفسه من أجل الدفاع عن الدين والكنيسة ؛ وهناك نبرات مشابهة استخدمها نيكولو الأول (٨٥٦ –٨٦٧) وجوفاني الثامن (٨٧٢ – ٨٨٢).

وكان مسيحيو الغرب، في تلك السنوات بالذات، قد اهتزوا أيضا لأخبار أخرى قادمة من جانب من الإسلام كان معروفا لديهم إلى حد كبير : أسبانيا. فقد تابع الناس بالفعل واقعة "شهداء قرطبة" بقيادة أيولوجو الذي سافر طويلا في ٨٤٨ في أسبانيا المسيحية حيث اصطدم بنصوص جدلية معادية للإسلام ثم عبر بعد ذلك جزءا من أوربا بحثا عن بعض أعضاء عائلته المشتتين في القارة لأسباب تجارية على ما يبدو. وتعد أحداث القديس إيولوجو مثالية للتذكير بأن عمليات التجارة والتبادلات التجارية بين أوربا والإسلام لابد أنها كانت أكثر شيوعا وتكرارا مما يعتقد، على الرغم من أنها لم تكن سهلة.

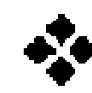
ونحو عام ٨٥٠ تحدى ما يقرب من خمسين رجلا وامرأة في قرطبة حظر التبشير ضد الشريعة الإسلامية وقد استُشهدوا جميعا. ويبدو أن الدافع وراء موقفهم هو توتر بالغ تجاه العالم الآخر، أكثر من رغبة حقيقية في التبشير برسالة معينة : فعندما يكون الإنجيل قد أعلن على كل الناس، فإنهم سيكونون بالفعل قد

وصلوا إلى نهاية العالم ويوم القيامة. وفي عام ٨٥٨ كان هناك راهبان بنديكتيان من سان جيرمان مسافرين عبر أسبانيا بحثا عن رفات القديس فينتشنتسو ووصلا إلى قرطبة وقد استخرجا منها جثث ثلاثة من الشهداء. وأثرت الواقعة كثيرا في الغرب وربما بقيت نموذجا واضحا لفترة طويلة : وبعد ما يقرب من أربعة قرون بعد ذلك، سيجعلون من ذلك نموذجا يحتذى. ولا يزال يدور نقاش حول ما إذا كانت هذه الفترة الحاسمة من السنوات والأحداث التي صاحبت تصريحات البابوات في النصف الثاني من القرن التاسع وقضية "شهداء قرطبة" هامة في البناء الجيني لفكرة الحرب الصليبية أو "الحرب المقدسة" *tout court*، وهو أمر أكثر تعقيدا.

كان الأمراء الأغالبة التونسيون قد استدعاهم إلى الجزيرة ،على ما يبدو، مسئول بيزنطي على خلاف مع أحد الفصائل المعادية، واستغرق الأمر منهم سبعين عاما للاستيلاء بالكامل على صقلية: وهي فترة طويلة إذا ما قارناها بالهجوم الكاسح الذي استطاع في فترة وجيزة للغاية أن يجعل من شبه الجزيرة الأيبيرية كلها تقريبا شبه قارة مسلمة في معظمها. ولكن بعد استسلام تاورمينا في عام ٩٠٢، بقيت الجزيرة لما يقرب من قرنين إقليما هاما في دار الإسلام : ولم يختف منها بالطبع المسيحيون الذين تحولوا إلى ذميين، ولكن الأسلمة والبربرة كانتا أيضا عميقتين عرقيا ولغويا. وكانت الطبقة التحتية العرقية الصقلية معقدة ومركبة : *preindoeuropei* "*pelasgici*" و *punici* وإغريقيون ولاتينيون ويونانيون بيزنطيون ؛ ومع ذلك فقد ترك الإسهام العربي البربري الواسع آثارا كبيرة على اللغة الصقلية وخاصة في كل ما يتعلق بالزراعة والري وأدوات وتقنيات العمل في الأرض، وبقي المسافرون القادمون من أقاليم مسلمة قاحلة معجبين ومسحورين أمام وفرة المياه والغابات في صقلية، والاحتياطي الوفير من الأخشاب لكل أساطيل الإسلام. وفي القرن العاشر، تحدث ابن حوقل عن الجزيرة بما فيه الكفاية، معتبرا إياها ضاحية بالقياس إلى الإسلام المغربي المزدهر. ومع ذلك فإن باليرمو التي رآها في ٩٧٣ كانت واحدة من أكبر المدن في حوض البحر المتوسط الغربي، وغنية بمباني العبادة والقصور ومزدانة بالنافورات المنعشة وغنية بالأسواق. وقد تبقى القليل من كل هذه الروعة : هناك فقط حمامات تشيفالو، المهدمة الآن. ولكن صقلية المسلمة، من الناحية الثقافية والفنية استمرت في القرن الثاني عشر النورماندي : فمدن زيزا وكوبا والكنيسة البلاطينية تتحدث إلينا بلغة تكشف عن نوعية من الحياة و*joie de vivre* على مستوى غير عادي، يتمشى في نفس الوقت مع ما نعرفه وما تبقى لنا من القصور والحدائق والأحواض المائية والمساجد و"مدارس" أسبانيا والمغرب. وبنفس الطريقة، تركت

الشهادات على الحقبة النورماندية ذكرى حياة ثقافية غنية : فقد ازدهرت في الجزيرة دراسات الدين واللغات والنحو ؛ وكانت مقرا لنشاط شعري كان وافر الإنتاج من الجمال الأخاذ، كما تشهد على ذلك بصورة غير مباشرة مختارات ابن القطاع التي ضاعت للأسف والأبيات الشعرية للشاعر الذي اغترب مرارا ،ابن حمديس، الذي هرب من صقلية بسبب الاحتلال النورماندي، وبعد ذلك من الأندلس مع وصول المرابطين – ومات (ربما في مايوركا، وربما في بوجه) في ١١٣٣، وكان يبكي تحت سماء الأندلس الآفاق الصقلية الضائعة بصورة لا تختلف عما سيفعله، بعد ذلك بأربعمائة عام، المنفيون الأندلسيون الذين لجأوا للأرض المغربية. وهناك شعر عربي "كلاسيكي"، وهو الشعر الصقلي، الذي تأثر بصيغ ومواقف التقاليد العظيمة في الأندلس : ولكنه غير غريب ربما على الازدهار التالي لشعر صقلي شعبي، وهو الذي نضج في حقبة السيطرة الألمانية، بعد أن نشأ من لا شيء في الظاهر.

وفي صقلية أيضا – وبصورة لا تختلف عما حدث في أسبانيا مع الخلافة القرطبية – عندما مات الأمير الأكحل (١٠١٩ – ١٠٣٦)، أدت نهاية الإمارة التي حافظت على وحدة الجزيرة إلى تفتيت السلطة : وهو ما فتح الطريق بمرور الزمن للغزاة النورمانديين. ولكن الممالك الصغيرة المحلية استطاعت لفترة طويلة الإبقاء على سمو تقاليد الفخامة والرقي التي ميزت بلاط باليرمو، كما فعل ملوك الطوائف *reyes de taifas*.



٣

رد أوربا

"حرب التحرير" والعمليات البحرية

مسيرة سانتياغو

لم يكن المستعربون في أسبانيا، على الرغم من اصطباغهم بالصبغة العربيـــة واستسلامهم للسيطرة الإسلامية، يحبون كثيرا سادتهم المتسامحين. وقــد هــرب الكثيرون منهم للشمال، في منطقة شبه الجزيرة الأيبيرية نحو شمال نهر إيـــرو أو في تلك المنطقة التي تلف سلسلة الجبال الكانتابريكية، نحو أقاليم أستوريا ونافارا : حيث أحيوا الثقافة المستعربة المميزة، بأقواسها التي كانت علـــى شـــكل "حـــدوة الحصان" – وربما تكون هذه ذكرى لأشكال إسلامية، وربما تكون تطويرا لنماذج قوطية غربية - وتعليقاتها على سفر الرؤيا المنمنمة بذلك المذاق المميز بـــالألوان العنيفة والصور الخيالية التي جعلها الـــ "Beato di Liébana" شهيرة.

ولكن طبقة رجال الدين الكبار من المستعربين كانت تميل إلى التعـــايش مـــع المسلمين : وربما كان اختيار كبير أساقفة طليطلة إليبراندو تنازلا ضمنيا للتوحيد الإسلامي الصارم، عندما اعتنق في نهاية القرن الثامن مذهب التبني : أن المسيح كان **المفضل**، الذي "تبناه" الله، ولكن **الشخص الإلهي** بقى واحدا في نفس الوقـــت. وكرد فعل على هذا تطورت مسيحية ثالوثية بشدة يحق لنا أن نلمـــح فيهـــا أحـــد عناصر المعارضة الشديدة للإسلام، في الشريط الشمالي من شبه الجزيرة، الـــذي بقى محصنا من الغزو الإسلامي السريع.

كانت المملكة التي أسسها القوطى بيلاجو حول مدينة أوفيدو فـــي عـــام ٧٢٠ ترفع عاليا راية الديانة المسيحية التي قدر لها أن تتدعم بقوة بالهويـــة الأيبيريـــة. وفى هذا السياق يجب أن نقرأ الـــ *inventio* في منطقة كومبوستيلا الجاليتـــسيانية، خلال القرن التاسع، لجسد اعتقده الناس – مع كثير من المقاومات الأولية – جسد

القديس جاكومو، الذي انتقل بأعجوبة عن طريق البحر على الساحل الشمالي الغربي لأسبانيا. وقد كانت التقاليد تنسب لجاكومو تنصير شبه الجزيرة الأسبانية. وبالتالي فإن العثور على الرفات يضفي على كنيسة المملكة الأستورية مكانة أبوية – بحكم أن الذي "أسسها" رسول – وطابعا أوليا، أصليا، تنافسيا مع كبرى الكنائس المسيحية الأخرى : كنائس روما والإسكندرية وأنطاكية، والقسطنطينية (وسيقترح أهل فينسيا مكانة مماثلة لكنيستهم عن طريق *translatio* جثمان الإنجيلي مرقص من الإسكندرية). وقد استندت الملكية الأستورية بقوة لعبادة "سانتياجو (الاختصار اللاتيني الجديد لـ *sanctus Jacopus*) للمطالبة ببرنامج للاستمرار بالقياس للتاج القوطي القديم الذي اجتاحه الغزو العربي- البربري. وقد شاركت في هذا المشروع سياسة قوية لنشر السكان في وادي ديرو، الذي تميز بسلسة من المستوطنات الجديدة – مثل مدينة بورجوس نفسها، التي أقيمت مقاطعة حولها في منتصف القرن العاشر تقريبا – وباستعادة المراكز القديمة الجليلة التي خلا منها السكان : وقد كان هذا ممكنا أيضا لأنه بفضل التحسن العام في الظروف المناخية في نفس الوقت، بدأت في كل أوربا تقريبا زيادة سكانية ستصل إلى ذروتها في القرنين العاشر والثاني عشر وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر فقط ستترك المجال لمرحلة من الركود. وعندما انتقلت عاصمة أستوريا مع الفونس الثالث الكبير (٨٦٦-٩٠٠) من أوفييدو إلى المركز الروماني الأصل ليون (الذي أضفى على المملكة اسمها الجديد) أصبح الاتجاه صريحا في توسيع الحدود تجاه الجنوب وتوسيع منطقة المستوطنات نحو هضبة ميزيتا. ولم يكن من الممكن القيام بحملة طويلة المدى ضد السراسنة: ولكن كانت هناك حملات متكررة سريعة من الغارات *(aceifas)* .

وقد كانت هناك مخططات ومشاعر مماثلة تتطور في نافارا، التي أصبحت مملكة في عام ٩٢٦ وارتبطت بعد ذلك بقشتالة ؛ وفي أراجونا، التي أصبحت مملكة بدورها في عام ١٠٣٥ عندما تميزت أطراف قشتالة وأراجونا ونافارا بصورة نهائية مع وفاة سانتشو الثالث ملك نافارا ؛ وفي مقاطعة برشلونة الكتالونية، التي برزت من الإقليم الأسباني الكارولينجي. وفي نهاية القرن العاشر كانت الحدود الأيبيرية السائلة بين المسلمين والمسيحيين تقف عند نهر الدويرو وعند الهامش الشمالي الشرقي من تلك الحدود، كان الكتالونيون – بعد أن صدوا سلسلة من هجمات مسلمي الأندلس في برشلونة بين ٩٨٥ و١٠٠٣ – كانوا يطمحون بدورهم لمد نطاق الأراضي التي يسيطرون عليها على الأقل حتى تراجونا، في منتصف الطريق بين عاصمتهم ومدينة تورتوزا المسلمة عند مصب نهر إيرو.

وكان المنصور، كبير وزراء هشام الثاني يدرك أن الاندفاعات من الشمال يمكن احتواؤها، طالما بقي فريق الخلافة متينا : ورد عليهم بهجوم مضاد عنيف انتهى، في ٩٩٦-٩٩٧، بالهجوم على مدينة كومبوستيلا التي نهبت ولحقت بها الأضرار، على الرغم من أن رفات الرسول جاكومو لم تتعرض للتدنيس.

وقد كان الأمر يتعلق بشيء أكثر من غارة لم تنجح نجاحا تاما. لقد كانت حركة استعراضية ذات قيمة رمزية غير عادية : ولكنها أحدثت نتائج معاكسة للنتائج المطلوبة. كان الوزير قد لمح أهمية ظاهرة جديدة كانت تتأكد بالذات في تلك السنوات. وكان قبر رسول كومبوستيلا، الذي أصبح شهيرا بعد سلسلة من المعجزات، تتوافد عليه جموع متزايدة من الحجاج عاما بعد عام، من الأقاليم الواقعة خلف جبال البرانس. وما كان لا يستطيع أحد فهمه هو كيف امتدت جذور هذه العبادة في كل أوربا : كان نبأ تدنيس الضريح أبعد ما يكون عن بث الخوف والحيرة أو إحداث نفور وكراهية، وكان بذرة للاستياء والحماس. وأصبحت قضية الرسول جاكومو الآن قضية المسيحية بأسرها : وارتبط ببُعد الحج بُعد الدفاع عن القبر المقدس المهدد من قبل "الوثنيين".

وسرعان ما نظمت – بتشجيع وحماية من دير كلونى القوى – شبكة طرق حقيقية تزود بالأعصاب ألمانيا وإيطاليا وفرنسا لكي تصب في ممرات البرانس وتواصل طريقها من هناك حتى جاليتسيا بسلسلة من المراحل التي كانت تعبر نافارا وقشتالة وليون وأستوريا حتى سانتياجو. وعلى طول الطريق – الذي كان يتجه نحو أشهر حرم، ولكنه كان يربط شبكة من أماكن العبادة الأقل أهمية (ولكن بعضها كان على جانب كبير من الأهمية)، وكل منها برفاته وأساطيره وشهرته الاعجازية ويوم عطلته والسوق الخاص بها – كانت تشيد جسور وتكايا لتسهيل مسار الحجاج وكانت تنظم جمعيات، هدفها تلبية احتياجات عابري السبيل وعلاجهم وإسكانهم إذا ما مرضوا في الطريق. وكانت هناك نفحة من الروحانيات الجديدة أحياها تجديد المؤسسات الكنسية ومطالب الإصلاح الأخلاقي المقدمة من جانب من الكنيسة آنذاك ومدعومة بقوة من الدائرة التي كانت تدور حول البابوات الإصلاحيين والجمعية الكلونية، يتخلل هذا الحماس للحج الذي أصبح بالتدريج الآن المحور الأساسي لطريقة جديدة لفهم ومعايشة الواقع في أوربا المفعمة بالحيوية بعد الانطلاقة السكانية والنهضة الاقتصادية والتجارية – دون أن تغيب عن الأنظار المقاصد التقليدية في روما والقدس. وقد جلب القس النشيط أوديلونى دى كلونى – "الملك أوديلونى"، كما كان يسميه خصومه بشيء من السخرية – على نفسه انتقادات كثيرة للحماس الذي كان ينظم به حملات ضد المسلمين : لأنه كان واضحا أن الحج والكفاح ضد الإسلام الأيبيرى مرتبطان بقوة.

وسرعان ما أصبح هناك أيضا دور حربي لحج سانتياجو، الذي كان طريقه - الـ*camino* - يجرى، على الأقل في مرحلة أولى، بطول شريط لا يبعد كثيرا عن "المنطقة العازلة" التي كانت تفصل المسيحيين والمسلمين. وكان يقال إن الرسول ظهر أثناء معركة *Clavijo* في عام ٨٤٤ في ثوب مبهر، وهو يركب جوادا ناصع البياض، وقاد المسيحيين ضد أعدائهم : ومنذ ذلك الحين فصاعدا سيسمى "قاتل المسلمين"، *Matamoros*، طبقا للتقليد الانتصارى الذي كان ينسب للملوك صفات كانت تذكر بانتصاراتهم (وهكذا كان بازيليو الثاني إمبراطور القسطنطينية والمنتصر على البلغار كان يسمى *Bulgaroctonos*).

وفى الحقيقة نحن لا نعرف بالتأكيد متى أضيفت هذه الوظيفة الحربية للرسول إلى صورته كحاج وكصانع معجزات : فالصور الأيقونية المتعلقة بها حديثة نسبيا وحب الحرب الذي نسب إليه لا يرجع تاريخه إلى ما قبل القرن الثاني عشر. كانت الأسطورة معروفة بالتأكيد على الأقل في ١٠٦٤، عندما كان هناك بعض المحاربين المسيحيين القادمين بصفة خاصة من فرنسا يحاصرون ويمبرا في البرتغال. وربما سمع أولئك المحاربون عن واقعة مماثلة، حدثت بالضبط قبل ذلك بعام، في أثناء المعركة التي شهدت قتال النورمانديين ضد السراسنة في صقلية، في تشيرامى : فقد ظهر هناك واختلط بالقتال سان جورجو نفسه، مع علم أبيض مثبت على الرمح.

وسوف تتخلل تجليات من هذا القبيل الغزو النورماندى لصقلية : مثل تلك الحادثة الفريدة والمحيرة التي حدثت بعد ذلك بين عامي ١٠٩٦ و١٠٩٩ والتي سميت عادة "الحرب الصليبية الأولى". وقد كانت تشكل جزءا من تقديس الحرب ضد السراسنة ويمكن أن نربطها بسهولة بدعاية الدوائر الإصلاحية في الكنيسة ولكنها كانت تمد جذورها في حماس منتشر، وفى حساسية جماعية متأججة، واستعداد جديد للقتال والاستشهاد.

كانت أسبانيا المسلمة، بعد تصفية خلافة قرطبة، مقسمة بين مختلف الـ *reinos de taifas* وممزقة من الصراعات بين العائلات العربية والعائلات البربرية. وقد بقى الموقف على أي حال في حالة من التوازن غير المستقر لأن الممالك المسيحية أيضا، في الشمال، كانت تتخللها خصومات وعداوات. وتغيرت الأمور نحو عام ١٠٥٥، عندما شعر فرديناندو الأول - الذي نودى به ملكا على قشتالة وليون منذ عام ١٠٣٧ - أن بوسعه شن هجوم أخضع لسلطته وادي دويرو المنخفض. وقد تم غزو كويمبرا في ١٠٦٤، بعد أن قام الملك بالحج إلى كومبوستيلا لطلب مساعدة الرسول جاكومو في العملية : وفى تلك المناسبة كما

قلنا بدأت تتأكد شهرة تجلى سانتياجو *matamoros* أثناء معركة *Clavijo*. وفى نفس الوقت، كانت الجبهة الأراجونية تتعرض لخطر الانهيار بسبب موت الملك راميرو الأول أثناء حصار قلعة جراوس السراسينية. وعلى الرغم من أن الطفل *Sancho* كان لا يزال قاصرا، فقد تعين على الأب ألساندرو الثاني أخذ زمام المبادرة التي أدت في نفس عام كويمبرا إلى غزو قلعة بارباسترو، التي لا تبعد عن سرقسطه ، بفضل حملة استعانت بإسهام العديد من الفرسان الفرنسيين وأثارت موجة قوية من الحماس الحربي والديني.

كانت كويمبرا وبارباسترو معا ضربة شديدة للأندلس. وكان "ملوك" مسلمي الأندلس في سرقسطه وباداتوس وطليطلة وأشبيلية مضطرين لدفع جزية لفرديناندو ملك قشتالة الذي قام برحلة على صهوة الجياد في خيلاء بغية الاستعراض، حتى وصل إلى بلنسيه. ولكنه مات في عام ١٠٦٥ في ليون بعد أن تمكن من توقير رفات القديس إيزيدورو دى سيفيليا في الكاتدرائية التي أسسها بعد أن تنازل له عنها مسلمو الأندلس.

وربما كانت حملة بارباسترو في ١٠٦٣-١٠٦٤ واقعة تاريخية في العلاقات بين المسيحيين والمسلمين. وقد مثل المرسوم البابوي الذي أقرها الـ *Eos qui in Hispaniam* الصادر من البابا ألساندرو الثاني، في التقليد القانونى نموذجا للوثائق البابوية التالية التي تضافرت جميعها من بداية القرن الثاني عشر في نظام تشريعي حقيقي ينظم الحملة الصليبية : وقد منح به صك غفران للصفح عن خطايا المشاركين في العملية، التي شارك فيها جوليلمو دوق اكويتانيا، وفرسان قادمون من مختلف المناطق في فرنسا. ومن المحتمل أن يكون ألساندرو الثاني – الذي كان أنسيلمو دا باجو، أحد قادة الحزب الإصلاحي في الكنيسة – قد سلّم دوق اكويتانيا الـ *vexillum sancti Petri* الذي كان يضع المتطوعين في الحملة تحت حماية كنيسة روما وفى نفس الوقت كان يخفى حقا بارزا لها في الغزوات التي ستنطلق من العملية.

وبالتالي بدأ المناخ يتهيأ بالتدريج في أسبانيا، وبصورة لا تقل – كما سنرى – عما حدث في مياه البحر التيرانى وفى صقلية مما سيؤدى في نهاية القرن الحادي عشر والقرن التالي، إلى نضج مجموعة من الحملات العسكرية والمكتسبات الدينية والروحانية الجماعية التي اشتهرت باسم "الحملة الصليبية" – الذي استخدم لاحقا، وهو على أي حال لفظ عام ومضلل. والمهم هو كيف أثرت وتضافرت عوامل عديدة في تطور تلك المواقف وفى تلك الحالات النفسية : ضرورة الكفاح ضد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية حتى صقلية (وبعد ذلك بقليل حتى

سوريا) ؛ والانطباع – الخاطئ ، ولكنه مفهوم – بأن الإسلام يمثل قاعدة متماسكة وموحدة من الشرق الآسيوي حتى الغرب الأيبيرى والمغربي ؛ وأخيرا الشعور الذي كان مصلحو الكنيسة قد نجحوا في فرضه على الضمائر نفسها في جانب من الأرستقراطية العلمانية والحربية في ذلك الوقت، التي كسبوها بصورة أو بأخرى لتأييد آرائهم وكانت مشاركة في حركة الـ *pax Dei* التي فرضت هدنات وتوقفات في الحروب الإقطاعية، المستوطنة في المسيحية الغربية – مما أدى إلى تصور احتمال شن حروب ضد الكفار كمصادر للموارد الجديدة، عن طريق نهب وغزو الأراضي، التي يمكن أن تحل محل الموارد التي نقصت بسبب التوقف الإجباري للصراعات المستوطنة بين الـ *milites* وفرض الإتاوات على التجار والحجاج على طول الطرق. وهكذا فإن "تصدير العنف الحربي" خارج حدود المسيحية، والتصديق الكنسي وإضفاء القدسية على التوقعات الناتجة عن ذلك (من خلال صكوك الغفران وتسليم الـ *vexillum*) والعلاقة التي نشأت بين الغزوات المسيحية وتوسيع نطاق ومدى العمليات التجارية الناجمة عنها أصبحت بمثابة ناقلات لديناميكية جديدة تتضافر فيها الأسباب الدينية والسياسية والاقتصادية.

وقد اكتسب مشروع استخدام الأرستقراطية داخل برامج الكنيسة البروتستانتية، التي كانت تتراوح بين الكفاح ضد السلطات التي لا تزال قائمة والسيطرة العلمانية على المكاتب والممتلكات الكنسية حتى الحرب على الكفار – وهذا الأمر في علاقة تكاملية مع الآخر (على الرغم من أن بعض المبادرات أو بعض المواقف كان يمكن أن تدخل في صراع عرضي فيما بينها بعد ذلك) – اكتسب وضوحا خاصا مع جورجو السابع الذي لم يتردد في طلب مساندة واحد من أوثق حلفاء الكنيسة الرومانية ،جوليلمو دوق أكويتانيا، ضد خصمه، الإمبراطور الروماني– الألماني إنريكو الرابع. وفى عام ١٠٧٤ أشرك البابا الدوق في مشروع له للمساعدة العسكرية لمسيحيي الشرق المهددين من التقدم التركي. وقد حدث هذا – بصورة لها مغزاها – بعد عشرين عاما من بداية انشقاق الشرق وبعد ثلاث سنوات من معركة مانزيكرت التي هزم فيها السلاجقة الـ *basileus*. وكان مشروع البابا يهدف لعلاج أو على الأقل تخفيف نتائج الانشقاق وتقليص المسافات مع القسطنطينية ؛ ولكنه كان يهدف أيضا لمد نطاق مكانة أسقف روما، على الأقل، إن لم تكن سلطته، لتشمل الشرق. وكان المناخ الذي نجم في أسبانيا عن شعبية مسيرة سانتياجو والنجاحات الأولى للهجوم المسيحي المضاد في شبه الجزيرة الأيبيرية كان حاسما بالنسبة للأحداث التالية في كل البحر المتوسط.

وقد أحدثت وفاة فرديناندو الأول ملك قشتالة في ديسمبر من عام ١٠٦٥ توقفا جديدا في تلك العملية التاريخية طويلة المدى والمتقطعة والتي اتفق على وصفها بـ *Reconquista*. ونجح أخيرا أحد أبنائه، وهو ألفونسو السادس، لحسن حظه في أن يوحد من جديد تحت سلطته قشتالة وليون وإيقاع هزائم جديدة بمسلمي الأندلس مستعينا أيضا بشخصية سرعان ما أصبحت أسطورة، وهو رودريجو دياز دى بيفار، المسمى سيد كامبيادور (*campi doctor*، وهى في الواقع الكلمة العربية *said*، "سيد"). وكان تأسيس كاتدرائيتين كبيرتين جديدتين، كاتدرائية برشلونة في ١٠٥٨ – وكانت القديمة قد دمرت في أثناء غارات المنصور ضد تلك المدينة، بين عامي ٩٨٥ و١٠٠٣ – وكاتدرائية سانتياجو في عام ١٠٧٥، حركة مميزة لروح كانت تربط بقوة بين الأحداث الدينية والأحداث الحربية والتأكيد القوى لرخاء هو بدوره علامة على الانتصار.

ومن ناحية أخرى، فإن الأحداث المعقدة للسيد، الحليف غير المريح والمشاكس لملك غير صافى الذهن دائما، تعطى فكرة واقعية عن طبيعة الـ *Reconquista* في واقع الأمر : حرب بين مسلمي أسبانيا والمسيحيين تتميز بلحظات تتسم بالحماس الديني الكبير وربما الوحشي، ولكنها تتعاقب على مراحل من الـ *Realpolitik* المنفتحة. وبعد خروجه من حظوة الملك ونفيه لذلك في عام ١٠٨١ لأنه لم يرغب في نفس الوقت في احترام بعض الضمانات التي كان ألفونسو قد منحها لمسلمي الأندلس –، وضع رودريجو نفسه في خدمة الـ *rey de taifa* في سرقسطه ضد ملك ليريدا، الذي كان مدعوما بدوره من الملك سانتشو ملك أراجونا ورايموندو–بيرينجاريو الثاني كونت برشلونة. كانت هذه التحالفات المتداخلة بين مسلمي أسبانيا والمسيحيين ضد جبهات معادية هي أيضا من مسلمي أسبانيا والمسيحيين عادية تماما. وقد أتم الملك ألفونسو السادس نفسه أروع عملية له وهى الاستيلاء على طليطلة في عام ١٠٨٥، بدعم من الملك المسلم الأسباني في باداتوس ضد الملك الطليطلى، **القادر**. وكان اغتيال هذا الأخير هو الذي دفع بدوره **السيد**، الراغب في الانتقام لصديقه السراسينى – والمصمم أيضا على اللعب لحسابه على مائدة الغزو –، لمهاجمة مدينة بلنسيه التي لم ترغب في استقباله ، وبعد حصار دام عشرين شهرا سقطت، في ١٥ يونيو من عام ١٠٩٤ : وقد احتفظ بها **السيد** بعد التصالح مع ألفونسو، كإقطاعية له حتى عام ١٠٩٩، عام وفاته.

وبقى الملك عشر سنوات تقريبا على قيد الحياة بعد موت تابعه. ولإثبات العلاقات القوية التي كانت تربطه بالعالم الفرنسي، تزوج ثلاث مرات من سيدات

فرنسيات دائما وزوج ابنتيه من بورجونيونى ومن لورينى، وكلاهما جاء إلى أسبانيا لمحاربة مسلمي الأندلس. وكان زوج ابنته البورجونيونى، إنريكو، الذي تزوج من ابنته تريزا منذ عام ١٠٩٤ أول لورد لمقاطعة قشتالية مؤسسة بين المينهو والدويرو، نواة البرتغال القادمة.

ومع جيرانه المسلمين استطاع ألفونسو أن يكون أكثر انضباطا مما هو عليه الحال مع حلفائه وأتباعه : فقد أجبر المسيحيين في طليطلة على أن يعيدوا للسراسنة مسجد المدينة، الذي انتزع منهم بعد احتلال عام ١٠٨٥، وتدخل في مرات عديدة لكي يجبر أتباعه *fideles* الذين قاموا بأعمال عنف ضد السراسنة الخاضعين لسلطته على دفع تعويضات مشرفة.

ولكن بعد الاستيلاء على طليطلة لم تكن الأمور سهلة، لا بالنسبة له ولا بالنسبة للسيد. كان الملك قد سار بخيله من النقطة القصوى من شبه الجزيرة، في تاريفا، أمام أفريقيا : وحث الحصان في البحر متحديا العملاق المهدد الذي كان يواجهه، وهو الإسلام المغربي. وجدير بالذكر أن الأمور سارت سيرا سيئا بالنسبة له.

كان ملك أشبيلية المسلم، المثقف اللامع **المعتمد** – وهو قاض كان يقود ما يشبه جمهورية أرستقراطية من الأعيان –، كان يشعر أن مصير الأندلس أصبح يسير نحو الانحدار: ولكن وراء أعمدة هرقل كانت قد تعمقت سلطة الجمعية المتشددة للمرابطين، "رجال الرباط"، وهم السكان المتقشفون في الأديرة–القلاع التي تكونت بعيدا، وراء الصحراء، على شواطئ السنغال والنيجر واستولت على المغرب والجزائر. المرابطون .

لم يكن المعتمد بالطبع يحب هؤلاء المتعصبين الظلاميين : ولم يعجبه أيضا الاضطرار للتوجه إلى زعيمهم يوسف بن تشفين. ولكن من كان يسأله عن السبب في هذا الخيار الحزين جدا، يبدو أنه كان يرد بقوله : "أفضل أن انتهى جمّالا في أفريقيا على أن أكون حارسا للخنازير في قشتالة". وقد انتقل أمير المسلمين بالتالي إلى البحر ؛ وردا على ألفونسو الذي كان يطلب منه التفاوض، يقال إنه رد عليه ببيت شعري حربي : " ليست لدى أوراق سوى السيوف والرماح، ولا سفير سوى الجيش الجرار "[1]

[1] المكارى، *Anecdotes sur l'istore et la literature des arabes d'Espagne*، إعداد ر. دوزى، ج. ديوجات، إ. كريل، و. رايت، الجزء الثاني، لايدن ١٨٦١، ص ص ٦٧٤، ٦٧٨ .

وقد حدث الصدام بالقرب من جواديانا، في زلاقه (وتسمى اليوم ساجراتاس)، في ٢٣ أكتوبر من عام ١٠٨٦ : وكانت هذه من أكبر الهزائم المسيحية في التاريخ. واستطاع الملك ألفونسو أن ينجو بالكاد، مع بضع مئات من الفرسان، محتميا في مدينة صوريا الأسبانية. وقد كومت رؤوس المهزومين المقطوعة على شكل أكوام كئيبة احتفالا بالنصر. ووجد المسيحيون والمسلمون في أسبانيا أنفسهم الآن أمام إسلام آخر : كان لابد أن يبدو بعيدا جدا بريق النافورات الفضية المتلألئة في مدينة الزهراء ...

لم يكن الثمن الذي دفعه مجتمع الأندلس بالفعل من أجل هذا الانتصار هينا إطلاقا. فقد أجبر يوسف جميع *reyes de taifas* على الخضوع لسلطته: ومن حاول المقاومة، بالتحالف بالطبع مع أهل قشتالة – ولم يعد واثقا أن من الأفضل على أي حال أن يصبح جمّالا في النهاية تحت حكم هذا الأمير –، كان يُقمع بلا رحمة. وبقيت طليطلة للمسيحيين : ولكن جنوب التاجو لم يبق هناك شيء من محاولات الغزو التي حدثت في السنوات السابقة. وفى المدن المسلمة كان الناس العاديون – في نوبة من الـ *pietas* الدينية مدعومة بالحماس للانتصارات – يساندون السلطة الوحشية والمتشددة دينيا للمرابطين. واضطر أمراء الأندلس، الذين كان ينظر إليهم سادتهم على أنهم فاسدون ومنحلون، للرحيل إلى المنفى : وربما مات بعضهم في الأغلال (وليس جمّالا...) في أفريقيا، مثل المعتمد قاضي وشاعر أشبيلية.

ومن ناحية أخرى، كانت سنوات سيطرة المرابطين– التي كانت تمتد من التاجو إلى الصحراء – مزدهرة وهادئة، على الرغم من بربرية حراس الرباط الصوفيين. وكانت المعارك القليلة الكبيرة دموية، والقمع الأوليّ شديدا : ولكن السادة الجدد، الذين كانوا يحترمون بدقة القواعد القرآنية، لم يكونوا يمارسوا في مقابل ذلك سوى ضغط ضريبي طفيف على المسلمين والذميين. وقد أعطوا دفعة للتطور المدني – بالتوسع في عاصمة أخرى حديثة التأسيس، مراكش (التي أرادها يوسف بن تشفين في عام ١٠٦٢)، وتنظيم البناء المعقد لمدينة فاس –، بينما كانوا يدافعون عن الأنشطة التجارية والصناعية التي كانت تتطور في مراكز مثل *Tlemcen* و*Sijilmassa* في أفريقيا وألمريه في أسبانيا، التي وصلت لامتلاك ثمانمائة معمل لنسيج الحرير، وتسعمائة موقف للمسافرين ومخازن للبضاعة (خانات وفنادق)، والعديد من الورش حيث كان يتم تشكيل المعادن، وميناء ترتاده جميع سفن الإسلام في البحر المتوسط. وكانت العملات الذهبية المصكوكة في دور سك العملة في مدن المرابطين (التي كانت تسمى "*marabottini*" في الغرب

لهذا السبب) مطلوبة وتلقى تقديرا في كل مكان. ولا يجب أن نعتقد أن صوفية جماعات الرباط قد خنقت الحياة الثقافية: فقد كان النقاش الديني والقانوني، على العكس من ذلك، منتعشا جدا. وقد عرفت مكتبة ومدارس قرطبة آنذاك انطلاقة غير عادية، تجاوزت أبهة حقبة الخلافة وشكلت الأساس لتطور ثقافي سيستفيد منه الغرب نفسه، بداية من القرن التالي.

وكانت تجرى أيضا في نفس الوقت أحداث رودريجو دياز. كما تروى القصيدة القشتالية *Cantar de mío Cid*، فإن المحارب العظيم مات في بلنسيه، في العاشر من يوليو ١٠٩٩، قبل خمسة أيام بالضبط من دخول الحجاج الفرانكيين المسلحين، الـ *cruce signati*، القدس على الجانب الآخر من البحر المتوسط. وتقول الأسطورة إنه انتصر في آخر معركة له وهو ميت، عندما خرج من باب مدينته وهو يركض بحصانه ضد مسلمي صقلية الذين كانوا يفرون عند رؤيته : وكان حصانه الوفي بابيكا يحمل فوق سرجه سيده المضمد، وقد تمدد على صهوته على لوحة من الخشب مربوطة على ظهره. ولم يتردد يوسف على أي حال في السير ضد المدينة، التي قاومته أيضا طويلا. وحاول ملك قشتالة عبثا مساعدتها : ولكنه اضطر للتخلي عنها في بداية شهر مايو ١١٠٢. وانسحبت زوجة رودريجو، doňa Jimena، مع رفات زوجها لدفنه في مسقط رأسه، في بورجوس.

وحاول ألفونسو باستماتة النهوض مرة أخرى من منحدر الهزيمة، ولكنه هزم مرة أخرى في عام ١١٠٨ في أوكليس، بين طليطلة وكوينكا، حيث فقد وريثه الوحيد، دون سانشو. وكان الطفل عزيزا عليه جدا : فقد ولد من حبه للاجئة السراسينية، زايدة ، زوجة ابن قاضى أشبيلية.

وبعد انتصار طليطلة انتهت المبارزة بين المسيحيين والمسلمين بالتالي، في شبه الجزيرة الأيبيرية، بهزيمة مذلة. ولكن الأمور سارت سيرا مختلفا في أماكن أخرى : في البحر المتوسط وفى إيطاليا وفى سوريا.

أبطال وشهداء

الهضاب عالية، والوديان مظلمة
والصخور داكنة، والآلام مخيفة
في ذلك اليوم يمر الفرانكيون من هنا في ألم
ونسمع ضجيجهم على بعد خمسة عشر فرسخا ...

إنه المقطع السادس والخمسون الشهير من *Chanson de Roland*. والنص، المشكوك في تاريخه، مليء بالتغييرات. وقد غنت أجيال من الأوربيين الغربيين هذه الأبيات أو أبيات أخرى مشابهة، وحفظوها في الذاكرة وانفعلوا، عند تذكرها، في كل مرة عبروا فيها طريق البرانس الوعر بين *Ostabat* و*Puente la Reina* : هناك حيث كانت طرق الحج القادمة من تورز وفيزيلاى ولو بوى تتلاقى لكي تتحد بعد ذلك بـ"المسيرة الجنوبية" التي تصل من سان جيل وتتجه بعد ذلك – عبر لوجرونيو وليون وبورجوس – إلى *Campus Stellae* الرائع، في كومبوستيلا، حيث ينتظر الرسول جاكومو الحجاج. ويمكن أن يسمى هذا الطريق "مسيرة أوربا" ؛ ولم يتشكل الضمير والهوية الأوربية على أي طريق مثلما حدث هنا.

ورولان هو بطل أشهر وأهم – وربما الأول – في الأغاني البطولية باللغة الفرنسية الشمالية في الـ *matière de France*، التي ثبتت في نهاية القرن الحادي عشر. وليست لدينا معلومات تقريبا عن الشخصية التاريخية لمن سيصبح بداية من القرن الحادي عشر–الثاني عشر واحدا من الأبطال الرئيسيين في التقليد البطولي الأوربي. وهو اسم مثبت، مع بعض التغييرات – *Hruodlandus, Rothlandus* – كعضو في الحاشية الملكية الشارلمانية ويتطابق مع شهادات القطع النقدية – وهو منقوش على عملات ترجع لعام ٧٨١ – وفى وثائق تذكر قوائم لشخصيات من البلاط. ولكن أهم شهادة غير مباشرة تقدمها *Annales qui dicuntur Einhardi*، حيث تتحدث عن الكمين المنصوب في عام ٧٧٨، عند مرور رونشيسفال، للحراسة الخلفية للقوات الفرنسية العائدة من حملة غير موفقة بين نافارا وأراجونا من قبل سكان الجبال *Wascones* (الباسك أو الـ *guasconi* :المسيحيين بلا شك، على أي حال). وتقتصر الـ *Annales* على التلميح إلى أن بعض الأعيان الملكيين المهمين الذين كان الملك قد ولاهم قيادة الطابور الذي فاجأه الكمين قد سقطوا في تلك الحادثة الحربية غير الواضحة وغير المجيدة وغير الهامة. وباستئناف وتوسيع

هذه الرواية أضاف كتاب *Vita Karoli* لإيجيناردو – والمنشور بـين عـامي ٨٢٩ و٨٣٦ – أسماء ثلاثة من بين ألمع الشخصيات التي سقطت أثناء تلك الواقعـة : القهرمان إجاردو، والكونت البلاطينـي أنـسيلمو و *Hruolandus, Brittannnici limitis praefectus*، أي رولاندو كونت ماركا دى بريطانيا. ومـن المحتمـل أن الـذاكرة التاريخية لحادث عام ٧٧٨ قد بقيت على قيد الحياة دون انقطاع جـوهرى حتـى القرن الحادي عشر : حتى قبلت في التقليد البطولي أو، إذا أردنا مزيدا من الدقة، حتى رسخ في ضميرنا كتابة ذلك التقليد البطولي المعـروف لنـا. وبالنـسبة لأحداث عام ٧٧٨، لابد أن نوضح أنه كان هناك تسجيل مؤكد لتلك الأحداث على شكل شعر ملحمي في القرن الحادي عشر فقط: ومن هنا حدث جدل بالغ العنـف بين مؤيدي التطور التاريخي التدريجي وغير المتوقـف لأغنيـات المـآثر مـن الأغنيات الشعبية القديمة الشفوية الشارلمانية – التي لا نعرفها في نفس الوقت في جوهرها النصي، على الرغم من أنها مثبتة على صعيد الذكر – ومؤيدي التطـور السريع لملحميات الـ *matière de France* على طريق الحج والعمليـات الحربيـة المرتبطة بـالـ *Reconquista*.

وأسس أسطورة أورلاندو تمد جذورها على أي حال في حدث تاريخي، ربمـا "أصغر"، ولكنه معروف ومؤكد. كان قد بدأ ربما على الفور وربما بفـضل إرادة شارلمان نفسه، نوع من "الإعداد للحداد"، الذي رفع الهزيمة العسكرية إلى درجـة الاستشهاد العالية وغير هوية المعتدين من مسيحية (كما كانت بالتأكيد) إلى مسلمة – وأخفى حقيقة أن هؤلاء كانوا ربما معتدى عليهم بالأحرى يدافعون عن أرضهم ضد جيش من الأجانب – وحوّل إخفاقا عسكريا إلى نجاح سياسي– دعائي. ولـم تكن القرون الثلاثة الطويلة التالية من الخلاف بين المـسيحيين والمـسلمين فـي حوض البحر المتوسط، وفى شبه الجزيرة الأيبيرية، وفى صـقلية وأخيـرا فـي الأناضول وفى سوريا – فلسطين سوى ارتقاء بهزيمة رونشيسفيل لتصبح لحظـة فاصلة في نزاع طويل، يمتد لقرون طويلة، من منظـور رمـزي أبـدى، بـين المسيحية والإسلام : ويصبح رولاندو القديسَ الراعي العلماني، والـشهيد الـذي يقدس على هذا الأساس، والنموذج الذي يحاكى السيد المسيح حيث كان موته آلاما حقيقية .

وقد كانت هناك بلا شك واقعة أو سلسلة من الوقائع التـي وجـد فيُهـا هـذا الخلاف "طويل الأجل" حله الحاسم والتنظيمي (بعد أن أصـبح مزمنـا، إذا جـاز التعبير، وخاليا عادة – من اللحظات "الحادة" – ولكن ليس بصورة مطلقة). ويمكن أن تتمثل إحدى هذه اللحظات في عملية بارباسترو، مع الصدى الذي أحدثته فـي

المسيحية. ويمكن أيضا أن تكون العمليات المعاصرة والتالية لإيطاليا وسوريا قد أثرت في إعداد موضوعات *chansons de geste* : ولكن أسبانيا كانت تعيد إلى الأذهان الأعمال القديمة لكارلو، نموذج الإمبراطور المسيحي الذي علقت عليه الكنيسة البروتستانتية آمالها بدلا من الملوك الفاسدين الذين عارضتهم. وعلى طريق الـ Reconquista والحج إلى سانتياغو دو كومبوستيلا أعد مذهب وروحانية وجماليات بلاغة الحملة الصليبية القادمة.وقد استعيدت الأسطورة الشارلمانية وأعدت من جديد وشوهت أيضا في العديد من النقاط بالقياس إلى الواقع التاريخي. ويلمح رولان في أكثر من مقطع، وبصورة غامضة تقريبا، لأحد النصوص – "أحد المآثر القديمة" أو "مآثر الفرنجة " – ولا نستطيع أن نفهم ما إذا كان مصدره روائيا أم شعريا: ولكن الأمر يمكن أن يتعلق بحيلة أدبية تهدف لإضفاء مصداقية وسلطة أكبر على ما يروى. ولكن مزيدا من المصداقية يمكن أن يعطى الإشارات لرفات حقيقية يمكن أن نشاهدها بإعجاب ونبجلها، بموقف عقلي وعلى طول مسارات لا تختلف عن مسارات الحجاج القادمين بالذات من فرنسا والمتوجهين إلى سانتياجو: مقبرة رولان (التي يمكن الاعتقاد بيقين أقل أن مقبرتي أوليفييرو وتوربينو قد ضمتا إليها) في كنيسة سان رومانو في بلاى، والبوق العاجي – أي بوق رولان والـ *tuba eburnea* المشار إليه في مخطوط القرن الثاني عشر الشهير المحفوظ في كاتدرائية سانتياجو والمسمى *Codex calixtinus* – في كنيسة سان سيفيرينو في بوردو. وللأسف محا تدمير الحروب بين المسيحيين الكاثوليك والكالفينيين أولا، ثم الثورة الفرنسية بعد ذلك، العديد من هذه الآثار. وتشهد الفكرة المتسلطة حول رولان من خلال الكتابة على وجود أماكن عبادة مرتبطة بذكرى تضحية رولان : ومن المفترض أنها على علاقة وثيقة مع الإعداد الشفوي للموضوعات البطولية التي أدت بالذات إلى كتابة القصيدة، كما نعرفها نحن. وفى أعماله *Gesta regum Anglorum* المكتوبة في عام ١١٢٥ تقريبا يعطينا جوليلمو دى مالمسبيرى خبرا عن أنه في معركة هاستينجز في عام ١٠٦٦، بين القوات النورماندية، كانت تدوي أنشودة *cantilena Rollandi* : ولكن من المستحيل أن نعرف ما إذا كان هذا التعبير يقصد به الـ *chanson* الحقيقية ،أم أحد الأعمال الشفوية العادية التي سبقتها وكانت نموذجا ومادة لها إلى حد ما. والفارق الزمني بين أحداث ١٠٦٦ وكتابة الـ *Gesta* يمنع أي تحديد زمني أكثر دقة. ونستطيع أن نقول أن *Chanson de Roland* متزامنة على أي حال في جوهرها، مع الحملة الصليبية الأولى، حتى وإن كان من الصعب الانحياز بيقين بين من يريدها سابقة بصورة طفيفة ومن يريدها لاحقة قليلا. ومن المؤكد أن القصيدة وعملية ١٠٩٦–

١٠٩٩ تستمدان زادهما من نفس التربة الثقافيـــة والاقتــصادية الخــصبة وهمـــا مرتبطتان بصورة وثيقة.

ويمكن القول إن *Chanson de Roland* تقدم أيضا، إلى حد ما، القانون التفسيري والإطار الدعائي للحملة الصليبية والعمليات ضد السراسنة بداية من القرن الثـــاني عشر. فقد قام شارلمان في سبع سنوات من الحرب بغزو أسبانيا بأسرها : وتبقـــى فقط مدينة سرقسطه التي يرسل ملكها، مارسيليو، إلى الملـــك الفرنكـــي الـــسفير بيانكاردينو. ويثير المسلك الذي اتخذ إزاء سلطة السراسنة الباقية في أسبانيا خلافا بين مؤيدي الحرب، وأولهم رولان، ومؤيدي السلام، ومن بينهم زوج أمه جـــانو. وقد جعلت الخصومة التي نشأت بين الاثنين جانو، سفير شارلمان في سرقـــسطه، يدفع مارسيليو لحمل السلاح كراهية للفارس ويحيك معه خيوط كمين رونشيسفال حيث يموت رولان بطلا- شهيدا. ويصل شارلمان متـــأخرا لإنقـــاذ ابـــن أخيـــه المفضل، ولكن في الوقت المناسب لتعقب السراسنة الفارين. وعند هـــذه النقطـــة، يقوم مارسيليو المهزوم، في سرقسطة، باستقبال ســـفراء مَلِكـــه، أميـــر بابيلونيـــا باليانتى، الذي يتحرك للوصول إلى أسبانيا والتنافس في المَعركـــة مـــع خـــصمه الإمبراطور شارلمان (وكيف لا نفكر في نداء *reyes de taifas* للأمير المـــرابط ؟). والمعركة بين الملكين هي في الواقع التحدي الأكبر بـــين المـــسيحية والوثنيـــة. وينتصر شارلمان، ويتم الاستيلاء على سرقسطه، ويموت مارسيليو، ويدفن رولان في بلاده ويتمكن كارلو من العودة إلى أكويسجرانا حيث ستموت ألـــدا، خطيبـــة الفارس من الألم عند سماعها خبر موت حبيبها ويلقى جانو عقابا مثاليا.

وقد لاقت *Chanson de Roland* والمؤلفات الشعرية التي طرحـــت بـــصورة أو بأخرى كاستمرار أو تكملة لها نجاحا منقطع النظير بين القـــرنين الثـــاني عـــشر والسادس عشر : ومعها اسم رولان والاسمان اللذان رسخا الـــ *compagnonnage* بين رولان وأوليفييرو بالإضافة إلى صور رولان الأيقونية، والتـــي عثـــر علـــى العديد منها خاصة في منمنمات مخطوطات المؤلفات الـــشعرية فـــي موضـــوع شارلمان، ولكن أيضا في تماثيل وبوابات زجاجية أيضا.

وخاصة الشهادات الأيقونية على شـــعبية رولان ومغامراتـــه وهـــى كثيـــرة ومبكرة: على الرغم من أن الشكوك والتكلف كان يحيط بالبعض منها. باســـتثناء بعض الصور التي جرى التعرف عليها بسرعة - أو، على العكس من ذلك، على أساس قراءة تقليدية وغير ممحصة تواصلت في كسل - علـــى أنهـــا لـــرولان، ولاشك أن تمثالي بوابة كنيسة فيرونا يتعلقان برولان وأوليفييـــرو، حيـــث تأكـــد التعرف على الفارس من النقش الـــ *Durindarda* الذي يزين سيفه : على الرغم من

أن تفسير النحت " التوأم" كصورة لأوليفييرو يعد أقل تأكيدا، وأيضا فيما يتعلــق برولان، تساءل البعض منذ متى كان على هذا النحو. بمعنى أصح، لا يستبعد أن يكون المحاربان اللذان يشرفان على بوابة كنيسة فيرونا يمثلان في الأصل شــيئا مختلفا ؛ وأن انتشار دورة الأشعار الملحمية التي كان رولان بطلها قد أدى إلــى مطابقة لاحقة عن طريق نقش اسم سيف الفارس على النصل الذي يظهره الــشكل الذي كان ولا يزال يمثل رولان دون أدنى شك بالنسبة للجميع (ويرى تفسير آخر رائج، إن المحاربين ربما كانا على العكس من ذلك بطلي حلقة ملحميــة أخــرى، جوليلمو دورانج والسراسيني رينواردو). ولكن تصويرا مؤكدا وهــائلا لملحمــة رولان كان يتمثل في برنامج الفسيفساء في أرضية كاتدرائية برينــديزى: حيــث كانت هناك سلسلة من المشاهد التوراتية، وسط الفسيفساء، محاطة بشريط ارتفاعه متران ونصف وكانت تروى هزيمة رونشيسفال ولكن زلــزالين متتــاليين، فــي ١٧٤٣ و١٨٥٨، دمرا للأسف الأرضية تماما : ولقراءة مــشاهد الفسيفــساء، لا نستطيع اليوم سوى الاعتماد على صور تصويرية غير مؤكدة.

وربما تشابهت واختلطت أحداث الــ *matière de France* وشأن بريطانيا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر : ليس لأنه كانت هناك تداخلات بــين دورات شارلمان وأرتو، ولكن ربما لأن الأول، البطولي أصلا، اتخذ مع الوقت خصائص ومواقف مميزة لجوهر الثاني، الذي يتميز بالحب والرحلات، والــمغامرات ذات الخلفية السحرية أو الــخيالية.

وبين القرنين الثاني عشر والثالث عشر حــدد برترانــد دى بارســيورأوبيه، مؤلف الــ *Girat de Vienne* وربما الــ *Aymeri* de *Narbonne* ثلاث "حلقــات" مــن الــ *gestes* : ففي تقسيمه الثلاثى كانت تتميز الأغنيات الأربع والعشرين المتعلقــة بــ *Geste de Guillaume* – والمخصصة للدوق جوليلمو دوق أكويتانيــا المعاصــر لشارلمان (ولكن هناك من يتساءل بصورة ما إذا كانت تتعلق أيضا بذكرى بطــل بارباسترو والمفضل لدى جريجوريو السابع) – والتي تتناول موضــوع الأتبــاع المخلصين لملك ضعيف وغير واثق، ومهدد من داخل وخارج مملكته علــى حــد سواء. وكان التقليد البطولي يتقابل مع التاريخ وأصبح يمتزج به دون انفصام.

بحارة تيرانيون ومحاربون نورمانديون

من المعروف أن هناك رأيين أساسيين تعارضا طويلا، فيما يتعلق بالتوسع الإعجازي للغرب خارج حدوده، بداية من القرن الحادي عشر : الرأي الذي يتحدث عن توسع أثاره ودفعه بصورة ما وسيطر عليه الخارج إلى حد ما ؛ والرأي القائل على العكس من ذلك بوجود عملية مستقلة يجب أن نحدد جذورها وقوتها داخل القارة الأوربية.

وقد أوضح صاحب الرأي الأول، موريس لومبارد، كيف أنه قد تكوّن عالم بحر أوسطى مسلم، قبل كل شيء وفوق كل شيء – غنى بالمدن الجائعة للاستهلاك والمحتاجة للمواد الخام – من قرطبة إلى القاهرة، ومن القيروان إلى دمشق ومن باليرمو إلى بغداد – كان يجبر الغرب الأوربي على أن يستعد لإعطائه بعضا مما يمتلكه أو ينتجه بوفرة : الخشب والحديد والقصدير والعسل والأسلحة والعبيد أيضا بصورة أو بأخرى (بالالتفاف حول الحظر الكنسي). وسوف تعيد هذه العمليات التجارية المكثفة والوفيرة الاتصالات بين مختلف ضفاف البحر المتوسط على الرغم من الصدامات البحرية المستوطنة وغارات القراصنة وسوف تعيد الثراء والحيوية إلى شرايين أوربا البربرية التي خرجت من شتاء القرون الوسطى الأولى. وقد ركز مؤيدو الافتراض الثاني – من مارك بلوش إلى لين وايت الابن، إلى جورج دوبى وآخرين – على العكس من ذلك، على سلسلة من الأسباب المتضافرة المتكاملة فيما بينها، من الأسباب المناخية إلى السكانية إلى التكنولوجية. ويبدو واضحا منذ زمن طويل أن كل هذه الأسباب يجب أن تكون حاضرة في تأليف الصورة المتماسكة التي تضفي على كل منها وزنه الصحيح وتنأى عن الميل لتحديد أسباب وحيدة وأولية في عملية يجب أن نتعمق بالذات في تعقيدها، على العكس من ذلك. ومن المؤكد أن وفرة الذهب الإسلامي المتداول بين نهاية القرن العاشر والحادي عشر في المدن الساحلية المسيحية كانت لها العديد من الأصول المختلفة : في برشلونة، ربما، كانت هناك أيضا أجور الملوك العرب الأسبان للمرتزقة الكتلونيين ؛ ولكن كانت هناك أيضا عوائد التجارة الغربية التي أصبح التصدير فيها أقوى وأهم باستمرار ؛ وأخيرا وليس آخرا، نتائج الغارات.

كانت بيزا وجنوا، في نهاية القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر مهددتين من الغارات الإسلامية : ولكن هناك من يميل اليوم، في نفس الوقت، للتأكيد على

أن نهضتهما الاقتصادية والبحرية كانت قد بدأت بالفعل. وفي نفس الوقت، ستبرهنان بعد قليل على قوتهما في المعركة غير السهلة ضد ملك دينيا وباليارى ومجاهد، الذي هزم في ١٠٢١. ومنذ ذلك الحين سيقوم بحارة بيزا – وأحيانا بمساعدة أهل جنوا، وفي الأغلب بدونهم – وفي نفس الوقت كان قد بدأ السباق على الهيمنة على البحر التيرانى – بنشاط حربي مكثف، مواز ومكمل للنشاط التجاري والدبلوماسى أيضا. وتثبت وثائق أرشيف الدولة في بيزا أن العلاقات مع الإمارات الساحلية الإسلامية في أفريقيا كانت طيبة وكانت مبكرة : وكان كاتب السيَر عند ماتيلدى، الراهب دونيتسونى، يشير إلى شعوره بالعار لأن ميناء المدينة التوسكانية كان يزوره الأفارقة الكثيبون، في أوج القرن الحادي عشر.

ولكن العمليات الحربية تناوبت مع العلاقات السلمية. وفى ١٠٣٤ هاجم أهل بيزا مدينة بونا الجزائرية ؛ وميناء باليرمو في ١٠٦٣-١٠٦٤، وبأرباح الإغارة عليه بدأ العمل في تشييد الكاتدرائية التي كانت أشكالها وأبعادها أساسا لقياسات وخرائط مساحية دقيقة لكنيستي القبر المقدس في القدس والميلاد في بيت لحم، كما في بيت المعمودية الرائع في بونانو ؛ وأخيرا في ١٠٨٧، حدث ذلك الهجوم على ميناء المهدية الذي قلل المؤرخون من شأنه لزمن طويل على أساس بعض المصادر الرومانية سيئة النية القريبة من روجيرو الأول. لم يكن غازي صقلية يحب أن تتخذ مبادرات حربية كثيرة إزاء المسلمين، وهو ما كان سيفسد علاقة حسن الجوار بينه وبين مصر والملوك الأفارقة : فقد رفض بالفعل اقتراح بيزا بالمشاركة في العملية ؛ ولكن هناك اليوم من يميل لتقييم أهمية ذلك تماما، وهى أهمية تعلو بكثير مجرد الانتقام في أعقاب بعض التجاوزات ذات الطبيعة التجارية أو القرصانية. وكانت المهدية مع مآذنها، المحطة الوسطى على المحور الشرقي- الغربي للعمليات التجارية للإسلام البحر أوسطى بين ألمريه وموانئ النيل. ويكفى هذا لكي ندرك كم كان الرهان عاليا.

وبالفعل، يبدو أن الحملة – الهائلة بصورة غير مألوفة من حيث العتاد والرجال والسفن – جرى الإعداد لها طويلا وبعناية بالاتفاق أيضا مع البابا فيتوريو الثاني، الذي كان قد منح الأقارب صكوك غفران روحانية مماثلة ربما لتلك الممنوحة من الإسكندر الثاني لبارباسترو. وعلى الرغم من أن أهل بيزا كانوا مهيمنين على ما يبدو، فإن الأسطول كان نتيجة تحالف مع أهل جنوا وأمالفي وشارك فيه أيضا آخرون : على سبيل المثال بنديتو، أسقف مودينا، في وظيفة تبدو رفيعة. هل كان يمثل البابا؟ لا شك في أن دوره في حاشية ماتيلدى كونتسية كانوسّا هو الذي حدد وزنه السياسي على أي حال. وهناك قصيدة تتحدث

عن بيئة بيزا، وتبدو مصدّقة على صعيد المعلومات التاريخية، وتلمح إلى *signum* للقديس بطرس على الـ *scarsellae* البحارة يمكن أن ترجعه إلى الـ *signa super vestes* المعتادة للإشارة إلى نذر الحج وربطه في نفس الوقت بالوعد البابوي بصكوك الغفران : وهذا لا يؤكد فحسب الشهادة على وقائع في مدينة مونتى كاسّينو تقول إن البابا سيسلم الأسطول رايته، طبقا لعادة تتدرج في ممارسة البابوات الإصلاحيين، ولكنه يسبق بعشر سنوات تقريبا الموقف الذي يعتبر تاريخيا، في كليرمونت في ألفرنيا، وهو مركز واقع على طريق سانتياجو، وسيقوم فيه أوربانوس الثاني بتسليم الـ *signum crucis* لأولئك الذين أظهروا قبولهم لطلبه بأن يهبوا لإغاثة الكنيسة المسيحية الشرقية التي يهددها الكفار.

وقد شارك أهل بيزا في "الحرب الصليبية الأولى" متأخرا، بحملة تركت الساحل التوسكانى فقط في ربيع ١٠٩٩ للوصول إلى ميناء اللاذقية السوري في سبتمبر التالي، عندما كان قد تم الاستيلاء على القدس. ولكن الأسطول الذي كان يحمل ممثل البابا إلى الأرض المقدسة – وهو نفس كبير أساقفة بيزا دايبرتو – ، تأخر على طول الطريق في عمليات نهب لجزر بيزنطية يصعب الاعتقاد بأنها عرضية. وتسابق أهل بيزا وجنوا فور انتهاء الحرب الصليبية، في تحديد مستعمراتهم التجارية في المراكز الساحلية السورية–اللبنانية–الفلسطينية ومع بعض التأخير جاء أيضا أهل فينسيا، الذين دخلوا مترددين حلبة السباق حيث كانت الحرب الصليبية تزعج احتكارهم للعلاقات مع بيزنطة ومع الإسكندرية. وبعد ذلك ببضع سنوات، في ١١١٣ – ١١١٥ كان أهل بيزا المتحالفين مع رايموندو–بيرينجاريو الثالث كونت برشلونة أبطالا (وهذه المرة دون مساعدة أهل جنوا) لغزو عابر لجزر باليارى مما أدى إلى كتاب احتفالي آخر في بيزا، الـ *Liber Maiorichinus*. وفى هذه الحالة أيضا، قام البابا بتسليم قادة العملية رايته.

لم يستمر الاحتلال المسيحي لجزر باليارى طويلا. وهذه الواقعة يمكن أن تعتبر على أي حال خط النهاية في المرحلة التي بدأت في البحر المتوسط بالغزو الإسلامي لأفريقيا : ولكن خطوط النهاية، كما يحدث دائما في التاريخ، هي أيضا خطوط انطلاق. ولكن سفن السراسنة المشاهدة في مياه البحر المتوسط غرب قناة صقلية حتى القرن السادس عشر ستكون قليلة نسبيا من الآن فصاعدا، باستثناء بعض الحوادث الخاصة.

كان الغزو النورماندى لصقلية ممكنا على أيدي الشقيق الأصغر لروبرتو الجويسكاردو، وهو روجيرو الأول دالتافيللا المسمى بعد ذلك "الجرانكونت" – وبصورة لا تختلف عما حدث في أسبانيا – بعد زوال سلطة الأمراء في باليرمو،

والثورة غير المنظمة لبعض الملوك الصغار والدعوة الموجهة للنورماندى من أحدهم، وهى دعوة ابن الثمة، الذي كان يسيطر على المنطقة الواقعة بين كاتانيا ونوتو وسيراكوزا. وبعد الاستيلاء على مسينا على الفور تقريبا في ١٠٦١، سارت مسيرة الغازي في نفس الوقت ببطء إلى حد ما، على الرغم من أن المصادر العربية تؤكد – ولكن ليس من السهل الوثوق بها كثيرا – أن السكان المسيحيين في الجزيرة كانوا يؤيدون القادمين على الأقل. ولكن انتصار تشيرامى في ١٠٦٣، الذي تم أيضا بفضل ظهور القديس جورجو المسلح الذي أغاث النورمانديين، بث الشجاعة والحماسة.وكانا عامين من المعجزات بالنسبة للقوات المسيحية : هجوم قوات بيزا على ميناء باليرمو وبعثة بارباسترو، والإستيلاء على كويمبرا. ولكن إسهام القوات الفرنسية القادمة من القارة استطاع هزيمة السراسنة فقط بعد أن تغلب جويسكاردو، المشغول ضد البيزنطيين في بوليا، على مقاومتهم في ١٠٧١. وبالفعل سقطت باليرمو، بعد حصارها في أغسطس ١٠٧١، في يناير التالي : وتم دخول المنتصرين دون مذابح وتحول المسجد الكبير إلى معبد مخصص لمريم العذراء.

ولكن غزو الجزيرة تقدم بعد ذلك ببطء نسبيا، على الرغم من سياسة الإرهاب التي نفذها النورمانديون. وبمجرد أن أصبح سيدا لصقلية اجتهد الجرانكونت للإبقاء على علاقات طيبة مع رعيته المسلمين : وكان هذا يمثل في نفس الوقت ضمانا للعلاقات مع الجيران على الجانب الآخر من القناة. ومن ناحية أخرى يجب أن نأخذ في الحسبان أن مسيرة التعايش كانت حتمية : فعند الغزو النورماندى كان يسكن الجزيرة كلها تقريبا عرب برابرة وسكان أصليون اصطبغوا بالصبغة العربية والإسلامية. وكانت في باليرمو فقط وفي بعض المناطق المحدودة في شمال شرق الجزيرة جاليات يونانية–مسيحية كبيرة إلى حد ما. وأثناء حملة الغزو العسكرية، كان روجيرو الأول قد ضمن حرية العقيدة للجميع ؛ وأدخل العديد من السراسنة في جيشه ؛ ولكنه عمل في نفس الوقت على إعادة تسكين المسيحيين اللاتينيين في الجزيرة، وعندما شعر بمزيد من الأمان، غير بحذر موقفه إزاء المسلمين وجعله أشد قسوة. وبالطبع استمر الموظفون العرب على أي حال في القيام بعملهم طوال فترة الحكم النورماندى وبعد ذلك أيضا في الديوان، وهو المكتب المسئول عن التنظيم الضريبي.



٤

دور المدينة المقدسة

القدس

مع السنوات الأولى من القرن السابع، كانت هناك أزمة كبيرة اجتاحت كل الشرق الأدنى. ففي عام ٦١٤ اجتاح الإيرانيون سوريا ودمروا الكنائس الكبيرة في القدس. ونجح الملك البيزنطي هرقل في إعادة تنظيم الغزو من جديد : وفي ٦٢٩ كان يدخل القدس حافيا وهو يحمل شخصيا رفات الصليب الحقيقي الذي كان الملك الكبير خسرو الثاني قد أحضره فريسة مظفرة إلى مدينة *Ctesifonte* واستعاده هو.

وكان الهجوم العربي – الإسلامي، الذي بدأ من شبه الجزيرة العربية على الفور بعد موت النبي (صلعم) في عام ٦٣٢، قد استفاد بلا شك أيضا من أزمة الإمبراطوريتين : فخلال بضع سنين سيبتلع الإمبراطورية الفارسية وسيعرض للمصاعب تلك البيزنطية ليصل كما نعلم لتهديد أسوار العاصمة نفسها .

وقد قاد هرقل الذي لا يكل من جديد قواته إلى الشرق محاولا اعتراض التقدم العربي الذي اتحد معه (كما حدث في ٦١٤ في زمن الهجوم على الفرس) أيضا كل المستائين من النير البيزنطي الثقيل، من اليهود إلى الكثيرين من المسيحيين المهرطقين : وكان هناك في هذه الحالة عنصر من الحماس الديني المتأجج قد أضيف بين المعتدين إلى القوة الحربية، وكان هناك الكثير من المسيحيين الذين كانوا يعتنقون الإسلام. بل يمكن القول إن القوة الجاذبة والغالبة للغزوات الإسلامية بين سوريا والأناضول وشمال أفريقيا وأسبانيا كانت اعتناق الدين الجديد. وقد حاول هرقل وقف العرب عند نهر اليرموك : ولكنه بعد أن اكتشف تفوق قواتهم، انسحب حاملا معه الصليب الحقيقي ورفاتا من القدس. وبعد عامين من المقاومة، فتحت القدس في ٦٣٨ أبوابها لخليفة النبي (صلعم)، الخليفة عمر ابن الخطاب.

وقد قابل الخليفة البطريرك سوفرونيو، على جبل الزيتون، مرتديا ثوبا بـدويا متواضعا، وهو مغطى بمعطف قديم مرقع ؛ وبعد ذلك ركب جملا عجوزا ودخل معه المدينة بعد أن طمأنه بأن حياة وممتلكات المسيحيين ستحترم ولن يكون هناك مساس بأماكنهم المقدسة. وقد زار كنيسة *Anastasis* وقام بالصلاة القانونية خـارج المبنى، لتجنب مطالبة المسلمين بملكيته ؛ وقد طالب بعد ذلك بأن يصطحب إلـى المكان الذي كان يظهر فيه المعبد، وتألم عندما رآه وقد تحول إلى مخزن للنفايات وبدأ بيده، يساعده رجاله، في تنظيفه (و بعض المصادر تقول أيـضا إنـه أجبـر البطريرك على أن يفعل نفس الشيء) حتى ظهرت تحت الطبقـة الـسميكة مـن القاذورات صخرة الـ *Moriah* المقدسة، التي عمل على تغطيتها بمصلى بسيط من الخشب.

وقد كان المسلمون لا يزالون يسمون أورشليم بالقدس، "المقدسـة" : وكـانوا يعتبرون مركز القدسية قبل كل شيء هو صخرة الـ *Moriah*، حيث تقول التقاليـد اليهودية – المقبولة دون اكتراث من المسيحيين والمؤيدة بقوة من الإسـلام – إن إبراهيم قدم ابنه اسحق كضحية إلى الله، وبعد ذلك سينزل ملك في أثناء طـاعون شديد أثناء ملك داوود وأخيرا ستوضع *l'Arca dell Alleanza* : أي أن ذلك سيـصبح مكان قدس الأقداس في المعبد الذي عمل سليمان على تشييده (ولكن، حسبما يقول آخرون، ربما استخدمت الصخرة على العكس من ذلك كدعامة لمذبح القرابين).

وطبقا لتقليد تطور من السورة ١٧ من القرآن (سورة الإسـراء) نقـل النبـي محمد (صلعم) في ليلة من عام ٦١٩ من مكة إلى القدس : ومن هناك، من صخرة الـ *Moriah* بدأ صعودا إلى السماوات على حصان برأس إنسان هو البراق.

وعلى صخرة إبراهيم، في مكان المصلى الذي شيده عمر، قام الخليفـة عبـد الملك في ٦٨٧ بتشييد ما يسمى بالفعل بالصخرة. وباستخدام عمال محليين ربمـا ولكن بالطبع مهندسين معماريين دمشقيين وبالتالي من المدرسة البيزنطية، عمـد المسلمون المكلفون ببناء المبنى، الذي يبدو أنه لا يزال يعلو القدس بقبته المذهبة، إلى التنافس مع قبة *Anastasis* – وهى الكنيسة التي عمل على تشييدها في القـرن الرابع قسطنطين علّى الأماكن المعروفة بأنها المواقع الخاصة بموضـع صـلب المسيح والضريح المقدس – والتي كانت مصدر إلهامهم.

وجنوب المسجد الكبير، يبرز أيضا على الباحة المسماة بالحرم الشريف، خلف ما كان يعرف بالـ *Portico Reale* في عصر هيرود، المسجد المسمى بالأقـصى ("البعيد")، من الاسم الذي أعطاه القرآن للقدس والـصحون الـسبعة مـن النـوع

البيزنطي وقبابه المفضضة، ويكمل المسجد الأقصى المجمع المقدس الإسلامي الرابع : وقد استغرق بناؤه والتعديلات التالية بضعة قرون، من العصر الأموي حتى العصر الأيوبي (في القرنين السابع والثامن).

والقدس هي مقصد الـ *aliah* اليهودى، "الصعود" للمعبد، وكانت نقطة الوصول المفضلة أيضا للحج الذي يمارسه المؤمنون بالمسيح : وكانت الممارسة المقدسة حية بالفعل ربما في المجتمعات اليهودية –المسيحية (التي تبحث أيضا عن ذكريات المسيح بصعودها إلى المعبد) وترسخت في عالم الدين الجديد بيقين، على الأقل من القرن التالي – وربما أيضا قبل ذلك، بل على الفور –، وبين القرنين الرابع والخامس تلقت التصديق من إرادة الأباطرة المسيحيين. وتقول التقاليد إن الإمبراطورة إلينا ربما تكون هي التي أشرفت على التجديد، والعثور من جديد على الصليب الحقيقي والبقايا الأخرى الخاصة بآلام المسيح : ومن ذلك الحين أسست في القدس وفى كل الأراضي المقدسة العديد من الأضرحة المسيحية، التي أصبحت مقصدا للحج بانتظام.

ولكن القدس بالنسبة للمسلمين، بعد مكة والمدينة، هي المدينة المقدسة الثالثة في الإسلام السنيّ وواحدة من المدن الأولى أيضا في الإسلام الشيعيّ. وعلى الرغم من أن الحج ليس إجباريا إلى القدس فإنه يوصى به في الإسلام ؛ وفى بعض الفترات – عندما كان لا يمكن الوصول إلى مكة لأسباب سياسية – أعلن عن أنها بديلة عن الحج الكبير نحو مدينة الكعبة.

وبعد الاستيلاء على القدس، كان المسلمون عازمين بقوة على احترام اليهود والمسيحيين : لأنهم كـ "أهل الكتاب"، كان من حقهم الإبقاء على عبادتهم، حتى وإن كان ذلك مع بعض التحديدات. ومن القرن السابع وحتى أوائل القرن الحادي عشر عاشت القدس فعليا في سلام : واستمر الحجاج المسيحيون في التدفق دون إزعاج إلى أماكنهم المقدسة – كما تشهد على ذلك أيضا الكثير من تقارير الرحلات المكتوبة باللغة اللاتينية – بينما كان الموقف يتجه لتقسيم المدينة إلى أحياء، وكان مرتبا بحيث يسكن المؤمنون كلٌ بالقرب من أماكنه المقدسة. وبالتالي فقد احتل المسلمون المنطقة الشمالية الشرقية والوسطى، حول الحرم الشريف ؛ واستقر المسيحيون اليونانيون – وأيضا الغربيون الذين يبدو أنهم بدأوا في بناء نزل الحجاج الخاصة بهم هناك من القرن التاسع – في الشمال الغربي، في المنطقة القريبة من كنيسة *Anastasis* ؛ واستقر الأرمن والجورجيون في الجنوب الشرقي، نحو جبل صهيون، وخاصة حول كنيستهم الكبيرة والجميلة والمقدسة، كنيسة سان جاكومو ؛ وتجمع اليهود على العكس من ذلك في المنطقة الجنوبية،

بين المسيحيين الشرقيين و"الحائط الغربي" المحيط بالمعبد. وهـذا هـو التقـسيم العرقي الديني المتبع للمدينة– باستثناء فترة الاحتلال الصليبي، بين عامي ١٠٩٦ و١١٨٧ –، على الرغم من العديد من الصراعات، على الأقل حتـى الحـروب العربية الإسرائيلية في ١٩٤٨ – ١٩٦٧.

ولم يعترض أحد أو يعرقل الحج المسيحي، باستثناء بعض الحوادث الهامـشية فعليا، بعد أن استؤنف عقب التوقف الإجباري طوال فتـرة الحـروب الموازيـة للنصف الأول من القرن السابع. وربما كانت النقطة هـي عـدم انتظـام ونـدرة العلاقات البحرية، التي كانت قائمة بصورة ما من وإلى الشرق فقط – فيما يتعلق بأوربا الغربية – بداية بجنوب إيطاليا.

وكانت الطريقة نفسها في فهم الحج قد غيرت من طابعها ربما بتأثير الرهبنـة السلتية "الجوالة" وممارساتها في التوبة، التي أصبحت منتشرة أيضا في القـارة. وبعد مرحلة الحماس المرتبط ببناء القدس المسيحية كانت قد بدأت مرحلة أخرى، مرتبطة بقوة بسلوك التوبة : فقد كان ينظر للحاج أساسا على أنه مـذنب تائـب، تتجه الكنيسة لتحديد حقوقه وواجباته بوضوح. وقد أصبحت المسارات أيضا مـن وإلى القدس ملزمة أكثر، لضرورة الرعاية والأمن : فعلى طول الطرق، وخاصة في إيطاليا، كانت تصطف نزل الحجاج والأضرحة الصغرى حيـث كـان مـن الممكن كسب الغفران والحصول على الضيافة. وتوضح أوصاف (روايات) كنيسة *Anastasis* المتعلقة بهذه الفترة، عند مقارنتها بالأوصاف الموجـودة قبـل الغـزو الفارسي، أن الأضرار التي لحقت بالمبنى المقدس كانت هائلة وكانـت عمليـات الترميم متعجلة ؛ وفى المقابل – كما يشهد على ذلك أحد الحجاج في عـام ٨٧٠، وهو الراهب برناردو – كان قد افتتح بالقرب من قدس الأقداس نزل للحجاج مـن أصحاب اللغة والشعائر اللاتينية، وكان يبدو أنه قد افتتح بناء علـى رغبـة مـن شارلمان وبإذن من خليفة بغداد هارون الرشيد. وقد بنى مع كنيسة سـانتا ماريـا المسماة *Latina* واستخدمها الرهبان في دير بنديكتي مجاور وهى تقع قريبـة جـدا من كنيسة الـمدفن في الجنوب الشرقي قليلا منها .

ولكن الصراعات الداخلية للإسلام لم ترحم المدينة المقدسة طويلا. وبصرف النظر عن تفتت سلطة الخلافة، والصراعات العائلية والعداء بين السنة والـشيعة في كل منطقة الشرق الأدنى وما يسمى بـ "الهلال الخصيب" فإنه يوجد عنـصر جغرافي تاريخي يفرض نفسه على فترات متباعدة حتى وإن كانت غير منتظمـة ونحن نعرفه من الحقبة التوراتية.وتعد المنطقة الواقعة بين بحـر الـشرق ونهـر الأردن، وبين لبنان والبحر الأحمر، منطقة مرور للقوافل والحدود وعادة ما كـان

يتنازعها من يملك السلطة بين سوريا وبلاد ما وراء النهرين ومن يملكها في مصر. وقد تأكدت هذه القاعدة في نهاية القرن العاشر، عندما أصبحت مصر مركزا للخلافة الفاطمية. وسرعان ما سقطت القدس تحت حكم الخلفاء الشيعة المصريين ؛ وانهمك واحد منهم، وهو الحكيم (الذي يعتبر مؤسس الطائفة الدرزية)، في اضطهاد ليس فقط السنة ولكن أيضا اليهود والمسيحيين : فأغلق المعابد اليهودية والكنائس، وأفرغ الأديرة، ومنع الحج. وفى عام ١٠٠٩، أمر في النهاية بتدمير كنيسة Anastasis نفسها ومحراب المدفن نفسه الواقع أسفل المدفن. وقد نفذت أوامر الخليفة قليلا وبصورة سيئة، ربما أيضا بسبب بعض المقاومة من مسلمي القدس الذين كانوا من السنة في معظمهم وكان وقف الحج يلحق الضرر بهم أيضا من الناحية الاقتصادية. على أي حال كانت هناك أضرار وكانت هائلة : وقد أكدت ذلك الحفريات الأثرية.

وبعد مرور إعصار الحكيم، حثت السلطات الإسلامية على ترميم المباني المتضررة واستئناف الحج. وكان إمبراطور بيزنطة قسطنطين مونوماكو، يعتبر الحامي الطبيعي للمسيحيين المحليين (الذين كانوا يسمون لهذا بالـ "الملكيين"، أو "أهل الملك" : من الكلمة العربية **ملك** التي كانت تترجم الكلمة اليونانية *basileus*، التي تشير إلى الإمبراطور) وقد اهتم بترميم الضريح المقدس : وفى منتصف القرن الحادي عشر، كانت إعادة تنظيم المبنى المقدس قد اكتملت. وكان الأمالفيتانيون من جانبهم، والذين كانوا يشكلون وجودا تجاريا قويا وقيما، قد قاموا بين العقد الثالث والرابع من القرن بإعادة تنظيم نزل الحجاج الذي أمر به شارلمان والذي احتل الآن، بعد أن استكمل أيضا بكنائس جديدة، منطقة مرتبة تماما جنوب شرق الضريح المقدس تسمى المرستان ("نزل الحجاج").

وربما تكون هناك بعض المضايقات الأخرى قد حدثت للمسيحيين المحليين، وخاصة الحجاج، من أن خلفاء بغداد كانوا يستعينون بالمليشيات التركية السلجوقية، وهم أناس مستجدون على الإسلام ويميلون إلى الفظاظة، في الانتقال المستمر والمتبادل لفلسطين من الحكم الفاطمي للحكم العباسي الذي ميز القرن الحادي عشر. وهناك أخبار عن أعمال عنف وسرقات وصلت إلى الغرب في معظم الأحيان. ولكنها في الحقيقة تبدو بالأحرى تفسيرات لاحقة للحملة الصليبية، وهي أسباب أسطورية : مثل كل الحكايات عن الإهانات التي تعرض لها والرؤى التي تلقاها بيترو الناسك الحاج إلى القدس، وهو ما دفعه – بمجرد عودته إلى أوربا – للتبشير بعمله المقدس. وربما كانت الحقيقة هي أن المخاطر التي كان يتعرض لها الحجاج والمسافرون كانت موجودة بكثرة – كما يحدث تقريبا في كل

مكان، في نفس الوقت – حيث كانت ضواحي المدينة مضطربة إلى حد كبير وكان قطع الطريق مستوطنا ومنتشرا وكان لابد من دفع رسوم للوصول إلى القدس وكنيسة *Anastasis*. وعلى الرغم من هذا فقد استؤنفت عمليات الحج في القرن الحادي عشر وأصبحت متكررة وكثيرة، وغالبا ما كانت مزودة بحماية مسلحة : وهو ما يعني في النهاية أن ظروف الرحلة كان لا يجب أن تكون مانعة.

الحملة الصليبية

كان هناك في المسيحية الغربية قلق ومخاوف مرتبطة بانتظار نهاية العالم ومرتبطة بنفس المتغيرات البيئية والاجتماعية، الراجعة للنمو السكاني والصراعات السياسية والدينية، جعلت الناس تنظر بتركيز متجدد لتلك القدس حيث كان ينتظر أن يتحدد فيها مصير البشرية : فهنا سيقوم الإمبراطور المسيحي الأخير، طبقا لبعض النصوص النبوئية الزائفة، بتنحية رايات سلطته ليترك دوره كوكيل لإله الآخرة. وكانت النبوءة تقضي بأن يكون المجيء الثاني للمسيح مسبوقا بمجيء المسيح الدجال.

وفى عام ١٠٣٣، في الذكرى الألفية لموت وبعث السيد المسيح، اشتعلت من جديد التوقعات والمخاوف من نهاية العالم وتدفقت موجات جديدة من المؤمنين المنزعجين على فلسطين ؛ ولم تكن العلاقات الطيبة مع مصر الفاطمية كافية لتهدئة ضمير الغرب المضطرب الذي كان يرى احتفاظ الكافر بأثمن كنز، وهو المدفن المقدس. وهكذا بينما كانت كل المسيحية، من الإمبراطور البيزنطي إلى دوقات نورماندي، مشغولة بالمساهمة في إعادة بناء الكنيسة التي دنست وتضررت في عام ١٠٠٩، بدأت جماعات متزايدة من الحجاج في السفر على أمل أن تفاجئهم نهاية العالم بالقرب من وادي *Giosafat*. وعلى موجات متتالية هزّ أوربا الرعب من نهاية العالم الوشيكة، حيث كان المثقفون يفكرون بتركيز أكثر دائما في وصول الآخرة، بين الحسابات الفلكية وتفسيرات الكتب المقدسة. وهكذا كانت مجموعة من الحجاج قد رحلت من ألمانيا لكي توجد في القدس في يوم القيامة، في عام ١٠٦٥ – وهو العام الذي وقع فيه تاريخ التجسيد وتاريخ السبت المقدس – في يوم ٢٥ مارس ليتزامن هذا، طبقا لبعض التقاويم وبعض التقاليد،

مع تاريخ خلق العالم. ولا يمكن أن نفهم الحماس الذي ردت به أوربا على النداء الموجه في عام ١٠٩٥ من أوربانوس الثاني بدون هذه المقدمات وبدون التاريخ الطويل للمعاني الروحية للحج.

وفي نوفمبر عام ١٠٩٥، في كليرمونت، لم يبشر أوربانوس الثاني بأي "حملة صليبية" وهي كلمة دخلت بعد كل شيء متأخرا جدا في المفردات اللاتينية وفي مفردات اللغات الدارجة في أوربا. فقد اقتصر مرة أخرى على إدانة أعمال العنف التي كانت تدمي المسيحية وحث الأرستقراطية الحربية وخاصة الفرنسية على قبول طلب الإغاثة الذي كان يأتي للغرب من كنائس الشرق. وهو ما كان يعني، بعيدا عن المجاز ، قبول عرض تجنيد المرتزقة للقيام بحملة عسكرية في شبه جزيرة الأناضول، كان الملك البيزنطي ألسيو الأول كومنينو ينوي تنظيمها ضد الأتراك السلاجقة. وكانت قواعد الاشتباك هذه شائعة في القرن الحادي عشر : وكان المحاربون النورمانديون قد قبلوها غالبا وكان عملهم في آسيا يلقى تقديرا كبيرا، بعد الهزيمة المدمرة في *Manzikert*. ولم يكن محاربو الحدود الغربيون هؤلاء يختلفون كثيرا عن العديد من المرتزقة المغامرين الذين كانوا يملأون أسبانيا في ذلك الوقت (وكان أشهرهم هو السيد كامبيادور)، أو المحاربين البيزنطيين المذكورين في الملحمة الشعرية *Dighenis Akrites*، أو الـ *boghatyry* الذين كانوا يحاربون في الـ *Bylyne* الروسية ضد الوثنيين في السهول ولكنهم يعرفون ويقدرون عاداتهم وطباعهم، أو بطل الـ *Cavaliere dalla Pelle di Tigre*، وهي "رواية الفروسية" العظيمة الجورجية التي ألفها الشاعر القومي سوتا روستافيلي، أو الغزاة الأتراك أنفسهم في الأناضول، وغالبا ما كانوا يكتسبون في النهاية هوية مبهمة ليعملوا كوسطاء بين المسيحية والإسلام وبين ثقافتين مختلفتين.

وقد ردت الأرستقراطية الأوربية على نداء أوربانوس الثاني بين عامي ١٠٩٥ و١٠٩٦، بصورة غير متوقعة. وقد تحدث البعض عن الفرسان الذين شاركوا في هذه الحملة على أنهم *déracinés* يبحثون عن الثروة، و*milites* جردهم الانتقاء الإقطاعي المرتبط بالإبقاء على تلاحم الأنساب من الميراث وأجبرهم على أن يسلكوا طرق المغامرة. وكان لهذا الـ *topos* قيمة إيحائية كبيرة، استطاعت أن تحرك بعد قليل الآلية المعقدة لرواية الفروسية التي ستسمو وتمجد الأشكال الواقعية وغير الوقورة دائما للمغامرة التي كانت تتمثل تحديدا في الخدمة المرتزقة والحملة الصليبية. ولكن القادة الذين نظموا رحيل بضعة آلاف من المحاربين تجاه القسطنطينية ومن هناك إلى آسيا، بمجرد الاتفاق مع الملك البيزنطي، والذين

انضم إليهم عدد غير محدود، وبالطبع مرتفع من الـ *paupers* الراغبين في مواصلة الحج إلى القدس، لم يكونوا إطلاقا من نفاية المجتمع الأرستقراطي في ذلك الوقت. فقد كانوا من الأمراء مثل أمير بروفنسا وحاكم منطقة كبيرة من جنوب فرنسا، ودوق نورماندي وشقيق ملك انجلترا، وشقيق ملك فرنسا ودوق لورينا الجنوبية وكونت فياندرا الذين كانوا يسيطرون على جزء كبير من المنطقة الآهلة بالسكان في الممر المنخفض للأنهار التي كانت تمر بين فرنسا وألمانيا لتصب في بحر الشمال والابن البكر لجويسكاردو. كانت بالطبع أرستقراطية رفيعة في أزمة : إما لأنها تواجه عداء من أقارب أو جيران أقوياء متعبين، أو لأنها اختارت في السنوات السابقة مساندة "الطرف الخطأ" (أي الطرف الخاسر) في الصراع بين البابوية والإمبراطورية الرومانية- الجرمانية. أرستقراطية رفيعة راغبة ومحتاجة لتغيير الجو لبضع سنوات أو ربما دائما، وبالتالي راغبة في العثور حقا – طبقا لسفر الرؤيا – على "سماء جديدة وأرض جديدة "، وأن تبني لنفسها من جديد السلطة والثروة في أماكن أخرى. وبهذه الطريقة شجع هذا النزوح للـ *domini* وللـ *milites*، في نفس الوقت، على ميلاد أوربا الممالك الإقطاعية الكبرى.

وقد عبر جيش المحاربين المسلحين والحجاج العزل أصلا، الذين كانوا يسمون *cruce signati* وهو رمز الحج والتوبة الذي كان أوربانوس الثاني قد خصهم به في كليرمونت (وكان أيضا العلامة المرئية للتسامح الروحي والمزايا الزمنية الممنوحة لهم من البابا)، الأناضول وسوريا في عامين طويلين من السير بين أهوال وآلام لم يسمع بها أحد من قبل. وفى النهاية حطّ بالقدس بين ربيع وبداية صيف ١٠٩٩ واستولى عنوة على المدينة في ١٥ يوليو من ذلك العام. وقد تم اجتياز سور المدينة من الزاوية الأضعف، الشمالية–الشرقية ؛ وانتشر "الفرنجة" – كما كان البيزنطيون والمسيحيون الشرقيون واليهود والسراسنة يسمون الغربيين – في المدينة وذبحوا تقريبا كل السكان المسلمين واليهود : ولو لم يكن الحاكم السراسيني قد طرد المسيحيين الشرقيين من المدينة قبل بداية الحصار، والذين لم يكن يثق فيهم للقوا هم أيضا نفس النهاية، حيث كان هناك شك في أن يتمكن الغربيون من تمييزهم. وقد امتلأت المدينة من جديد بالمسيحيين الشرقيين الذين كانوا قد طردوا منها وبمسيحيين آخرين من السريانيين والأرمن : وفي مرحلة أولى على الأقل كان ممنوعا بالفعل على المسلمين وعلى اليهود الإقامة فيها.

وقد وردت تساؤلات من أطراف عديدة – في غياب أدلة مؤكدة – حول ما إذا كانت فكرة الغربيين الذين قاموا بغزو المدينة المقدسة هي بناؤها كمملكة دينية أو

أن يعهدوا بها مباشرة للسيطرة العليا لكنيسة روما. وقد انتخب على الفور بطريرك لاتيني (وبما أنه كان هناك بالفعل منذ خمسة وأربعين عاما انشقاق بين الكنيستين، فقد رأى البعض إن من غير المناسب الاعتماد على أسقف يوناني)، في حين أن القادة العسكريين للحملة، المختلفين فيما بينهم، قد اختاروا في النهاية لقيادتهم أميرا معتل الصحة وغير نشيط، ولم يكن يتمتع بسلطة حقيقية. وهو جوفريدو بوليوني، دوق لورينا المنخفضة : وكانت رغبته – أو ربما نصحه بذلك بعض الأساقفة – ألا يضع تاجا من الذهب حيث كان السيد المسيح يضع تاجا من الأشواك". بمعنى أصح، لم يكن هناك انتخاب ملك ولكنه كان مجرد *Advocatus Sancti Sepulchri*، نائب للشئون الدنيوية لكنيسة القدس، وكان مقره البطريركي هو كنيسة القبر المقدس .و لكن في عام ١١٠٠، بعد موت جوفريدو، توج شقيقه بلدوفينو ملكا، على الرغم من عدم وضوح السلطة التي على أساسها جرى انتخاب الملك. ونشأت هكذا "مملكة الفرنجة في القدس"، وهي ملكية انتخابية مع خصائص عائلية غير متصلة، ينتقل تاجها أيضا إلى الإناث.

وقد تناوب ثمانية ملوك على القدس قبل أن يقوم المسلمون بغزوها، بعد أن أفاقوا من المفاجأة التي سمحت بغزو المدينة في ١٠٩٩. وبعد معركة حطين في يوليو ١١٨٧ بالقرب من بحيرة طبرية، في الجليل، عاد أمير سوريا ومصر يوسف ابن أيوب صلاح الدين ("Saladino" في الأخبار الغربية) لغزو المدينة المقدسة في أكتوبر من نفس العام. واستمر تاريخ ملوك ومملكة القدس أيضا بعد هذا التاريخ : ولكنه انتقل إلى الساحل، الذي لا يزال يحتله الصليبيون ؛ وقد أخذ البلاط مسكنا في بلدة عكا الجميلة والقوية.

وقد تحدث البعض عن المملكة الصليبية في القدس وعكا – مثل بعض الإمارات "الصليبية" الأسبانية – كنوع من التجربة الاستعمارية *avant la lettre*. ولكن السلطة الحقيقية للمملكة كانت تكمن في المدن التي كانت تهيمن عليها "المستعمرات التجارية" في المراكز البحرية وخاصة الإيطالية – جنوا وفينسيا وبيزا –، التي كانت تنعكس فيها (أو التي غالبا ما نشأت فيها) العداوات الوحشية التي كانت تمارسها فيما بينها على أرض القارة .وكانت المراكز التجارية الساحلية في سوريا وفلسطين (وبيروت وصور وعكا وحيفا وCesarea ويافا وعسقلان) كانت هامة لأنها موانئ الوصول للقوافل التي كانت تربط عبر دمشق وحلب والموصل ساحل البحر المتوسط بآسيا العميقة و"طريق الحرير" : وبإقامتهم في تلك المراكز، كان التجار الإيطاليون يستطيعون الوصول إلى البضائع الشرقية الثمينة والتوابل وكان بوسعهم التحكم في الأسواق الأوربية لهذه البضائع وإدارتها.

وفى القرنين الثالث عشر والرابع عشر فقط كانت هناك محاولات للتغلغل في القارة الآسيوية في تزامن مع التوسع المغولي الذي كان يفرض عليها نظاما للسلام وبفضل إرادة التبشير في الكنيسة اللاتينية الموجهة نحو تلك المناطق.

وبالتالي فإننا يمكن أن نخلص إلى أن حياة المملكة الصليبية القصيرة نسبيا في القدس ، بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر (وعاصمتها عكا بين عامي ١١٨٧ و١٢٩١) أصبحت أكثر تعقيدا بسبب الوجود المتزامن لعدد من الهيئات (في الشكل أو في الجوهر) "المنفصلة"، كانت تمنع التاج من ممارسة سلطته. ممالك تتمتع بحصانات قضائية واسعة، ومستعمرات تجارية كانت تتصرف كمجالس محلية حقيقية، وأخيرا جمعيات عسكرية، أي منظمات دينية مزودة بقاعدة توجد داخلها أقلية مؤهلة من المحاربين الذين أقسموا على الدفاع عن الأرض المقدسة والحجاج : فرسان الهيكل واستبارية *سان جوفاني في القدس، واستبارية سانتا ماريا الذين كان يقال لهم "الألمان"حيث توجد جمعية خاصة بالألمان. وكانت الخلافات المستمرة المتبادلة بين السادة والمجالس والجمعيات العسكرية أحد أسباب تفكك المملكة. ولكن مع هذا لا يجب أن ننسى أنه تطورت مع الزمن ثقافة اتفاق وحوار مع الـ *milieu* المسلم المحيط : بل إنه من وجهة النظر هذه، كان المحاربون والحجاج الذين يهبطون حديثا وراء البحار قادمين من أوربا يخجلون من هذا المجتمع المؤلف من الـ *poulains*، "أولاد الحرام" المهجنين مع عائلات سريانية وأرمينية، تتحدث العربية والأرمينية واليونانية ويلبسون ويأكلون ويعيشون طبقا للعادات المحلية. وكان المجتمع "الاستعماري" الصليبي ينظر إليه على أنه فاسد ويصطبغ بالصبغة الإسلامية من قبل الغربيين الذين كانوا يتخيلون كل حملة صليبية جديدة على أنها كفاح بلا هوادة : ومن ناحية أخرى فإن "الفرنجة وراء البحار"، الذين احتاجوا أيضا لقرنين من الزمان للإغاثة الدورية لأشقائهم وإخوانهم في الدين الأوربيين، كانوا يعتبرونهم بدورهم أفظاظا وخطرين وكانوا يفضلون، كلما استطاعوا ذلك، الاتفاق الدبلوماسي مع السراسنة على المساعدة العسكرية التي تقررها المراسيم البابوية ويقودها الأمراء والمحاربون الراغبون في الغنيمة والذين نفذ صبرهم إزاء أي شكل من أشكال النصح بالاعتدال والاقتراحات التكتيكية واللوجيستية.

وفي أوج القرن الثاني عشر، عاش كاتب عربي سرياني، وهو أمير *Shaizar* أسامة ابن منقذ، الذي سافر طويلا في المملكة الصليبية في القدس لأسباب دبلوماسية وأيضا لأنه كان يقابل هناك العديد من الأصدقاء، وترك في مذكراته

* منظمة دينية عسكرية أنشئت فى بيت المقدس فى القرن ١٢ م . (المترجم)

صورة حية ومشاركة لمجتمع كان فيه الفارق واضحا جدا بين أولئك الذين اعتادوا على العادات الشرقية ويرتاحون إليها تماما وآخرين – سواء أكانوا من المحاربين أو التجار أو الحجاج – تقابلوا معها ربما للبقاء فيها لفترة وجيزة فقط ولم ينجحوا في التأقلم مع العادات والعقلية المحلية. أي أن أسامة يساعدنا جيدا في أن نضع بصورة مناسبة تلك المشكلات التي قد نصفها اليوم بأنها مركزية عرقية وصراعات ثقافات. وهو يذكر على سبيل المثال زيارة قام بها للسياج المقدس في معبد القدس، الحرم الشريف، الذي يحتله الفرنجة ولكن لم تكن الزيارة أو الصلاة فيه محظورة على المسلمين – أو على الأقل على أولئك الذين يحتلون مكانة معينة: كان فرسان الهيكل الذين يحتلون المسجد الأقصى الذي أصبح كنيسة في جانب منه، وفي جانب آخر حيّاً لهم – وكان الأمير يصفهم بأنهم أصدقاؤه –، كانوا يدعونه كالعادة للصلاة طبقا للشعائر الإسلامية في مصلى مجاور للمبنى وقد اعتذروا عندما حاول رجل عنيف، وصل بالطبع حديثا من أوربا، الشوشرة على تركيزه وفرض عليه الصلاة على الطريقة المسيحية.

وربما نكون هنا أمام الأسس الفكرية لموضوع كان له ثقل كبير في الثقافة الغربية. وكانت الاتهامات بالتعاطف مع المسلمين وحتى التواطؤ معهم جزءا من حصيلة من الشائعات والنميمة المنتشرة التي كان الناس يتناقلونها، خاصة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ضد فرسان الهيكل. وفي أثناء القضية التي رفعت ضدهم بين عامي ١٣٠٧ و١٣١٢ بناء على رغبة فيليبو الرابع ملك فرنسا، ستظهر "أدلة" على معتقداتهم المرتدة التي كان يبدو أنها تتأرجح بين التلميحات إلى الإسلام والتلاعب بموضوعات قديمة معادية للغنوسطية *و معادية للتطهر. وكان المعبود الذي يهتمون بعبادته، وهو الـ "Baphomet "، يحمل اسما متسقا مع بعض الصور المختلفة التي كان يعرف بها في اللاتينية أو في اللغات الشعبية اسم النبي (صلعم). وكانت هذه الأدلة مضحكة وضعيفة : ولكن هذا لم تكن له أية أهمية، حيث أن المحاكمة كان من الواضح أنها مسرحية سياسية ؛ بل إن من المحتمل أن تكون الاتهامات بممالأة الإسلام والردة قد استمرت بفظاظة متعمدة، من ناحية لتمرير المسألة على الرأي العام الفرنسي – وفي بداية القرن الرابع عشر، في مدن مثل باريس، يمكن التحدث عن رأي عام –، ومن الناحية الأخرى لإفهام البابا أن الملك لن يتنازل ولن يصغي لأي تأنيب من أي

* مذهب العرفان : مذهب بعض المسيحيين الذين اعتقدوا بأن المادة شر و بأن الخلاص يأتي من طريق المعرفة الروحية . (المترجم)

نوع فيما يتعلق بمسألة إدانة المعبد، ولذا فإن أي محاولة للدفاع أو الوساطة كـــان محكوم عليها بالفشل.

وعلى أي حال، فإن عدم إصغاء الصليبيين الذين وصلوا مـــن أوربـــا لـــرأي "فرنجة ما وراء البحار" بانتظام، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كان مـــن الأسباب الرئيسية لفشل جميع الحملات الصليبية العديدة التالية بعد الحملة الأولى. وهناك من يميل إلى التخفيف من الانطباع السائد حول جدب مملكة القـــدس مـــن الناحية الثقافية. ولا شك في أن الحقيقة هي أن المراكز الوسيطة للمعرفة العربيـــة تجاه الغرب كانت في الأساس المراكز الأيبيرية، حتـــى أن الـــساحل الـــسوري- الفلسطيني – على الرغم من قربه من مدن لها تقاليد ثقافية عظيمة، مثل دمشق – كان منطقة إقليمية إلى حد كبير في العالم الإسلامي. ومع ذلك فقد كـــان لــــ *gli scriptoria* القدس وعكا وصور نشاطهم اللائق، وتعلم الدارسون في الآونة الأخيرة فقط تمييزه وتقييمه. وكان هناك مركز كبير آخر للثقافة هو مملكة قبـــرص التـــي ولدت في القرن الثاني عشر وكانت تحكمها عائلـــة آل لوزينيـــانو وكانـــت هـــي الأخرى مضطرة للتكيف من ناحية أخرى مع الصراعات المـــستمرة مـــع وبـــين مراكز المدن البحرية الإيطالية وجمعيات المعبد والاستبارية المنافسة.

ولكن مدينة القدس نفسها هي التي كانت تحتفظ بدور أساسي فـــي تطـــورات المعرفة المتبادلة والاتصالات الودية أو غيرها بين أوربا والإسلام، نظرا للأهمية الخاصة التي كانت لها في العالم المسيحي، وطابعها الرمزي والروحي الذي كان يجعل منها مركزا لا يمكن استبداله والألفة التي تزايدت في العالم المسيحي إزاءها بفضل رحلات الحجاج.

من الأيوبيين إلى المماليك

عند وفاة صلاح الدين، في ١١٩٣، لم تبق إمبراطوريته الشخصية العظيمـــة على قيد الحياة. فقد اقتسمتها سلالته فيما بينهم، مما بعث حياة جديدة لأحد الثوابت الجغرافية التاريخية الموجودة باستمرار في حياة الشرق الأدنى : التوتر والمنافسة للسيطرة عليه بين من يحكم سوريا (أو بلاد مـــا وراء النهـــرين) ومـــن يحـــتفظ بالسلطة في مصر. فقد اقتسم سلاطين العائلة الأيوبية، من سلالة صـــلاح الـــدين، بالفعل هذين الإقليمين الصعبين : فكانت القدس من نصيب الملـــك الأيـــوبي فـــي

القاهرة، الملك الكامل، الذي يبدو أنه ورث في جوانب عديدة فضائل صلاح الدين. فقد كان ذكيا ومعتدلا ووفيا بوعده، وظل مشهورا سواء بسبب لقاء مع فرنشيسكو داسيزي يبدو أنه حدث بالفعل، على الرغم من أن المصادر الغربية تتناوله تناولا يمكن أن يبدو أسطوريا (ولكن هناك دلائل عليه في العالم الإسلامي)، أو لأنه تفاوض سلميا على الهدنة مع جار له ومراسل سياسي ودبلوماسي، وهو الإمبراطور فردريك الثاني، الذي كان يقود حملة صليبية، ولكنه بعد أن سيطر على صقلية وإيطاليا الجنوبية رأى أن من مصلحته التعامل معه بصورة ودية وكان يشاركه بعض اهتماماته العلمية.

وقد أبرم السلطان مع فردريك الثاني في عام ١٢٢٩ هدنة تنص عمليا على تفكيك أي دفاع عسكري في المدينة المقدسة وعودة الأماكن المقدسة للمسيحيين وسيطرة المسلمين على الأماكن الإسلامية، أي الحرم الشريف. وهو حل مثالي في عدالته، وقد أكده بين عامي ١٢٤٠ و١٢٤١ ريكاردو دي كورنوفاليا، شقيق ملك انجلترا وهو أيضا صليبي مسالم تقريبا.

ولكن النقطة الحساسة في هذا الحل، الذي كان يشار إليه كثيرا فيما بعد كنموذج للحكمة الدبلوماسية، كانت هشاشته. فقد كان الاتفاق يقوم على بقاء علاقة دبلوماسية مميزة بين القوى المسيحية المهتمة بالأرض المقدسة والسلاطين الأيوبيين في القاهرة: ولكن القوى المسيحية لم تكن إطلاقا على علاقات سلمية فيما بينها وكانت الأمور معقدة بأحداث خارجية مثل تقدم القوة المغولية في كل القارة الآسيوية الكبرى. ولهذا السبب فإن البعض كانوا يرون على العكس من ذلك ضرورة التحالف مع الأيوبيين الدمشقيين: وهو ما قلب إطار المرجعيات التاريخية ودفع الملك القاهري للقيام بإجراءات مضادة، كان منها استئجار ما يقرب من عشرة آلاف من المحاربين المرتزقة القادمين من آسيا الوسطى الجنوبية، من خوارزم – منطقة المجرى المنخفض من نهر آمو داريا–، بين أوزباكستان وتركمانستان الحاليتين، والذين هاجموا ونهبوا القدس في ١٢٤٤ وتمادوا في المذابح وانتهاك الحرمات.

وفي نفس الوقت، كانت قد استقرت في القدس، بتشجيع من صلاح الدين – طبقا للتقاليد الإسلامية – جالية يهودية غفيرة، مؤلفة في معظمها من عائلات لاجئة من فرنسا ومن انجلترا ، حيث بدأ يرتسم بالنسبة لليهود نظام للقيود وعمليات الاضطهاد، وظهرت تجاههم في مرات عديدة، اتهامات بتدنيس خبز القربان المقدس وشعائر قتل الأطفال. وفي نفس الفترة، ولمبررات مشابهة كان هناك الكثير من اليهود، خاصة من فرنسا يحتمون في أسبانيا الإسلامية. وكانت

القدس، في الفترة الصليبية، قد زارها مسافرون لامعون يهود، مثل ابن ميمون العظيم وبنيامين دا توديلا ؛ وفى العصر الأيوبي كان المنظم الشهير للثقافة اليهودية في القدس أسباني آخر، هو موشيه بن نهمان، المعروف باسم النهماني.

وكان التدنيس الخوارزمي في ١٢٤٤ أحد الأسباب العرضية التي دفعت لويس التاسع ملك فرنسا للتعجيل بحملة صليبية وقيادتها ضد مصر الأيوبية، وكان هذا ضمن مشاريعه منذ زمن بعيد. وقد هُزم الملك وأُسر : وفي أثناء السجن، في عام ١٢٤٩، شهد الانقلاب الذي أسقط السلاطين المنحدرين من سلالة صلاح الدين ووضع مكانهم عائلة تعبر عنها هيئة عسكرية مؤلفة من عبيد من أصول آسيوية - قوقازية عامة (الأتراك والأكراد والشراكسة والتتار)، وأطلق عليهم لهذا اسم "المماليك" (من العربية مملوك ،"عبد") .

وكانت المرحلة الأولى من السلطة المملوكية على القدس عسكرية وحافظت بقوة على السيطرة عليها.وباستغلال الخصومات الداخلية لما تبقى من السيطرة الصليبية (وخاصة الخصومات بين أهل فينسيا وبيزا وبين فرسان الهيكل والإستبارية)، هزم المماليك في ١٢٦٠ التحالف المغولي الصليبي وبدأوا حملة عسكرية موجهة بانتظام للقضاء على المحميات "الفرنجية" الأخيرة في سوريا وفلسطين، التي تحولت إلى مدن ساحلية وإلى قلاع تحتلها الجمعيات العسكرية. وبعد أن نجحوا في مقصدهم نحو نهاية القرن (فقد سقطت آخر قلعة صليبية، وهي عكا، في ١٢٩١)، شرع المماليك بانتظام أقل في إزالة منشآت الموانئ على الساحل، وخفض الإنتاجية الزراعية مع تشجيع السكان على النزوح والتصحر وتحويل مسار تجارة القوافل فأفقروا في بضعة عقود منطقة كانت مزدهرة من قبل.

ولم يكن هذا إهمالا أو سوءا في الحكم ولكنه كان اختيارا سياسيا واعيا. فقد كان المماليك يعرفون جيدا جدا أن المسيحيين مهتمين بالقدس لأسباب دينية وسياسية، ولكنهم لم يكونوا يجهلون أن الاقتصاد والتجارة كانا مرتبطين بالدين والسياسة منذ قرنين على الأقل في تبرير الحملات الصليبية : فلو أمكن تقليل الحافز الاقتصادي التجاري لفقدت كثيرا من مؤيديها. وعلاوة على ذلك، كان المماليك يرون في الساحل السوري الفلسطيني منطقة منافسة، حيث كانوا سادة مصر، وكانوا بالتالي يديرون كل التجارة التي كانت تصل عبر البحر الأحمر والنيل إلى دلتا النهر الكبير والمراكز التجارية الساحلية في الإسكندرية ودمياط : ولو أمكن تعطيل هذه المنطقة، لاستفادت التجارة النيلية كثيرا من ذلك. ولهذه

الأسباب التكتيكية-الإستراتيجية والاقتصادية- التجارية في آن واحد، كان المماليك أول المسئولين عن التدهور السكاني أيضا والبيئي للعالم السوري-الفلسطيني الذي لا يزال مستمرا والذي لقي استجابة فقط في العقود الأخيرة بمبادرات تستطيع تعديل الموقف جوهريا.

وفيما يتعلق بالقدس، أظهر العبيد-السادة نشاطا إزاء الإسلام ولكنهم احترموا حقوق اليهود والمسيحيين، وكانوا منصفين تجاه الحجاج – الذين تدفقوا بالفعل بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر بأعداد كبيرة، حتى أقاموا نظاما للنقل عبر "خطوط السفن" المنتظمة من فينسيا ؛ وشجعوا على تزيين المدينة بترميم أسوارها وإعادة بناء منطقة الحرم الشريف فيها وتشييد العديد من "المدارس".

ولم يفت المماليك على أي حال بث العداوة بين الطائفتين الخاضعتين، للتمكن من الحكم. والحقيقة هي أنهم فعلوا ذلك دائما باعتدال : ولكنهم فضلوا المسيحيين على اليهود، وخاصة الفرنشيسكان، الذين كانوا يلقون دعما من ملوك نابولي الـ angioini الذين كانوا يرون في سلاطين القاهرة جيرانا طيبين. وفي عام ١٣٠٩ صرح السلطان رسميا للرهبان الفرنشيسكان بالإقامة في كنيسة القبر المقدس وصهيون وبيت لحم. وفيما بعد، في عام ١٣٣٣، اشترى روبرتو ملك صقلية من السلطان ملكية المبنى الواقع مباشرة جنوب أسوار القدس والذي كان يعرف فيه تقليديا المكان الذي سيحتفل فيه السيد المسيح مع أتباعه بالعشاء الأخير قبل الصلب، وتنازل عنه في ١٣٤٢ لجمعية الفرنشيسكان : وقد مثل هذا بداية جوهرية للرعاية الفرانشيسكانية للأرض المقدسة (وسوف يصبح حارس الدير الفرنشيسكاني في صهيون بعد ذلك حارسا للأرض المقدسة) وسمح بتنظيم قاعة العشاء الأخير، بأشكال قوطية جميلة، كما نعجب بها اليوم. ولكن الحكام المماليك كانوا مع ذلك صارمين في تطبيق الممارسة القضائية الإسلامية الكامنة في منع الطوائف الخاضعة من ترميم مباني العبادة التي كانت حالتها تسوء : ولهذا فإن العديد من الكنائس المسيحية كانت تبدو للحجاج والمسافرين في حالة تدعو إلى الشفقة وسيتوافق هذا في القرن التاسع عشر مع ذوق الرومانسيين ولكنه كان يضفي على المنظر أسى أوضح في العديد من الأوصاف والعديد من الرسوم في القرون من الخامس عشر إلى الثامن عشر.

وخلال القرن الخامس عشر تدهور الحكم المملوكي على أي حال أيضا لأسباب سياسية داخلية في مصر. وتبين قراءة متسلسلة ليوميات الحجاج الغربيين منذ منتصف القرن الرابع عشر وحتى بدايات القرن السادس عشر مدينة القدس

وقد هجرها سكانها بالتدريج، مع إدارة هزيلة وفقيرة ورد فعل أكثر ضعفا دائما على الكوارث الطبيعية نفسها، من مجاعات وطاعون وزلازل. ويقدر أن سكانها، البالغ عددهم خمسين ألفا تقريبا في منتصف القرن الثالث عشر، قد انخفض إلى ما يقرب من عشرة آلاف بعد ذلك بقرنين ونصف.



٥

مصادمات ولقاءات

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر

"Gesta Dei per Francos"

إرادة الله تتحقق على أيدي الفرنجة

استخدمنا حتى الآن على استحياء تعبير "حملة صليبية": وتجنبنا دائما تقريبا مصاحبتها بالصفة العددية التصاعدية المعتادة وقد استخدمت الكلمة اللاتينية *cruciata* فقط مؤخرا – وهو تراجع واضح عن اللغات العامية : وقد يكون استخدامها قبل القرنين الثاني عشر والثالث عشر مفارقة تاريخية حتى وإن اكتسب شرعية من الاعتياد التأريخي. وتتحدث مصادر الحملة الصليبية الأولى بالفعل عن *cruce signati* : ولكنها تفضل في نفس الوقت ألفاظا أكثر دقة وأكثر شمولا مثل *peregrini* للإشارة إلى كل من البعثات العسكرية الكثيرة التي شرعها مرسوم بابوي والتي تعاقبت بعد القرن الثالث عشر (وكان الناس عمليا على الأقل يتخيلونها ويتباهون بها حتى أواخر القرن الثامن عشر) لإغاثة الأرض الصليبية أو لاستعادتها بعد سقوطها، أو التي أشار إليها البابوات والقوانين الكنسية كحملات مماثلة على الرغم من أن الهدف المباشر منها كان يمكن أن يكون مختلفا، كانت الكلمات المستخدمة في البداية *iter* ("حملة حربية")، *via Hierosolymitana* أو *peregrinatio* ("الحج")، وقد أعقبتها كلمات *auxilium* و*succursus* – مع إشارة محددة لطابعها العاجل والدفاعي – وأخيرا *passeggium*، وهي كلمة تلمح قبل كل شيء للرحلة البحرية الضرورية للوصول إلى الأرض المقدسة وقد لاقت نجاحا كبيرا لقيمتها الرمزية والإيحائية القوية أيضا، وبقيت في النسيج الدلالي – المأثور في بعض اللغات العامية.

وكان يمكن أن يكون الـ *passeggium* بدوره *particulare*، إذا كان منظما وموجها بمبادرة من أفراد وجماعات لأهداف محددة أيضا، ولكن ينظر إليها على

أنها مناسبة بالقياس للهدف الأخير الثابت وهو تحرير القدس ؛ أو *generale* أو *universale* إذا كان مقررا من السلطة البابوية وينظر إليه على أنه واجب على كل المسيحيين، الذين كانوا مدعوين لطاعته باشتراكهم العسكري المباشر أو بالعديد من أشكال الإسهام المالي (الأعشار والصدقات والمبالغ المدفوعة على سبيل التوبة أو على شكل ميراث بوصية). ومع منتصف القرن الثالث عشر فرض قانونيون مثل إنريكو دي سوزا (المعروف باسم "الكاردينال الـ Ostiense") أو سينيبالدو فييسكي التعبيرين *crux transmarina* و*crux cismarina* للتمييز على الترتيب، بين البعثات المتجهة لاستعادة الأرض المقدسة أو على أي حال البعثات ضد المسلمين والوثنيين (وتشمل بالتالي الحروب الصليبية في اسبانيا وشمال شرق أوربا ضد السلاف والبلطيقيين) وتلك الموجهة على العكس من ذلك ضد المرتدين – والحالة المميزة والنموذجية في بداية القرن الثالث عشر هي ما يسمى "حملة الـ albigesi" ؛ وفيما بعد، في بداية القرن الخامس عشر، كانت الحملة ضد الـ hussiti – أو ضد الأعداء السياسيين للبابوية مثل الزفيفيين أو الأراجونيزيين في القرن الثالث عشر والجبليين الإيطاليين في القرن التالي – ؛ أو حتى ضد القوى التي تعتبر غير اجتماعية وخطيرة على المسيحية كلها (مثل الـ *Stedinger*، الفلاحين المتمردين على أسقف بريما، الذين أصدر ضدهم البابا جريجوريو التاسع في ١٢٣٣ المرسوم *Vox in Roma* ؛ أو جماعات المغامرة، في القرن الرابع عشر). وقد أصبحت الحملات الصليبية – التي كانت في القرن الثاني عشر ميراثا لمبادرة الملوك الأوربيين –، منذ ادعى البابوات بداية من إنوتشنتسو الثالث لأنفسهم الحق في قيادتها مطالبين لأنفسهم بالحق المطلق في إعلانها (لأن الصليبيين أيضا كانوا يمنحون الغفران الكامل)، أصبحت آلة غير عادية للضغط والإدارة القانونية والحربية والمالية للمسيحية، وخاصة بسبب أداة رائعة : مذهب التصويت الذي كان يسمح من ناحية بفرض العزل – مع نتائج كانت أشبه عمليا "بالموت المدني" – على من يؤخر أو يتجنب الامتثال للحملة الصليبية بمجرد الإعلان عن الوعد الرسمي بالرحيل، ومن الناحية الأخرى كان يسمح بتغيير هدفه بإصدار تعليمات بأن التصويت على المشاركة في عملية معينة يمكن أن يتغير بدفع مبلغ معين من المال أو المشاركة في حملة تعتبر قانونيا على نفس القدر من القيمة. وبمرور الوقت تأكدت في اللغة القانونية والبابوية تعبيرات مثل *causa crucis* و*negotium crucis*.

وقد أثارت المفاسد والانحرافات التي أدت إليها هذه الممارسة القضائية، والتي ارتبطت أيضا بنزق وغطرسة التبشير الصليبي الذي عهد به خاصة بداية من القرن الثالث عشر للجمعيات الدينية المستجدية، أصواتا تعبر عن التعب

والمعارضة وحتى الإدانة المتسمة بالصدمة. ولكـن يجـب أن نلاحـظ أن هـذه الأصوات، فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة، لم تكن تـتهم أو تتكـر الحـرب الصليبية بوصفها حربا ضد الكفار : بل كانت، على العكس من ذلك، تندد بوضع الهدف الحقيقي الأصلي للحملة الصليبية في المرتبة الثانية في معظـم الأحيـان، وهو الدفاع عن القبر المقدس أو استعادته، واستبدال ذلك بأهداف من نـوع آخـر سياسيا أو اقتصاديا أكثر ملاءمة للإدارة البابوية. وعلى أي حال لا يمكن تفـسير الحروب الصليبية على أنها حروب دينية. فلم يؤكد أبدا أي رجل ديـن أو كاتـب للأخبار رسميا أن الهدف النهائي للحرب الصليبية كان تحويل الكفار عن ديـنهم، ولا أن من المشروع قتل الكافر لكفره .

أي أن الحملة الصليبية كانت واحدة وعدة حملات في نفس الوقت ؛ ولا يمكن أن تفهم إلا من خلال ديناميكيتها الداخلية ؛ وهي تعرف تشريعا متماسكا وصارما، ولكنه يقوم على مجموعة من الحالات المختلفة فيما بينها إذا تحدثنا عن الظـواهر المتغيرة سواء في الأهداف المختلفة التي تطرح في كل مـرة، أو فـي الزمـان والسياق الذي تتقرر فيه.وهي واقع متغير الأشكال، وأشبه بحوت أبـيض داخـل المسيحية : فهي أداة قضائية سياسية وفكرة–قوة، ومصدر لا ينفد من الاستعارات، وأسطورة، وموضوع لا ينتهي من التمجيدات والإدانـات، والمجـادلات وسـوء التفاهم القادر على أن يطرح نفسه من جديـد فـي مواقـف مختلفـة ومعرضـة لـ *revivals* لا تخطر على البال.

وفي كليرمونت، في نوفمبرمن عام ١٠٩٥ كان هناك أيضا أسـبان : ولكـن البابا أثناهم من البداية عن التفكير في الشرق. فقد كان عندهم في بيـتهم الخطـر "الوثني". وبعد هزيمة زلاقه في عام ١٠٨٦، كان ملك قشتالة قد رفع صوت يأسه حتى روما. وفي ١٠٨٩، كان أوربانوس الثـاني قـد مـنح نفـس الامتيـازات المخصصة للحجاج المتجهين للقدس لمن التزموا بإعادة بناء تاراجونا لكي يجعلوا منها حصنا أماميا ضد سراسنة أسبانيا : وقد تقرر هذا بموجـب قـانون كنـسي للمجلس اللاتيراني الأول في عام ١١٢٣. وربما فوجئ البابا نفسه بالحماس الذي قوبلت به رسالة كليرمونت – فقد كان أيضا مشغولا بمنع رحيل الكثير من مؤيديه إلى الشرق : ولم يكن قد انتهى بعد الصراع ضد إنريكو الرابع – وانفق الـثلاث سنوات التالية لعام ١٠٩٥ في تنظيم تدفق المسافرين، عن طريق مراسيم وبعثات لمبعوثين من ثقاته : وأيد بل شجع الحملات العسكرية وحملات أسـاطيل المـدن البحرية في البحر التيراني، ولكنه نظم بصرامة (ولكننا لا نعلـم مـدى نجاحـه) الرحلات التي كان يمكن أن يكون لها تأثيرات بصورة ما مثيـرة للقلاقـل فـي

المجتمع، مثل رحلات الرهبان والأشخاص المتــزوجين، مــع إخــضاعها لآراء القساوسة والأزواج ؛ ونصح بعدم سفر المسنين والمعوقين.

و بدأ الناس يدركون أن المسار *iter* الحربي الذي نصح به كان يتــدعم بالتــدريج بأفواج عديدة من الحجاج وصلوا للطوابير العسكرية بين عامي ١٠٩٦ و١٠٩٧ : كان الأمر يتعلق في جانب منه بظاهرة معروفة تمامــا ومعتــادة – فقــد كانــت الجموع الغفيرة من الحجاج في القرن الحادي عشر مصحوبة غالبــا بمــسلحين، على الأقل بطول مسار الحج –، ولكنه كان يتعلق في جانب آ خر بــشيء جديــد ومثير للقلق. كانت المذابح التي تعرضت لها الجاليات اليهودية القادمة من مناطق نهر الراين والدانوب على أيدي الحجاج، في عام ١٠٩٥، تبين كيف أن حــالات الغليان القديمة التي كانت تفور في تلك الجماهير كان يمكن أن تؤدي إلى مواقــف خطيرة جدا ؛ ولكنه كان يثبت أيضا أن الحج الكبير كان يحمل في طياتــه أيــضا مواقف متباينة، مرتبطة بالحركة الاجتماعية والقلق الديني فــي تلــك الــسنوات العسيرة. أي أنه على الرغم من أنه كانت هناك جهود لتحديد "جذور" و"أصــول" الحملة الصليبية، فإن الظروف الفعلية التي جعلتها تنفجــر ومجموعــة الأســباب المباشرة، القريبة والبعيدة التي تضافرت فيها شكلت أمرا غير عادي تماما.

ومن ناحية أخرى فإن الأخبار المتعلقة بالحملة التي كانت تصل في العــامين ١٠٩٧-١٠٩٨ من شبه جزيرة الأناضول، كانت غير مؤكدة ومتضاربة حتى إنه في المجلس الكنسي في باري في أكتوبر من عام ١٠٩٨ يبدو أن البابا كانت لديه الآن فكرة واضحة تقريبا عما حدث على الساحل الآسيوي.

وقد كان متورطا في الحملة، بل إنه كــان مــن أبطالهــا الرئيــسيين، أميــر نورماندي من إيطاليا : هو بويموندو دالتا فيللا، الإبن الأكبر لجويكساردو وبالتالي حفيد الجرانكونت روجيرو، الذي كان في نفس الوقت لا يحبه إطلاقا بل إنه كــان يرتاب فيه إلى حد كبير. ولهذا فقد كان مسرورا إلى حد كبير لأنه كــان يتــورط تدريجيا في المشكلات الأناضولية والسورية : ولكنه كان في نفس الوقت مصمما على ألا يحرك إصبعا لمساعدته هو أو أولئك الذين كانوا يخــاطرون بتعــريض علاقاته الطيبة مع ملوك أفريقيا للخطر. ولاستكمال وتدعيم غزوه لصقلية، كــان يحتاج للهدوء : ولهذا كان قد رفض أيضا عروض التحالف الذي هــاجم المهديــة في عام ١٠٨٧. وسيجعل غزو المدينة الجرانكونت، بمجرد سيطرته أيضا علــى الموانىء الصقلية، السيد الحقيقي للخليج الذي كانت تمر من خلاله كــل عمليــات التجارة بين الحوض الغربي والحوض الشرقي للبحر المتوسط : ولكنه كان يعلــم جيدا أنه لا يستطيع أن يتحمل غزوا بهذه الأهمية، وأنه سيؤلب ضده تحالفــا مــن

المرابطين والزيريين والفاطميين. ولنفس السبب، أيا كانت رغبة البابا، الذي كان أيضا الضامن والمشرع لعمليته في صقلية، فإنه لم يكن ينوي تعريض نفسه للخطر مع الـ *iter Hierosolymitanum*. ويخبرنا ابن الأثير، وهو كاتب أخبار عراقي عظيم عاش بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر، أن زعماء الفرنجة كانوا قد أرسلوا روجيرو للمشاركة في الحملة بتقديم قواعده في الموانئ للسماح لهم باحتلال أفريقيا. ولكن هذا الأخير لم تكن لديه أية نية لإفساد علاقاته مع جيرانه الطيبين، الأمراء الزيريين في تونس : ونصح في نفس الوقت إخوانه في الدين من المحاربين بتوجيه حملاتهم نحو سوريا. وعندما كتب بعد الحدث بقرن من الزمان، أعد المؤرخ العربي أسبابا اعتباطية للحملة الصليبية لم يسمع بها أحد من قبل إطلاقا: إن الفرنجة ربما أرادوا الاستيلاء على أفريقيا باتخاذ قاعدة في الموانئ الصقلية، وربما كانت نصيحة روجيرو هي التي "حولتهم" إلى القدس. ولكن موقف غازي صقلية قدم في نفس الوقت بفطنة بالغة.

وبينما كان مجلس ترواييه في عام ١١٢٨ يبدو عمليا الطريق لإنشاء جمعيات دينية-عسكرية عن طريق تحويل ما كان مجرد جمعيات من الفرسان المتحدين حول "معبد سليمان" إلى ميليشيا تحكمها قاعدة واحدة، بهدف رعاية وحماية الحجاج، كان البابوات يمنحون مرة بعد مرة نفس المزايا الممنوحة من أوربانوس الثاني للمسافرين في عام ١٠٩٥ سواء لأولئك الذين كانوا يقبلون إغاثة المملكة الصليبية في سوريا، أو أولئك الذين كانوا يعملون في أسبانيا، أو الذين كانوا يقاتلون ضد أعداء المقر الرسولي الروماني *pro libertate Ecclesiae*، كما تقرر على سبيل المثال في مجلس بيزا في عام ١١٣٥، بينما كان يجرى الصراع ضد روجيرو الثاني في صقلية.

وكانت القضية الثالثة والعشرون من مرسوم جراتسيانو، الذي نشر تقريبا في عام ١١٤٠، موجهة لتنظيم الحرب قضائيا ؛ وبعد ذلك بخمس-ست سنوات، بين عامي ١١٤٥ و١١٤٦، كانت هناك طبعتان من الرسالة البابوية *Quantum praedecessores* لأوجينيو الثالث تلخصان ما كان البابوات قد حددوه من الآن فصاعدا فيما يتعلق بالكفاح ضد الكفار من قرارات ألساندرو الثاني لعملية بارباسترو ، وترسيان القواعد للتنظيم القضائي للحملة الصليبية ؛ وبعد ذلك بعامين، ومع الرسالة البابوية الجديدة *Divina dispensatione*، كان البابا يشير في نفس الوقت إلى الحملة الصليبية في الأرض المقدسة، وحملة أسبانيا (بعد أن كان ألفونسو الأول ملك أراجونا، "المقاتل"، قد وصل من سرقسطه إلى ملقه) والحملة ضد الوثنيين من الونديين في شمال أوربا. وكانت الحملة في سوريا كارثية،

والحملة ضد السلافيين هزيلة الفائدة ولكن الصليبيين في أسبانيا – وكان من بينهم أيضا البحارة القادمون من جنوا وبيزا – قاموا بغزو ألميريا وتورتوزا.

ولكن سرعان ما سقطت ألميريا من جديد في أيدي المسلمين، في عام ١١٥٧، عندما انهارت سلطة المرابطين، وتعرضت الأندلس، بعد ذلك بعشر سنوات تقريبا، لغزو ممثلي حركة دينية جديدة متشددة ، وهي حركة الموحدين (أي المؤكدين لوحدانية الله")، الذين كانوا قد بسطوا نفوذهم في كل المغرب.

وفي نفس الوقت لم ترسخ الجمعيات الدينية-العسكرية جذورها في شبه الجزيرة الأيبيرية فحسب، ولكنها أنشأت – كما في ألمانيا وفي ليفونيا – جمعيات وطنية، كانت تستلهم عملها عامة من فرسان الهيكل بصفة خاصة. وبينما استمر فرسان الهيكل واسبتارية سان جوفاني في الإشراف على أراجونا، سارت الأمور سيرا مختلفا في قشتالة وليون والبرتغال. ففي عام ١١٥٧، عندما رفض فرسان الهيكل أمام الملك سانتشو الثالث ملك قشتالة الالتزام بحماية قلعة كالاترافا، عُهد بالدفاع عنها لجمعية من المتطوعين احتضنهم بعد ذلك البنديكتيون : وكان هذا ميلاد جمعية كالاترافا، التي لحقت بها بعد ذلك جمعيات سانتياجو وألكانتارا وآفيز. وهناك جمعيات أخرى، ولدت من ظروف محلية، امتصتها الجمعيات الأكبر.

انتصارات في الغرب، هزائم في الشرق

وقد رسم النصف الثاني من القرن الثاني عشر على أي حال، مرحلة انحسار للعالم المسيحي أمام الإسلام : ففي شبه الجزيرة الأيبيرية أدى وصول الموحدين لتجميد الـ *Reconquista*، بينما أدى ثبات موقف صلاح الدين في سوريا لإثناء الحملات الصليبية الجديدة بعد فشل العملية الكبيرة في عام ١١٨٩-١١٩٣ بقيادة الإمبراطور فردريك الأول (الذي مات في الرحلة)، وملك فرنسا فيليبو الثاني أوجستو وملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد. وكان فشل حملة على رأسها الملوك الغربيون الرئيسيون قد شجع من ناحية أصوات أولئك الذين كانوا يعلنون أن الحملة الصليبية لن تنجح أبدا إن لم يصاحبها تطهر قاس للمسيحية من خطاياها، ومن الناحية الأخرى دفعت لوتاريو dei conti di Segni، الذي أصبح البابا

إنوتشنتسو الثالث (١١٩٨- ١٢١٦)، للتأكيد بصورة صريحة على حق البابوات في إدارة الحركة الصليبية مباشرة، باستثناء التفويض بقيادتها العسكرية كما هو مفهوم.

ومع ذلك فقد ظهرت بوضوح، داخل الـ*corpus Christianorum*، بمناسبة الحملة الصليبية بالذات، حالات الفوران الأولى لهويات قومية أصبحت الآن ناضجة – وهي الفرنسية والألمانية والقشتالية – الأراجونية – التي كانت تضغط بصورة ما تحت غطاء "الممالك الإقطاعية". وفي الحملة الصليبية الثالثة كانت احتياجات التمييز قد أصبحت قوية جدا حتى أن المحاربين، المتحدين والمشتركين في نذر وعملية واحدة، كانوا يحملون مع ذلك صلبانا بألوان مختلفة، متبعين في ذلك تجديدا كان قد تأكد في الحملة الصليبية ضد الونديين : الأحمر للفرنسيين والأبيض للإنجليز والأخضر للفلمنكيين.وقد مثلت الخصومة التي تفجرت بين فيليبو ملك فرنسا وريتشارد ملك إنجلترا تحت أسوار عكا في ١١٩١ فصلا مبدئيا وأساسيا لخلاف قدر له أن يستمر قرونا.

وقد وجدت البابوية الكبيرة للبابا إنوتشنتسو الثالث في نتيجة الحرب الصليبية بالذات – التي كانت إحدى قواعد برنامجه – نقطة ضعفها. وانتهت الحملة التي أعلنت في عام ١٢٠٢ بعد عامين بغزو القسطنطينية من قبل الصليبيين والفينيسيين وتقطيع أوصال الإمبراطورية البيزنطية ؛ وأدت الحملات على بحر البلطيق وضد الـ "albigesi" في فرنسا الجنوبية إلى نتائج لم يكن بوسع البابا أن يتقبلها بنفس راضية، على الرغم من أنه شرعها من قبل ؛ ولا تزال غامضة أيضا حكاية "الحملة الصليبية للصبية" في عام ١٢١٢، والتي انتهت على أي حال ربما ببعض المزايا فقط بالنسبة لتجار العبيد في البحر المتوسط. وفي أسبانيا فقط أدى رد الفعل ضد الموحدين إلى نتائج إيجابية.

وكان الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور قد هزم في ١٦ يوليو ١١٩٥، في الصدام الميداني الكبير في ألاركوس، ملك قشتالة ألفونسو السابع. وكانت قد مرت ثمان سنوات بالكاد على هزيمة حطين والإستيلاء الإسلامي على القدس : فكانت المسيحية تشعر بأنها مضغوطة بين فكي كماشة. ولا شك في أن الانطباع بوجود خطر وشيك كان له دوره في اختيار بابا مثل لوتاريو دي سينيي، الذي كان يبدو مصمما تماما على استئناف الحملة الصليبية. وقد سمح للـ aquitani الذين نذروا السفر كصليبيين للأرض المقدسة بتغيير نذرهم للقيام بحملة أيبيرية. وقد دفع استيلاء الموحدين على قلعة سلفاتييرا، في ١٢١٠، البابا للقيام بحملة صليبية جديدة في فرنسا أيضا. وهي حملة شارك فيها الملك ألفونسو،

ملك قشتالة وبيترو، ملك أراجونا، اللذان أضيف إليهما فيما بعد سانتشو دي نافارا علاوة على العديد من الفرسان الأسبان والبرتغاليين والفرنجة الجنوبيين، وأدت في ١٧ يوليو من عام ١٢١٢ للانتصار الكبير في لاس نافاس دي تولوزا، بين قشتالة وأندالوسيا.

وفي واحدة من الهندسيات الجغرافية الزمنية الغربية التي غالبا ما تسجل في التاريخ (وليس فقط في تاريخ العلاقات بين أوربا والإسلام)، شهد القرن الثامن في الشرق احتضارا بطيئا لما تبقى من المملكة اللاتينية في القدس – التي تحولت إلى تاج إسمي متنازع عليه بشدة ومجموعة من الممالك والمراكز التجارية والجمعيات الدينية المتصارعة فيما بينها – وشهد في الغرب، في مقابل ذلك، تقدما آخر للـ *Reconquista*.

وقد تضاءلت الآن تدريجيا الآمال في انتزاع القدس من جديد من أيدي المسلمين : حتى إن إعادة غزو الكفار لم تمنع ولم تبطئ في نهاية الأمر من تدفق الحجاج المسيحيين. وقد اتجهت الحملة الصليبية في ١٢١٧-١٢٢١ وبعد ذلك الحملة في ١٢٤٨-١٢٥٤ (الأولى من الحملتين اللتين قادهما لويس التاسع ملك فرنسا) ضد موانئ النيل : على الرغم من أن سان لويجي – الذي أسره المسلمون في أبريل من عام ١٢٥٠ –، عندما أطلق سراحه من السجن بعد ذلك بقليل، أمضى ما يقرب من أربعة أعوام على الساحل السوري-الفلسطيني (كل ما تبقى من المملكة الصليبية) ليصلح التحصينات ويحاول الوساطة بين القوى المتصارعة التي كانت تهيمن على الواقع في ذلك الطرف المتداعي من أوربا وراء البحار.

وقد جربت في نفس الوقت العديد من الطرق البديلة. ففي عام ١٢٢٨-١٢٢٩ كان فردريك الثاني قد تلقى من سلطان مصر بموجب الهدنة الموقعة بينهما قدسا مفككة ولا يمكن الدفاع عنها ؛ وفيما بعد، بين الأربعينيات والتسعينيات من القرن الثالث عشر، كانت هناك آمال تراود البعض في عناد في إغاثة من جانب القوة التترية، التي كانت قد اجتاحت وغزت جزءا كبيرا من آسيا الوسطى والغربية حتى روسيا الجنوبية وإيران. ولكن الأزمنة كانت تتسارع في إعادة تحديد كل الصورة السياسية للشرق الأدنى. وفي ١٢٤٤ دخل الخوارزميون الرحل كما قلنا في القدس المفككة كما أرادها الاتفاق بين الإمبراطور الجرماني والسلطان المصري، وطردوا منها المسيحيين (ما يقرب من ستة آلاف) وقتلوا منهم ما يقرب من ألفين في مذبحة بشعة نادرا ما تذكر. وفي ١٢٥٠ قلب العبيد المحاربون المماليك في خدمة السلاطين الأيوبيين في مصر سادتهم وبهجوم عسكري مفاجئ أخذوا مكانهم مقسمين على الانتقام ضد المسيحيين الذين ربما

كانوا يفضلون النظام السابق ؛ وفي ١٢٥٨، في النهاية، قام المغول بقيادة هولاكو خان بغزو بغداد وقتلوا آخر الخلفاء العباسيين. وفي بضع سنوات كان توازن "الهلال الخصيب" قد انقلب رأسا على عقب.

وفي ١٢٧٤ طلب البابا جريجوريو العاشر، الذي أقام طويلا في الأرض المقدسة كمبعوث بابوي، في أثناء المجلس الثاني في ليون أن توجه إليه تقارير تفصيلية حول الإمكانية الفعلية لتنظيم حملة صليبية فعالة جديدة. وقد نشأت عن ذلك أدبيات غنية وهامة في جوانب عديدة *de recuperatione Terrae Sanctae*، تتميز بكمية وفيرة من المعلومات الإستراتيجية والتكتيكية والجغرافية واللوجيستية والاقتصادية والمالية ؛ وكان بعض المؤلفين لهذه الكتب الثقيلة من الشخصيات اللامعة، مثل المعلم الكبير الذي كان ينتمي لفرسان الهيكل جاكومو دي مولاي، والمحامي الشهير لفيليب الرابع ملك فرنسا بيير ديوبوا، والأدميرال الجنويزي* بنديتو زكريا، والفينيسي مارين سانودو تورسيللو. وكانت هناك حلول كثيرة تطرح لمشكلات الطريق المسدود أمام الحملة الصليبية : حصار الموانئ النيلية بحيث يجبر السلاطين المماليك، سادة القدس، على التنازل عن المدينة المقدسة في مقابل فك الحصار ؛ وتوحيد الجمعيات الدينية ؛ والعديد من أشكال إعادة التنظيم للنظام المالي للحملات القادمة. ولكن كل هذا لم يمنع سلاطين المماليك في مصر من تصفية القلاع الساحلية في الأرض المقدسة التي كانت لا تزال في أيدي الفرنجة، في بضع سنين. وقد سقطت آخرها، وهي عكا - كما نعلم - في عام ١٢٩١.

ويبدو أن فترة الغفران التي أعلنها بونيفاتشو الثامن لعام ١٣٠٠، حتى وإن كانت لها موضوعاتها المعقدة، تلمح لاستبدال الحج إلى القدس ولو جزئيا، مع ما يرتبط به من امتيازات - وهو ممارسة بقيت أيضا قوية -، بالحج الروماني، وبالتالي قبر المنقذ مع قبر الرسول. ومع ذلك، وفي ذلك العام المصيري بالذات ١٣٠٠، وبينما كان الحج إلى روما في أوجه، انتشر خبر زائف بأن المغول، بعد أن تحركوا من إيران، قاموا بغزو القدس واستعدوا لإعادتها للمسيحية. وقد صدق الناس في أوربا هذا السراب لبعض الوقت. ولكن إلغاء جمعية فرسان الهيكل، خلال الأحداث الشهيرة والغامضة في مجملها، التي ميزته بين عامي ١٣٠٧ و١٣١٢، له مغزى هام يتجاوز الأحداث. فبعد سقوط عكا، كانت الجمعية قد بقيت على قيد الحياة : وبخلاف جمعية سان جوفاني التي كانت قد استقرت في رودس واكتشفت تدريجيا فعاليتها في الموقف الجديد، فإنها لم تستطع أن تتكيف مع

* القادم من مدينة جنوا الإيطالية . (المترجم) .

الموقف. وبصرف النظر عن الأسباب التي دفعت ملك فرنسا للشروع في الإلغاء والمقر البابوي الذي سانده، فإن الهيكل كان يبدو أنه تجاوز زمانه وبقي على قيد الحياة: باستثناء شبه الجزيرة الأيبيرية، كما هو مفهوم، حيث كان فرسان الهيكل قد احتفظوا بأهميتهم في أراجونا وفي البرتغال وحيث كان "الإلغاء" بالأحرى *Fictio iuris*.

ومن ناحية أخرى فإن الموقف الأسباني كله كان خاصا. فقد بدا أن اتجاه ملوك قشتالة وأراجونا لاعتبار الـ *Reconquista* باستمرار شأنا أسبانيا يلقى مساندة البابوات أيضا، غداة لاس نافاس دي تولوزا.ولكن إنوتشنتسو الثالث وأونوريو الثالث على حد سواء كانا قد أكدا أن عملية أسبانيا لا يجب أن تصرف انتباه القوات في الشرق. وبالفعل، كان يبدو أن الأمور في شبه الجزيرة الأيبيرية استأنفت سيرها الحسن، بينما كان يحدث العكس بانتظام على الجانب الآخر من البحر المتوسط. ولكن الفرنجة الجنوبيين استمروا في المشاركة بصورة أقل في العمليات الأيبيرية، في حين أن الصليبيين المتجهين إلى سوريا عن طريق البحر من انجلترا وهولندا والمنطقة المنخفضة من نهر الراين عندما كانوا يمرون بالقرب من السواحل البرتغالية غالبا ما كانوا يتوقفون للمساعدة في الاستيلاء على بعض القلاع الساحلية السراسينية. ومن ناحية أخرى دخل الموحدون في أزمة في الربع الثاني من القرن الثالث عشر : فلم تصل بعد مساعدات مسلمة إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، واستفاد من هذا القشتاليون كثيرا والأراجونيون على حد سواء. حتى أن الخليفة الموحدي المأمون (١٢٢٧-١٢٣٢) كان يحتاج للمساندة غير المباشرة لملك قشتالة لكي يفرض سلطته على الطوائف الباقية في الأندلس وكان جيشه يؤسس جانبا من كفاءته على أساس وجود قوي لمرتزقة مسيحيين.

وبالمساعدة المستمرة للجمعيات الدينية الأسبانية ومساندة الامتيازات الممنوحة من البابا، نجح جاكومو الأول ملك أراجونا في نفس الوقت في غزو مايوركا بحملة استمرت عامين، بين ١٢٢٩ و١٢٣١، والاستيلاء بين عامي ١٢٣٢ و١٢٥٣ على مملكة بلنسية. ومن جانبه قام فرديناندو الثالث ملك قشتالة – الذي سينضم لقائمة القديسين ،أسوة بسان لويجي – بالاستيلاء على باداجوز وجيريز وقرطبة وأخيرا أشبيلية على التوالي بين عامي ١٢٤٨ و١٢٤٨. وقد جلبت إليه هذه الانتصارات شهرة هائلة : فقد كان هو المنتصر المسيحي الوحيد على الإسلام في عالم كانت تبدو فيه الغلبة للمسلمين والمغول في كل مكان. ولكن تصريح البابا ومباركته أيضا، في عام ١٢٤٦، للحملة التي ستؤدي للاستيلاء على أشبيلية – وهي واحدة من أكبر المدن في ذلك العصر – على الرغم من أن لويس

التاسع كان يعد آنذاك بجهد هائل لحملته الكبيرة على مصر والأرض المقدسة، يبرهن مرة أخرى، على أنه إذا كان الجناح الأيبيري هو "الجناح الغربي" للجبهة الصليبية، فقد كانت تترسخ الآن أيضا الفكرة القائلة بأن الحملة الصليبية في أسبانيا كانت شأنا خاصا بالأسبان. وقد أصبحت كذلك لدرجة أن سان فرديناندو استطاع أن يمول حملته الصليبية بأخذ الـ *tercias reales*، أي ثلث الأعشار التي تجمعها الكنيسة القشتالية.

ومع منتصف القرن كان البرتغال أيضا حرا من الرهن الإسلامي : وبدا أن توازنا جديدا قد تم التوصل إليه. كان المغرب في أيدي عائلة جديدة، هي عائلة المرين *merinide*، التي كانت قد قامت بغزو مراكش في ١٢٧٩ ؛ وكان السلطان المريني *merinide* أبو يوسف قد سارع قدر استطاعته بتدعيم الحاميات بما تبقى من الأندلس. ومن الجانب القشتالي فكر البعض حتى في تنظيم حملة صليبية لغزو المغرب. ولكن ألفونسو العاشر (١٢٥٢-١٢٨٤) الذي خلف الأب كملك لقشتالة، فضل تدعيم غزواته القارية، وطرد المسلمين من منطقة مورسيا وأن يترك مؤقتا في أيديهم آخر مدينة كبيرة في الأندلس، وهي غرناطة. وبقيت الحدود الأندلسية بين أسبانيا المسيحية وأسبانيا المسلمة أرضا تصعب مراقبتها : وهناك بين عامي ١٢٧١ و١٢٧٣ فضل العديد من النبلاء المسيحيين تقديم هدية إقطاعية للسلطان المغربي بدلا من الخضوع لألفونسو العاشر. ومن ناحية أخرى اتضح أن الأمراء النزاريون *nazridi* في غرناطة أبعد ما يكونون عن الخضوع للسلطان المريني *merinide*، الذي كان يطمح أيضا لتقديم نفسه على أنه أملهم الوحيد في مواجهة المسيحيين : بل إن الأمير عبد الله محمد الثاني وقع مع جمهورية جنوا على معاهدة للتجارة مجزية لأهل ليجوريا، الذين أقاموا في غرناطة مستعمرتهم. وقد كان هذا يظهر قدرة جيدة على التكيف من جانب إمارة مصممة على أن تتولى دورها الدولي المستقل.

وكان أهالي أراجونا، من جانبهم، يشعرون الآن – وقد أصبحت الأندلس محاطة بقشتالة – بأنهم أكثر حرية وأقل تورطا جزئيا في الحملة الصليبية الأسبانية : وكان ميلهم القديم لعلاقة وثيقة مع فرنسا الجنوبية والبحر المتوسط الغربي يدفعهم للنظر ربما لإمكانية التعاون مع عمليات أخرى موجهة ضد الإسلام. وبهذه الروح التزم جاكومو الأول ملك أراجونا مباشرة، وإن كان ذلك بحذر شديد، في الإعداد للحملة الصليبية الثانية لسان لويجي. وأبحر بالفعل في الأول من سبتمبر من عام ١٢٦٩ من برشلونة، ولكن عاصفة أجبرته على العودة؛ وفي ديسمبر ظهرت قوة متواضعة من أراجونا في عكا، ولكنها انسحبت بعد ذلك بقليل دون أن تنجز شيئا .

وكان الإنجليز أيضا قد وعدوا بمساندتهم لملك فرنسا : ولكن رحيل قوتهم تأخر. وقد رفع لويس الهلب في الثاني من يوليو من عام ١٢٧٠، وهو مصمم – لأسباب لا تزال غامضة رغم كل شيء – على الهبوط في تونس قبل السعي نحو الأرض المقدسة. فهل كانت هذه حركة لخدمة السياسة الأفريقية لشقيقه كارلو دانجو، ملك صقلية؟ على أي حال، توفي لويس، ربما من التيفود، في ٢٥ أغسطس من عام ١٢٧٠ على الساحل التونسي، بالقرب من أطلال مدينة قرطاجنة القديمة. وقام شقيقه كارلو، الذي وصل إلى المعسكر الصليبي بالذات في ذلك اليوم، بالإعداد لانسحاب الحملة. وكان قد وصل إلى أفريقيا منذ قليل أيضا، إدواردو، ابن هنري الثالث ملك إنجلترا : وقد قبل في البداية الانسحاب إلى صقلية، ولكنه واصل في عام ١٢٧١ طريق الأرض المقدسة ونزل في عكا في أوائل شهر مايو. وبقى وراء البحار أكثر قليلا من عام واحد، لكي ينسحب وهو فاقد الثقة ومريض، في سبتمبر من عام ١٢٧٢. وكان الأمير إدواردو آخر حاكم لامع يقود حملة صليبية على ساحل بحر الشرق. ومنذ ذلك الحين – على الرغم من الالتزام الصليبي القوي لكل من البابا جريجوريو العاشر ونيقولو الرابع – بقي ما تبقى من المملكة الصليبية في جوهر الأمر مهجورا ليواجه مصيره، الذي اكتمل بصورة نهائية في عام ١٢٩١.

"Amors de terra londhana"

حب الأرض البعيدة

وفي أوائل القرن الثاني عشر، كان رجل الدين فولكيريو دي شارتر – وهو شاهد عيان على الحملة الصليبية الأولى – قد كتب أنشودة ساخنة وعاطفية للثراء ومتعة العيش التي استطاع الغزاة الجدد لفلسطين اكتسابها، بعد أن جاءوا من الأقاليم الأوربية القاسية. ويبدو أنه قد نجح وسبق زمانه metacronicamente في التعبير عن الرغبات المشبعة والشعور العميق للعديد من الـ *pieds noirs* في كل الأزمنة، والذين وجدوا بعد ذلك بعيدا عن وطنهم، وراء الجبال والبحار، الحظ والثروة – القليلون منهم على الأقل نجحوا في ذلك. وعند فولكيريو نجد أيضا كلمات "الشرق" و"الغرب" المصيرية، الملقاة هناك تقريبا ؛ ونصطدم هناك بشرق يهيم به الناس ويداعب خيالهم، كشيء نحبه ونحلم به علاوة على امتلاكه.

ماذا حملت الحملة الصليبية لأوربا؟ الجذام، كما كان يرد رجل فولتير. وماذا كانت أفضل ثمرة للحملة الصليبية؟ المشمش، في رأي جاك لو جوف.

وبصرف النظر عن الـ *mots d'esprit*، فإن هناك في الإجابتين شيء من الحقيقة : يبدو أنهما مع ذلك تفسران الحملات الصليبية على أنها حدث سياسي- عسكري (وربما "استعماري") من خلال سياقها التاريخي، والتقارب الاقتصادي والثقافي بين أوربا والإسلام ؛ ومن خلال استئناف، بل نهوض العلاقات الوثيقة جدا التي ستسمح بالتطور الاقتصادي والمالي والتكنولوجي والعلمي والعقلي في القرن الثالث عشر، وهو من أكثر القرون ازدهارا واستنارة في كل التاريخ الأوربي في البحر المتوسط.

وداخل هذه النتائج الإيجابية، التي تحققت من خلال مجموعة من الأسباب والأحداث كانت الحملات الصليبية فيها الجانب العسكري الذي لا ينفصل مع ذلك - كما رأينا بشأن الحج - عن عناصر اجتماعية ودينية مميزة، يجب أن يؤخذ في الاعتبار الاكتشاف المتزيد للآخر من جانب المسيحيين الغربيين.

هل كان اكتشافا متبادلا؟ يجب أن نقول مقدما إن المسيحية والإسلام لم ينطلقا على الإطلاق متساويين على صعيد معرفة كل منهما للآخر. والنبي نفسه (صلعم) كانت له بعض العلاقات مع نساك من المسيحيين، وكان المسلمون الأوائل - باستثناء دائرة القبائل البدوية التي خرجت من الجاهلية - في معظمهم من المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام. وكانت الكنائس العديدة، الموقرة والمزدهرة في الشرق معروفة تماما للمسلمين ؛ وقد أثبت المسيحيون الشرقيون مبكرا أنهم يستطيعون توجيه أنفسهم أمام الظاهرة الدينية الجديدة. وتغيرت الأمور مع الأساقفة، ورهبان وحكماء الكنيسة اليونانية، الذين تلقوا الأخبار الأولى عن الإسلام بصورة غير مباشرة، عن الطريق السوري بصفة خاصة، والذين قللوا ربما من شأن مشكلة الديانة الجديدة، التي كانت لا تلقى التقدير الكافي وكانت تعتبر بالأحرى شيئا غريبا. وإذا كان المسلمون يعرفون بدورهم وسمعوا كثيرا على أي حال عن الروم، البيزنطيين، فإنه لم يكن بوسعهم أن يشعروا باهتمام كبير بالفرنجة البعيدين الأفظاظ، الذين اتصل بهم فقط العرب البرابرة الذين احتلوا اسبانيا في العشرين سنة الأولى من القرن الثامن. وعلى أي حال كان كون الفرنجة من المسيحيين يمثل وحده، بالنسبة للإسلام، مرجعية واضحة تماما.

وعلى العكس من ذلك لم تكن لدى الأوربيين الغربيين أية فكرة واضحة أو أكيدة يستندون إليها لفهم من كانوا وماذا كان يعتقد أولئك القادمون الجدد. وفي

التقاليد اللاتينية القديمة، على نطاق واسع متحفظ، حتى وإن لم يكن شـــائعا، كـــان العرب *molles*، مخنثين وفاسدين ؛ وكانت بلادهم هي الـــ *Arabia felix*، إقليم التوابل الغامض المرتبط بأسطورة *Fenice* والتاريخ التوراتي لملكة سبأ. وبعد ذلك بعـــدة عقود كانت الأمور قد تغيرت جزئيا بلا شك : فلم تكن غارات الـــسراسنة علـــى السواحل الأوربية وفى البحر المتوسط الغربي بالطبع المناسبات الأنـــسب للقـــاء ودي، ومع ذلك، فقد كانت وسائط للمعارف والمعلومات. وأحداث مثل الـــسفارات بين كارلو وولاة أسبانيا وخليفة بغداد وخطاب برتا دي توسكانا للخليفة، والعلاقات الغامضة بين قراصنة السراسنة وأوجو دي بروفنسا، هي إشـــارات لبريـــق مـــن المعرفة المتبادلة التي كانت تنفذ من ستار الجهل الذي كان متبادلا، ولكنه لم يكـــن موزعا بالتساوي على الجانبين .

وهناك مغزى على سبيل المثال لتبـــادل الـــسفراء والمعلومـــات بـــين البابـــا جريجوريو السابع، في ١٠٧٦، والأمير الحمادي *hammadita* الناصر، ملك **بجاية**، بشأن مسألة متعلقة بالجالية المسيحية في ذلك المركز. وفى كلمات البابا في هـــذه المناسبة وعي قوي، يعبر عنه بصراحة، بأن " كلا منا يعتـــرف، ولـــو بطريقـــة مختلفة، بإله واحد نسبحه ونعبده كل يوم على أنه خالق وسيد الكون"*.

بهذه المقدمات، نظل للوهلة الأولى حائرين أمام صورة الإسلام التـــي تظهـــر من النصوص التي تصف المسلمين في علاقتهم بالحملة الصليبية الأولى أو فـــي أعقابها : ليس فقط نصوص الوقائع، التي هي بخيلة في نفس الوقت بالأخبار فـــي هذا الشأن، ولكن النصوص الملحمية بصفة خاصة. ولا يجب أن ننسى أنها كتبت أو جمعت على أي حال في منطقة معظمها أو كلها علمانية، وتتـــضمن علـــى أي حال رسالة دعائية موجهة للعلمانيين الأميين. والمعرفة التي كانت عند الأوربيين الغربيين في القرن الحادي عشر عن الإسلام كانـــت قليلـــة ومختلطـــة ومليئـــة بالثغرات: ولكنها، فوق كل شيء، كانت تتسم على مـــستويات مختلفـــة بـــالوعي والاستفادة وكانت موضع تأمل منتظم يدير ويـــستخدم مـــضامينها تبعـــا للبيئـــات والأهداف التي كانت موجهة لها. وإذا كان واضحا في بيئة إكليريكية نخبوية على الأقل الطابع التوحيدي والإبراهيمي أيضا لديانة السراسنة، فإن هذا الوعي لابد أنه كان قليل الانتشار جدا : باستثناء حالات الاتصال والتجربة المباشرة، المقدر لهـــا أن تظل محصورة.

---

* جريجوري ب ب السابع *Registrum* ١ – الجزء الثالث ، الرسالة ١٥٠ ، طبعة إ. كسبر ، *M.G.H., Epistolae selectae* ، ص ص ٢٨٧ – ٢٨٨ .

وفي مرآة الشعر الملحمي المشوهة، كان المسلمون يكتسبون سمات أسطورية، سحرية، وحتى شيطانية. وكانت هذه رؤية شعبية، قدر لها مع ذلك أن تبقى قوية في الخيال الجماعي.

وبين الحين والآخر، تظهر أيضا في الفرق الوثنية صور الأمازونيات* (وسوف يذكرها أيضا أريوستو وتاسّو) والقنطورس وكوكبة القوس والرامي. وفي *Chanson de Roland* هناك عمالقة يساعدون الأمير ؛ وفي الـ *Coronemenz Loois* – وهي *chanson* يرجع تاريخها إلى ما بين الحملة الصليبية الأولى والثانية – يتعين على البطل المسيحي جوليلمو أن يحارب ضد الأمير كورسولت، وهو عملاق تقع إمارته وراء البحر الأحمر ؛ وصديق جوليلمو و"رفيقه في السلاح" هو عملاق آخر، يدعى رينواردو، وهو بالطبع طيب ومسيحي، ولكنه ابن الملك السراسيني ديراميه، وهو ما يفسر حجمه البالغ. أمّا وأنّ السراسيتي هو من أتباع الشيطان فهذا ما تبرهن عليه السمات الإعجازية التي تصاحب موته : فالشياطين تهرع سريعا لاختطاف روحه عندما يسقط في الحرب. وإذا كان لدى المسيحيين أسلحة تحميها قوة الرفات والبركات، فإن السراسنة يرجعون قوة أسلحتهم لفنون السحر، والأحجار الكريمة والأعشاب المزودة بقوة غامضة .

وإسلام الشعر الملحمي – وبالتالي الدعاية – هو ديانة زائفة وشريرة : وهو ما كان يمكن أن يتوافق، كما سنرى، مع المعارف التي عند المثقفين عنه. ولكن مضامين هذا الزيف وهذا الشر كانت غريبة بالقياس للأسباب التبريرية والخلافية للدارسين. وربما يكون الشعر الملحمي قد ضخم وملأ أخبارا غريبة إلىْ حد ما بتفاصيل خيالية: أن السراسنة كانوا يعبدون معبودات مخيفة، مثل عملاق قادش الذهبي في أخبار توربينو الزائف ؛ وكانوا يجاهرون بعبادة محمد (صلعم) على أنه إلههم ويجعلونه شريكا كـ "ثالوث مضاد" تجديفي مع الآلهة الوثنية القديمة أو مع الآلهة ذات الأسماء الخيالية أو المشتقة من أسماء شيطانية أو توراتية زائفة.

وكانت الأخلاق "الوثنية" بدورها متخيلة على أنها قلب لهذه المسيحية، وخاصة فيما كان يتعلق بالملذات الحسية : فقد كان يقال إن السراسنة كانت عقيدتهم تدفعهم لكل أنواع المفاسد والشهوة. وفي أوائل القرن الثالث عشر وصل جاكومو دي فيتري للقول بأن السراسنة الأكثر ثقافة وذكاء، ويعرفون جيدا أعمال القدماء والكتابات المقدسة المسيحية، كانوا سيتحولون بلا شك عن دينهم. وقد كرر مثل

* الأمازونية هي امرأة من عرق خرافي من المحاربات زعمت الأساطير الإغريقية أنهن كن يقمن قرب البحر الأسود . (المترجم) .

هذه الآراء وأقرها بقوة الفيلسوف المسيحي الكبير توما الأكويني، الذي كان معجبا بالثقافة الإسلامية وكان يستلهم منها ولكنه كان متأثرا بالأساطير الشعبية الحمقاء التي كانت تشيع بصفة خاصة حول النبي (صلعم).

وفيما يتعلق بالعبادة التي يتبعها المسلمون على سبيل المثال، كان يمكن أن ينشأ اللبس من زحزحة المعنى في بعض الكلمات وفي بعض المفاهيم. وعندما كان السراسنة مجرد بدو رحّل يسكنون الصحراء، قبل ظهور الإسلام، كشف القديس جيرولامو في *Vita Hilarionis Heremitae*، عن أنهم كانوا منهمكين في "عبادة الزهرة" : التي كانت لا تزال ببساطة نجمة الزهرة، بين القرنين الرابع والخامس. وانتشار عبادات النجوم في شبه الجزيرة العربية معروف تماما : وكانت الإلهة "اللات"، تتطابق بالضبط مع كوكب الزهرة. ومن ناحية أخرى، يجب أن نلاحظ أن جيرولامو بالذات هو الذي اقترح تطابق نجمة الصباح المتلألئة ، أي الزهرة، التي يتحدث عنها نص النبي أشعيا Isaia، مع أمير الملائكة المتمردين في تقاليد سفر الرؤيا. وربما يبدو أقل غرابة، في ضوء هذه الالتباسات الغريبة ،أن محمداً (صلعم)، في رأي نيتشيتا بيزانتسيو، ربما فرض على السراسنة عبادة معبود تذكرنا خصائصه بالزهرة بالطبع، ولكنها يمكن أن تتوافق مع أية إلهة-أم بين العديد من الآلهة المعروفة والمعبودة بين "الهلال الخصيب" و*Arabia felix* قبل انتشار المسيحية والتي بقيت عبادتها، المرتبطة في توافق مع تقاليد شبه توراتية، بين البدو الرحل.

وفيما يتعلق أيضا بالجانب الشيطاني أو المخيف للسراسنة والموت البطولي والورع للفرسان، فإن سقوط البطل الملحمي في المعركة ضد مخلوقات شيطانية المظهر يضفي على الحرب ضد الوثنيين طابعا رؤيويا : فنحن في نطاق صدامات تصور مقدما المعركة النهائية بين قوى النور وجحافل الظلمات، كما تؤكد ذلك التدخلات الإلهية أو الملائكية في حروب أسبانيا، وصقلية وسوريا. وكان صراع البطل المحارب ضد الكافر أيضا صورة من المعركة التي لابد من خوضها في الصراع ضد الـ *arma lucis* التي كان يتحدث عنها القديس بولس، عن الصراع الداخلي الذي كان على كل مؤمن أن يخوضه في نفسه ضد الشر والخطيئة. وفي القرن الرابع كانت هذه الـ *pugna spiritualis* قد ترجمها فعلا بألفاظ بطولية-مجازية شاعر مسيحي، هو برودنتسيو، الذي كان قد وصف بالذات في قصيدته *Psychomachia*، وبألفاظ تذكرنا بالـ *Iliade* والـ *Eneide* والـ *Tebaide*، ملحمة ستاتسيو والصراع بين الفضائل المسيحية والرذائل الوثنية. وهذا العمل كان مقدرا له أن يصبح أساسيا ليس فقط للأدب، ولكن أيضا للنحت والرسم في

العصور الوسطى : وأن يكوّن أحد أقوى الدعائم لمكانة الفارس في العصور الوسطى ونفس العقلية الشائعة التي كانت تشجع الحركة الصليبية.

وفي بداية العقد الرابع من القرن الثاني عشر – وبالتالي غداة ذلك المجلس الذي عقد في مدينة تروييه الفرنسية وأضفى المشروعية على التجربة الجديدة لجمعية فرسان الهيكل داخل الكنيسة – كتب برناردو دي كليرفو كتابه القصير *De laude novae militiae* الموجه بالذات لفرسان الهيكل. فبعد مقابلة دقيقة بين "الفروسية الجديدة" والفروسية الدنيوية التي كانت تبدو إدانة لا تغتفر لنوعية حياة الفروسية، أكد الراهب البنديكتي على الرسالة الخاصة بالـ *novi milites* وأخيرا على الطابع الروحاني والمجازي للأماكن المقدسة. وعندما وصل إلى المشكلة الشائكة الخاصة بمشروعية قتل العدو في سياق لم تكن فيه الأنظمة القانونية للـ *bellum iustum* كافية – ولم يكن الأمر يتعلق بتقديم الحرب على أنها مشروعة، ولكن بمناقشة ما إذا كان يمكن وكيف يمكن خوض حرب بقدسية – أدخل برناردو، بشيء من الحرج، موضوع "قتل الشر". ويصبح قتل العدو ضروريا وبالتالي واجبا في الحدود التي يكون فيها بالفعل حاملا للشر والخطيئة لدرجة أنه لا يمك مواجهتهما إلا من خلال قتل من يحملهما. وقد كان هذا رأيا صعبا، ويمكن تبريره فقط في سياق من الاستثنائية مثل سياق الدفاع عن الأرض المقدسة وتأسيس الجمعيات الدينية–العسكرية : ولكن لم يكن من الممكن الدفاع عنه، بصرف النظر عن موضوعاته الدينية، لو لم يكن قد تأسس على نموذج الـ *Pugna spiritualis* . (٥٠)

وهناك موضوعات مماثلة أو مشابهة تتخلل كل الإنتاج الملحمي الموجه تحديدا للحملات الصليبية : فقد كتبت *chansons* قليلة بين القرن الثاني عشر وبدايات القرن الرابع عشر أثرت مع ذلك كثيرا على كل الرأي العام الأوربي وترجع إليها على الأقل جزئيا الأسطورة المرتبطة بشخصية جوفريدو دي بوليوني. ويبدو الإلهام التاريخي لهذه الدورة هزيلا وغير متواصل : ولكنه يجب أن يقرأ في علاقته مع الدعاية الصليبية في الأوقات التي ألفت فيها كل أغنية متعلقة بها. وقد كانت أيضا العديد من الأغنيات عن الحملة الصليبية التي ولدت في فرنسا وفي أسبانيا وفي ألمانيا وفي إيطاليا، ونادرا أيضا في أماكن أخرى، تعبيرا عن الدعاية – ونادرا أيضا عن الحماسة وخيبة الأمل والإحباط –، لمصاحبة انتشار الموضوعات الصليبية التي كان إنوتشنتسو الثالث قد نظمها بصرامة، واستأنفها وجددها، بداية من القرن الثالث عشر، الدعاة الفرنشيسكان والدومينيكيون بصفة خاصة. وكانت مراقبة محاكم التفتيش والضغط الضريبي والتبشير الشعبي هي الأسلحة التي من خلالها استخدمت البابوية، بداية من القرن

الثالث عشر، الحملة الصليبية لتأكيد تفوقها أيضا على الصعيد الدنيوي، وتوجيه الخيارات السياسية للحكومات، والتأثير على الرأي العام والتحكم في قوة وفعالية الميول المرتدة.

وعلى صعيد الإنتاج النصي، لم يقتصر هذا المسار المعقد على الأدب والأبحاث. فقد مسّ جزئيا أيضا كتابة الوقائع وسير القديسين أنفسهم.

وقد أدى فشل الحملات الصليبية في الأرض المقدسة والفرص المتزايدة للتبادلات التجارية والمعارف المتبادلة بين المسيحيين والمسلمين إلى تغيير الرؤية الشيطانية التي كانت عند هذا الفريق إزاء الفريق الآخر، لتضاف إليها عناصر من التقدير والتعاطف. ومنذ الـ *chansons* ووقائع الحملة الصليبية الأولى كان البعض قد أكد كثيرا على شجاعة وأحيانا على وفاء المسلمين، وربما كان يقابل ذلك جبن وسوء نية المسيحيين. ويبدأ الفارس النورماندي المجهول في حاشية أمير تارانتو أثناء الحملة الصليبية الأولى، ومؤلف الـ *Gesta Francorum* من استنتاج الشجاعة الحربية للأتراك لينتقل للحديث عن الأسطورة التي ترى أن الأتراك والفرنكيين ينحدرون جميعا من سلالة أهل طروادة وبالتالي فإنهم أعداء طبيعيون لليونانيين الجبناء والخونة : وهذه هي البداية الأولى لـ *topos* أدبي سيبرر على ضوئها فيما بعد العداء للإمبراطورية البيزنطية والذي سيعود بقوة بين العصور الوسطى والعصر الحديث. ويختتم الفارس المجهول حديثه بقوله إنه إن تحول الأتراك عن دينهم فلن يفوقهم أيّ شعب آخر.

وفي مؤلف لاتيني عن البيئة الرهبانية البافارية يرجع تاريخه للسنوات الخمسينيات-الستينيات من القرن الثاني عشر وقدر له أن يحتفل بطموح الإمبراطور فدريكو الأول لتولي دور الملك المكلف برسالة رؤيوية، يكون فيها الـ *Ludus de Antichristo*، شخصية الـ *Rex Babilonis* – التي من السهل أن نلمح فيها تصويرا لحاكم إسلامي أعلى – وثنيا وعابدا للأصنام بالطبع : وهو يقدم كذلك على أنه لا يخلو من سمو النفس ؛ وقوة السلاح وحدها هي التي ستجبره على الخضوع للمسيح الدجال، الذي خدع المسيحية كلها مع ذلك بسهولة. وبعد ذلك بعدة عقود، وفي أوائل القرن الثالث عشر، تكون شخصية "الوثني" في قصيدة *Parzival* التي كتبها فولفرام فون إيخنباخ ملفوفة بهالة من السحر الخلاب – حتى أن البعض تحدث في هذا الشأن، عن واحدة من المظاهر الأولى من الإغرابية الحقيقية في ثقافتنا في العصور الوسطى – ومحاطة في الوقت نفسه بضوء قوي إيجابي : فنعجب بجمالها وشجاعتها ونبلها. وفي نفس السنوات تقريبا ألف شاعر بيكاردي كبير، هو جون بوديل،– ومن المحتمل جدا لكي تمثل في مدينته أراس

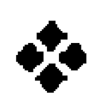
"ليلة القديس نيقولا"، بين الخامس والسادس من ديسمبر – الـ *Jeu de saint Nicholas*، وهو ملخص غير عادي لجميع الأحكام المسبقة وكل عوامل الفتنة في ذلك الزمان. فهناك صليبيون "هائمون، طائشون ومنحلون "، ولكنهم عند اللحظة المناسبة يعرفون كيف يموتون كشهداء ؛ وهناك سحر الكفار المقابل للمعجزة المسيحية ؛ وهناك أخيرا أمراء قونيه وأوركانيا وأوليفرني والشجرة الجافة، حيث تنصهر الإشارات التاريخية-الجغرافية للحملة الصليبية الأولى بالخيالات الشعبية وشبه التوراتية مع الجغرافيا الخيالية المستخلصة من التقاليد التي كانت ترجع لروايات دائرة الإسكندر الأكبر، التي تمزج بين القسوة والكرم وبين الجنون والحكمة. وفي النهاية يتحول الملوك والأمراء عن دينهم بفضل فضيلة القديس نيقولا : كلهم فيما عدا أمير الشجرة الجافة المتعجرف، الذي يرفض نبذ ديانته ويوبخ باستعلاء الزملاء ويعيد باحتقار للملك إقطاعياته متحديا إياه لأنه خائن. وسوف يفسر البعض هذا في النهاية، ولكن على مضض: إنه أخفهم ظلا، في نهاية الأمر.

والسياق السحري والتنجيمي الذي يدخل فيه فولفرام فون إشنباخ بطله الوثني فيريفيتز انعكاس للفلسفة والعلوم المنقولة عن طريق العربية، في بيئات علمانية ومتوسطة الثقافة، وفرضت في نفس الوقت على مستويات أعلى : وهي التي غيرت وجه المعرفة الغربية، بالذات في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وعلى مستوى الأدب سواء الشفوي أو المكتوب والثقافة العلمانية كان التفكير العلمي والتجديدات المرتبطة به يترجم إلى أخبار تتسم بطابع سحري قوي : بألفاظ تتحدث عن "العجائب". وفي الأغنية البروفنسية *Daurel* e *Beton*، المؤلفة بين القرنين، يتعرض أمير شاب للنفي بسبب الخيانة الغادرة لصديق أبيه الزائف وينزل ضيفا لمدة اثني عشر عاما في بابل حيث يجد لدى الوثنيين الذوق الذي بحث عنه دون جدوى في وطنه. وكان من النتائج العديدة للحروب الصليبية أنها نقلت إلى أوربا معرفة الرواية الشرقية – البيزنطية، ولكن أيضا الجورجية والأرمينية والعربية- الفارسية – وريثة الرواية الإغريقية التي تتميز بالتالي بالتجوال الطويل والمغامرات الأسطورية : وإذا كانت هذه السمات قد اتصلت بموضوعات مماثلة مستخلصة من الفلكلور السلتي وأنتجت الـ *féerie* الآرثري المميز، ففي حالات أخرى احتفظ الناس أو حاولوا إعادة خلق لون "شرقي" أدخل الإسلام في مناخ العجائب الهندية الموروثة من الأدب عن الإسكندر الأكبر مع البدء في العملية الجمالية-الموضوعية التي ستؤدي إلى الإغرابية *. وقد قدم أدب

* الإغرابية هي الرغبة في الأشياء المجلوبة أو الغريبة (المترجم) .

الرحلات الذي ازدهر على أثر مسارات المبشرين والتجار في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في أعماق آسيا – حتى تفتت الإمبراطورية المغولية مما جعل هذا الطريق مغلقا – قدم لذلك الخيال تشجيعا جديدا، كما نكتشف في وصف المغامرات الشرقية التي رواها جوفاني بوكاتشو في الـ *Filocolo*.

وهناك ثلاث شخصيات يمكن أن تؤخذ كشعار لتغير الموقف الغربي تجاه الإسلام وبقاء هذه الديناميكية على المدى الطويل : محمد (صلعم) الذي تناولته سلسلة من الأساطير التي تتسم بالنميمة، وصلاح الدين، من عدو للصليب إلى الحد الذي يمكن أن يقدم فيه كتجسيد مسبق للمسيح الدجال، تحول بالتدريج إلى رمز لكل فضيلة من الذوق والنبل حتى أصبح في القرن الثامن عشر، مع لسينج، بطلا للتسامح ؛ والصورة الساحرة والغامضة لزعيم ديني شيعي، وهو ما يسمى *"Veglio della Montagna"*، والذي أصبح مع الوقت واحدا من الـ *Idealtypus* في الإغرابية الوليدة.



٦
كنز فرعون

"الأسيرة الجميلة"

كان المؤلفون القدامى، بالنسبة لآباء الكنيسة، يمثلون راحة ومعضلة. فقد كانوا مخزونا من الحكمة : الموقرة بالطبع، ولكن الملوثة أيضا بغياب ضوء الإيمـــان. واستلهاما من الـــ *Esodo* والـــ *Deuteronomio* على آثار أوريجيني وجيرولامـــو، قرأ الناس بالتالي بصورة مجازية فقرات مثل تلـــك المتعلقـــة بمـــصادرة ذهـــب المصريين من قبل اليهود المسافرين مع موسى نحو أرض الميعاد أو مثل الفقـــرة التي تتحدث عن "الأسيرة الجميلة" : ونستخلص من ذلك أن تجريد القـــدماء مـــن كنوزهم، والحقائق التي كانوا قد نثروها في أعمالهم، كان صحيحا ومشروعا .

ولكن هل كان يمكن أن تكون هناك حقائق أيضا في كتابات السراسنة، كما في كتابات الوثنيين القدماء؟ ولو كانت هناك، فهل سيكون أيضا صحيحا ومـــشروعا الحصول عليها؟ لقد كانت هناك كتبهم المقدسة، التي كـــان يعرفهـــا المـــسيحيون الشرقيون والمستعربون في أسبانيا منذ وقت طويل ؛ وكانت هناك كتب القـــدماء، التي كان المسلمون قد درسوها وترجموها بينما كان المسيحيون قد فقدوها منذ أمد بعيد. وبدأ الناس في التفكير، منذ منتصف القرن الثاني عشر، في أن من العـــدل البدء بالاستيلاء على العديد من الكنوز. ونحو نهاية ذلك القرن وصل مترجم عـــن العربية، هو الإنجليزي دانييلى دى مورلى، بالضبط إلى نظرية مؤداها أن الله أمر إسرائيل الجديدة، المسيحية، بتجريد المصريين من كنوزهم كما حدث من قبل مـــع موسى : " نجرد إذن، تمشيا مع وصية الله وبمساعدته، الفلاســـفة الـــوثنيين مـــن حكمتهم ومن بلاغتهم، ونجرد هؤلاء الكفار من الإيمان بحيث نغتني برفـــاتهم ". وكانت كلمة "فلاسفة" هي الكلمة التي كان الباحثون اللاتينيون يشيرون بها لأولئك العرب الذين كانوا بالنسبة للـــ *illitterati* مجرد "وثنيين" و"كفار" : وألبيلاردو، الذي اضطهده برناردو دى كليرفو، ربما هدد بالهروب بين "الفلاسفة" للإبقاء على رفعة حريته وكرامته.

ومن ناحية أخرى، إذا كانت الـ *chansons* تقدم الصورة السخيفة والمغتابة للمسلمين كعبدة أصنام، وكانت تشيع أساطير حول محمد (صلعم)، فإنه لم يغب أبدا من كان يرى الصورة أوضح من ذلك. وهناك نص خيالي في جوانب أخرى، ويمكن أن يقدم أوسع وأغرب التفاصيل حول "عبادة الأوثان" السراسينية، وهو الـ *Historia de vita Caroli Magni et Rolandi eius nepotis* الذي كتبه كوربينو الزائف Pseudo-Turpino، وهو يناقض نفسه أحيانا : ففي صفحة مثيرة وقدر لها أن تغذى موضوعا بطوليا آخر، وهو الخلاف بين رولاندو وفيراكوتو، يقدم أخبارا دقيقة إلى حد ما من الناحية الدينية. ولكن في عام ١١٢٠، كان جوليلمو دي مالمسبيري يوضح بثقة كبيرة : "nam saraceni et Turchi Deum creatorem colunt , Mahomet non Deum sed Eius prophetam aestimantes".* وفي انجلترا أيضا، في نفس السنوات تقريبا، كانت تنتشر الـ *Dialoghi* التي كتبها بيترو ألفونسي، وهو يهودي أسباني من هويسكا، عُمّد في عام ١١٠٦ وأصبح طبيب ألفونسو الأول ملك أراجونا وهنرى الأول ملك إنجلترا. ومن خلال العلاقات التي بدأت هكذا بين شبه الجزيرة الأيبيرية والجزر البريطانية كانت تنتقل معلومات جديدة : فقد كان بيترو ألفونسى، على سبيل المثال، مثقفا إلى أقصى حد في كل ما كان يتعلق بالديانات التي أساسها العهد القديم.

كان الوقت قد حان – بينما كانت تنتشر سفن الحملة الصليبية في شبه الجزيرة الأيبيرية وفي سوريا – لكي يصبح بيترو الفينيرابيلى قس كلونى، وهو من أقوى شخصيات الكنيسة في ذلك الزمان، بطلا لمبادرة غير عادية كان مركزها طليطلة، التي أعيدت إلى المسيحية منذ ما يزيد قليلا على نصف قرن، وأسهم في ذلك بصورة أساسية أسقف طليطلة نفسه، رايموندو دى سوفتا. وقد ساند "الإمبراطور" ألفونسو السابع أمبراطور قشتالة تجربة قس كلوني، الذي كان من ناحية يعمل باقتناع من أجل معرفة أكبر وأفضل للإسلام، بينما كان من الناحية الأخرى يساند بقوة الـ *Reconquista*.

وقد تكون بالتالي فريق تولى أول ترجمة للقرآن تحمل اسم روبرتو دى كيتون في الروتلاندشاير، بالتشاور مع المسلمين واليهود : وقد أعدت على ما يبدو من خلال سلسلة من الروايات المتتالية – من العربية إلى العبرية ومن القشتالية، ثم إلى اللاتينية –، وعلى الرغم من أنها كانت بالأحرى مضطربة ومليئة بالثغرات وغير مكتملة، فإنها كانت هامة جدا حتى أنها بقيت أساسية للقرون الأربعة التالية.

* فيليلمى مالمسبيرينسيس، *De gestis regum Anglorum*، طبعة و. ستبس، فى *Rerum Britannicarum Scriptores*، XC، ص ٢٣٠.

ولا يمكن بالطبع أن نفكر في جماعة منظمة ومتماسكة من المترجمين : فقد كانت بالأحرى مجموعة من الأشخاص الذين كانوا يتصرفون على أساس شبكة من العلاقات.

ولم يتوقف تعب الفريق الذي قام بتنسيقه الفنيرابيلى عند القرآن. فعلى الرغم من أنه يمكن أن نحدد على الأقل ثلاثة مراكز أساسية لهذا النشاط المكثف – مركز اسباني وآخر إنجليزي وثالث إيطالي جنوبي –، فإن دور شبه الجزيرة الأيبيرية كان مركزيا وأساسيا. وبقيت النصوص الإسلامية المكتوبة في الرواية اللاتينية من إعداد مترجمين مثل جوفانى دى سيفيليا، ودومينيكو جونديسالفى وإرمانو إلدالماتا وبلاتونى دى تيفولى وجيراردو دى كريمونا والكتابات ذات الصبغة الإسلامية المكتوبة على أساس ذلك التقارب المتجدد، بقيت طويلا أساسا لأفضل صيغة لمعرفة الإسلام كانت تمتلكها أوربا في العصور الوسطى. ولا يمكن القول بأن بيترو قد استخلص من تلك الدراسات كل النتائج التي كان يتعين عليه الوصول إليها : ولكنه، كما يمكن أن نرى من كتابيه، الكتاب الموجز *Liber contra sectam sive* والكتاب الأكبر *Summa totius heresies saracenorum* و*heresim saracenorum*، حقق تقدما هاما كان يتوافق في كثير من الحالات مع أعمال مثل الـ *Diàlexis sarrakenù kài christianù* ليوحنا الدمشقي : ولكن الفينيرابيلى، على الأقل في البداية لم يكن يمكنه معرفة كتابات الدمشقي التي ترجمت من بورجونديو إلى بيزا فقط في ١١٤٨-١١٥٠ تقريبا.

وبينما كان روبرتو دى كيتون يترجم القرآن، كان إرمانو دى كارينتسيا يُعنى بسلسلة نسب محمد وكان ماركو دى توليدو – وهو مسيحى مستعرب – يترجم إلى اللاتينية بمساعدة سكرتير الفينيرابيلى، بيترو بواتييه، كتابا دفاعيا، هو رسالة الكندي وبكل هذه النصوص، التي جمعت معا ،تجمعت مجموعة قدر لها أن تبقى لقرون في الغرب الأشمل والأوثق والأقوى بين الأعمال الإسلامية : الـ *Corpus cluniacense*، المعروف أيضا باسم *Collectio Toletana*.وقد اقترح ماركو دى توليدو بعد ذلك ترجمة للقرآن أفضل من السابقة : ومن الطريف أن ماركو نفسه ، علاوة على الكتاب المقدس، ترجم من العربية أعمال جالينوس وكتابا جدليا ربما يكون من تأليف مسلم سابق اعتنق المسيحية وعملا صوفيا يرجع إلى ابن تومارت، المعلم الموحدي الشهير.

وتعد شخصية ماركو دى توليدو مثالية في جوانب عديدة. فالغاية النهائية لباحثين مثله لم تكن إطلاقا مجرد حب المعرفة ؛ بل كانت في دائرة عملية جدا، وجدلية قبل كل شيء : أن يتعلم معرفة المذهب الإسلامي على أفضل وجه لكي

يتمكن من دحضه بفعالية. وإذا كان ذلك الموقف مفهوما في غرب تسيطر عليه طريقة صديق بيترو الفرينيرابيلى الكبير، أي منطق أبيلاردو، فإن من غير الواضح كيف كان يمكن أن يؤتى ثماره في بيئة تبشيرية بامتياز ، نظرا للحظر الصارم على التبشير بقوانين مختلفة عن القانون القرآنى في أرض مسلمة.

ولكن المسلمين كانوا في تزايد مستمر، خارج دار الإسلام : من سكان الأراضي السورية الفلسطينية أو أيبيريين غزاهم المسيحيون وتجار وأسرى. وربما كانت النية هي التوجه إليهم قبل كل شيء بدعاية تبشيرية وهو ما كان ممكنا في أرض يسيطر عليها المسيحيون وكان يُلمح إلى أن الكافر لا يجب أن يكون مجبرا، بل مقتنعا بالتحول عن ديانته من خلال الإقناع. وسنرى كيف أن فرنشيسكو داسيزي، يقدم بهذا المعنى مثالا جديدا، ويشير إلى طريق آخر ؛ وكيف أن تعاليمه في جمعيته نفسها دخلت غالبا في صراع مع مواقف من نوع آخر. ومن ناحيته، كان توما الأكويني، الذي خصص للإسلام جانبا من كتابه *Summa contra gentiles*، يتفق مع نية بيترو الفينيرابيلى للسعى بصورة ما لتحويل المسلمين عن دينهم ؛ وفي كتابه القصير *De rationibus fidei contra Saracenos, Graecos et Armenos*، حدد في أربع نقاط تلك العناصر التي قدر لها لوقت طويل جدا أن تضغط بثقلها على التفاهم المتبادل بين المسيحية والإسلام : فبطرس كان يرى بالفعل أن الدين الإسلامي تلاعب بالحقيقة الإلهية ؛ وكان الإسلام دين حرب؛ وكان المسلمون متسامحين إزاء الخطايا ذات الطابع الجنسي؛ ولم يكن من الممكن اعتبار محمد (صلعم) نبيا بالنسبة للمسيحيين، في نهاية المطاف. وربما عرقل انتشار هذه الآراء فهم العالم الغربي للإسلام لفترة طويلة.

وقد ازدهر الأدب الجدلي خلال القرن الثالث عشر : ففي المنطقة الأيبيرية كانت هناك أعمال مثل الـ *Quadruplex reprobatio* للدومينيكاني رامون مارتي، المترجم الأمين والمنفذ للمشروع التبشيرى لرامون بينيافورت، والـ *De origine* et *progressu Machometis* لبدرو باسكوال، الراهب في جمعية "الثواب" ("الثوابيين") والمخصص لتحرير المسيحيين الذين سقطوا أسرى في أيدى السراسنة. وفى المنطقة السورية الفلسطينية لدينا كتابات مثل الـ *De statu saracenorum* لجوليلمو دا تريبولى والـ *Contra legem sarracenorum* للدومينيكاني الفلورنسى ريكولدو دا مونتى كروتشى، الذي سافر حتى بغداد وشهد بالتالى بداية اعتناق المغول في إيران للإسلام ونهاية واحد من أكبر أحلام المسيحية الغربية، وهو نشر المسيحية في العالم التترى وهو ما كان سيحمل في طياته حملة صليبية كبيرة مع الغرب، تستطيع أن تسحق السلطان المملوكي في مصر في كماشة.

ولكن كانت هناك في نفس الوقت حقيقة أخرى تشق طريقها. كانـت دراسـة العربية تبدو ضرورية أكثر فأكثر ليس فقط لأنها اللغة المقدسة، لغة كتاب الوحي – وسواء أكان البعض يقبلها أو لا يقبلها على هذا الأساس، فهذا موضوع آخر –، ولكن لأنها أيضا كانت لغة عظيمة للثقافة. وكانت قد ترجمت إلى العربية كنـوز المعرفة عند قدماء الإغريق ؛ وعلى الرغم من أنها كانت متاحة أيضا في طبعات باليونانية – ولكن كانت هناك في ذلك الوقت تحت تصرف الغربيين، على سـبيل المثال في العالم البيزنطي، فرص أقل مما كان متاحا لدارسي العربيـة –، فـإن الطبعات المنقولة عن هذه اللغة الأخيرة كانت مفضلة جدا سواء لامتياز التعليقات التي كان المترجمون والدارسون العرب قد كتبوها، أو لوفرة الدراسـات الجديـدة التي شرعوا فيها، أو لأن الناس تنبهوا في النهاية إلى أن الغـرب يـستطيع مـن خلال العربية أن يصل – ربما بطريق غير مباشر ومنعكس – للمعرفة ولـبعض التقنيات الخاصة ايضا ببلدان وحضارات لا تزال بعيدة، من إيران إلى الهند إلـى الصين نفسها.

وشبه الجزيرة الأيبيرية هي الأم الحقيقية للتجديد العلمي للغرب وأيضا لنـشر واحدة من أعظم الدعائم المادية فيه. ونحن نعلم جيدا أن الورق، الذي يرجع أصلا إلى الصين وانتشر في آسيا الوسطى من القرن الثامن، كان موجودا فـي اسـبانيا المسلمة من القرن العاشر : فكانت توجد مصانع للورق في طليطلة وخاصة فـي جاتيفا، في إقليم الشرق، حيث أسس جاكومو الأول ملـك أراجونـا نوعـا مـن الاحتكار للإنتاج لكل مملكة بلنسية. ومن أراجونا القرن الثالث عـشر انتـشرت المادة الجديدة الثمينة في كل الأقاليم الغربية.

وعلى صعيد المعرفة العلمية المنقولة أيضا إلى العالم الإسلامي عـن طريـق لغة الكتاب المقدس، كانت شبه الجزيرة الأيبيرية قد وفرت أيـضا بدايـة رائعـة بفضل أحد الرواد : جربرتو داوريلاك، الذي كان قد سافر في سن مبكرة جدا إلى كاتالونيا وتعلم بين عامي ٩٦٧ و٩٧٠ أوليات الرياضة وعلم الفلك بالعربية وربما أيضا باليونانية، بفضل معرفته الوثيقة لمكتبة الأساقفة الثرية في مدينة فيش ودير ريبول. وبعد أن أصبح بعد ذلك رئيسا للمدرسة الأسقفية في ريميس وبالتالي قـسا لبوبيو، استطاع جربرتو أن ينشر معارفه، انتظارا لأن يـصعد العتبـة البابويـة بالإسم النبوئي سيلفستر الثاني. ويعد التأثير الذي مارسه جربرتو على فولبرتـو، اسقف شارتر في العشرين عاما بين ١٠٠٨ و١٠٢٨، هاما فـي نجـاح تطـور المدرسة الشارترية التي خرجت منها الترجمة الأساسية للنـسخة العربيـة مـن الـ*Planispherium* لبطليموس، التي أعدها إرمانو الدالماتا. وكان مترجمو القـرآن

يقومون بترجمة الأعمال العلمية ؛ فالاهتمام الديني كان مدعوما ومنقولا من الاهتمام الفلسفي والعلمي من خلال الواسطة اللغوية.

ومن ناحية أخرى، فإن العملية التي بدأت بصفة خاصة في اسبانيا، وكان بطلها بلا شك فريق بيترو الفينيرابيلي، كانت ستصبح أقل يسرا وكانت ستحمل معها نتائج أقل سرعة وعمقا بكثير لو أن الاتصال بالثقافة العربية (والثقافات التي انتقلت على أي حال من خلال العربية) لم يصبح ضروريا بصورة قاطعة نتيجة للتطور الغلاب للاقتصاد والتجارة. وبفضل أهالي أمالفي أولا، وفينسيا وبيزا وجنوا بعد ذلك عرف الناس مبكرا – ونادرا في ترجمات منتظمة، وفي الأغلب من خلال ترجمات إلى العامية وملخصات – العديد من المؤلفات التي كان استخدامها ضروريا على الصعيد العملي : وبالتالي كتب الجغرافيين والرياضيين والأطباء. وقد ترجم عن العربية كتاب بطليموس العظيم المسمى *Almagesto*، وكذلك كتابات الخوارزمي المخصصة للجبر والكتابات الفلكية التنجيمية مثل الـ *Liber de aggregatione scientiae stellarum* لأبي عباس الفرغاني ("Alfragano") – وهو مؤلف معروف لدانتي نفسه ؛ وهناك أيضا الـ *Introductorium in astronomiam* والـ *De magnis coniunctionibus et annorum revolutionibus ac eorum profectionibus* لأبي معشر (*l'Albumasar* في التقليد الغربي). ولم يقتصر اللاتينيون من ناحية أخرى على تلقي هذه المادة الهائلة : فقد أعدوها بعمق أيضا كما نرى في الـ *Liber abbaci* الذي كتبه في عام ١٢٠٢ تقريبا البيزاني ليوناردو فيبوناتشي (١١٧٠ – ١٢٤٠)، الذي ألف صورة مختصرة للرياضيات الأولية وأدخل استخدام الجبر في الـ *Practica geometriae* في ١٢٢٠، في الغرب. وهناك حدث أكثر أهمية، على الصعيد العملي، واكثر ثورية على صعيد المفاهيم، وهو استخدام الأرقام التي كان العرب يسمونها "الهندية" واللاتينيون "العربية"، مع إدخال شيء جديد تماما وتاريخي، وهو الصفر.

كان الشيء المفضل للترجمة لوقت طويل هو الطب. ففي القرن الحادي عشر كان الراهب الكاسّيني ألفانو قد ترجم بالفعل بعض النصوص عن اليونانية ؛ ولكن في النصف الثاني من القرن الحادي عشر كان هناك راهب آخر من مونتي كاسينو، هو قسطنطين أفريكانو – الذي يرجع أصله لتونس الحالية –، هو الذي جدد بعمق كتب الطب الغربية بترجمته إلى اللاتينية من العربية وأيضا من اليونانية مؤلفات مثل الـ *Liber aphorismorum* لأبقراط، الذي أثراه تعليق جالينوس، والـ *Prognostica* لأبقراط أيضا، والـ *Liber graduum* للجزار. وكان مركز الدراسات الطبية الهام هو ساليرنو، حيث كانت تتجمع المعارف الواردة من

الثقافة اليونانية، ومن العربية – عن طريق صقلية وأفريقيا الشمالية – ومن الثقافة اليهودية.

كانت مؤلفات الرياضيات والطب تلبي أساسا، مع ترجماتها، احتياجات عملية وتقنية. ولكن الأمور كانت تسير سيرا مختلفا مع الفلسفة، التـي كانـت تكتـسب مغزى خاصا بالنسبة للغربيين أيضا على الصعيد الديني. وقد اقترب الناس هكـذا من أعمال أرسطو بصفة خاصة: ولكن أرسطو كان حالة خاصـة تمامـا، بعـد ترجمته وإعادة دراسته تحت حكم الخلفاء العباسيين بين القرنين الثامن والتاسـع، وقد تشبع بعمق بالعناصر الأفلاطونية الجديدة المستخلصة بـصفة خاصـة مـن بلوتينو ومن بروكلو. وكانت أساسية بالنـسبة لأوربـا، ترجمـات الــ *Liber de intellectu* للكندي وتعليقات الفارابي، الـذي قـارن بـين آراء أرسـطو والآراء الأفلاطونية الجديدة، وخاصة آراء بورفيريو. ولكن كانت هناك أهمية بالغة بصفة خاصة لترجمات ابن سينا، الذي يسمى Avicenna عند الغربيين، ويرجع إليه سواء كتاب القانون الشهير – وهو مؤلف طبي طبع أكثر من مرة في القـرن الـسادس عشر واستخدم أيضا في الجامعات الأوربية في القرن السابع عشر، وجعـل ابـن سينا (إلى جانب الرازي) أشهر مؤلف لكتب العلوم الطبيـة فـي الغـرب بعـد الكلاسيكيين أبقراط وجالينوس – أو الكتب الفلسفية (وخاصة كتاب الصفة) التـي بقيت أساسية في الحياة الجامعية في القرنين الثاني– الثالث عشر وبـدونها ربمـا يكون من غير الممكن تخيل التفكير الفلـسفي لتومـا الأكـويني وبونـافنتورا دا بانيوريجو. وقد أدخلت الترجمات بالطبع في نسيج الثقافة اللاتينية أيـضا أصـداء وآثار المجادلات البالغة، التي كانت تعبر العالم الإسلامي، المنقسم بين المـؤلفين الأكثر حساسية للفلسفة الإغريقية "الوثنية" وأسبابها وأولئك المشغولين بألا تـؤدي هذه التأثيرات في النهاية لتهديد الجوهر النبـوي الـذي يقـوم عليـه الإسـلام : والمجادلة الشهيرة في هذا الشأن هي تلك التي انطلقت من الغزالـي فـي كتـاب *Destructio philosophorum*، ضد الفارابي وابن سينا. وقد ترك ابن سينا علـى أي حال علامة قوية في الفلسفة الإسلامية المشغولة أكثر بأسباب الإيمـان والـوحي. وكانت هناك بصمة قوية جدا لابن سينا على مؤلفين مثل ابن باجـه ("Avempace" بالنسبة للغربيين) وأبي بكر ابن طفيل ("Abubacer") : ولكن هذا كان أيضا عند كل الفلاسفة اللاتينيين، سواء أكانوا من الأفلاطونيين أو الأرسـطيين، بـين القـرنين الثالث عشر والسادس عشر. وهناك معلم واحد آخر فقط يمكن أن يـضاهيه فـي تأثيره على الفكر الغربي : القرطبي ابن رشد الحافظ، الشهير للغاية بين اللاتينيين باسم Averroè، والذي حكم عليه بأنه "عاق" و"عدو للمسيح" من قبل بعض رجـال الدين ولكن آخرين بجلوه وكانوا يعتبرونه المفسر الحقيقي والأصيل لأرسطو. وقد

كان هذا في نفس الوقت رأى ألبرتو مانيو نفسه،، وهو معلم توما الأكويني، على الرغم من أن المكون الأفلاطوني الجديد القوى الذي كان يتسم به كان يقوده بعيدا عن ابن رشد. وبالطبع، إلى جانب المؤلفين العرب، كانت هناك أهمية كبيرة عند الغرب للمفكرين اليهود : ونذكر منهم سالومون ابن جابيرول ("Avicebron")، وجودا هاليفى، وأبراهام ابن عزرا وخاصة موشيه ابن ميمون العظيم ("Maimonide") في قرطبة، الذي كان ايضا طبيبا لصلاح الدين ومن خلال المفسرين لمؤلفاته – وخاصة كتابه الرائع **دلالة الحائرين** – تجدد تأثير ابن رشد في العالم اليهودى بصورة لا تقل عن تأثيره في العالم الإسلامي والمسيحى.

وفى أقل من نصف قرن، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، كانت قد خرجت من ورشة المترجمين الطليطليين النسخ اللاتينية لكتب الفلك لألبتانينى والكابيتسيو والفراجانو، وكتاب *De intellectu* للكندي، وهو جزء من كتاب **الشفة** لابن سينا، وكتابات الغزالي. ويجدر بنا أن نثنى على العمل المتواصل لجيراردو دى كريمونا (الذي مات في عام ١١٨٧) – على الرغم من أوجه القصور التي اتهم بها كثيرا فيما بعد : السرعة والأخطاء والالتباسات والألفاظ البربرية –، بعد أن ترجم القانون لابن سينا و*Almagesto* لبطليموس – الذي كانت توجد منه مع ذلك ترجمة أخرى مجهولة، عن اليونانية، كتبت في صقلية نحو عام ١١٦٠ –، ومؤلفات الكندى وربما الفارابى، وكمية من الكتب الأرسطية والكتاب الأرسطي الزائف *Liber de causis* ؛ وقد أضاف للمؤلفات العربية تلك اليهودية، مثل كتاب Libro *delle definizioni* والـ *Libro degli elementi* للأفلاطوني الجديد إيزاك إسرائيلي الذي كان يستلهم الكندي وقام بترجمته أيضا دومينيكو جونديسالفى.

وقد تواصل المجهود العملاق لجيراردو واستمر في بلاط باليرمو عند الإمبراطور فدريكو الثاني على يد الفيلسوف وعالم التنجيم والطبيب و"الساحر" ميكيلى سكوتو (١١٨٠-١٢٣٥)، الذي عاش في طليطلة وبولونيا وروما. وقد ترجم العديد من الكتب الأرسطية مع ما صاحبها من تعليقات لابن رشد، والـ *De sphaera* لألبيتراجو، والـ *De animalibus* لابن سينا. وفى نفس الوقت، كان هناك مترجم، من نفس البيئة، من طليطلة مرة أخرى، وهو إرمانو التديسكو، ترجم بين عامي ١٢٤٠و ١٢٥٦ تعليقات أساسية أخرى لابن رشد، مثل تعليقه على الـ *Etica nicomachea*. وهذه النهضة الفلسفية والعلمية في الغرب، التي تحمل علامة الأفلاطونية الجديدة والأرسطية الأولية والتي تعد من الخصائص الأصيلة للحداثة، تدين لهذا العناق العظيم بين الثقافة اللاتينية والثقافة الإسلامية.

كانت العقود الواقعة بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر من أهم السنوات في كل المغامرة الثقافية الطويلة للعالم الأورو متوسطي. فقد ولد مع مدرسة أبيلاردو ومع رسوخ السكولاستية*، المنطق والمنهج الجدلي ؛ وبينما كانت تجرى مواجهة محاكم التفتيش والاندفاعات المرتدة كان التدين وحياة الكنيسة يتجددان بفضل اسهام الجمعيات المستجدية ؛ وانطلق الموسم العظيم للـ *Studia* الجامعية ؛ وانتهى الصراع بين الملك والكهنوت، بينما كانت تترسخ الممالك الإقطاعية والمدن المستقلة ؛ وانتصر الاقتصاد النقدي وعاد الغرب لصك الذهب. وكانت هذه أيضا هي العقود المحورية في الحركة الصليبية : التي قد يكون من الخطأ بالتالي تفسيرها خارج سياقها، الذي يجب أن نأخذ في الاعتبار العنصر الحربي فيه، وهو عنصر أساسي كما رأينا في تلك العلاقة بين أوربا والإسلام، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تقتصر عليه الحركة الصليبية، من ناحية أخرى.

فردريك الثاني وألفونسو ملك قشتالة

هل كان القرن الثالث عشر مواليا للإسلام؟ من المؤكد أنه كان من أعظم القرون في التاريخ الأوربي، وكان أساسيا في بناء الهوية الثقافية للقارة. ولا شك في أنه كان من الفترات التي كانت فيها المسيحية والإسلام أكثر قربا – على الرغم من الحروب الصليبية ؛ أو أيضا بسببها؟

والعلاقة بين الحضارتين، أو بمعنى أصح الوساطة بينهما، يرجع الفضل فيها لكلا المجتمعين : وفى المجتمع الذي يهمنا هنا مباشرة، وهو المجتمع الأوربي الغربي (ولا ننظر بالتالي للمسيحية البيزنطية والشرقية، التي كانت لها مع ذلك أهميتها)، تعاون أمراء وقساوسة اكليريكيون ورهبان وفرسان وتجار ومترجمون. ولكن البعض منهم يستحق ذكرا خاصا:

فردريك الثانى، "الأمير"، "السلطان المعمد". لقد عبرت القرون هذه الصفات، التي ألقيت كإهانة في وجه الملك فردريك من خصومه في الإدارة البابوية ومن

* السكولاستية هي الفلسفة النصرانية السائدة في القرون الوسطى و أوائل عصر النهضة ، و قد بنيت على منطق أرسطو و مفهومه لما وراء الطبيعة و لكنها اتسمت فى أوربا الغربية خاصة ، بإخضاع الفلسفة للاهوت و من ابرز رجالها توما الاكوينى الذي حاول أن يقيم صلة عقلانية بين العقل و الدين (المترجم) .

مروجي الدعاية الجُولفية. وقد واصلها أيضا – ولكن بمقاصد احتفاليـــة –، ذلـــك المستعرب الرائع في القرن التاسع عشر، ميكيلي أماري. وقد رددها حتى أيامنـــا هذه كل كتاب السير تقريبا الذين كتبوا سيرة من كان يسمى في المصادر العربيـــة بالإمبراطور. وتشهد أخبار البيئة الإسلامية التي تتعلق به بأنه تربى في بـــاليرمو على أيدي زعماء الجالية الإسلامية ؛ وهناك مصادر غربية تؤكد على أنـــه كـــان يتحدث اليونانية والعربية، علاوة على اللاتينية. وبين فبراير ومارس مـــن عـــام ١٢٢٩ نجح الإمبراطور في الاتفاق مع السلطان الأيوبي فـــي القـــاهرة، الملـــك الكامل لكي يعهد إليه بالقدس (التي أزيلت باستثناء الأماكن المقدسة الإسلامية، أي الحرم الشريف) حتى نهاية هدنة العشر سنوات، مع بيت لحم، والناصرة وبعـــض المناطق الصغرى المطلة على البحر. وفي تلك المناســـبة، وعلـــى الـــرغم مـــن الحرمان الكنسي الذي لحق به، فإنه تقلد في كنيسة القيامة تاج ملك القـــدس مـــن خلال شعائر التتويج الذاتي. ويروى كاتبا الوقائع العربيان ابن واصل وسبت ابـــن الجوزى إنه، خلال زيارته للمدينة المقدسة لم تفته الفرصة لكي يعبر عن إعجابـــه وتعاطفه مع الإسلام وعاداته، بينما أظهر عداء واحتقارا تجـــاه العـــالم الكنســـى اللاتينى. ووصل إلى لمسة من الإغرابيـــة الرومانـــسية *avant la lettre* : الرغبـــة الصريحة في الإستماع لأذان المؤذن في الليل .

ولا يمكن اعتبار "الحملة الدبلوماسية" لفردريك الثاني إطلاقا دلـــيلا لا علـــى انحيازه للإسلام، ولا حتى على بعض عدائه للحركة الصليبية أو لفكـــرة الحملـــة الصليبية في حد ذاتها. فقد كان يدرك تماما أن الـــ *iter Hierosolymitanum* كان قـــد أصبح الآن أداة سياسية في أيدى البابوية : ومع ذلك فقد كـــان يطالـــب بقيادتـــه بوصفه إمبراطورا، بصورة لا تختلف عما فكر فيه وأعلنه صـــراحة قبـــل ذلـــك بأربعين عاما جده الكبير، البارباروسا ؛ وقد أخذ هو نفسه بالفعل الـــصليب فـــي أكويسجرانا، خلال الاحتفال – في ٢٥ يوليو ١٢١٥، يوم الرسول القديس جاكومو – الذي تقلد فيه تاج ملك القدس وبالتالي أيضا "ملك الرومان" انتظارا لأن يتلقـــى التاج الإمبراطوري من البابا في روما.

كان تصور الحملة الصليبية بالنسبة له أمرا لا يمكن التنازل عنه فـــي نهايـــة المطاف. ولكن هجوما على مصر سيبعد عنه صديقا سياسيا ودبلوماسيا أكيدا مثل الملك الكامل الذي لم يكن من الممكن بأي حال أن يتفق لا مع رغباتـــه ولا مـــع مصالحه: خاصة أن العداء السافر للبابا جريجوريو التاسع وعدم الثقة المزعجـــة في البارونات الفرنجة السريانيين لم يجعلا سلطته ولا بقاءه نفـــسه فـــي الأرض المقدسة آمنين. ومع استمراره في سياسة أسلافه النورمانديين – التـــي ســـيتبعها

ايضا من سيحكم صقلية بعده : مانفريدى ثم الأنجوينيون ثم الأراجونيون – ومـــع تنفيذه ربما لقاعدة جغرافية سياسية من الناحية الموضوعية، كان فردريك الثـــاني يهدف بوصفه ملكا لصقلية للإبقاء على علاقات سياسية ودبلوماسية ســواء مـــع سلاطين مصر أو مع ملوك شمال أفريقيا. ويمكن أن نلمـــح فـــي هـــذا خطـــوط المخطط الدبلوماسي لملك بحر أوسطي : ولكن لا يمكن بالطبع أن نلمح رغبة في الفهم والتدبر تجاه الإسلام. حتى أنه أثناء الحملات الصليبية، سواء في ســوريا أو في شبه الجزيرة الأيبيرية، كانت أحداث الاتفاق الدبلوماسي وحتى التعاطف كمـــا نعلم كثيرة ؛ ونفس الشيء يجب أن يقال فيما يتعلق باستخدام المرتزقة السراسنة، وهو ما كان شائعا بالذات أثناء الحملات الصليبية لدرجة أن الجمعيـــات الدينيـــة العسكرية كانت تستعين بهم.

ولكن الحقيقة هي أن فردريك كان قد عرف منذ أن كان شابا الثقافة الإسلامية ولا شك في أنه كان معجبا بها. وهو في هذا، كان يواصل تقليدا بدأ بالفعـــل منـــذ العهد النورماندى : فروجيرو الثاني كان قد شجع البحث الجغرافي ورسم الخرائط عند الإدريسي، وكان الملكان جوليلمو يشجعان ترجمة مؤلفات الفلك والرياضيات. وقد وجه الملك فردريك اهتماماته بقوة نحو المجال التأملي بالتحديد، وهو مجـــال الفلسفة والعلوم الطبيعية. ولكن البلاط النورماندى من ناحية أخرى، على الـــرغم من جهله بالطبع بالثقافة والعلم العربيين، فضل الثقافة والعلـــوم اليونانيـــة ؛ وقـــد شرع فردريك في الـــ *Magna Curia* في مسار مختلف، أملته في جانب منه أذواقه ومصالحه، وجعلته الظروف أكثر يسرا وربما ضروريا في جانب آخـــر. وبعـــد الحملة الصليبية الرابعة، كانت الإمبراطورية البيزنطية قد تفتتت إلى ممالـــك لـــم تستطع تجنب نوعا من الغروب ونوعا من الانحدار في المعرفة اليونانية ؛ وفـــي المقابل، كان النشاط السياسي والدبلوماسي للإمبراطور، وخاصـــة بعـــد زيارتـــه للشرق في ١٢٢٨-١٢٢٩، يقوده لتعميق العلاقات مع العالم الإسلامي.

وفى عام ١٢٢٧ كان قد وصل إلى البلاط الملكي ميكيلي سكوتو الـــذي كـــان يبدو أنه يلخص في نفسه قمم النشاط البالغ للمترجمين عن العربية فـــي القـــرنين الثاني عشر والثالث عشر، وهو بريطاني الأصل وتدرب في طليطلة، وســـرعان ما أصبح مواطنا صقليا. وكان قد ترجم بالكامل **كتاب الهيئة** الشهير، لأبي اسحق نور الدين البتروجى (الذي سيعرفه الغربيون باسم "Alpetragio")، الذي شرحت فيه حركات الشمس والكواكب بطريقة متناغمة بالقياس للفيزياء الأرسطية. وقد ترجم سكوتو بعد ذلك من اليونانية ومن العربية العديد من النصوص الأرسطية، ومـــن بينها كتاب عزيز بصفة خاصة على التأملات الطبيعية للإمبراطور، وهـــو الـــ

Historia animalium، الذي أضاف إليه الـــ *Abbreviatio Avicennae de animalibus*، وخصصه بالذات لفردريك. ويرجع الفضل لميكيلي سكوتو إذا كانت صـــقلية فـــي عهد فردريك قد أصبحت مكانا مختارا لدراسة الفكر الأرسطي ولكن مـــن خـــلال ابن سينا وابن رشد أساسا. ولكنه كان مهتما بصفة خاصة بعلم التنجـــيم وبعلمـــين قريبين منه في العديد من الجوانب، وهما الكيمياء وعلم الفراسة : وقـــد خـــصص لهما العديد من الكتب التي تظهر فيها التأثيرات القوية للـــرازي وأبـــى معـــشر، والفرجاني.

وفى منتصف الثلاثينيات من القرن الثالث عشر دخل الـــ *Magna Curia* فـــي باليرمو دارس آخر رفيع المستوى : تيودورو دانتيوكيا ، الذي ربما بُعـــث إلـــى الإمبراطور من سلطان مصر، وعمل أيـــضا فـــي مكتـــب الاستـــشارية لكتابـــة المراسلات المكتوبة بالعربية والموجهة للممالك الإسلامية. ونحن نعلم بالفعل أنـــه كان يوجد قسم للغة العربية داخل مكتب الاستشارية الإمبراطورية وقـــد لـــوحظ أيضا على المستوى الأسلوبي الشكلي كيف كان كل العمل في مكتب الاستشارية، بما في ذلك العمل الذي كانت تستخدم فيه اللغة اللاتينية، كـــان متـــأثرا بالتـــأثير العربي. وقد ترجم تيودورو، المسيحى الوحديطبيعى* في سوريا ("الجيمـــسي")* كتبا ومعارف من الشرق الأدنى ومن المغرب، واهتم بنصوص الطب والـــصحة ويبدو أنه كان يترجم للإمبراطور كتابا عربيا شهيرا عن الصيد بالصقور، كتبـــه الصياد بالصقور **مؤمن**. وكان فردريك الشغوف جدا بهذا الفن قد انشغل به أثنـــاء الحملة الصليبية : وبفضل المؤلفات التي ترجمها أو كتبها باللغة العامية ميكيلـــى وتيودورو وبفضل خبرته كصياد ومراقب، تمكن من كتابة كتابه الـــشهير *De arte venendi cum avibus*. ولكن مع عدم اكتفائه بالمثقفين الذين كان قد جمعهم حوله في الـــ Magna Curia وأولئك الذين كانوا يعيشون في أماكن أخرى من المملكة – كمـــا في المركز الجامعي الجديد في نابولي أو في مدرسة ساليرنو القديمة المـــوقرة –، فقد شجع الملك سلسلة من الأبحاث عن مختلف الموضوعات العلمية التي شـــملت حوض البحر المتوسط بأسره : وهناك شهادة رائعة على ذلك في مخطوط كتـــاب المسائل الصقلية الذي كتبه **ابن سبعين**، وهو أندلسى من مورتشا، وصوفي، كـــان ملكه – الأمير الموحد عبد الواحد – قد نقل إليه سلسلة من المـــسائل التـــي كـــان الإمبراطور قد بعث بها إلى جميع البلاد الإسلامية الرئيسية في البحـــر المتوســـط وفى الشرق الأوسط لطلب الإجابة عنها.

---

* القائل بأن للمسيح طبيعة واحدة.
* أحد أنصار جيمس الثاني ملك إنجلترا.

وبالطبع لم تصل باليرمو ولا نابولي ولا فوجا (أي جميع مراكز الحياة الثقافية الفردريكية) أبدا لمستوى الورش الأسبانية، على الرغم من كل الجهد الذي بذلـه من كان يسمى *Stupor mundi*، على صعيد معرفة الثقافة العربية. وتحمـل الحيـاة الثقافية في اسبانيا المسيحية في ذلك الوقت، والممتـدة بـين طليطلـة وأشـبيلية والمتعطشة لكل ما كان عربيا أو عبريا، تحمل خاتم ملك قشتالة العظـيم وملـك ليون ألفونس العاشر، ابن سان فرديناندو الذي صعد إلى العرش في عـام ١٢٥٢، بعد عامين من وفاة فردريك. وقد استمر حكمه اثنين وثلاثين عاما، حتى ١٢٨٤. وفي التقليد الأسباني يعد هو *el Sabio* ("الحكيم") : ويعد هو، مع فردريك، الملـك المثقف العظيم في ذلك القرن الثقافي بامتياز وهو القرن الثالـث عـشر. ويمكـن القول بأن الشغف بالثقافة العربية هو العنصر الذي يجمع بين فردريك وألفـونس. وقد تلقى القشتالي رسالة مدرسة المترجمين العظيمة في طليطلة وسار بهـا إلـى الأمام بصدق، على الرغم من أن الزمن كان يجبره في كثير من الأحيـان علـى حمل السلاح وهو كصليبي كان يمثل الخط الأكثر واقعية واقتناعا لفردريك الثاني. وقد كان مقداما ولكنه لم يكن دائما ماهرا ولا حالفه الحظ في أحلامه بالعظمـة – ويكفي أن نذكر أمله الذي تبدد في الحصول على التاج الإمبراطوري الرومـاني الجرماني –، وكان الملك الحكيم أوفر حظا، وظل مجده في هـذا أكثـر بريقـا، كدارس وكمؤيد بشدة لاحترام وتفهم المجتمعات المختلفة عـن المـسيحية فـي أراضي الـ *Reconquista* : وهو خط كان يتغير بالتدريج مع ذلك وسوف يتـرك في نهاية القرن الخامس عشر.

ومن بين الفضائل البارزة للـ *Sabio*، علاوة على تـشجيع الترجمـات مـن العربية ومن العبرية، كان هناك أيضا التأكيد على اللغة القشتالية كلغة ثقافة علاوة على كونها لغة أدب وشعر والاهتمام الخاص بالموضوعات الفلسفية والتنجيميـة والطبيعية. ولكن التقارب الرائع بين أوربا والإسلام في القرن الثالث عشر كانـت له جذور أخرى ومبررات أخرى. وإذا أخذنا في الاعتبار أن بعض الشخـصيات الرئيسية في هذا التقارب كانوا يرتدون عباءة الرهبان الفرنشيسكان فربما يجـدر بنا أن نذكر نصا وحادثة كانت نتائجهما أساسية.

فرنشيسكو داسّيزي والفرنشيسكانية

يقول الرب: "ها أنا قد أرسلتكم كأغنام وسط الـذئاب : كونـوا إذن حـذرين كالحيات وحكماء كالحمائم". ولهذا فإن أي راهب يريد أن يذهب بـين الـسراسنة والكفار الآخرين فليذهب، بإذن رئيسه وخادمه [...] والرهبان الذين يـذهبون بعـد ذلك بين الكفار يمكن أن يتصرفوا روحانيا وسطهم بطريقتين. الطريقة الأولى هي ألا يقوموا بمشاجرات أو خلافات، ولكن يجب أن يكونوا خاضعين لأي مخلـوق بشري حبا لله، وأن يعترفوا بأنهم مسيحيون. والطريقة الأخرى، عندما يـرون أن ذلك يرضى الرب، عليهم أن يعلنوا كلمة الله حتى يؤمنوا بالله القدير الأب، الابـن والروح القدس، وخالق كل شيء وبالابن المخلص والمنقذ، وأن يعمّدوا ويصبحوا مسيحيين لأن أي إنسان لا يولد من جديد بالماء والروح القدس لن يستطيع دخـول مملكة السماوات *.

كانت الـ *Regula non bullata* قد أعلنت أثناء فصل عيد العنصرة في جمعيـة الفرنشيسكان، في عام ١٢٢١ : كان فرانشيسكو قد عاد من رحلته فـي سـوريا ومصر التي بدأها في عام ١٢١٩، والتي وعظ أثناءها الصليبيين المشتركين فـي حصار دمياط وزار أيضا السلطان الكامل. واللقاء مع السلطان، الـذي روي مـع بعض الاختلافات في النبرة من مصادر غربية فرانشيسكانية وغير فرانشيـسكانية مؤكد أيضا بصورة غير مباشرة من مصدر عربي مكتوب. أما وأن السلطان قـد استضافه في خيمته وتبادل بعض الكلمات مع ذلك الصوفي ("رجل الله" الذي كان يرتدى الثوب الصوفي المميز والمزود بقلنسوة، خاصة بالنساك)، وأنه ودعه مـع بعض الهدايا الصغيرة، فليس مستبعدا ولا غريبا على التقاليد الإسلامية. والأقـل احتمالا هي واقعة محنة النار التي رواها فقط بونافنتورا دى بانيوريجو والتي تبدو غير معقولة في سياق لقاء مع الإسلام – بينما يذكر وقائع مماثلـة فـي تـاريخ المسيحية في العصور الوسطى – (ولكن الدارس الفرانشيسكانى جوليو بـازيتى-سانى له رأى مختلف).

وفيما يتعلق باللقاء مع السلطان وفقرة الـ *Regula* التي هي بـلا شـك علـى علاقة وثيقة معه، فقد أكد البعض على دور فرانشيـسكو فـي تـاريخ البعثـات التبشيرية وناقش البعض طويلا موقفه إزاء الحملة الصليبية. ويؤكد فقير أسـيزي على ما يعد محور "اقتراحه المسيحي" : التخلي عن أي شكل من أشكال الـسلطة،

* *Regula non bullata*، XVI في *Fonti francescane*، استيزي ١٩٨٦ ، ص ص ٢١-٤٢ .

بما في ذلك بالتالي الرغبة في الاستعانة بموضوعات، وأشكال مـــن المعرفـــة أو الخبرات التقنية التي تهدف للإقناع. وربما كان هذا أيضا يعنى ممارسة السلطة : فالمعرفة نفسها يمكن أن تكون إظهارا للقوة.

كانت هناك أفكار مماثلة أجبرت الناس على توخي الحذر فيما يتعلق بموقـــف القديس إزاء الحملة الصليبية : التي لم تكن على أي حال حربا تبشيرية، ولم يكـــن هدفها تحويل الكفار عن دينهم. ومن الواضح أن فرانشيسكو لم يكن يقدر الحرب، ولم يكن يستطيع أبدا من ناحية أخرى منع نشوبها بمخالفة الطاعة المقدسة التـــي كانت تجبره على احترام أوامر البابا : وكانت الحملة الصليبية تتوقف على البابا، بعد إنوتشنتسو الثالث، بصورة واضحة ومباشرة. ولكن ما نود أن نعرفه حقا، هو ماذا كان يمكن أن يعرف فرانشيسكو عن الإسلام، وماذا كان رأيه فيـــه، وكيـــف كان يتخيله. ومنذ أن كان شابا كان قد عرف بعض النصوص أو ربمـــا روايـــات شفوية فروسية وبدأ طريق الحج تجاه سانتياجو (ومن المحتمل أنه كـــان يعـــرف بتوربينو الزائف *Pseudo-Turpino*) ؛ وربما وصلته بعض المعلومات الأخرى عـــن طريق الرهبان الفرنشيسكان الذين كانوا موجودين في الأرض المقدسة منذ عـــام ١٢١٧.

وفى لقاء فرانشيسكو مع السلطان، لا يعد الود ولا التعـــاطف مـــن الأمـــور الجديدة : فقد شهدنا من قبل أن العلاقات التي تتسم بهما شائعة إلى حد كبيـــر. إن الشيء الجديد هو الوعي – الواضح في نص الـــ *Regula* – بأن الإسلام جزء من المخطط الإلهي، الذي يندرج إذن في خطة الوحي. السراسنة مثل "الذئاب" : ولكن "الراهب الذئب" هو بالضبط أخ .

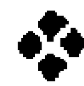
والحب كحافز للمعرفة العلمية يكمن في احترام العالم الإسلامي من قبل العالم الفرانشيسكاني روجيرو باكوني. فقد قيل إن التقاليد العلمية الفرانشيسكانية العظيمة لمدرسة أكسفورد لا تفهم بالكامل إذا لم نضع دائما نصب أعيننا – بصرف النظر عن إسهامها الموضوعي في معرفة الطبيعة – أن إلهامها العميق يرتكـــز علـــى الـــ *Cantico di Frate Sole*. ويمكن أن نقترح ربما ملاحظة مماثلة بـــشأن الإلـــزام التبشيري – الذي سار مع الوقت، متناوبا أو مرتبطا بالالتزام الصليبي – المعبـــر عنه في الجمعية الفرنشيسكانية في خط يمتد من روجيرو باكونى إلى رايموئـــدو لوللو. وفى إعداد الأدوات المناسبة لنشر الدين المسيحي، كان التقليد الكنـــسى قـــد ارتكز باستمرار على محور الجدلية. ولم تترك موضوعات وطرق الخلاف : بل إنها تعود غالبا في معظم الكتابات الفرانشيسكانية نفسها. ولكن تأكد إلـــى جانبهـــا موقف مختلف، يهدف ربما لإقناع المسلمين من خلال المناقـــشة – وهنـــا كانـــت

تنتصر طرق وأدوات المنطق السكولاستي –، ولكن من خلال المثال والحب فوق كل شيء. وفى بعض البيئات الفرانشيسكانية، تصبح الدعوة للإسلام هامة أيضا على صعيد علامات الزمن : فطبقا لـ *Lectura super Apocalipsim* لبيترو جوفاني أوليفى ربما كان على الفرانشيسكانيين تحويل السراسنة عن دينهم قبل يوم القيامة. وفى كتابه *Opus maius*، الذي كتب بين عامي ١٢٦٦ و١٢٦٨ لكي يقدم للبابا كليمنتى الرابع الموضوعات الضرورية لاستخدام العلوم في إصلاح الكنيسة، كان الـ *doctor mirabilis* الراهب روجيرو باكونى يحشد من جانبه ضد ممارسة الحملة الصليبية في الأرض المقدسة – التي لا يجب أن ننسى أنها جمعت سلسلة مثيرة من الإخفاقات الحديثة – شكوكا واعتراضات كانت تذكرنا بالاعتراضات التي كان المعلم الدومينيكاني العام أومبرتو دى رومانز قد شجبها على أنها منتشرة للغاية بين المسيحيين، وليس في البيئات المرتدة.

وهذا لا يعنى أن باكونى يدين الحملة الصليبية في حد ذاتها : ولكنه يعترض بأنها لا فائدة من ورائها، سواء لأن الحملات المسلحة ضد المسلمين غالبا ما تنهزم، أو لأنها حتى عندما تنجح فإنها لا تحقق نتائج دائمة حيث إنه لا أحد تقريبا يريد البقاء للإشراف على الأراضي التي تعرضت للغزو. وعلاوة على ذلك فإن الحملة الصليبية قد أخلت بمبدأ البر، حيث يقتل الكفار ولا يحولون عن دينهم : بل إن الحرب تثير فيهم مزيدا من الكراهية ضد الاسم المسيحي، وهو ما يؤدي إلى موتهم ملعونين ؛ بينما لا يريد الله أن يموتوا ويحرقوا في الجحيم، بل يريد أن يتحولوا عن دينهم وأن يعيشوا. وهنا يقوى عنصر جديد : الحكم على الحملة الصليبية والتبشير الديني في خط متواز مع موضوع تحويل الكفار عن دينهم، وهو هدف غريب في الأصل على الحملة الصليبية ولكنها غالبا ما يحكم عليها على ضوئه الآن في معظم الأحيان. وهذا الجانب من المشكلة يمثل تحولا أساسيا في موقف المسيحية إزاء الكفار. وفى النشاط الجارف للمايوركي رايموندو لوللو (١٢٣٢ت –١٣١٦) تتناوب وتتداخل – وأحيانا ما تتعارض – الحملة الصليبية والتبشير الديني، والرغبة في الاستشهاد والأمل في التحول النهائى لكل الناس إلى المسيح، بصورة مستمرة. وقد كتب رايموندو في اللاهوت والفلسفة والكيمياء والشعر ؛ واستخدم اللاتينية والكاتالونية والعربية بمهارة ؛ وعاش بصورة مضطربة كإنسان وكراهب فرانشيسكانى وكمبشر ديني وباحث على حد سواء.وعلى الرغم من التأرجحات والتحولات المستمرة التي ميزته إزاء الحملة الصليبية – وهي كثيرة ولا يمكن تبريرها ببساطة في ضوء الحيرة السائدة آنذاك والأزمة داخل الكنيسة الكاثوليكية في الفترة الأولى من حكم بابوات أفينيوني–، فقد بقي ثابتا فيما يتعلق بموضوع التبشير الديني وضرورة أن يتعلم المبشرون

المسيحيون اللغات التي يستخدمها الكفار، لتحقيق الأهداف التبشيرية، بداية من العربية التي كان يعرفها ويحبها (وقد كان مقدرا للجمال البلاغي للقرآن). وهو يقدر هذا جيدا في الـ *Libre del gentil*، حيث يتحدث بالفعل عن *gentil*، وثنيّ، يقوم بتعليمه مذهب التوحيد الإبراهيمي ثلاثة من الحكماء – يهودي ومسيحي ومسلم – ويقتنع بالأسباب التي جعلتهم يعيشون في وفاق، بينما يعلق الحكم فيما يتعلق بالنقاط التي يختلفون عليها : وهو حل يعيدنا إلى مناخ "أسطورة الحلقات الثلاث" والتي تؤكد على أي حال الاقتناع العميق عند لوللو بجودة الديانات الثلاث. وفى الـ *Libre de quinque sapientibus*، حيث تقارن أربع طرق لاعتناق المسيحية –اللاتينية واليونانية والفرنشيسكانية والنسطورية – مع الإسلام، نحصل مرة أخرى على تأكيد قاطع بامتياز المسيحية في عقيدتها، ولكننا نحصل أيضا على اعتراف بالطرق الثلاثة الأخرى.

وبين عامي ١٣١٤ و١٣١٥، وهو في الثانية والثمانين من عمره تقريبا، يركب رايموندو لوللو السفينة للمرة الثالثة متجها لأفريقيا الشمالية : وقد بشر بالإنجيل واعتدى عليه الناس، وقد التقطه طاقم سفينة من جنوا وهو يحتضر في "بجاية" ونقله نحو بالما دى مايوركا. ومات على مرأى من مدينته. ومن أسمى نفسه *doctor phantasticus*، "Ramon lo foll"، مات وفيا لنموذجين أحبهما في حياته : فرانشيسكو داسيزي و"المجنون الصافي" بيرسيفال، الشاهدين على جنون الصليب أمام "حكمة" العالم.



٧
سادة الخوف

ظل السحر

كانت العادات الشرقية، مع التوابل والبضائع القادمة من بعيد قد دخلت أوربا كلها بعمق في العصور الوسطى المتأخرة، بفضل الحج والتجارة والحملات الصليبية. وهناك الكثير من تفاصيل الأزياء والذوق في العصور الوسطى المتأخرة – القادمة من بيزنطة ومن آسيا ومن أسبانيا المسلمة – تظهر الذَين الأوربي تجاه الإسلام. ويقال إن ألبرتو مانيو، عندما وصل إلى باريس في ١٢٤٥، كان يرتدي ملابس على الطريقة العربية ليس علامة على الاستفزاز، بقدر التأكيد على دوره كباحث : فالمسلمون الآن لم يعودوا "وثنيين"، ولكن "فلاسفة". وكانت أندر الأقمشة المباعة والتي كان يعاد إنتاجها في الغرب تحمل اسم المدينة التي تنتج فيها أصلا: الموسلين من الموصل والبغدادي من بغداد والدمشقي من المدينة السورية التي تحمل نفس الاسم. ومن مصر وسوريا وإيران وتركستان والقوقاز كان يصل السجاد. ومن قرطبة والمغرب كانت تصل الجلود الثمينة المشغولة، المذهبة والمرسومة؛ وفي ألميريا كانوا يصنعون الأقمشة المنسوجة بالفضة ؛ وكانت مورسيا وملقة تصدر الأقمشة الحريرية. وكانت العبقرية الفنية العربية– الإسلامية في نقوش الزينة تلقى إعجابا كبيرا بعد النقوش العربية المزيفة على العملات المنتجة في الغرب – حتى أن الكتابات "الكوفية" ترسخت كمادة للزينة وستصاحب الأقمشة والمصنوعات والرسوم طوال القرن الخامس عشر. وكانت أقوى المكونات في الأسلوب القوطي، وخاصة على مستوى الزينة، ممثلة في هذه الزخارف التي كانت توصف في اسبانيا بأنها *moriscos* أو *mudéjares* على أساس أنها كانت مميزة للمسلمين الذين كانوا يعيشون في جاليات في اسبانيا المُستعادة.

كانت هذه الموضة الشرقية في أوربا في العصور الوسطى المتأخرة تنطوي على العديد من المفارقات :فقد كانت تعبيرا عن احتياجات ومطالب كانت تترجم إلى تجارة مكثفة للاستيراد، على الرغم من أن الميزان التجاري بين الشرق والغرب كان يحرك توازنه ببطء لصالح الفريق الثاني ؛ وفي الوقت نفسه، كانت تتعايش مع العودة المستمرة لفكرة الحملة الصليبية وجعلت الأوربيين يعيشون في نفس الوقت في موقف من يحب ويحلم باستمرار بعدوه، وكان هذا موقفا مزعجا على الرغم من أنه كان معتادا.

وكان المكان العقلي الذي يلتقي فيه النبذ والجذب والسحر والشعور بالخطر، هو السحر قبل كل شيء. وكان عمل المترجمين من اللغة العربية قد أدى إلى شيوع كمية من النصوص التنجيمية والكيميائية بالإضافة إلى كتب من أصل غنوسطيّ – ولكنها انتقلت من خلال الأفلاطونية المنتشرة في الفلسفة الإسلامية – وكنا نصطدم فيها بعالم تحضير الأرواح الشاسع والمثير للقلق. وكانت الكنيسة في القرن الثالث عشر، بعد انزعاجها من اتساع نطاق الهرطقة المانويّة، قد تزودت بمحاكم التفتيش التي سمحت لها بأن تواجه بمزيد من الصرامة أيضا تلك الموضوعات المرتبطة بالسحر الاحتفالي التي كان يبدو أنها قد اختفت أو ندرت جدا في الغرب بعد أزمة الثقافة القديمة – وبالتالي بعد القرنين الرابع والخامس –، ولكنها كانت تعاود الظهور الآن.

وأمام النصوص العربية في السحر، كان يظهر من جديد الخوف من أن فنون السحر لم تكن مجرد دليل جديد على أن النبي (صلعم) ربما نشر دينا زائفا، ولكنها كانت أيضا وسيلة لتضليل وإفساد المسيحية ؛ وفي نفس الوقت كانت شهرة قوة وفعالية تلك المعرفة تساعد على تأكيد صورة العالم العربي– الإسلامي كعالم "فلسفي" بامتياز.

وعلم التنجيم العربي كان يدين بالكثير ليس فقط للتقاليد اليونانية، ولكن للتقليد الفارسي والهندي بصفة خاصة. وكان قد تطور بصورة رائعة بين القرنين التاسع والحادي عشر، بفضل مؤلفين مثل الكندي وأبي معشر والبيروني. وبين القرنين الثامن والتاسع عاش أيضا أكبر كيميائي في التقاليد العربية– الإسلامية، جابر ابن حيان، الذي سيعرفه الغربيون باسم Geber.

وقد دخل هؤلاء المؤلفون وهذه النصوص أوربا الغربية ببطء ولكن بحسم. وفي ١١٣٣ ترجمت الـ *Introductorium* لأبي مشعر، وفي ١١٣٨ الـ *Tetrabiblos* لبطليموس ؛ وكان هناك نجاح كبير في نفس الوقت

للـ *Centiloquium* وهي مجموعة من الأقوال المأثورة التنجيمية البطلمية الزائفة. وبالطبع كان هناك العديد من الطبعات العبرية التي كانت تختلط بالطبعات العربية في البناء البطيء لمعرفة كانت الكنيسة تشك في أنها تسير في مسارات هامشية ولكنها كانت في نفس الوقت مرغوبة جدا. وبصرف النظر عن قيمته التأملية، فقد كان لعلم التنجيم قيمة عملية وفورية : وهي قيمة الـ *electiones*، التي كانت تستخدم أساسا لاستجواب النجوم عشية القرارات الهامة أو قبل الشروع في نشاط جديد ؛ كما كان أيضا علما تمهيديا للطب، طالما أن كل جزء من الجسم كان يشرف عليه نوع من النجوم. وكانت هناك أهمية خاصة فيما يتعلق بالممالك وفن الحكم، كانت تنسب لفرع خاص من علم التنجيم، الذي كان يدرس الاتصالات بين الكواكب. وفى إيطاليا، كان علم التنجيم يلقى تقديرا كبيرا في بلاط الحكام. ويقال كان يلقى تقديرا في البلاط الجبليني أكثر مما كان عليه في البلاط الغولفي لأن الإمبراطور فردريك الثاني وجه له اهتماما خاصا ولأن شكوك الكنيسة كانت تؤثر عليه : ولكن من المحتمل أن يكون كل هذا ثمرة شائعة دعائية. وفى الواقع، كان استخدام هذا العلم مطلوبا جدا وخاصة عندما كان الأمر يتعلق "بتحديد الموقف النجمي"، أي اختيار اللحظة الأنسب لتأسيس مدينة أو مبنى، أو إتمام زواج – بحيث يولد منه أبناء يتمتعون بفضائل معينة –، أو الشروع في عمل أو رحلة، أو شن معركة. وكان هناك عنصر يتسم بقلق خاص يحوم حول علم التنجيم عندما كان الأمر يتعلق بالربط بين طابعه الحتمي ومبدأ الإرادة الحرة ؛ أو عندما كانت تظهر إمكانية كتابة "حظ الأديان" – اقتفاء لأثر Albumasar – كما كانوا يفعلون بالنسبة للأشخاص، والإيحاء بالتالي إلى أن الأديان أيضا لها مسار تسيطر عليه النجوم. وقد كان هذا بالطبع يخضع الوحي نفسه وشرعيته لمنطق النجوم البارد : وكان هناك أيضا من خاطر وتجرأ حتى على التأليف عن طالع المسيح.

وكان روبرتو دى كيتون، مترجم القرآن، هو الذي قدم أيضا الطبعة اللاتينية لواحد من أوائل الكتب العربية في الكيمياء التي انتشرت في الغرب. وبما أن القرآن كان النموذج الأعظم، ليس فقط الديني ولكن اللغوي والأسلوبي والفلسفي أيضا، فإن ترجمته كانت لها قيمة عظيمة أيضا كإعداد لمواجهة نصوص الفلسفة والطب والتنجيم والكيمياء. وكان الربط بين الكواكب والمعادن يسمح برابطة وثيقة للغاية بين التنجيم والكيمياء والطب : وفي هذا المجال عمل بعض من أفضل العباقرة في القرن الرابع عشر، مثل أرنالدو دا فيلانوفا العظيم. ومن بين الأعمال المترجمة من العربية والمكتوبة غالبا بطريقة تحتفظ بكل أو بعض سرها – مع أجزاء مشفرة، وأبجديات مزورة إلى آخره –، اكتسب شهرة عظيمة كتاب أرسطو الزائف سر الأسرار، الـ *Secretum Secretorum*، الذي ربما يكون قد

ترجمه الـ curialis فيليبو دا تريبولي، وانتقل إلى الكثير من اللغات العامية ويتضمن تعليمات أرسطو والإسكندر الأكبر. وكان روجيرو باكونى أول من علّق على هذا العمل، الذي سيكون له وزن هائل في تطور العلوم الطبية الغربية.

كانت محاكم التفتيش ترقب ببعض القلق انتشار هذه العلوم، على الرغم من أنه لم يكن هناك في الواقع، على سبيل المثال ، أثر ملموس لإدانة كنسية تأكدت أكثر من مرة لسر الأسرار : ومن ناحية أخرى فإن باحثين مثل بيترو إسبانو وكامبانو دا نوفارا وويتيلو وجوليلمو دى موبربك وسيمونى دا جنوفا وجوفانى بيكهام أسهموا في أن تصبح روما البابوية في منتصف القرن الثالث عشر مركزا هاما لإنتاج ونشر النصوص العلمية.

وقد كانت بالطبع تمتد من الفلك–التنجيم إلى الكيمياء إلى الرياضيات إلى البصريات : ونستنتج من انتشارها الاهتمام البابوي بالأبحاث مثل تلك المتعلقة "بالذهب الصالح للشرب" – وهو علاج ناجع ضد الجذام وضروري في نفس الوقت للـ *prolongatio vitae* التي مجدها أرنالدو دا فيللانوفا نفسه (والذي لا يزال البعض يتناقش فيه وما إذا كان قد جاء عن طريق العلم العربي أم الكيمياء الصينية) –، ولا شك في أن هذه الأبحاث كانت تقف على الحدود التي تفصل بين مسائل السحر والتنجيم والأمور المشكوك فيها من الناحية الدينية.

وكانت أهم حالة لكتاب في السحر انتقل من الثقافة العربية إلى تلك الأوربية عن طريق القشتالية أولا ثم اللاتينية كانت حالة ما يسمى *Picatrix*. وعلى ما يبدو فإن العمل ترجم في عام ١٢٥٦ بأمر من ألفونسو العاشر من العربية إلى القشتالية، وبالتالي من القشتالية إلى اللاتينية : وكان المترجم يهوديا، وهو جيهودا بن موشيه.

وقد كان هذا يتعلق في الأصل بكتاب **غاية الحكيم في السحر**، وهو كتاب مشكوك في صحته ونسب إلى الرياضي وعالم الفلك الكبير في القرن العاشر المجريتى الذي اتخذ اللقب اللاتيني الذي اشتهر به في أعقاب سلسلة من الالتباسات. وكتاب Picatrix لا يعد فحسب أشهر كتاب في السحر في العالم الغربي ولكنه أيضا الأساس لعدد رائع من الاقتباسات والتغييرات والتزييفات. والجانب الذي جذب الناس على مر القرون أكثر من غيره يتمثل في المعلومات التقنية حول طريقة تأليف التعاويذ وأسماء النجوم والقوى الروحية التي يجب أن تنطق أثناء العمليات السحرية، وحول الخصائص العملية لعلم غايته هو تحقيق السلطة على الأرواح والأشياء.

كان التفوق العربي الإسلامي في فنون السحر معروفا تماما ومضرب الأمثال تقريبا، حتى على مستوى الثقافة الشائعة. وكان الساحر يتخيله الناس غالبا على أنه مسلم : وهذا ما نراه جيدا في نص مسرحي، هو الـ *Ludus Theophili*، حيث كان الذي يقوم باستحضار الشيطان يسمى صلاح الدين. وهذه الـ *idée donnée* لم تكن في النهاية سوى الجانب "الشعبي" للعادة التي أصبحت منتشرة الآن بين مثقفي الحقبة السكولاستية الأولى باعتبار العرب "فلاسفة" بامتياز : وهو ما جعل الناس يعتقدون – دون وجه حق تماما، كما نعلم – أن كل الثقافة الإسلامية في حد ذاتها مشكوك فيها ولا تصدق. وهو خطأ في الاتجاه المضاد، ولكن من الغريب أنه "متناسق" مع الحكم الغربي المسبق الشائع الحالي الذي يريد للإسلام أن يكون ثقافة متعصبة ومتطرفة. والتماس بين "الاختفاء" الجزئي للوجود الإسلامي في الثقافة الغربية في القرون من السابع عشر للتاسع عشر (باستثناء المستوى الإستشراقي) وعملية نشر العلمانية المميزة بالذات لهذه الثقافة تفسر هذا الانقلاب : وهذا من الأدلة الدامغة على سوء الفهم المزمن الذي يُعد الإسلام ضحية له في الغرب، والتعريفات الجديدة المتضاربة التي لا تنتهي والتي يتواصل من خلالها.

تهديدات وخسوف

كان العرب بالتالي يمتلكون قوة رهيبة. وفى أثناء عملية فرسان الهيكل، كان قد ظهر بين الأمور الأخرى الشك في أن الرهبان– الفرسان كان يمكن أن يكونوا في تواطؤ مع الكفار لتدمير المسيحية. وربما عبدوا إلها غامضا (وكان الأمر يتعلق بالطبع بنميمة من المتهمين)، هو البافومت الذي يذكر عن قرب باسم النبي (صلعم)، الذي اعتاد رايموندو لوللو كتابته "مافومت". ومن الأشكال الشائعة التي كان يقال إنها لهذا المعبود، أن له رأسا : وكان مألوفا أيضا بالنسبة لكثيرين وجود خزائن الرؤوس، أو ما يسمى "بمكتبات الرؤوس"، ولكنها كانت من ناحية أخرى أداة للسحر والتنجيم. وكانت الجمجمة المتكلمة جزءا مألوفا من أدوات السحرة والمنجمين. وتقول هذه الأساطير إن "الساحر" ألبرتو دي كولونيا، معلم توما الأكويني، كان قد صنع بمساعدة الفن السحري الذي تعلمه من العرب إنسانا آليا غريبا، ورأسا متكلما : ولكن توما الأكويني، الذي ورثه اضطر لتحطيمه لأن ثرثرته كانت تزعج تأملاته. ومع امتداد ظل السحر على أوربا في العصور

الوسطى المتأخرة، كان يتزايد الشك أيضا في أن الكفار يمكن أن يستعينوا بتلك الفنون السحرية التي كانوا أساتذة فيها لإلحاق الضرر بالمسيحية. وبمناسبة الحركات "الشعبية" التي كانت تجتاح النظام الأوربي متخذة شكل عمليات حج مسلحة أو داخلية – هكذا أيضا كانت "الحملات الصليبية" لما يسمون "بالأبرياء" أو "الرعاة الصغار"، على فترات متتالية –، كانت هناك أيضا أصوات ملحة تتحدث عن مؤامرات، أبطالها من المسلمين : ومرة بعد مرة، كان الشركاء المتواطئون في هذه المؤامرات مع الكفار لتدمير المسيحيين هم الشحاذون والمجذومون واليهود. وفى ١٣٢١، "اكتشف" في جنوب فرنسا اتفاق رهيب كان هدفه هو نقل الجذام عن طريق مساحيق غامضة تسكب في الآبار وفى المجارى المائية : كان الاتفاق قد أبرم بين زعماء بعض مستعمرات المجذومين، بمساعدة اليهود ؛ ولكن كان وراءهم جميعا ليس أقل من سلطان بابل وملك غرناطة (وفيما بعد سيظهر ملك تونس وحتى ملوك القدس، وملوك آخرون بعيدون من ملوك السراسنة). وفى مقابل الكثير من الذهب، وكراهية للمسيحية فوق كل شيء، كان المجذومون مستعدين لإنكار الإيمان ؛ وبعد ذلك، عندما تصبح أوربا منهكة في أعقاب انتشار العدوى، سيقوم المسلمون بمهاجمتها وفتحها. وكانت هناك بالطبع رسائل خطيرة تمثل دليلا على المؤامرة.

ونحن نعلم أنه قد حدث بداية من القرن الرابع عشر – بعد بعض القرائن المتناثرة في العصور الوسطى – سواء اضطهاد اليهود، الذي سار سيرا متقطعا ولكنه عرف مع ذلك فترات من الدرامية الشديدة، أو بداية المطاردة العشوائية. وتندرج أيضا في هذا الإطار حوادث النميمة المتجددة ضد العالم الإسلامي، الذي غذته محاولات متكررة للحملة الصليبية. وقد بدأت بالتدريج في أوربا مرحلة طويلة من الأزمات والألم، ستنتهي بوباء الطاعون الكبير في ١٣٤٧–١٣٥٠.

كان سحر ومكانة العرب جزءا مكونا للعالم الذي كانت تتضح الآن هشاشته ووهمه. كان العربي هو "الفيلسوف" والخصم الشجاع والكريم لأبطال رواية الفروسية والساحر الذي كان يعرف أسرار الطبيعة والذي كان بوسعه أن يشفى أمراض الجسد عندما يتطلع إلى النجوم ليلا، والتاجر الذكي لبضائع مطلوبة وثمينة في كل أوربا، وهو في النهاية العدو المهاب الذي انتزع القدس من المسيحيين. ماذا بقي الآن من كل هذا؟

كانت القدس أكثر قربا. وكانت فترات الغفران التي تحددها الإدارة البابوية في روما، والتي سرعان ما أصبحت في أفينيون، قد انتزعت منها جزئيا قوة جاذبية صكوك الغفران التي كان من الممكن الآن الكسب من ورائها بدون الرحلة

الخطيرة والمكلفة وراء البحار. ولكن عمليات الحج استمرت : كما هو مثبت سواء في سلسلة وفيرة من اليوميات، التي كانت تروى فيها تجارب الرحلة (حيث كانت تسجل بعناية المراحل والمسارات، وتغيير العملات وتكاليف السلع والخدمات، إلى جانب أسماء الأضرحة والصلوات والملاحظات الروحية: أي أنها كانت يوميات رحلة "بغرض التجارة")، أو لأنه كانت تتكون هناك بالتدريج خدمات خطوط حقيقية من وإلى الأرض المقدسة. وقد كانت هناك في الحقيقة، العديد من الحملات الصليبية وعدد أكبر من المقترحات والمشروعات لتنفيذ حملات جديدة. وقد تصور بيترو الأول دى لوزينيانو ونفذ هجوما عسكريا على ميناء ومدينة الإسكندرية : وهو ما كان من المقرر أن يمهد، في نواياه – التي ساندها شخص غريب متصوف ومغرم بالاحتفالات الفروسية، هو فيليبو ميزيير لـ *passagium generale* لكل المسيحية وهو ما أعلنه في نفس الوقت في العام السابق البابا أوربانوس الخامس في أفينيون في وجود الإمبراطور الروماني- الجرماني نفسه، كارلو الرابع دى بوهيميا ؛ ولكنه في واقع الأمر تحول إلى نهب أثار احتجاجات التجار المسيحيين المقيمين في المدينة – وخاصة من أهل فينسيا، الذين ربما كانوا هم الذين تعرضوا لأفدح الخسائر. حتى قنصل مستوطني سان ماركو في الإسكندرية – أندريا فينييه – مات أثناء النهب.

كان موضوع "المرور" و"راية الصليب" يعود على أيٍ حال بلا كلل في خطابات كاترينا دا سيينا، وخاصة تلك الموجهة للبابا : ولكن الحملة الصليبية كانت في غايتها قبل كل شيء وفوق كل شيء وسيلة لإجبار المسيحية على التخلي عن الحروب الأهلية واستعادة الوفاق والنظام الداخلي. وهذه الفكرة عن الحملة الصليبية كـ *opus pacis*، وهو ما يبدو لنا متناقضا، كانت على العكس من ذلك من أكثر الأفكار شيوعا وانتشارا في عالم العصور الوسطى وأيضا في الحقبة الحديثة الأولى. وفى العقد الأخير من القرن الرابع عشر جمع فيليبو دى ميزيير – الذي كان معلما ومستشارا لكارلو السادس ملك فرنسا – حول مخطط للقيام بحملة جديدة في الشرق عددا من النبلاء الفرنسيين والإنجليز والأسبان والإيطاليين : وكان يرى أن الحملة الصليبية ستكون مخرجا لحل الحرب الطويلة بين فرنسا وإنجلترا.

كانت جزيرة قبرص حدودا متقدمة للحركة الصليبية، على الرغم من أن الاحتلال المملوكي لميناء لاياتسو في عام ١٣٣٧ على الساحل التشيليتشي – حيث كانت تتجمع قوافل البحر الأسود والخليج الفارسي – قلل من أهميتها. ولكنها كانت تحكمها عائلة لوزينيانو غير المستقرة وكانت مهددة باستمرار من ضغط

جنوا : كان ضعفها قد أصبح واضحا جدا حتى أن حملة مصرية قامت في عام ١٤٢٦ بنهبها – ربما بالتواطؤ مع جنوا – وأسرت الملك وأجبرته على الاعتراف بسيادة السلطان المملوكي.

وعلى الرغم من هذه النجاحات، فإن سلطان مصر كان يواجه تدهورا اقتصاديا متزايدا سيؤدى في النصف الثاني من القرن الخامس عشر إلى انهيار حقيقي. واستمرت تجارة التوابل بين المحيط الهندي وموانئ النيل من خلال الطريق المائي المتمثل في النهر الكبير ؛ وعلى الرغم من أن المبادرة البرتغالية قد وضعت بالفعل قواعدها – بمدرسة رسم الخرائط والملاحة التي أسسها الأمير إنريكو (المسمى لهذا بـ "الملاح") في الجارفي – للملاحة حول أفريقيا، والتي ربما انتزعت من الإسكندرية ودمياط ما بقى لهما من شبه الاحتكار فيما يتعلق بتجارة التوابل القادمة من الشرق الأقصى التي كانت تصل البحر المتوسط. واستمر الذهب السوداني في الوصول إلى مصر وكان ميزان المدفوعات سليما : ولكن المصنوعات المصرية كانت تسجل تدهورا لا رجعة فيه واجتاحت البلاد منتجات قادمة من أوربا ومن الشرق الأقصى، بينما كان يبدو أن بذخ الطبقة الحاكمة المملوكية والنفقات الحربية الثقيلة لم تكن هي الأسباب الوحيدة للانهيار الاقتصادي.

لم يعد هناك وجود لخلافة بغداد، بعد أن قضى عليها التتار في منتصف القرن الثالث عشر ؛ وكان مسلمو اسبانيا المنضمون حول الإمارة النزارية *nazride* في غرناطة، واقعا بعيدا وضبابيا ؛ وكانت الإمارات العربية–البربرية في أفريقيا الشمالية، التي تسيطر عليها السيادة البحرية لجنوا وكاتالانيا في البحر المتوسط الغربي قد فقدت منذ وقت بعيد قدرتها على التأثير على الحياة في البحر المتوسط وكان لابد أن تتعرض للهجمات المسيحية المتكررة، كما حدث في العملية الصليبية في عام ١٣٩٠ ضد المهدية بقيادة لويس الثاني دوق بوربون، والتي شارك فيها إنجليز وألمان وإيطاليون؛ وكان أتراك الأناضول وتتار روسيا وفارس قد أخذوا مكان العرب في الهيمنة على الإسلام ؛ ومصر نفسها، التي كانت دائما بالأحرى غير أصيلة كبلد "عربي"، كانت تسيطر عليها عائلة من العبيد–المحاربين من أصل تركي أساسا، مع عناصر شركسية وسلافية في داخلها. وبقيت العربية اللغة المقدسة للإسلام، على الرغم من أنها كان عليها أن تقيس نفسها بالفارسية منذ وقت طويل كلغة للثقافة. ولكن الشعوب العربية، التي اقتصرت على سكان بعض المدن في "الهلال الخصيب" وبعض القبائل من البدو

الرحل، كانت قد اختفت تماما من حساب الأوربيين. وفى مصادر القرنين الثالث عشر – الرابع عشر، أصبحت كلمة "عربي" مرادفة فقط لكلمة بدوي.

كان الغروب العرقي– الثقافي للشعب العربي – الذي كان متمشيا في نفس الوقت وموازيا إلى حد ما مع تعريب البلاد التي اعتنقت الإسلام منذ القرن السابع – يقابله تقليل شديد من قيمة الاستعراب كظاهرة ثقافية. وكان جوهر هذه الحركة، في الواقع يتمثل في نفاذ صبر متزايد تجاه التقليد السكولاستي المنهك والجامد الذي أصبح الآن يعيد فقط تكرار نفسه.

كان الناس قد تحدثوا كثيرا عن العرب، في أوربا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وقد رأى الناس أيضا البعض منهم ،أو كانوا يعتقدون أنهم رأوا بعضهم. وعن طريق موضة استوردها المحاربون السراسنة في لوتشيرا في خدمة فردريك ومانفريدى، كان سادة إيطاليا، وخاصة الجبليون يُلبسون محاربيهم غالبا على الطريقة الموريسكية ؛ وكانت المليشيات السراسينيةالمشتركة في المعارك الحربية قد هاجمت في عام ١٢٤١ دير سان داميانو بالقرب من أسيزي حيث كانت تقيم كيارا، إلا أنهم – كما تقول الأسطورة – أصيبوا بالهلع وتشتتوا عند رؤية القديسة التي ترفع في يديها وعاء القربان المقدس.

وربما كان فرانشيسكو بترارك لا يزال في شقاق وعلى أي حال سابقا لعصره عندما خرج بتصريح من الكراهية المتشددة، الوحشية تقريبا، ضد أي شيء عربي أو يمت للعربية بصلة، فيما كتبه في عام ١٣٧٠ لصديقه البادوفاني جوفاني دوندي. وكان نفور الشاعر بل استياؤه يجتاح قبل كل شيء الطب العربي، الذي كان ممتدحا ومبجلا بأكثر من اللازم في إيطاليا وفى فرنسا على حساب العلوم اللاتينية واليونانية : ولكن هذا كان يمتد أيضا للأدب والفلسفة. ولم يقل البترارك شيئا بشأن الرياضيات وعلم الفلك، حيث كانت المؤلفات العربية أو المكتوبة بالعربية على أي حال بلا منازع، ولكنها كانت تتعلق بموضوعات لا تمسه كثيرا وكانت تتلقى منه بدورها رأيا متعاليا. وفيما يتعلق بالخطاب المرسل إلى دوندي فقد ترك السيد فرنشيسكو له الحكم على الطب العربي، وفى الـ *Invectiva contra medicum quemdam* ذهب إلى أبعد من ذلك : حتى أنه كان يتحدث عن *Arabum mendacia*.

وهناك العديد من العناصر التي تتضافر في هذه المجادلة البتراركية المتباهية وغير الموضوعية في نفس الوقت : عداؤه المعروف إزاء الأطباء، واستياؤه من رؤية التقليل من شأن الطب اللاتيني بالمقارنة بالطب العربي، وخاصة عداؤه لابن

رشد، ولا نعلم إلى أي مدى كان مقصودا، ولكنه كان ثائرا على أي حال، وهو ما نقابله في العديد من الخطابات وفي كتاب *De sui ipsius et multorum aliorum ignorantia*. وبالطبع كان عداء بتراركا لابن رشد يتعلق بالصورة التي كان قد نشرها "أتباع ابن رشد" في بادوفا عنه، ونعلم اليوم إلى أي مدى كانوا بعيدين عن الرسالة الحقيقية للمعلم. ولكن هذا لا يغير إطلاقا الحكم المسبق المتعسف، القائم على الجهل وعدم التفهم، الذي كان يحرك مواقف بتراركا، التي كان يحاول - وهو على وعى بهذا تماما في نهاية المطاف - أن يضفى عليها شيئا من النبالة بذريعة الشعر : ولكن من غير الواضح ما إذا كان يعرف بالفعل شيئا عن الشعر العربي أيضا، بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وطبقا لخطابه إلى دونـدي، فإن الشعر العربي كان *blanda, mollis, enervata* : وهي اتهامات تتأثر بالمجادلات والأحكام المسبقة القديمة ضد الحريم، التي كانت بالفعل موضوعا لصفحة حانقة من الـ *De vita solitaria* ؛ التي تذكرنا عن قرب بالـ *topoi* عند كاتوللو وأوراتسيو والمتعلقة بالـ *Arabes molles*، الذين كان يعرفهم جيدا.

ولكن "العداء للاستعراب" كانت له جذور عميقة. والحقيقة هي أن الحملات الصليبية لا يمكن أن تعتبر - بخلاف ما تردده بعض "النصوص" في وسائل الإعلام - سببا للتباعد بين المسيحية والإسلام، لأن هذا أيضا لم يحدث : ولكننا لا يمكن أن ننكر أيضا أن الحملات العسكرية المتكررة كانت قد أحدثت على أي حال نوعا من التصعيد في العداء المتبادل، ، الذي خففت من حدته قيم أخرى، في الحقيقة. وفي الحركات التهكمية أو الساخرة للغة العربية التي نقابلها أحيانا في النصوص الشعرية - من الـ *Jeu de Saint Nicolas* حتى الكلمات غير المفهومة للعملاق نمرود في الكوميديا الإلهية - يمكن أن نجد علامات تعب أمام الغزو العربي في الحياة الثقافية الأوربية في القرون الثاني عشر- الرابع عشر ؛ ومن ناحية أخرى فإن الإدانات المذهبية لجامعة باريس، في عام ١٢٧٧، كانت ضربة قاسية للرصيد الذي اكتسبته الثقافة العربية. وكان الـ *De erroribus philosophorum* لإيجيدو رومانو موجها في معظمه لدحض "الفلاسفة" بامتياز، وهم العرب. وخلال القرن الرابع عشر الإيطالي بصفة خاصة، زادت هذه المواقف المعادية للعرب عمقا، حتى أصبحت أحد المكونات الأساسية للحركة الإنسانية الوليدة. وكانت النصوص المحفوظة لقرون طويلة في مكتبات بيزنطة تسمح الآن بالاستماع للأصوات الموقرة في الماضي المباشر والأدق لغويا بالقياس للطريقة التي استقبلت بها من خلال الترجمات عن النصوص العربية، التي كانت الصور المنقولة من خلالها تبدو الآن زائفة ومضطربة : ويكفي أن نذكر أرسطو المصطبغ بالصبغة الأفلاطونية في العديد من تلك الكتب، وهو ما استخدم أيضا

كقاعدة للفلسفة السكولاستية. وقد رفض أتباع الحركة الإنسانية في الواقع المنهج السكولاستي، وتمردوا على تقليد "الفلاسفة" العرب. وكان الجدل ضد النصوص العربية ذريعة في نهاية المطاف : ولكن هذا لا ينفي شيئا من أن العداء للاستعراب الذي اتسم به جانب من الثقافة الأوربية وجد الآن موضوعا جديدا، غير من طبيعته ولكنه واصله. في البداية ديانة عنيفة ؛ وبعد ذلك شعب وحشي، يعبد الأوثان وشيطاني، كما تخيلته الـ *chansons* ؛ وأخيرا، بعد الزمن الذي كان فيه العرب موقرين كـ "فلاسفة"، حقبة الاحتقار السافر من مؤسس الحركة الإنسانية، فرنشيسكو بترارك.

ولكن إذا كان العرب يخرجون من ساحة البحر المتوسط فإن عدوا إسلاميا آخر كان يطل عليه في نفس الوقت. كانت الحملة الصليبية – التي توجهت بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلى الوثنيين في شمال شرق أوربا، ولِما بقي من الإسلام الإيبيري والمانويين والجبليين في إيطاليا، وأعداء البابا السياسيين، وحتى "جماعات المغامرة" المرتزقة – كانت توشك الآن على العودة لتطرح نفسها كأداة تواجه من جديد موجة إسلامية قادمة من الشرق ، وفي القرن الحادي عشر كانت الـ *peregrinatio Hierosolymitana* قد ولدت على طريق الحج كنتيجة غير مناسبة على الأقل لظهور المسلمين الجدد من الأتراك السلاجقة في البحر المتوسط ؛ وبين القرنين الرابع عشر والخامس عشر عاد للظهور تهديد تركي جديد سيكون سببا لتغير آخر في مظهر وأهداف "الحوت الأبيض" الصليبي.

أبناء عثمان

وكانت إحدى النتائج الرئيسية للحملة الصليبية الرابعة، مع فتح القسطنطينية في عام ١٢٠٤ وإحياء الإمبراطورية البيزنطية – التي لن تكون هي نفسها على أي حال – في عام ١٢٦١ تحت حكم عائلة Paleologi هو فقدان بيزنطة الكامل للسيطرة المتبقية على شبه جزيرة الأناضول. وبعد وصول المغول لساحة الشرق الأدنى، كانت قد أصبحت منطقة حدود بين الأرمن والتتار والمماليك في مصر، ومملكة قبرص التي كانت تحاول الإبقاء على بعض القواعد في سيسيليا، وفرسان سان جوفاني الذين كانوا يتجهون من مركزهم الجديد في رودس للسيطرة على جزء على الأقل من سواحل فريجا وليديا وكاريا القديمة. وقد أدى التفتت المتزامن، بداية من العقد الرابع–الخامس من القرن الرابع عشر، للخلافة التتارية

في فارس وشقيقتها-المنافسة، خلافة أوردا دورو، إلى تحرير عدد من الجماعات التركمانية التي استقرت في شبه الجزيرة الأناضولية، وأحيت سلسلة من السلطنات الغازية التي يحركها شعور خفي وقوي بالجهاد. ومن هذه الإقليمية المعقدة ستظهر قوى على جانب من الأهمية، مثل سلطنة عيدين والاتحاديين التركمانيين *Aq-Qoyunlu* ("الخرفان البيضاء")، وهم من السنة، و*Qara-Qoyunlu* ("الخرفان السوداء")، وهم من الشيعة، الذين تنازعوا المنطقة الواقعة بين الأناضول الشرقية وفارس الغربية بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

وقد جلب الاجتياح التركي الجديد للمنطقة الشمالية الشرقية للبحر المتوسط لأوربا مشكلات غير متوقعة. ولم يكن من الممكن التقليل من شأن الخطر الأناضولي. وبين عامي ١٣٤٤ و١٣٤٦ تمخض اتحاد مقدس أعلن بين فينسيا وجنوا وقبرص وفرسان رودس عن *passagium particulare* ضد مدينة أزمير، التي أصبحت وكرا للقراصنة الأتراك. وعندئذ دعا البابا كليمنتي السادس المؤيد المتأجج لضرورة القيام بحملات صليبية جديدة في كل أوربا لإغاثة فاتح أزمير: ولكن الذي لبى النداء بورجونيوني نبيل، هو أومبرتو فيين، ولكن ملوك فرنسا وإنجلترا تجنبوا الانشغال عن الصراع الذي كانوا قد بدأوه لتوهم وسرعان ما كشفت جنوا عن أوراقها وأظهرت اهتمامها ليس فقط بأزمير ولكن باستعادة جزيرة كيو – التي كانت تستخرج منها بضاعة هامة، المصطكاء – والتي كان البيزنطيون قد انتزعوها في عام ١٣٢٩ من حاكمها، الجنوفيزي مارتينو زكريا. ولكن الجزيرة لاقت ايضا اهتمام أهل فينسيا. وعند نهاية ربيع عام ١٣٤٦ انقض أسطول من جنوا على جزيرة كيو وممتلكات آل زكريا القديمة على الأرض الواقعة خلف الساحل – فوتشيا القديمة وفوتشيا الجديدة، التي كانت تستخرج منها بضاعة أخرى في غاية الأهمية في صناعة الأنسجة، وهى حجر الشب، وهو مادة ممتازة في تثبيت الألوان – واحتلها غير عابئ بسير الحملة الصليبية. بل إن الحملة كانت الذريعة لإطلاق العنان لشهية جميع القوى الأوربية.

وقد أدى وباء الطاعون إلى حل سريع للصراع: ففي عام ١٣٥٠ تم الاعتراف بفرسان رودس سادة على أزمير، ولكن سُمح للأتراك بالإشراف على قلعتها بينما كسب أهل فينسيا في المدينة مزايا تجارية هامة. واضطر بطل الحملة الصليبية الساذج، أومبرتو دي فيين إلى التخلي عن أية ميزة واختطفه أيضا بعض القراصنة الإنجليز. وبعد أن تعب وخاب أمله ترك الدنيا وزخرفها مرتديا الثوب الدومينيكاني. وكمسئول في الكنيسة، ابتسم له الحظ أكثر: وأصبح بطريركا لاتينيا للاسكندرية وبعد ذلك أسقفا لمدينة ريم.

كان الأبطال الجدد في التاريخ الإسلامي في البحر المتوسط يشقون طـــريقهم في نفس الوقت في الأناضول. وكان الأمر يتعلق بقبيلة تركية وضعت نفسها في خدمة السلطان السلجوقي في كونيه، الذي خصص لها إقليما صغيرا لا يبعد كثيرا عن القسطنطينية في العقد الثالث من القرن الثالث عشر، بعد أن اندفعت من آســيا الوسطى نحو الغرب عقب التوسع المغولي. ونحو نهاية القرن الثالث عشر كـــان حاكمها عثمان (١٢٩١-١٣٢٦) قد استفاد من أزمة سلطنة كونيه المحاصرة بـــين مغول فارس ومماليك مصر. وفى أعقاب ذلك، كان خليفة عثمان، أورخـــان، قـــد انتزع من الإمبراطورية بالتدريج - مـــستفيدا مـــن الـــصراعات علـــى الـــسلطة الإمبراطورية في القسطنطينية - بيتينيا مع بروسا (بروســـا القديمـــة)، وإزنيـــك (نيتشيا القديمة) ونيكوميديا، وأخيرا أيضا جاليبولي على ساحل الدردنيل الأوربي، وهو ما ضمن له السيطرة على المضايق والوصول إلى شبه الجزيـــرة البلقانيـــة. وكانت بيزنطة قد تنبهت بعد فوات الأوان إلى أن الحليف المتعب، الـــذي كانـــت الفصائل المختلفة قد اعتقدت أن بوسعها استخدامه للوصول إلى السلطة، يحاصـــر العاصمة الآن ويخنقها تقريبا. وبعد أن حوصرت بين تراتشا وبيتينيا العثمـــانيتين، كانت الإمبراطورية البيزنطية قد تقلصت إلى ما يزيـــد قلـــيلا علـــى العاصـــمة والمنطقة المحيطة بالبوسفور. وفى نفس الوقت كانت القرصنة التركية تجوب بحر إيجه وجعلت الحياة صعبة على سفن جنوا وفينيسيا.

الآن وقد وصل الخطر العثماني فجأة ليمس الدانوب تقريبا، أدرك الناس فجأة في أوربا أنه لم يعد هناك وقت يضيعونه. ولكن مؤتمرا عقده البابـــا إنوتشنتـــسو السادس في افينيون انتهى بفشل مهيب.

وكانت أوربا تغلي على أي حال بشغف صليبي جديد : ففي عام ١٣٧٠ صعد إلى العتبة البابوية الكاردينال رببر روجـــر، الـــذي اختـــار أن يـــسمَّى بانتظـــام جريجوريو الحادي عشر وكان هذا اسم ثلاثة على الأقل من البابوات الكبار الذين راودهم حلم العملية الشرقية. وقد أعلن على الفور تقريبا عـــن *passagium generale* جديد، في عام ١٣٧١، بينما كان يعد لعودة المقر البابوي إلى روما. وكانت هاتان النقطتان نقطتي القوة في برنامجه : وكانت تحثه عليهما نبيتا المسيحية العظيمتان في تلك الفترة، بريجيدا دى زفيتسيا وكاترينا دا سيينا. وكانت كاترينا تأمـــل فـــي إشراك المرتزقة المحترفين في "جماعات المغامرة" في حملـــة صـــليبية جديـــدة، أعلنت في يوليو عام ١٣٧٥، ليجدوا بذلك طريقة للتصالح مـــع الله؛ وقـــد كانـــت أيضا تثق بأن العملية ستسهم في جلب سلام أو على الأقل هدنـــة فـــي الـــصراع الفرنسى-الإنجليزى الأبدي. وكانت قديسة سيينا قد نجحت في كسب شقيق كارلو

الخامس ملك فرنسا نفسه، لويجي دوق أنجو لقضية الـــ *Passagium*. ولكن كل هذه الآمال قدر لها أن تتحطم أمام الواقع السياسي الصعب. وحملت عودة البابـــا إلـــى روما، وهو أبعد ما يكون عن البدء في موسم التجديد المأمول في الكنيسة، حملت في طياتها بداية ما يسمى "انشقاق الغرب الكبير"؛ وكان من سوء حـــظ إنجلتـــرا وفرنسا، الموجوعتين من حربهما الطويلة، أن يشهدا صبيا، هو ريتشارد الثـــاني، ومعتوها مسكينا، هو شارل السادس يصعدان عرشيهما ؛ وكان عـــام ١٣٨١ قـــد شهد في إنجلترا تمرد وات تيلر، وكان إقليم فياندر قد اجتاحته ثورة النساجين فـــي جاند في ١٣٨٢ والتي أعقبتها حركات تمرد في باريس وروين؛ وفى نفس الوقت كان هناك طاعون جديد يضرب أوربا.

كانت الاضطرابات السياسية والاجتماعية في القـــارة، والأوبئـــة المـــستمرة، والانشقاق في الكنيسة، والخوف من تقدم الأتراك، ودعاية الجماعات التـــي تأمـــل في عودة الكنيسة إلى نقاء العهد الإنجيلي، كانت تغذي الآمال والمخـــاوف التـــي كانت تترجم إلى ذيوع النبوءات التي كانت تتحدث عن نهاية العـــالم والثـــورات الدينية – الشعبية. وبين عامي ١٣٧٨ و١٣٨٠ كانت قد انتشرت في أوربا نبـــوءة تقدم بابا أفينيون والملك الفرنسي على أنهما بطلان *renovatio* عالميان ســـيطهران الكنيسة ويؤديان إلى تحرير القدس ؛ وفى عام ١٣٨٦ خصصت معاهدة من نفس المستوى، كانت تحمل توقيع الناسك تيليسفورو دي كوزنتسا، لحاكم جنـــوا الـــذي كان البعض يأمل في جذبه لفلك التحالف بين فرنسا وأفينيون. كان هذا اســـتمرارا لنبوءة مشكوك في صحتها لخدمة الدعاية السياسية التي كانت تشيع عبر القارة.

وقد لقيت هذه الخيالات المتعلقة بنهاية العالم تشجيعا أيضا من نصوص مثـــل الـــ *Songe du vieil pèlerin* لفيليب دي ميزيير، مبتكر الجمعيـــة الدينيـــة الجديـــدة، الـــ *Nova Religio Passionis Jesu Christi*، التي كان يتعين – طبقا لمخطط قديم ولـــم ينفذ أبدا عند العديد من منظري الحملة الصليبية – أن توحد وتحـــل محـــل كـــل الجمعيات الدينية–العسكرية ؛ أو شخصيات مثل جـــون لـــو مينجـــر، "مارشـــال بوسيكو" الشهير، الحاج إلى القدس والحالم بحمـــلات صـــليبية جديـــدة ومبتكـــر الجمعيات الفروسية للدفاع عن السيدات.

وفى نفس الوقت كان العثمانيون يتقدمون. وكان الـــسلطان Bajazet (١٣٨٩–١٤٠٢) قد حارب وهزم القوة الصربية الفتية في المعركة الوحشية في كوســـوفو في يونيو من عام ١٣٨٩ : وفتح العثمانيون الآن فـــي عـــام ١٣٩٤ تيـــسالونيكا (سالونيك)، بعد أن خضعت لهم بصور مختلفة فالاكيا وبلغاريا ومقدونيا وتيـــساليا وصدوا الفالاكيين شمال نهر الدانوب.

وكانت هذه موجة جديدة من الرعب. وسيرغب الملك البيزنطي إيمانويل الثاني في البدء شخصيا في جولة طويلة عبر أوربا بهدف الحث على حملة صليبية جديدة حاسمة : ولكنه بسبب نقص الأموال، توجه إلى فينسيا عارضا عليها بيع جزيرة ليمنو. ولكنه أخطأ حساباته : فقد تظاهرت فينسيا، التي لم تكن لديها أية نية للبحث عن خلافات مع السلطان، بنصح الملك البيزنطي بالهدوء والحذر.

ولكن الهجوم التركي في البلقان بدأ يثير مخاوف سيجيسموندو ملك المجر، الذي كان يضغط على البابوين - بابا أفينيون بنيديتو الثالث عشر وبابا روما بونيفاتشو التاسع - وحصل من ذلك على إعلان بالحملة الصليبية التي انضمت إليها فينسيا نفسها، على مضض. وقد امتدت الهدنة بين فرنسا وإنجلترا في عام ١٣٩٦ بهدف السماح بقيام الحملة. وكانت هناك موجة من حماس التوبة والحديث عن الآخرة يتزايد في أوربا ؛ وقد بعث المبشر الدومينيكاني الكبير فينتشنتسو فيريه الحياة من جديد في الحركة المتسوطة*، بعد رؤيا ظهر له فيها المسيح الدجال. وقد وجدت الحملة الصليبية نصيرا قويا في دوق بورجونيا فيليبو الثاني لارديتو، الذي جمع مبلغا كبيرا من المال وعين قائدا للحملة ابنه نفسه جوفاني كونت نيفيه (الذي سيصبح بعد ذلك الدوق جوفاني سنتسا باورا). وفي ٢٠ أبريل من عام ١٣٩٦ رحل من ديجون جيش حماسي، مكتظ بالفرسان الفرنسيين والألمان والإنجليز والإيطاليين ؛ وفي بودا، في نهاية يوليو تقريبا انضم إليهم ملك المجر مع قوات حاكم فالاكيا التابعة له بينما كان أسطول مزود باسبتاريين* من رودس، وبحارة من فينسيا وجنوا، قد رسا عند مصب نهر الدانوب، بعد أن دخل البحر الأسود. وقد تحدث البعض، ربما دون مبالغة زائدة ، عما يقرب من مائة ألف من المحاربين.

ولكن في ٢٦ سبتمبر، بالقرب من نيكوبولي، حيث كان الطريق البلغاري الكبير يمس المجرى الجنوبي لنهر موراڤا، تعرض جيش الصليبيين الهائل لهزيمة دموية : ويبدو أنها كانت راجعة جزئيا لطيش الفرسان الغربيين ومعرفتهم الضئيلة بالأرض والعادات العسكرية للأتراك. وتحولت الهزيمة لمذبحة حقيقية، زادت من خطورتها المذبحة الباردة لأسرى الحرب : باستثناء أولئك الذين كانوا يستطيعون بالطبع دفع فدية كبيرة، والذين عادوا في عام ١٣٩٧.

* المتسوط هو الضارب نفسه بالسوط تقربا إلى الله (المترجم) .
* الاسبتاري هو عضو في منظمة دينية عسكرية أنشئت في بيت المقدس في القرن ١٢ م و تعرف بـ "الاسبتارية" (المترجم) .

انتهى القرن الرابع عشر بين محاولات مضنية لجمع المال لدفع الفديات والمقترحات الحالمة بحملات جديدة والتنبوءات المتكررة حول نهاية العالم والتي زاد من خطورتها وباء آخر للطاعون.

ولكن هاهي المعجزة، عند هذا الحد : أو شيء اعتقد الناس أنه كذلك في تلك اللحظة.فقد استغل أمير ترانزوكسيانا الطوراني، تيمور – وهو اسم يشكك البعض في أصله : ربماكان مشتقا من جذر تركي مغولي بمعني الحديد –، تفكك الإمبراطورية المغولية، وبدا أنه يبعث الحياة من جديد في القوة الجنكيزخانية. ومن مسقط رأسه سمرقند، بدأ من يعرفه الغربيون باسم تيمورلنك في العقد الأخير من القرن سلسلة من الحملات العسكرية تدعمها عبقرية حقيقية ووحشية محسوبة جيدا : وفي وقت قصير استولى على فارس وجورجيا مع الأسواق الكبيرة في تبريز وتفليس (اليوم تبليس) وانقض على بلاد ما وراء النهرين ودخل بغداد في عام ١٣٩٢ واندفع حتى سوريا وهزم فيها سلطان حلب ؛ وفي عام ١٣٩٥ هزم ملك أوردا دورو في معركة ميدانية ؛ ثم اتجه إلى الشرق بعد ذلك، وقاد راياته حتى نهر الهند ليدمر دلهي في عام ١٣٩٨. ثم عاد إلى سوريا من جديد ووصل حتى دمشق، حيث قابل في عام ١٤٠١ المؤرخ والفيلسوف المغربي العظيم ابن خلدون، ، الذي كان يتأجج شوقا للاقتراب منه منذ زمن بعيد : فتبادلا الهدايا وتحدثا في التاريخ والدين والقانون.

كانت إمبراطورية تيمورلنك تصل الآن إلى القوقاز، وتشمل بحر قزوين الجنوبي والأوسط وبحيرة آرال وكل المنطقة الواقعة بين نهرى سير داريا والهند. ومن بين الملوك المنافسين له، كان الإمبراطور العثماني وحده هو الذي يستطيع مقاومته .

وكان من الواضح بالتالي أن مصالح أوربا وملك سمرقند تتلاقى. ولكن كان هناك ما هو أكثر من ذلك. فقد كان تيمورلنك يذكر بالموجة المغولية الكاسحة قبل ذلك بقرن ونصف : وبهذه الذكرى كانت تشتعل الآمال المجنونة في تحالف بين شعوب السهول والمسيحية ليس لهزيمة الإسلام بالطبع – فقد كان هو نفسه مسلما – ولكن لهزيمة القوة العثمانية، الوحيدة التي تستطيع منافسته في الهيمنة على العالم الأورالي الألطائي. وظهرت في أوربا من جديد الأساطير التي غذت الآمال والأوهام منذ ما يقرب من ثلاثة قرون : أساطير "الراهب جاني"، والحكماء الثلاثة والمساعدة الإلهية التي ستصل من آسيا العتيقة للمؤمنين بالمسيح. وفي نفس الوقت كان التجار الأوربيون يأملون في pax mongolica جديد، سيفتح من جديد طرق القوافل التي كانت تصل البحر الأسود بأرمينيا وتمر عبر فارس لتصل إلى

آسيا الوسطى، التي كان يعبرها بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر العديد من المغامرين والدبلوماسيين والمبشرين. واتفق الأمير البيزنطي جوفاني، الذي كان الملك البيزنطي مانويلي قد تركه في القسطنطينية كوصي على العرش عند سفره إلى أوربا، مع حاكم جالاتا الجنوفيزى على أن يقيم، عن طريق إمبراطور تريبيسوندا اليوناني – المنحدر من سلالة الـ Comneni – علاقات مع خليفة جنكيزخان : وكانت بيزنطة مجبرة الآن على دفع فدية للسلطان Bajazet، وقد أعرب جوفاني عن استعداده لدفعها للحليف الجديد. ودخلت اللعبة أيضا فرنسا، التي استعانت ببعض المبشرين الدومينيكانيين – وكانت الجمعية تقليديا على علاقات طيبة مع المغول ومعرفة قوية بأرمينيا وفارس – لكي تقترح على تيمورلنك عملية مشتركة ضد العثمانيين. وكان هذا بعث لحلم لويس التاسع القديم، بالإضافة إلى الأمل في تدعيم الإمبراطورية الجارية الجنوفيزية في الشرق، بعد أن أصبح للتاج الفرنسي اليد الطولى على جنوا. ولو كان القائد المغولي الرائع قد حصل من فينسيا وجنوا على مساعدة بحرية كافية لإغلاق المضايق لسار التاريخ حقا في مسار مختلف عما نعرفه الآن.

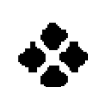
وفى نهاية يوليو من عام ١٤٠٢، بالقرب من أنقرة، اصطدم المغول والعثمانيون. وابتسم النصر للفريق الأول : وأنهى المنتصر في نيكوبولي، الذي هزم بدوره، في العام التالي أيامه الأخيرة، أسيرا، بين أبشع أنواع الإذلال. ولكن تيمور مات فجأة في عام ١٤٠٥، وتفتتت إمبراطوريته الهائلة بين ملوك معادين لبعضهم البعض.

وفي نفس الوقت لم يبتلع تيمورلنك السلطان العثماني الذي تقلص حكمه بشدة بعد هزيمة أنقرة : والآن بعد أن تضاءلت قوته بصورة معقولة، عاد ليصبح حليفا مهما. وقد تنبه أهل فينسيا لذلك على الفور ؛ بينما كان الفرنسيون وأهل جنوا، مع بوسيكو الأهوج المعتاد، يفضلون تقديم يد العون للملك البيزنطي في القسطنطينية. وقد نشأت عن ذلك، في العقد الأول من القرن الخامس عشر، "حملات صليبية جديدة" تحولت إلى مصادمات بين أهل فينسيا وجنوا في بحر الشرق. ولكن الأوربيين تجاهلوا أن البناء العثماني كان يعيد تنظيم نفسه وبعد عشر سنوات مضطربة تناوب خلالها ثلاثة سلاطين، وجد قيادة أكيدة في محمد الأول ثم في ابنه مراد الثاني، الذي هاجم القسطنطينية متعللا بذريعة شكلية. وقد رفع الحصار – وربما كان استعراضا للقوة أكثر من أي شيء آخر ؛ وربما كان إعلانا للنوايا ... – بعد ثلاثة أشهر دون حدوث نتائج مباشرة : ولكن بات واضحا الآن أنه لم يعد هناك مجال للأوهام. وتنازل مانويلي الثاني عن العرش في عام ١٤٢٣ ؛

وخلفه بعد عامين، جوفاني السابع. وكان السلطان يغازل أهل فينسيا وجنوا بإلحاح : فقد كان مدركا لقوتهم الاقتصادية والبحرية في القسطنطينية، وكان ينوي إثارة منافستهم مظهرا خدماته لهؤلاء تارة ولأولئك تارة أخرى.وفى عام ١٤٢٣ كانت تيسالونيكا قد أعطيت لفينسيا وأعاد مراد فتحها في عام ١٤٣٠ بمساندة دوق ميلانو فيليبو ماريا فيسكونتي، الذي كان عدو فينسيا وكان يحتفظ في نفس الوقت عن طريق جنوا بعلاقات تجارية ودبلوماسية ممتازة مع حاكم مسلم آخر : أمير تونس.

ولم تكن لدى السلطان النية في إفساد علاقاته مع الغربيين أكثر من ذلك: وبعد فتح تيسالونيكا، منح فينسيا مكافأة تتمثل في معاهدة تجارية مجزية ؛ وفي نفس الوقت كان يشجع أهل جنوا على استثمار رؤوس أموالهم على الأرض العثمانية وفي عام ١٤٣٧ كان يسمح لهم باستغلال مناطق حجر الشب في الأناضول. وفي عام ١٤٣٣ كانت سفارة عثمانية قد وصلت إلى بازل بالقرب من الإمبراطور سيجيسموندو، الذي كان قد شارك في عملية نيكوبولي عندما كان لا يزال مجرد ملك للمجر : وقد تقبلها الصليبي القديم بالترحاب.

ولكن الغاية الصليبية لم تكن قد ماتت بعد. ففي عام ١٤٢٢ – وهو نفس العام الذي ظهر فيه السلطان مراد مهددا تحت أسوار القسطنطينية – مات هنري الخامس، المنتصر في Azincourt. وبالقرب من سرير موته كان الرهبان ينشدون المزامير. وعندما وصلوا إلى Benigne fac, Domine , in bona voluntate tua Sion, ut "aedificentur muri Jerusalem*، أوقفهم ذلك الملك الذي قضى حياته كلها في إخضاع فرنسا أوقفهم لكي يعلن بصوت مرتفع أن مثله الأعلى كان دائما تحرير المدينة المقدسة، بعد الانتهاء من تسوية شئون المملكة : ومات، مثل القديس لويس، واسم القدس على شفتيه.



* *Psalmi*، ٥٠، ١٩ (٥١، ٢٠).

٨

التهديد العثماني

عدو الصليب، عدو أوربا

"Inimicus crucis, inimicus Europae"

مطاردة التفاحة الحمراء

كان للعثمانيين أيضا أحلامهم ونبوءاتهم. فالشعوب القديمة، لها دائما ماض عميق. وفى هذه الشعوب الأورالية الألطائية ،هناك نموذجان أصليان خرافيان يتواجهان في حوار وثيق : الحيوان الأولى الكبير، الذئب ؛ والشيء الأولى في الرغبة والسعادة، التفاحة.

وتتكرر في الحكايات التركية المغولية، صورة مدينة كيزيل ألما الأسطورية، "التفاحة الحمراء". وعبر القرون شاهدها بدو آسيا الوسطى تتلألأ في دوامة العواصف الرملية وفى العواصف الثلجية من الرياح الجليدية، بين بحر قزوين والجوبى والتيين شان : مدينة التفاحة الحمراء، التي فسرت (وأضفيت إليها الصبغة الشعبية) كقبة هائلة من الذهب ؛ بالنسبة لسلالة عثمان وأهلهم، سانتا صوفيا القسطنطينية، ثم قبة الصخرة في القدس، ثم عبر القرون أيضا بودا وأيضا فيينا التي اقتربوا منها مرتين بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، وفى نشوة الانتصارات حتى روما ... واليوم أيضا، احتراما للأساطير القديمة والآمال القديمة، أصبحت عاصمة كازخستان هي ألما آتا،" التفاحة الأب".

وسعيا وراء حلم التفاحة الحمراء، كان شعب السهول قد وصل حتى أسفل أسوار روما الجديدة : وكان واضحا الآن أن رغبته كانت قطف التفاحة الذهبية المتلألئة على مياه البوسفور الغائمة.

وفى ١٤٢١ كان دوق بورجونيا الجديد فيليبو إلبوونو، ابن جوفانى سنتسا باورا، قد استأنف أحلام الشرق عند جده ووالده : فقد أرسل تابعه الوفي جيلبرت دو لانوى إلى أقاليم الشرق الأدنى لدراسة الإمكانيات الفعلية لتنظيم حملة صليبية

جديدة، بعد التآم انشقاق الغرب وبعد أن بدا أيضا، بعد آزينكورت، أن القضية الفرنسية-الإنجليزية قد انتهت ؛ وفى ١٤٣٣ أرسل الدوق بعد ذلك مبعوثا محليا آخر، هو برتراندون دو لا بروكيير. ولكن المراقبين الحكيمين لم يستطيعا الوصول إلا إلى نفس النتيجة : إن الأتراك شعب قوى، منظم، ومن الصعب هزيمته.

كان فيليبو، وهو مشغول في تلك اللحظة ضد الإمبراطور سيجيسموندو الذي كان يبدو أنه يضع العراقيل أمامه في طريقه للتوسع نحو برابانتى وليمبورجو ولوكسمبورج، يحتاج لشيء يزيد من مكانته ويضعه معنويا فوق الحكام الآخرين في المسيحية : فوق الـ *basileus* في القسطنطينية، والإمبراطور الروماني-الألماني النائم، والحليف ملك فرنسا وانجلترا المشغول جدا بالحفاظ على كل أملاكه جنوب بحر المانش. أما الآخرون – الخليفة المتردد ثم ملك فرنسا كارلو السابع، أو الملوك الأيبيريون – فإن "دوق الغرب الكبير" لم يكن يعبأ بهم. وسوف تمنحه الحملة الصليبية المكانة التي كان يبحث عنها : وسيكون هو قائدها الوحيد بمساندة البلاط البابوى، وسوف يقدم نفسه على أنه ذلك الـ *bellator rex* الذي كان يتناقش حوله المنظرون بلا جدوى منذ أكثر من قرن ونصف.

وكان الـ *basileus* جوفانى الثامن يدرك من جانبه، أن القبضة النهائية تقترب الآن شيئا فشيئا من إمبراطوريته التي أصبحت أكبر قليلا من عاصمته الرائعة. وفي ١٤٣٧ شرع في رحلة إلى أوربا لطلب العون من زعماء الكنيسة اللاتينية المجتمعين من جديد في مجلسهم، هذه المرة في بازل. وقد كان يعلم جيدا جدا ما هو الثمن الذي سيطلبه منه رجال الدين الغربيون : الإذلال والتخلي عن صداع الكنيسة اليونانية، ونهاية الانقسام عن طريق الخضوع. وكان يعلم أيضا أنه كان هناك من يهمس – بل إن البعض كان يعلن بذلك صراحة – بأن العمامة العثمانية مفضلة على تاج الأسقف الروماني، سواء في الدوائر الدينية وخاصة الرهبانية اليونانية أو بين أهل العاصمة، المؤمنين البسطاء والأوفياء : فالكفار سيتركون المسيحيين اليونانيين في سلام بوصفهم جاليات ذمية (أي محمية، تتمتع بحرية العبادة)، في حين أن اللاتينيين سينتزعون منهم حرية الشعائر وحرية التنظيم والحرية الدينية.

وفى نفس الوقت كان الأتراك يضيقون الخناق حول بيزنطة وكانوا يتقدمون أيضا نحو الشمال الغربى، نحو أوربا. وفى عام ١٤٣٧، قام السلطان مراد الثاني بالهجوم على ترانسيلفانيا وصربيا، مستفيدا من وفاة الإمبراطور سيجيسموندو ومصاعب الخلافة المعتادة ؛ وبعد ذلك بعامين كانت صربيا كلها – على الرغم

من مقاومة طاغيتها جورجو برانكوفيتش – تحت سلطة العثمانيين، بينمـــا بقيــت ترانسيلفانيا حرة بصورة غير مستقرة بفضل شجاعة الـــحاكم جانوس هونيـــادى. وفى نفس الوقت كان رجال الكنيسة في بازل قد أحدثوا انشقاقا جديدا.

وعلى أي حال أعلن الإتحاد بين الكنيستين – اليونانية التي يمثلها ملك حـــائر وبطريرك متردد واللاتينية التي أصبحت فريسة للشقاق – بصورة مهيبة فـــي ٦ يوليو ١٤٣٩ في فلورنسا، حيث كان البابا أوجينيو الرابع والأساقفة الموالون له قد نقلوا مقر المجلس الكنسي من بازل وبعد ذلك من فيرارا.

وفى ربيع العام التالي استأنف الأتراك الهجوم مستهدفين ترانسيلفانيا والمجر : واجتاحوا بقوة مدينة ألبا جريكا – وهي عند السلاف Beograd، "المدينة البيضاء" : بلجراد – التي قاومت مع ذلك لدرجة أنها أجبرت السلطان على نزع الخيام فـــي شهر سبتمبر ؛ وجانوس هونيادى، الذي كـــان ملـــك المجـــر الجديـــد لاديـــسلاو لاجيللونى قد عهد إليه بالدفاع عن المنطقة الواقعة بين الدانوب وتيبيسكو، استطاع أن يجابه جيدا الكفار حتى أن النبلاء المجريين اتحدوا، بعـــد أن وضـــعوا اخلافاتهم جانبا للحظة واحدة، فيما يشبه الرباط المقدس حول قائدهم، الذي كان قـــد أصـــبح بطل الإيمان والحرية.

وفى أوائل عام ١٤٤٣ كانت هناك رسالة من البابا أويجينيـــو الرابـــع تـــدعو جميع الأساقفة لدفع ضريبة العشر على دخلهم من أجل الحرب ضـــد الأتـــراك ؛ وكان البابا نفسه قد حدد من جانبه تخصيص خمـــس مـــوارده لتـــسليح الجـــيش والأسطول. وفى المجر، كان للحملة الصليبية مساند قوى هو الكاردينـــال ممثـــل البابا جوليانو تشيزارينى ؛ وكانت بولونيا وفالاكا وراجوزا – جمهوريـــة ســـان بياجو الشهيرة – تقف بحماس إلى جانب البابا. وكان يمكـــن أن يكتـــب للعمليـــة النجاح : فقد كان النبيل جورجو سكاندر بك يقوم بدعوة الألبانيين وسكان الجبـــل الأسود للإتحاد ضد الكافر، بينما كان جورجو برانكوفيتش يعيد تنظـــيم الـــصرب دون كلل. وفى نفس الوقت كان المسيحيون في الأناضول أيضا قد وجدوا حليفـــا ثمينا غير متوقع في إبراهيم بك، سلطان كارامانيا – الإقليم الواقع بين بحيرة توز وتاورو – الذي كان مصمما على الاعتراض على الهيمنة الآسيوية للسلطان، على الرغم من أنه زوج شقيقته. وفى نفس الوقت كانت هناك "حملة صـــليبية" يقودهـــا كوستانتينو باليولوجو طاغية مسترا لحسابه في موريا (البيلوبونيزو) حيث أنـــه – بعد اجتياح أراضى الفلورنسى نيرى الثاني أتشايولى دوق اثينا، الذي كان قد أعلن تبعيته للسلطان – كان يتقدم عبر اليونان وتيساليا في اتجاه القـــسطنطينية مثيـــرا خلال مسيرته السكان اليونانيين والبلقانيين ضد العثمانيين.

وكانت كل المقدمات تبدو إيجابية : ولكن النداء الصليبي في الغرب، حتى وإن كان قد استأنفه خطباء وكتاب بتظاهر كبير من البلاغة، سقط كما هي العادة في الفراغ الحقيقي. وفى فرنسا لم تكن حرب المائة يوم قد انتهت ؛ وفى إيطاليا كان قد انتهى منذ قليل الصراع بين الأنجويين والأراجونيين من أجل السيطرة على مملكة نابولي، تاركين وراءهم ميراثا من الضغائن ؛ وفى نفس الوقت لم يكن لدى جنوا وفنيسيا وفلورنسا رغبة كبيرة في تهديد علاقاتها الطيبة مع السلطان. ومن جانبه كان ملك ألمانيا و"الرومان" الجديد فردريك الثالث ملك أزبورجو، الذي لم يكن قد تلقى بعد التاج الإمبراطوري من البابا، مصمما على الحذر جيدا من الدخول في عملية كانت ستؤدى فقط في الواقع إلى تقوية موقف لاديسلاو في المجر. وقد تذرع بالتالى بحجة الموقف البوهيمى غير المؤكد، حيث لم تكن الهرطقة السهوسية قد هزمت بعد، ورفض مؤقتا أن يأخذ الصليب.

كانت مجرد قوة عشوائية من المشتتين الباحثين عن الثروة تلك التي اجتمعت في بودا في صيف عام ١٤٤٣ : ولكن الحملة بدأت بطريقة براقة، بنصر بالقرب من نيش والاستيلاء على صوفيا. ولكن الشتاء البلقاني القارس والتكتيك التركي في حرب العصابات كانت لهما اليد العليا عند هذا الحد : فقد انسحب الصليبيون في حزن إلى بلجراد وبعد ذلك إلى بودا، في حين أن برانكوفيتش – الذي كان طاغية صربيا وتابعا للسلطان، الذي كان أيضا صهره – اجتهد للوساطة من أجل سلام كان مراد يطمح إليه بحرقة، لقلقه بسبب نوايا سيد كارامانيا.

وفى أبريل التالي كان لاديسلاو ملك المجر يطلب هدنة من السلطان ؛ ولكنه لكي لا يغضب الكاردينال تشيزاريني و"الصقور" التي كانت تحيط به، كان يطمئنهم في نفس الوقت إنه سيستأنف حمل السلاح في الصيف. ولم يصدق أحد هذا تقريبا، باستثناء السلطان بالطبع الذي كان على علم ببواطن الأمور من جواسيسه : وهناك مراقب استثنائى في تلك اللحظة في الأرض العثمانية، وعالم بالآداب القديمة من مدينة أنكونا، وهو تشيرياكو دى بيتسيكوللى، وكان يؤكد أن أعمال التحصين في أدريانوبولى كانت تتقدم بصورة محمومة على الرغم من الهدنة. ويبدو على أي حال أن لاديسلاو قد وقع حقا على هدنة لمدة عشر سنوات، بسوء نية تام : ففى نهاية يوليو كان يبحر بالفعل، انطلاقا من فينسيا متجها إلى مصب نهر الدانوب، أسطول يقوده أفيز لوريدان والكاردينال ممثل البابا فرانشيسكو كوندولمير ابن شقيق البابا. وكان السلطان مضطرا للهرولة إلى الأناضول لشن الحرب ضد ابراهيم بك، في حين أن أدريانوبولى كانت تجتاحها ثورة دينية بتحريض من جماعة شيعية وانتفاضة للإنكشاريين.

كانت فرصة فريدة من نوعها لسحق الحية العثمانية دفعة واحدة : ولم يتعين أن يلقى الكاردينال تشيزاريني صعوبة كبيرة في أن يقنع بذلك لاديسلاو المتردد والخائن، الذي ينساق دائما للاقتناع بالرأي الأخير الذي كان يسمعه.

وفي ٤ أغسطس، في سيجيدينو، أقسم ملك وكبار المملكتين البولندية والمجرية على القيام معا بالجهد الحاسم لطرد الأتراك من أوربا ؛ وقد انسحب فقط طاغية صربيا للوصول إلى سلام منفصل.

وقد وقّع مراد، الذي هزم إبراهيم بك هزيمة منكرة تقريبا، على معاهدة متعجلة معه وبمسيرات قسرية اتجه نحو المضايق، التي كان يتعين على أسطول لوريدان وكوندولمير إغلاقها لمنعه من المرور إلى أوربا. ولم يحدث شيء من هذا. وقد قيل إن السفن لم تنجح في اجتياز بحر مرمرة، بينما كان السلطان على العكس من ذلك يقوم بعبور البوسفور. وساعده أهل جنوا في جالاتا وبعض السفن من فينسيا في المهمة : ويبدو أن هذا ما يشير إليه أوجينيو الرابع في مرسوم كان يعلن عن المساعدة المقدمة من "المسيحيين الزائفين" للكفار.

وقد حدث الصدام بالقرب من مدينة فارنا، الواقعة على البحر الأسود، عند مصب البروفاديجا : وتعرض الصليبيون لهزيمة منكرة، كما في نيكوبولى. وكان الوحيد بينهم الذي كانت له قدرات عسكرية فعلية، وهو هونيادى، قد استبعده لاديسلاو غير الخبير وغير القادر، والذي دفع في نفس الوقت حياته ثمنا لتهوره. وقد سقط معه أيضا جوليانو تشيزاريني. وفكر القائد الفالاكي فلاد الثاني، المسمى بـ"الشيطان" (دراكول)، نظرا للتحول الذي أخذته الأحداث، في أن يحصل على ميزة لدى السلطان باعتراض واحتجاز زميله الترانسيلفانى ؛ وقد قيل إن منافقا آخر، وهو برانكوفيتش، قد أوقف سكاندر بك فمنعه من الإسراع بمساعدة الصليبيين. وكان الملك من جانبه قد أبقى نفسه خارج الصراع بهدف عدم إهداء السلطان الذريعة لكي يشن الهجوم النهائى ضد القسطنطينية. وكان قد أدرك الآن أن المسألة مجرد مسألة وقت : وكان يهدف لكسب بضعة أشهر أخرى.

واستفاد مراد من فترة الهدوء التي أعقبت الهزيمة الشاملة للجبهة المسيحية للتنازل عن العرش. ولكن ابنه الأمير الشاب محمد، أظهر منذ البداية أنه أخرق جدا حتى أنه أجبره على استعادة مقاليد الحكم بسرعة. وقد أوضح أهل فينسيا له ولوالده في نفس الوقت أنهم قاموا بما فيه الكفاية من الحملات الصليبية ؛ وكان السيد الجديد لإيطاليا الجنوبية وبالتالي للأدرياتيكى الجنوبي، ألفونسو داراجونا، يفضل حاليا تدعيم سلطته التي لا تزال مهتزة على ملك نابولي ؛ وبقى الصرب

والفالاكيون حلفاء ورعايا خونة، ولكنهم لن يحاولوا القيام بأعمال متهورة. وكـان سكاندر بك فقط وهونيادى، الذي أصبح وصيا على عرش المجر للصبي لاديسلاو بوستومو، مصممين على عدم الخضوع. وقد تـولى السلطان أمـر قـسطنطين بليولوجو بحملة عنيفة أجبرته في عام ١٤٤٦ على قبول التبعية .

العمامة الفارسية أم العربية

كان مقدرا لنيقولو الخامس - أي عالم الإنسانيات تومـازو بارنتوتـشيللى دى سارتسانا - الذي انتخب بابا في ٦ مارس ١٤٤٧ واعتمد في ١٩ مارس التـالي، ومات في ٢٤ مارس ١٤٥٥، أن يشهد من العتبة البابوية حدثين على نفس القـدر من الأهمية، ولكن كان لهما بلا شك ثقل مختلف في تاريخ الكنيسة والمسيحية في ذلك الوقت ؛ وكلاهما بالطبع مختلف في نوعه عن الآخر.

كان عزاؤه قبل كل شيء أن تمكن في ٩ أبريل ١٤٤٩ من إنهاء مـا يـسمى بـ"الانشقاق الأصغر" في الغرب بتنازل البابا الزائف فيليتشى الخامس بعـد مـا يقرب من عشر سنوات، والذي عاد ليصبح أميديو الثامن ملك سافويا. ولكن بعـد ذلك بأربع سنوات، في ٢٩ مايو من عام ١٤٥٣، اضطر لمواجهة الألم والخـزي لسقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين وبالتالي القضاء علـى مـا كـان يعتبر من جميع وجهات النظر وبالفعل الإمبراطوريـة الرومانيـة فـي جزئهـا الشرقي، كما تصورها منذ ما يزيد على ألف عام تقسيم تيودوزيو - مع الانقطاع المبهم و المؤقت على أي حال بين عامي ١٢٠٤ و١٢٦١.

وكانت المشكلات الكبرى لنيقولو الخامس، كما حدث مـع خليفتيـه كاليـستو الثالث وبيو الثاني، نهاية الإمبراطورية الشرقية التي صـاحبها اسـتمرار أزمـة الإمبراطورية الرومانية- الألمانية، والتقدم التركي : وبالتالي ضرورة القيام بحملة تؤكد عودة الوفاق بين المسيحيين - ومع الانشقاق كانت قد انطفأت أيضا حـرب المائة يوم - وتحدد توازنها المتجدد حول البابا الذي كان يبدو الآن الزعيم الوحيد للمسيحية والذي لا يزال يملك سلطة ومكانة لا جدال فيهما. بل إننا يمكن أن نقول أن الاستيلاء على القسطنطينية، على صعيد أهداف الحملة الصليبية والعلاقات بين المسيحية والعالم العثماني، قد افتتحت مرحلة انتهت فقط بعد ذلك بأحد عشر عاما،

بوفاة بيو الثاني ونهاية مشاريعه لاستعادة القسطنطينية والقدس نفسها، من المنظور النظري على الأقل. ومن ناحية أخرى، لم ينتظر بارنتوتشيللى بالطبع عام ١٤٥٣ لكي ينشغل بالخطر التركي : ولا كان في حاجة لسقوط القسطنطينية لكي يدرك أن النداء المتجدد للحملة الصليبية، وبالذات لأنه ينطلق في لحظة وفى موقف مؤلمين وعسيرين، لم يكن من الممكن أن يتوافق مع نداء قوى لمركزية البابوية في المجتمع المسيحي آنذاك، وبالتالي مع فرصة إضافية للتقدم بذلك البرنامج الملكي- البابوي الذي كان يميز البابوات منذ نهاية المجلس الكنسى في كوستانتسا فصاعدا والذي كانت الإتجاهات الكنسية داخل الكنيسة قد عارضته دون جدوى. ومرة أخرى كما حدث منذ الـ *Lateranense IV* في عام ١٢١٥، كانت الـ *causa unionis* والـ *causa reformationis* تظهران متحدتين بشدة مع الـ *negotium crucis* : وقد اعتبر هذا في النهاية حكما مسبقا لحل هاتين القضيتين. حتى أن الأولى منهما كان يبدو أنها حلت بعد حل جيب المقاومة الكنسية في بازل واستبعدت الثانية لأجل غير مسمى : مع عواقب غير واضحة في تلك اللحظة ولكنها ستعود بثقلها على المسيحية بداية من العشرين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر بصفة خاصة، وبقوة أشد بعد ذلك، كما هو معروف، في العشرين سنة الأولى من القرن السادس عشر.

وبصعوده للعتبة البابوية في عام ١٤٤٧، ورث نيكولو المشكلات الصليبية الواسعة التي كان سلفه أوجينيو الرابع قد واجهها ولكنه تجنبها أيضا جزئيا. وكانت الجبهة الصليبية شاسعة ومنوعة : فكانت تمتد من البلقان لبحر إيجه إلى اسبانيا إلى الشمال الشرقي من أوربا، وكان يقوم عليها البناء الدبلوماسي- المالي الهائل للعشور وبيع صكوك الغفران. وبالنسبة لقشتالة ، قام البابا في عام ١٤٤٨ بتخفيض حصة شراء صكوك الغفران إلى ثلاثة فلورين – وكان مارتينو الخامس قد حددها بثمانية وقام أوجينيو الرابع بخفضها إلى خمسة – ومنح الملك جوفانى الثاني حق الاستمتاع بالعوائد المتعلقة بتنظيم الحملة الصليبية ضد جرانادا ؛ وفى عام ١٤٥٣ منحه أيضا إدارة جمعية سانتياجو. وقد كان ينظر بتعاطف أيضا للغزوات الأفريقية والاستكشافات البرتغالية في الأطلنطي، مساويا بذلك بين الـ *dilatation fidei* والـ *defensio fidei* : وكان مرسوم *Romanus Pontifex*، الذي أصدره في ٨ يناير ١٤٥٤ يضفى المشروعية على الإمبراطورية البرتغالية الناشئة مؤكدا على مجد الأمير إنريكو "البحار". وبين عامي ١٤٤٨ و١٤٤٩ اهتم أيضا بالحملات الصليبية لبروسيا وليفونيا مع إجراءات متعلقة بمنح صكوك الغفران. وقد أظهر البابا اهتماما أيضا بضمان قمع الحركة الهوسية والهرطقة

بصفة عامة، كما نرى في التشجيع الذي لاقته مبادرات مثل تأسيس "جماعة الصليب" في بولونيا، في ١٤٥٠، على يد المحقق كورادو في ألمانيا.

ومع ذلك لم يكن نيكولو يظهر رغبة زائدة في استئناف العمليات العسكرية ضد العثمانيين : كان جرح فارنا لا يزال يؤلمه، على الرغم من أن الوصي على العرش في المجر جوفانى هونيادى، والألباني سكاندر بك وطاغية ميسترا قسطنطين باليولوجو كانوا عازمين تماما (على الرغم من أن الثاني كان يتظاهر بأنه مستسلم) على عدم الخضوع لنصر الكفار الذي كان يبدو آنذاك حتميا وكانت تراودهم أحلام الانتصار.

لم يكن هونيادى بصفة خاصة يريد الانتظار. وقد كتب بهذا المعنى للبلاط البابوي في سبتمبر ١٤٤٨، قبل أن يتقدم مهرولا من بلجراد عبر صربيا. وكان سكندر بك قد قرر الانضمام للعملية الجديدة، بعد أن أمّن نفسه باتفاق خاص بمساندة فينسيا. وكان البابا قد صاغ وعودا عامة، ولكنه لم يتحرك بصورة جادة؛ وفى مقابل ذلك، أمدّ الوصي على العرش المجرى بصكوك الغفران. واصطدمت القوات المجرية، المعززة بقوات ألبانية وفالاكية، بقوات السلطان مراد بين ١٧ و١٩ أكتوبر ١٤٤٨ في ذلك السهل في كوسوفو الذي كان ذات مرة، في ١٣٨٩، مميتا للصرب- المجريين.

وأكد اليوم التالي في كوسوفو الشهرة المشئومة التي كانت تلف ذلك المكان : فقد تعرضت سمعة هونيادى نفسها كخبير استراتيجي للخطر إلى الأبد، بعد أن دمرتها المدفعية العثمانية وسحقتها موجات الإنكشاريين.

وقبل ذلك ببضعة أيام، في ٣ أكتوبر، كان قد مات في نفس الوقت الملك جوفانى الثامن ؛ وبناء على تعليمات من السلطان نفسه، الذي كان يشعر الآن أن بيزنطة في قبضته، كان تاج الإمبراطورية البيزنطية قد انتقل ليوضع على جبهة ذلك القسطنطين طاغية ميسترا الذي كان يبدو أن درس فارنا قبل ذلك بأربع سنوات قد روضه تماما. ومن ناحية أخرى ليس من المستحيل أن مراد كان يفضل بقاءه في القسطنطينية - التي كانت آنذاك قفصا ذهبيا محاطا من جميع النواحي بالأراضي العثمانية - على أن يكون مطلق السراح في اليونان، حيث كان لا يزال يعتبره رجلا خطيرا. وبقى فقط ترويض اسكندر بك، المتحصن في قلعة كروجا الرائعة بين جبال ألبانيا الوعرة : وقد حاول السلطان في ١٤٥٠ اقتحام تلك القلعة المنيعة، ولكنه اضطر للانسحاب بعد خمسة أشهر من الحصار العقيم.

وقد أثارت بطولة سكندر بك موجة جديدة من الحماس بين المتعصبين الأوربيين في الحملة الصليبية : فقد سانده البابا ودوق بورجونيا وملك نابولي والوصي على عرش المجر بهدايا من المؤن والمال، بينما كانت هناك شخصيتان كبيرتان من العالم الكنسي في نفس ذلك العام – هما نيكولو دى كوزا وديوتيجى التشرتوزينو – تبدآن رحلة طويلة عبر الإمبراطورية الألمانية، ، وكان أحد أهدافها الأساسية الدعوة للصليب. وقد أثرت كلمة ديونيجى بصفة خاصة على فيليبو البوونو دوق بورجونيا، الذي كان يميل بالفعل لاعتناق القضية الصليبية بحماس. ولكن مؤيدا آخر للحرب ضد العثمانيين، وهو المبعوث الرسولي في ألمانيا إنيا سيلفيو بيكولوميني، كتب في ٢٥ نوفمبر ١٤٤٨ إلى البابا من فينر نويشتادت محذرا إياه من أن خلاف وأنانية الأمراء المسيحيين كانا يمهدان طريق الغزوات أمام التركي.

وفى ١٤٥١، بعد وفاة السلطان مراد، خلفه محمد الثاني : وهو شاب كان قد قدم برهانا باهتا عن نفسه عندما تولى حكم السلطنة لمدة عامين. وقد أحدثت الأزمة التي أثارها السلطان الكبير وشهرة الأمير الذي خلفه كشخص غير كفء موجة من الفرح : فكان عالم الدراسات الإنسانية فرنشيسكو فيليلفو يتصرف كخبير بالشئون الشرقية لوجوده لسنوات طويلة في بلاط الملك جوفاني ولزواجه من ابنة الكريزولورا، وأرسل إلى ملك فرنسا كارلو السابع رسالة يحثه فيها على أن يضع نفسه على رأس عملية جديدة ضد العثمانيين. وطبقا لما يقوله فيليلفو فإن السلطان الجديد كان صبيا محروما من الطاقة والقدرات السياسية والعسكرية : وأي حملة في الأناضول ستكون أشبه بنزهة عسكرية.

وكان الخطاب يعبر في الحقيقة، بصرف النظر عن النبرة المتملقة الصاخبة، عن الأمور البيزنطية والعثمانية بآراء خاطئة جدا تدفع الإنسان للتساؤل حول ما إذا كان الفيليلفو على غير وعي بها ؛ ولكن من المحتمل أكثر أن رأيه كان انعكاسا لأحكام مسبقة وأقوال شائعة حية جدا في الغرب، كان الفيليلفو يرددها تارة لجهله الموضوعي بحقيقة الأمور، ولرغبته في التأكيد على آراء شائعة مستمدا منها القوة تارة أخرى. وكان يقلل باستمرار من شأن الأخطار والمصاعب وتكاليف الحملة الصليبية، بينما كان يمجد ويبالغ في قيمة القوة البيزنطية التي لم يعد لها وجود ؛ أما فيما يتعلق بالسلطان، فإن الفيليلفو – الذي لم يأت بجديد مرة أخرى – كان يؤكد الرأي الشائع حول عدم أهليته .

ولا يستحق الأمر منا أن نأخذ مأخذ الجد تدريب فيليلفو في البلاط الملكي : خاصة أن ملك فرنسا في تلك اللحظة، كان لديه ما يفعله مع تصفية ما تبقى من

أراضى القارة التي لا تزال تحت سيطرة الإنجليز. ولكن كتابات مثل تلــك التــي كتبها عالم الدراسات الإنسانية تبين كيف أن الحملة الصليبية كانت تميــل لطــرح نفسها كثيرا جدا كموضوع بلاغي فوق كل شيء.

ولم يكن من الممكن أن ننتظر كثيرا، على الأقل في تلك الفترة، مــن نيكولــو الخامس، الذي اهتز من النكستين المتتاليتين في فارنا وفى كوسوفو وكان حــائرا باستمرار بين ما كان يشعر به بحكم واجبه كبابا والإمكانيات الموضوعية الهزيلة لتنظيم حملة موحدة للمسيحية، وهو ما كان سيتطلب كشرط مسبق اتفاقا داخليا في أوربا ووفرة في الإمكانيات المالية. وكان البابا يتحصن خلــف الــشرط المــسبق اللاتيني القديم الخاص بالاتحاد، الذي أعلن بالفعل فــي المجلــس الكنــسي فــي فلورنسا، ربما بقصد التمويه على تردده : ولم يكن من الممكن أن تكون الحملــة الصليبية سوى نتيجة فعلية لحل الانشقاق بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانيــة، وإلا فإن نتيجتها الوحيدة قد تكون تقوية عرش الإمبراطور المنشق. وهــو تفكيــر مخادع بصورة مكشوفة ولم يكن لجوهره المبتز إلا أن يضر بالقضية التي كــان يدّعى أنه يساندها : وكان يتزايد في القسطنطينية عدد أولئك الذين كانوا يعلنــون بصوت مرتفع أن العمامة العثمانية أفضل من العمامة البابوية. ومــع ذلــك فقــد تحرك البابا على سبيل المثال بمنح صكوك غفران خاصة للدفاع عن جزر البحر المتوسط المهددة من الأتراك : وهناك إجراء بهذا المعنــى، صــادر فــي ١٤٥١ لصالح أي أحد يدعم جزيرة قبرص، وربما يكــون المثــال الأول مــن صــكوك الغفران المطبوعة (فقد طبع بالفعل في ماجونزا في ١٤٥٤). وكان الملــك مــن جانبه يلح في نداءاته : وقام سفيره أنرونيكو ليونتاريس برينيو بزيارة فينــسيا أولا ثم روما بهدف محدد هو التفاوض على توحيد الكنيستين بشرط ألا تتأخر المعونة الغربية للإمبراطورية لأكثر من ذلك.

كانت بعض الخطط الواقعية للتدخل تراود ألفونسو المانيانيمو، ملك نــابولي : ولكن بصفة خاصة. وبحكم أنه كان ملكا لمملكة تمتد في البحر المتوسط، فقد كان الأراجونى الوريث الطبيعي للسياسة النورماندية والزفيفية والأنجوينية في القضايا الشرقية : وبالتالي فقد كان ينظر باهتمام لألبانيا التي كانت ستسمح له بالــسيطرة الكاملة على قناة أوترانتو التي كان قد نجح في أن يعين لها رسميا سيادة بــارزة ؛ وكان، مثل كارلو الأول دانجو، يحلم بوضع التاج الإمبراطوري للقسطنطينية فــي يوم من الأيام، وهو السبب الذي جعله يتفق مع ديمترى، شــقيق وخــصم الملــك قسطنطين. وفى يوليو ١٤٥١ أعلن ألفونسو عن استعداده لــ "شن حملة صــليبية

سيقودها هو بنفسه"[٢]: ولكن الاقتراح كان يخفي تقريبا نية تهديدية تجاه البابا لأنـــه بدلا من أن يوجه إليه، كان موجها لـــ "الكنيسة الـــنشطة "، بهدف بعيـــد مـــوال للغرب يتمشى مع هفوات الملك. ولكن على الرغم من الآفاق الواسعة فقـــد كـــان المخدوع واقعا في حبائل القضايا السياسية الإيطالية، ولم يكن يشعر بالأمان كثيرا على عرشه في نابولي، ولم يكن يمتلك أسطولا. حتى أن ترسانات نابولي خـــلال عام ١٤٥١ كانت تعمل على إعداد بعض السفن لإرسالها لمساعدة الملك.

وفي نفس الوقت، بدأ السلطان الشاب في تقديم المزيد من الأدلة على أنه ليس إطلاقا العاجز الأحمق كما كان يعتقد البعض. وسارع لتأكيد المعاهدات مع فينيسيا وعرض سلام مشرّف على هونيادي: وبهذه الطريقة، عندما بـــدأ فـــي تحـــصين المضايق في ربيع- صيف ١٤٥٢، وجد أهل فينـــسيا وجنـــوا – الـــذين كانـــت مصالحهم التجارية في القسطنطينية والبحر الأسود مهددة بصورة متماثلة من ذلك الإجراء – أنفسهم عاجزين عن الرد بطريقة موحدة لأنهم كانوا في صراع فيمـــا بينهم ولأنه (على الرغم من أن جنوا كانت أقرب ميلا للملك وفينسيا للسلطان بعد سلام ١٠ سبتمبر ١٤٥١) لم تكن أي من الاثنتين تنوى المخاطرة بإفساد العلاقات تماما مع هذا الجانب أو ذاك من المتخاصمين .

وبتحصين المضايق كان يمكن السيطرة على مرور السفن وبالتالي على حيـــاة القسطنطينية : وكان العمل بلا شك تمهيدا للأعمال الحربية التي وصـــلت بالفعـــل إلى نهاية صيف ١٤٥٢ للاستمرار في أكتوبر بهجوم على موريا، والذي اتـــضح بعد ذلك أنه مناورة تضليلية –مراوغة. وكان محمد قد انهمك، بمـــساعدة العمـــال المسيحيين المرتدّين، في صهر مدافع عملاقة : كان واضحا الآن أن لحظة الهجوم الحاسم على مدينة القرن الذهبي ستقع في غضون أسابيع.

وقد استبد بأوربا المسيحية آنذاك شعور متزايد بـــالخوف والتوهـــان. وتلقـــى الوطن الأم النداء الذى أطلق في تلك اللحظة من المستعمرين القادمين من جنـــوا والمقيمين في بيرا ونقله إلى من يعتبرهم حلفاءه الرئيسيين، ملك فرنسا وفلورنسا. وخلال رحلة فردريك الثالث إلى إيطاليا، في ربيع ١٤٥٢، دعا بيكولوميني إلـــى ضرورة الحملة الصليبية أمام البابا والإمبراطور في روما بينما فعل نفس الـــشيء في نابولي فلافيو بيوندو – الذي كان منفيا آنذاك من روما لأنه كان مغضوبا عليه مؤقتا من قبل البابا – أمام فردريك وألفونسو. وفى نفس الوقت، ســـيلح البيونـــدو على نفس الخط : ففي ١٤٥٣، عند عودته إلى روما، سيخصص لملـــك نـــابولي

---

[2] ر. فوبيني ، *Italia quattrocentesca* ، ميلانو ١٩٩٤ ، ص ١٩٧ .

المعاهدة الصغيرة *De expeditione in Turchos*.ولكن محمد الثاني أظهر أنه ليست لديه أية نية في تخفيف قبضته : بل تقع بين مارس وأغسطس من عام ١٤٥٢ مذبحة سكان إيبياتيون، التي ألهمت (ربما في سبتمبر) جورج دى تريبيسوندا لإلقاء خطبته *Pro defendenda Europa*، الموجهة للبابا بالذات. وفى ١٦ نوفمبر ١٤٥٢ كتب مجلس الشيوخ في فينسيا للبابا والكرادلة يحثهم على القيام بعمل أشد قوة.

ولم يكن البابا يخفى قلقه ولكنه كان يبدو على الرغم من ذلك صارما دائما بشأن نقطة واحدة : إن الوحدة الفعلية للكنيستين كان يجب أن تسبق الحملة الصليبية، وهو ما كان يعنى بالفعل أنها شرط لها. ولم يكن موقفه معزولا : فبين اليوطوبيا والذرائع الواقعية، كان مستشار توسون دورو، جان جيرمان، يسانده برسم حملة تركية كبيرة كان من المنتظر أن تشهد تسليح اليونانيين واللاتينيين وقد اتحدوا في كنيسة واحدة، وسيتحد معهم أيضا الإثيوبيون و"الراهب جانى" : الذي لم يعد يرى في نفسه أميرا آسيويا، بل حاكما لإثيوبيا.

في هذه المرة كان لابد من قبول الابتزاز الروماني : لم يكن هناك خيار آخر .و في ١٢ ديسمبر ١٤٥٢ جرى الاحتفال بصورة مهيبة بنهاية الانشقاق في سانتا صوفيا في وجود سانتا سابينا، أي إيزيدورو دى كييف، البطريرك اللاتيني في القسطنطينية الذي وصل خصيصا من روما. ولكن ذلك كان علاجا أسوأ للمرض: فعلى الرغم من أن عملية الاتحاد قد جرى التوقيع عليها مع تحفظ صريح بالمراجعة بمجرد ابتعاد الخطر العثماني فإن رهبانا يونانيين وجماهير من العاصمة نشروا الفوضى وهم يصيحون بأن الاتفاق الشرير سيثير غضب السماء .

كيف سقطت روما الجديدة

كانت القسطنطينية تعيش في الخلاف والترقب. وكان عصب دفاعها يتمثل فيما يقرب من ثلاثة آلاف من اللاتينيين، معظمهم من فينسيا وجنوا، وكان هناك من يشك في أنهم سيعملون في وفاق فيما بينهم. وكان السلطان من جانبه يمتلك "طابورا خامسا" رائعا في الحزب اليوناني المناوئ للإتحاد والذي يقوده جورج سكولاريس، وكان الكثيرون من المنتمين إليه مستعدين للتجسس، والتخريب

والخيانة. وبالتالي فقد حدث ما نعرفه، وكان لابد أن يحدث : في نهاية مايو دخل السلطان القسطنطينية، بينما سقط الملك الأخير وهو يدافع بضراوة عن مدينته.

وبدا أن الغرب قد أفاق فجأة من سبات طويل. وكان موت مدينة البوسفور "موتا معلنا". ولكننا إذا حكمنا من ردود الفعل الفورية لأوربا المسيحية، فإنه قد يقال إنه لا يمكن لأي أحد أن يكون قد اعتقد جديا بأن القسطنطينية كان يمكن أن تسقط : وقد قوبل سقوطها على أنه علامة رهيبة على نهاية الزمان، والدليل على أن التركي أصبح لا يقهر ولا يمكن إيقافه.

وعلى الرغم من أن التقدم العثماني في البلقان وفى بحر إيجه قد جعل الأوربيين يألفون حقيقة أن قارتهم – كما لم يحدث من قبل منذ القرن الحادي عشر، باستثناء شبه الجزيرة الأيبيرية – لم تعد محصنة من أن تطأها أقدام الكفار، كان بمناسبة سقوط روما الجديدة أن ارتبطت فكرة الحرب الصليبية ضد الكفار بفكرة الدفاع عن أوربا. وكان إنيا سيلفيو بيكولوميني واضحا للغاية : "في الماضي جرحنا في آسيا وفى أفريقيا، أي في بلاد أجنبية. ولكننا الآن نضرب في أوربا، في وطننا، وفى بيتنا. وسوف يعترض البعض بأن الأتراك في وقت من الأوقات انتقلوا من آسيا إلى اليونان، والمغول أنفسهم استقروا في أوربا واحتل العرب جزءا من أسبانيا بعد أن عبروا مضيق جبل طارق. ولكنهم لم يفقدوا أبدا مدينة أو مكانا يمكن أن يقارن بالقسطنطينية "*. وكان يؤكد على أوربا أيضا ملك بوهيميا جورجو دى بوديبرادى، الذي وصل إلى اقتراح نوع من مسودة الاتحاد السياسى بين الدول الأوربية، كان ينتظر أن تستخدم كقاعدة مؤسسية دائمة لتنظيم الكفاح ضد الأتراك. ولكن البوديبرادى كان مؤيدا لورثة هوس "الكاليكستينيين"، حتى وإن كان ذلك من موقف معتدل ومبهم في جوانب عديدة : وبعد ذلك بقليل، ستقوم البابوية بالدعوة ضده لنفس الحملة التي كان يود تنظيمها ضد الكفار.

وقد اجتاح القارة على أي حال سيل من الـ *excitatoria*، والنداءات ومشروعات الحملة الصليبية. وقد أعطى نيكولو الخامس، هذه المرة، إشارة بأنه يريد العمل جديا : فبعد أن علم بنبأ الكارثة – وكان مجلس الشيوخ في فينسيا قد أخبره بخطاب في ٢٩ يونيو – وبعد إبلاغه للقوى الإيطالية التي كانت تخوض الحرب على الخلافة في دوقية ميلانو، كان يرجوها عدم إقرار السلام على الفور لخلق جبهة مشتركة ضد الخطر البربري. وقد جاء النداء في موضعه : فعلى

* إ.س. بيكولوميني ، المذكور في ج.ديلومو، *La paura in Occidente (secoli* XIV - XVIII)، الترجمة الإيطالية ، تورينو ١٩٧٨، ص ٤٠٥ .

الرغم من أنه كان هناك مبرر للاعتقاد بأن سقوط القسطنطينية سيلحق الضرر بصفة خاصة بفينسيا – التي توخت الحذر منذ فترة مع ذلك بإقامة علاقات طيبة مع السلطان –، كان هناك من يتساءل الآن بقلق إلى أي مدى كانت أوربا كلها مهددة. وكانت مملكة نابولي بصفة خاصة تبدو معرضة ليس فقط للهجوم التركي، ولكن أيضا لهجوم الأمير التونسي (أبو عمر عثمان)، الذي كان يبدو من الواضح أنه تشجع بالاستيلاء التركي على القسطنطينية، وكان يغبر على السواحل المسيحية ليأخذ منها أسرى لتحويلهم إلى عبيد وكان يخطط لشن هجوم على صقلية.

ولكن ردود الأفعال على هذه المخاطر لم تكن تلك التي كان نيكولو يرجوها : فجنوا على سبيل المثال، لم تكن إطلاقا غاضبة من أن يخلق التونسيون مشكلات للأراجونيين، بل إنها بقراصنتها كانت تقوم بكل ما في وسعها لزيادة حدة هذه المشكلات، في حين أنها كانت مشغولة، مثل القسطنطينية، بإنقاذ ما يمكن إنقاذه. وقد سارعت بمطالبة السلطان بأن يحترم حي مستوطنيها في جالاتا وفي نفس الوقت تنازلت لبنك سان جورجو عن ممتلكاتها على البحر الميت ؛ على الرغم من أن حاكم ليزبو الجنوفيزى، جوفانى جوستينيانى لونجو، قد شارك على العكس من ذلك بالرجال والعتاد وكل ما يملك في الدفاع. وقد نحت فينسيا جانبا السياسة الفوسكارية في التوسع في الأراضي وعادت إلى الاهتمامات البحرية، ولكنها حاولت هي نفسها الاتفاق مع السلطان. أما فيما يتعلق بميلانو، فإن دوقها الجديد فرنشيسكو سفورتسا كان قد ابتهج لسقوط القسطنطينية، وهو ما كان ينطوي على مشكلات كثيرة لفينسيا. وهو لم يظهر هذا، ولكن بعض تصريحاته كانت شفافة: "de tucti questi mali sono vagione Venetiani, et speramo Dio gli ne darà la disciplina"*. كان من الواضح إذن أن السلام المتسرع لميلانو مع فينسيا لم يكن يتوقف على القلق من التحركات القادمة للعثمانيين بقدر القلق من المطالب التي كان يمكن أن يتقدم بها التاج الفرنسي – بعد انتهاء حرب المائة يوم – بشأن الدوقية بسبب القرابة بين آل فيسكونتي وآل أورليانز. وبالتالي فقد تضافر سقوط القسطنطينية ونهاية الحرب الفرنسية-الإنجليزية، ولكن ليس بصورة متماثلة، في إحداث سلام لودى وما يسمى بـ "سياسة التوازن" التي سادت بصورة غير كاملة الساحة الإيطالية في الأربعين سنة التالية. وفى معاهدات الرابطة الإيطالية، فرض ملك نابولي اعتبار الاتفاق صراحة مقدمة للعملية المشتركة القادمة التي سيتعين

* ج. بيستارينو ، *La politica sforzesca nel Mediterraneo orientale* ، فى مجموعة مؤلفين ، *Gli Sforza a Milano e in Lombardia e i loro rapporti con gli Stati italiani ed europei* (1450-1535)، ميلانو ١٩٨٢ ، ص ٣٤٣.

عليها أن تحرر إيطاليا والمسيحية من تهديد التركي، في حين أن أهل فينسيا وفلورنسا كانوا متفقين على التملص من المشكلة العثمانية. وجدير بالذكر أنه "في حين لا يظهر هدف الحملة الصليبية في الاتفاقية الأولى للرابطة الإيطالية، المبرمة بين الدول العلمانية، فإنه يشار إليه في مرسوم الانضمام للبابا"*.

كان البابا من جانبه مصمما تماما على التنفيذ الفعلي للحملة الصليبية : وقد كان يدفعه لذلك أيضا إلحاح مستشار الإمبراطور فردريك الثالث، إنيا بيكولو سيلفيو بيكولوميني أسقف سيينا الذي كان يؤكد أن سيده تلقى بدهشة وانفعال نبأ تدمير روما الجديدة وكان مستعدا لتحمل المسئولية السياسية والعسكرية على حد سواء في حملة كبيرة قادمة. وقد كتب أسقف ميتيليني ليوناردو دى كيو، الذي كان مثل إيزيدورو دى كييف شاهد عيان على سقوط القسطنطينية وكان جريحا وسجينا، كتب للبابا تقريرا شهيرا، هو الـ *De urbis Constantinopoleos iactura captivitateque*، كانت مسئوليات الحدث واضحة فيه، وكان يوضح أن كل طرف كان مسئولا : المتحزبون اليونانيون المناهضون للوحدة، والمسيحيون الغربيون الضعفاء والمنافقون الذين فكروا فقط في تجنب الخطر والاهتمام بشئونهم الخاصة وجوستينياني لونجو نفسه الذي كانت جمهورية جنوا قد كلفته بالدفاع.

وفى ٣٠ سبتمبر ١٤٥٣ أصدر نيكولو الخامس مرسوم الحملة الصليبية *Etsi Ecclesia Christi* وهى شهادة مقلقة لمظاهر القلق في تلك اللحظة. وكان الحديث فيها يعود للأمير العثماني على أنه صورة مبكرة للمسيح الدجال، والتنين الأحمر الكبير في سفر الرؤية، وقد كانت تعقب هذا بالطبع التوجيهات المعتادة بشأن صكوك الغفران، والعشور التي يتعين جمعها في كل المسيحية، والتهديد بالعزل والحظر لأي شخص ساعد الأتراك بأي طريقة.

وبدا أن النداء قد لقي القبول على الفور. وكان الإمبراطور يظهر إصراره على هدفه ؛ وكان دوق بورجونيا ينذر نذرا مهيبا بحمل الصليب، في أثناء احتفال جرى في مدينة ليل بروح عادات الفروسية، الـ *Voeux du Faisan* ؛ وكان ألفونسو ألمانيا نيمو يعبر عن مقاصد مماثلة، بينما كان يغمر اسكندر بك بالمديح والتكريم بتعيينه قائدا جنرالا لديه. ومن البلقان كانت تصل أنباء مشجعة : كان يبدو أن الصرب والمجريين والألبانيين يعترضون متحدين تقدم العثمانيين. وفى نفس الوقت، واصل البابا عادة كانت تميز البابوات من جريجوريو العاشر ومن المجلس الكنسي في مدينة ليون في ١٢٧٤، وكان يحث على عقد معاهدات وإقامة

* فوبينى، *Italia quattrocentesca*، المذكور، ص ١٩٧.

نصب تذكارية تستخدم لمعرفة الأتراك بصورة أفضل وفى نفس الوقت لدراسة واقتراح أنسب الطرق لتنظيم الحملة الصليبية الحاسمة القادمة.

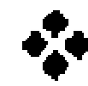
وفى الواقع، كان الأمراء المسيحيون ينظرون لبعضهم البعض شذرا ولم تكن لديهم أية نية لأن يلقوا بأنفسهم في عملية صليبية كان يمكن أن تشجع البعض منهم على حساب الآخرين. وكانت السياسة البلقانية للملك وصداقته لاسكندر بك تثيران قلق فينسيا، التي كانت تفضل تعويض شيء من الضرر الذي سيلحق بها من جراء ذلك بالتقارب أكثر فأكثر من السلطان، مع توخي كل الحذر في هذه الحالة : وكان الخطر يتهدد قناة أوترانتو والدخول والخروج بحرية من البحر الأدرياتيكى. وفى نفس الوقت بدأت الحمية الصليبية تفتر بالتدريج، بعد مرور المخاوف الأولى والحماس المرتبط بها، بينما كان يتزايد التذمر باستمرار بسبب الشدة التي كانت تستخدمها الكنيسة في جمع العشور. وفى أبريل من عام ١٤٥٤دعا الإمبراطور المجلس التشريعي للانعقاد في راتيسبونا، ودعا فيه دوق بورجونيا والولايات الإيطالية على حد سواء : ولكن الأول فقط حضر بينما هجرت الولايات الإيطالية – لأسباب مختلفة ومبررات عديدة – اجتماعا كانت تخشى أن تكره فيه على تولى بعض الالتزامات. ومن ناحية أخرى لم يكن فردريك الثالث نفسه مقتنعا كثيرا بأن الوقت مناسب لتعريض نفسه للخطر بصورة زائدة : ولم يظهر في راتيسبونا تاركا لبيكولومينى قيادة الأعمال. وحتى فيليبو دى بورجونيا الذي لا يجب أن نشك بالطبع في رغبته الصليبية ، لم يكن يشعر بالالتزام كما كان يود، حيث كان يخشى من بعض الهجمات العسكرية المفاجئة من قبل فرنسا، بعد أن تحررت الآن من التهديد الإنجليزي. وقد أدرك بيكولومينى مبكرا جدا أنه يصطدم بحائط مبنى في جانب منه من اللامبالاة، وفى جانب آخر من الإعاقة المتعمدة : وكانت خطاباته في هذه الفترة تتضح بالتشاؤم المرير، وخاصة خطاب شهير جدا في ٥ يوليو.

وقد انتهى مجلس تشريعى ثان، دعى للانعقاد في فرانكفورت في ٢٩ سبتمبر– وهو عيد رئيس الملائكة ميكائيل، حامي الصليبيين – بفشل مماثل : ولم يحضر الإمبراطور نفسه في تلك الحالة، مؤكدا تفويض بيكولومينى. وهناك مجلس ثالث عقد في فينر نويشتادت في فبراير من العام التالي، بعد سلسلة من المقدمات التي استخدمت كذريعة للإعلان عن نبأ وفاة نيكولو الخامس في نفس الوقت.

وقد كان تومازو بارنتوتشيللى من رجال المقاومة غير المتحمسين للحملة الصليبية قبل سقوط القسطنطينية، وكان مساندا متأخرا لها ولكن عن اقتناع بعد

المأساة، وقد أنهى حياته على الأرض باستنتاجه المرير بأن الأسـباب الـسياسية والدبلوماسية والاقتصادية كانت تجعل من المستحيل القيام بجهد متحـد ومـتلاحم للمسيحية ضد عدو رهيب، ولكنه ألح على أنه يمكن أن يكون مفيدا جدا كحليـف ظاهر وخفي في مباراة كانت تلعب داخل الساحة الأوربية. وهو درس ستـضعه جميع القوى المسيحية نصب أعينها في القرون الثلاثة التالية.

وتبدو *Testamentum* نيكولو، التي أدرجها جانوتسو مانيتى في كتابه *De vita et moribus Nicolai V summi pontificis*، محرجة وتبريرية فيما يتعلق بنقطة الـدفاع عن القسطنطينية، "in hac ipsa obiectarum rerum confutatione *". وفى رده علـى التوبيخات التي وجهت إليه والتي جرحته، كان البابا يرد بشجب التعاون الهزيـل الذي قدمه له الأمراء والولايات المسيحية وكذلك الاستسلام المخجـل والـسريع للمحاصرين، وقد لا نستطيع أن نعرف مدى صحة حكمه هذا. وفى الواقـع، لـم يكن بوسعهم على أي حال القيام بشيء آخر أكثر مما فعلوا. ولكن ربما لم يكـن بوسع البابا أيضا أن يفعل غير ذلك.



* راجع *La caduta di Costantinopoli. L'eco nel mondo*، روما-ميلانو ١٩٧٦، ص ص ١٤٢-١٤٩.

٩
أوربا عصر النهضة والأتراك

تماثل خط الطول

لم يكن لدى البابا الجديد، كاالليستو الثالث بورجا، النية في أن يترك ما بدأه سلفه ليبوء بالفشل : فقد تكثفت بالفعل الجهود لبناء أسطول يواجه على الأقل في البحر الهيمنة التركية. وبالفعل فإن بعض السفن، تحت قيادة لودوفيكو سكارامبو نجحت في إغاثة رودس – التي اجتاحها الأتراك في عام ١٤٥٥ – وطرد الحاميات العثمانية من ناسو وساموتراتشا وليمنو.

وعلى جبهة البلقان، كان التقدم التركي قد استؤنف في نفس الوقت : ففى عام ١٤٥٥ كان قد تم احتلال نوفو بردو، وهو مركز تعديني صربي جنوب شرق سهل كوسوفو. وسمح لعمال المناجم فقط بالبقاء، وهم في معظمهم من أصل سكسوني : ولم يكن الأتراك سيستطيعون دون ذلك استغلال أوردة الذهب والفضة في المنطقة (وكانت ترتسم بالفعل واحدة من نقاط الضعف التاريخية في الإمبراطورية العثمانية). وكان فقدان نوفو بردو عاملا آخر من عوامل القلق : كان من الواضح أن السلطان يتجه بالتدريج نحو بلجراد. وفى مواجهته، كان الكاردينال موفد البابا خوان دى كارفيال يمتلك فقط قوات غير نظامية يقودها العجوز المحنك خانوس هونديادى ، وتحركهم كلمة رجل مسن، هو الفرنشيسكانى جوفانى دا كابسترانو.

ولكن الأتراك لم ينجحوا في المهمة.وفى النصف الثاني من يوليو ١٤٥٦ قام السلطان – الذي هُزم أولا في معركة بحرية في الدانوب، وبعد ذلك في صدام على الأرض – برفع الحصار عن بلجراد وانسحب مع كل جيشه الجرار، وانكشاريه الرائعين المرعبين، ومدافعه الجميلة والجمع الغفير الذي لا نهاية له من المثقفين والفنيين والمهندسين وسباكي المعادن ورجال المدفعية المسيحيين

الذين كانوا قد انضموا له تعطشا للكسب أو المغامرة من ألمانيا والبوسة والمجر ودالماتسيا وإيطاليا.

وكان يبدو أن بلجراد قد أعتقت القسطنطينية. ومن الألم لسقوط المدينة انبثقت لحظة سلام على البوسفور لكل أوربا : وكان يبدو واضحا الآن أن شبه الجزيرة البلقانية ستتحدد فيها مصائر القارة المسيحية التي كانت حصنها الأمامي .

ومع ذلك ظلت اللحظة خطيرة. كان السلطان يطأ بأقدامه تربة موريا، التي كان طغاتها قد رفضوا دفع الجزية : وفى أوائل أغسطس تلقى مفاتيح استسلام كورينتو ؛ وفى نهاية الشهر دخل أثينا التي قام بغزوها مثيرا ألما عميقا عند أنصار الحركة الإنسانية الذين كانوا ينظرون لمدينة أتيكا على أنها وطنهم الروحي ؛ ولكن جزيرة نجروبونتى في فينسيا استقبلته ضيفا وصديقا، بينما كانت جمهورية راجوزا نفسها ترسل له فروض الولاء. وكان الابن الثاني لهونيادى، المراهق ماتيا كورفينو، هو الذي تجاسر وحده على تحديه علانية ونازعه صربيا.

وقام نصير الحركة الإنسانية إنيا سيلفيو بيكولوميني، الذي أصبح في عام ١٤٥٨ بابا باسم بيو الثاني، في خريف ١٤٥٩ بالدعوة في مانتوفا لعقد مؤتمر للقوى المسيحية لمناقشة توقعات حملة صليبية جديدة شاملة. ولكن الأمور كان يبدو أنها تتدهور. كان السلطان قد انتزع من عائلة كومنينى إمبراطورية تريبيسوندا وكل الشريط الساحلى الجنوبى للبحر الميت. وفى إيطاليا كان هناك من يهمس بأن سيد ريمينى سيجيسموندو باندولفو مالاتستا، كان يريد، من خلال البابا، أن يستدعى السيد الكبير إلى شبه الجزيرة وأن يقدم له خدماته كقائد : ومن يدرى أنه كان هناك شيء من الحقيقة (على الأقل، كان هناك نوع من تبادل الأخبار بين الاثنين، وكلاهما يهوى الفن والآلات العجيبة). وعندما سقطت ليزبو في عام ١٤٦١ في أيدي الأتراك، شارك الفلورنسيون في جالاتا في ابتهاج ما أصبحت آنذاك اسطنبول بإشعال نيران الفرحة.

وفى نفس الوقت، كان بيو الثاني يعد لرأى ربما لم يكن هو ولا معاصروه، في البداية، يدركون نتائجه. كانت أوربا بالفعل مقر – *patria e domus* – المسيحية، وكانت متطابقة مع الـ *Christiana religio* وفى نفس الوقت كان يمكن اعتبار أي أوربي مسيحيا: *"Europaei, aut qui nominee christiano censentur*، وكان هذا ما صرح به إنيا سيلفيو في المقدمة لـ *Historia de Europa*.

ولكن الألاعيب المزدوجة وتحفظات الأمراء المسيحيين أساءت لذلك. وبعد أن امتلأ بالاحتقار المرير، كتب في نهاية أكتوبر من عام ١٤٦١ تلك الوثيقة المحيرة

حقا، التي هي *Epistola ad Mahometem* : كان السلطان – كما كان يقــول فيهــا – أكبر من الملوك المسيحيين بلا حدود، ولذا كان يحق له أن يطمح لخلافة الأباطرة الرومانيين. ولو أن قسطنطين الثاني قبل التعميد، لوضع سيلفسترو الثاني، البابــا، تاج العالم على رأسه. وتبرهن العناصر الخلافية والجدلية الموجودة في الخطاب، والتي تكرر أحكاما مسبقة متعلقة بالإسلام، على أن الخطاب لم يرسل في الواقــع لمحمد الثاني : الذي ربما استطاع أن يقرأه مع ذلك، لأنه طبعت منه أيضا طبعات عديدة منذ عام ١٤٦٩. وهو يعتبر صورة من الـــ *epistolae excitatoriae* التــي كانت تنتشر من القرن الحادي عشر في أوربا داعية للحملة الــصليبية : ولكنهــا كانت *exitatoria* لاذعة ومتناقضة، وكانــت تــذكر الأمــراء المــسيحيين بــتهكم بصَغارهم وجبنهم. وتكتسب الدعوة الفاضحة الموجهة من بيو الثاني للسلطان بعد فشل الدايت في مانتوفا الذي دعي للانعقاد في مانتوفا فــي ١٤٥٩ لــشن حملــة صليبية كبيرة، قيمة درامية في دلالتها : إن تحول عن دينه ستكون أوربــا كلهــا ملكه، وسيكون هو قسطنطين الجديد عليها. كانت هذه صفعة رهيبة علــى وجــه الحكام باسم المسيح، ووصمة لا تمحى لكرامتهم. ولكن سخرية نــصير الحركــة الإنسانية التي أصبحت أشد فظاظة بعد استياء البابا واحتقــار المقاتــل المــسيحي القديم لم تفلح في التأثير على المسيحية. وقد ابتدع البابا حركة جديدة تقترب مــن حد الجنون والابتزاز المعنوى، وأسر بها خفية في مارس من عام ١٤٦٢ لبــضع كاردينالات كان واثقا منهم. وسيعلم العالم وهو في ذهــول، أنـــه نفــسه، البابــا العجوز، سيقوم بما كان يقال إن جريجوريو السابع وأوربانوس الثاني كانا يــودان عمله : سيرحل شخصيا للقيام بعملية صليبية. ولم يكن من الممكن أن تتركه أوربا المسيحية وحده : فكان لابد أن تتبعه بالضرورة مدججة بالسلاح.

وفى ١٨ يونيو من عام ١٤٦٤، وبعد وضع الصليب، اتجه "إنيا الورع" نحــو ميناء أنكونا حيث كان يتعين تجمع الأسطول المسيحي : ولكن كان هنــاك فقــط الجمهور المعتاد من الــهائمين على وجوههم. وقد أدى تفشي وباء عنيــف بــين يوليو وأغسطس إلى وفاة الكثيرين من المواطنين والصليبيين الطامحين. وأبحــر دوق فينسيا، الذي وعد بمشاركته المباشرة، فقط في أوائل أغسطس. وبعد إبحــاره ببطء، وصل إلى ميناء أنكونا في ١٢ من أغسطس : بالكاد في الوقــت المناســب لكي يريح بمشهد سفنه البابا الذي سيغلق عينيه بعد ذلك بثلاثة أيام.

كان يبدو أن خليفتيه باولو الثاني وسيستو الرابع على استعداد لمواصلة العمل: ولكن العثمانيين استمروا في تحقيق المزيد من التقدم. وفى ١٤٦٩ كانوا يقومــون بغارات على سوريا وكارينتسيا وكارنيولا ؛ وفى ١٤٧٠ احتلوا نجروبونتى. وقد

أثار خبر سقوط الجزيرة حيرة جديدة في المسيحية. كانت النجوم غيـر هادئـة : ففى عام ١٤٧٣ ظهر مذنب وانهمك فرنشيسكو دا ميليتو في التشاور المحموم مع المثقفين اليهود ؛ في حين كان لورنتسو بونينكـونترى فـي قـصيدته *De rebus coelestibus* المكتوبة بين عامي ١٤٧٢ و١٤٧٥، يتساءل حول اقتـران جـوبيتر بزحل .

وبعد أن أصبحوا الآن سادة البلقان الجنوبية حيث كان الإسلام قد بدأ في مـد جذوره – في البوسنة على سبيل المثال، بداية من الستينيات –، واصل الأتـراك في نفس الوقت غاراتهم : ففي عام ١٤٧٢ وبعد ذلك أيضا بـين عـامي ١٤٧٧ و ١٤٧٩ وصلوا إلى فريولى. ولم يكن يبدو أن احتلال فينـسيا لقبـرص، فـي ديسمبر ١٤٧٤، قد أزعج السلطان كثيرا ؛ وقـد تغاضـى أيـضا دوق ميلانـو جالياتسو ماريا – الذي كانت له علاقات دبلوماسية طيبة مع اسطنبول، كما يتضح من الـ *Diari* التي كتبها تشيكو سيمونيتا – عن قضية حقوق جنوا على الجزيـرة التي كان يبدو في البداية أنه يريد مساندة المطالبة بها. ومن ناحية أخرى، سقطت كافا أيضا في أيدي الأتراك في ٦ يونيو ١٤٧٥ : وهذه ضربة جديدة غير متوقعة لجنوا وميلانو وكل الغرب. وإذا كان سان ماركو يبكى، فإن سان جورجو لم يكن يضحك. ولكن جنوا كانت تواسى نفسها بالسعي مباشرة لكي تستعيد فـي أفريقيـا الشمالية تلك المساحة التي فقدتها في الشرق دون رجعة، من الناحية التجاريـة : وتواصلت العلاقات المزدهرة مع إمارة تونس، التي تضمنها المساندة الدبلوماسية والسياسية للودوفيكو المورو على الرغم من العديد من حوادث العنـف التـي لا يمكن تجنبها.

ولم يغير سلام ١٤٧٩ بين السلطان وفينسيا شيئا تقريبا في الاقتـصاد العـام للعلاقات بين المسيحيين الغربيين والمسلمين. وقد أرسلت جمهورية الأسـد إلـى البوسفور الرسام الرسمي للدوج جنتيلي بيلليني، حتى يرسم السيد الكبير الذي كان إيمانه الديني، من الناحية الفكرية، يحظر رسم الـصورة البـشرية : وقـد كافـأ السلطان الفنان بالعرفان بالجميل. وهذه الصورة الشهيرة، التي ترجـع إلـى ٢٥ نوفمبر ١٤٨٥ – وكان السيد الكبير، في ذلك العهد، قد دفن منذ أربـع سـنوات ونصف – توجد اليوم في المتحف القومي في لندن.

كان عام ١٤٨٠ عاما آخر من الخوف الشديد. ففى شهر مارس في جنوا بشر الدومينيكانى أنيو دا فيتربو – وكان اسمه الحقيقي جوفانى نانى – بنهايـة العـالم وفى كتابه *De futuris christianorum triumphis in saracenos*، المعروف أكثر باسـم *Glosa super Apocalypsim*، ربط بين المسيح الدجال، وبعض الالتقـاءات النجميـة

والتقدم التركي. وفى الـــ *Glosa*، المنشورة في ديسمبر من ذلك العام ليس تحـــت اسم أنيو ولكن باتيستا كانالى الـــكرملي ، كان البعض يتصور أن النبي (صـــلعم) يرتبط بشخصية غامضة في سفر الرؤيا، وهو المسيح الدجال، وكان البعض يؤكد في نهاية الأمر أنه السقوط النهائي للإمبراطورية التركية سيصبح ضروريا.

وفى ١٤٨٠ ظهر أيضا تنبوء *De eversione Europae* الموجه لماتيـــا كورفينـــو من أنطونيو أركواتو، حيث كانت تمس موضوعات مماثلة. وفـــى مـــايو هـــاجم الأتراك في نفس الوقت جزيرة رودس من جديد ؛ وبين يوليـــو-وأغـــسطس قـــام أسطول إسلامي بالهجوم على مدينة أوترانتو في إقليم بوليا، وأخـــضعها للنهـــب وقتل جانبا من السكان بعد أن وضعهم عند مفترق الطرق بين اعتنـــاق الإســـلام والموت. وكان هذا كثيرا حقا: وكان التأثر في إيطاليا بأسرها هائلا. وأنشئت على استعجال رابطة كانت تتضمن علاوة على البابا وملـــك نـــابولي ملكـــا مجريـــا وفلورنسا نفسها، التي تصالحت في تلك المناسبة مع البابا منهية بذلك الحادثة التي بدأت بمؤامرة المجانين والحرب التي أعقبتها. كانت إيطاليا مفزوعـــة ومتـــأثرة : وفى عامي ١٤٨٢ وفى ١٤٨٤ حدث ظهوران للسيدة مريم العذراء في توســـكانا وفى Bibbona in Maremma وفى براتو بالقرب من فلورنسا، أحدثا حركـــة شـــعبية قوية ؛ واعتقد البعض أيضا أن بعض المشاهد الكبيرة المرسومة – مثل "استشهاد القديسين الأبرياء" – شهدت تواصلا قويا بعد عام ١٤٨٠ لأنها مـــستلهمة بالـــذات من أحداث أوترانتو. وأخيرا، وفى عام ١٤٨٤ المصيري تنجيميا أيضا حدث فـــي شوارع روما الاجتياز الغامض لـــ "النبي" ميركوريو دا كوريجو علـــى صـــهوة جواده، وكان يدعو للتوبة العامة ويعلن عن *Renovatio* قادم.

ولكن تظل هناك ظلال كثيرة حول "أحداث أوترانتو" : مـــاذا كـــان الموقـــف الحقيقي لفلورنسا وفينسيا اللتين كانت إحداهما مهتمة بخلق صـــعوبة أمـــام البابـــا والأخرى أمام ملك نابولي؟ ألم يكن غريبا أن مدينة تنتمي للعدو التاريخي لأهـــل فينسيا تهاجم من قبل الأتراك بالذات في العام التالي لعام السلام بين فينسيا والباب العالي؟ هل كان الهجوم على أوترانتو "هجوما بالوكالة"؟ وهل كان حقـــا شـــجاعة وحشية لأحمد باشا، قائد الأسطول؟ إن أوترانتو كان يمكـــن أن تـــصبح نقطـــة ارتكاز لمقاطعة في أرض أجنبية في إقليم بوليا، ولو استمر هذا الوضـــع لكـــان معنى هذا السيطرة العثمانية على القناة بين الأدرياتيكى وجونيو. ومن أوترانتو قام الأتراك طوال سيطرتهم عليها بغارات على بريندیزی وتـــارانتو وليتـــشى. وقـــد علمنا أن أندريا جريتى، الـــ"بايلو" الفينسيانى في القـــسطنطينية، كلـــف بإخبـــار السلطان كيف أن حكومته كانت تعتقد أن بوسعه بحق الاستيلاء على بوليا، وهـــو

إقليم كان ينتمي في وقت من الأوقات لإمبراطورية بيزنطة التي كان هو سـيدها الآن. وهذه من أولى الشهادات على رأى قدر له أن يتطور في القـرن التـالي : فبعد احتلاله لأراضى الإمبراطورية الرومانية الشرقية، كان يمكـن للـسلطان أن يُعتبر – ويَعتبر نفسه – وريثا شرعيا لها.

وقد أدى موت محمد الثاني في مايو من عام ١٤٨١ والخلافات على الخلافـة بين الابنين *Djem* و*Bajazet* إلى تخفيف الضغط قليلا على أي حـال.واسـتطاعت أوترانتو أن تتحرر وأعادت فينسيا، مع سلام ٧ أغسطس من عام ١٤٨٤، للملـك فرديناندو ملك نابولي مراكز نابولي التي احتلت في نفس الوقت. ولم يمنع السلام دعاية فينسيا، التي كانت تقدم الجمهورية على أنها فارسة الحملة الصليبية، من أن تقلب تقريبا في الثقافة الإيطالية الجنوبية : فبالنسبة لكتاب ودارسي المملكة، كانت فينسيا – وخاصة بعد أحداث أوترانتو – الشريك الـمراوغ للتركي فـي تـصور كان يمكن أن يندرج فيه حتى الاحتلال العثماني لشبه الجزيرة الإيطالية.

وفي عام ١٤٨٤ كان من المتوقع حدوث انقلابات تنجيمية كبيرة. ومع ذلك لم يظهر، في تلك اللحظة، أن التحركات المخيفة للأتراك تحمل مـستجدات فعليـة. وكان نشاط *Bajazet* يتركز في الصراع على خلافة الأب : فقـد سـارع بالقيـام باتصالات دبلوماسية مع فرسان رودس لكي يضمن أنهم يحرسون جيـدا شـقيقه *Djem*، الذي لجأ إليهم بعد أن هزم في المعركة. وقد مر الأمير العثماني التعـيس عبر سلسلة من الرحلات عبر فرنسا وإيطاليا من أيدي الفرسان إلى ايـدى البابـا إنوتشنتسو الثامن وأخيرا لأيدي كارلو الثامن ملك فرنسا، ، الذي عبر إيطاليا فـي عام ١٤٩٤ مسبوقا ومصحوبا بسحابة من النبوءات بعد أن رفع من جديـد العلـم الصليبي : وقد طلب كل الحراس اللامعين من السلطان بـالطبع مكافـأة عاليـة للاستضافة التي قدموها للشقيق، الذي مات على أي حال في نابولي في ظـروف غامضة. وأثار *Djem*– الذي بقيت لنا منه لوحة بنتوريكيو، الذي ترك لنا صـورة له، محبوسة في فخامتها وكآبتها – كثيرا خيال المعاصـرين والأخبـار المتعلقـة بالعلاقات الدبلوماسية أو التجارية. وبدأ الفضول للعادات التركية يفتح الباب لمـا سيصبح فيما بعد جماليات الأشياء الغريبة.

وقد حرر موت *Djem* السلطان من ضرورة انتهاج مـسلك حـذر : ففـسدت علاقاته مع أهل فينسيا على الفور، لأن الجمهورية كانت قد نجحت أيضا في عام ١٤٨٩ في أن تحل محل آخر ملكة لقبرص، كاترينا كورنارو، وكانت تدير أيضا ناسو. وكان احتلال قبرص من جانب فينسيا، من ناحية أخرى، حركـة إجباريـة كانت تحل على الأقل في تلك اللحظة، ما يشبه لعبة خطيرة للكانتونات الأربعـة.

وكانت كورنارو، أرملة جاكومو الثاني دى لوزينيانو، على وشك الزواج من أحد أبناء ملك نابولي : وهو ما سيعنى نقل الجزيرة إلى منطقة "الإمبراطورية البحـــر أوسطية" الكاتالونية – الأراجونية، التي ستتوسع حتى بحر الشرق مع حكم مسبق شديد بالنسبة للممتلكات والمصالح البحرية لفينسيا. ومن ناحية أخرى، كان البـــاب العالي ينظر أيضا لاسطنبول : فكان سلطان مصر يحتاج لتجارة "ســفن الــشرق" القادمة من فينسيا إلى دمياط والإسكندرية، وعلى الرغم من أنــه كــان يتظــاهر بالتكشير أمام علم سان ماركو الذي كان يرفرف على الجزيرة القريبة جــدا مــن سواحله، فإنه كان يفضل كثيرا في الواقع أن تكون جارة له الجمهوريــة الكــافرة على زميله العثماني الذي يدين بنفس الدين. وقد سويت الأمور من خلال البعثــة الدبلوماسية في القاهرة برئاسة الخبير بيترو دييدو، البالغ من العمر ســتين عامــا والتأكيد على دفع الجزية السنوية البالغة ٨٠٠٠ دوكاتية والتي كان آل لورينيــانو يدفعونها للسلطان من أجل قبرص.

وبعد ذلك بعدة أعوام، في عام ١٤٩٩، قامت حملة عثمانية سريعة بزحزحــة فينسيا عن موريا بينما كان المغيرون الأتراك يقومون بغــاراتهم بــين تريــستى ولوبيانا وفى شهر سبتمبر وصلوا حتى فيتشنتسا. لم يكن الأتراك يــضربون أبــدا بمحض الصدفة. ولم تكن وحشيتهم نفسها تنفيسا وحشيا إطلاقــا، ولكــن تكتيكــا تهديديا دقيقا ومحسوبا. وكما أدرك ذلك جيدا السناتور دومينيكو مــاليبيرو فــي كتابه *Annali veneti* ، لم يكن الهدف الحقيقي من هجماتهم هو النهب والمذابح أبداء ولكن التحقق من آراء سياسية أو مخططات تكتيكية–استراتيجية. كان الأمر يتعلق بتخويف وإضعاف فينسيا واستغلال الخصومات بين المسيحيين في نفس الوقــت. وبالفعل فإن نداء خجولا جديدا للحرب الصليبية سقط في الفــراغ : وفــى نفــس الوقت كان السلطان يتفاوض مع بولندا، التي كانت على وشك خوض الحرب ضد فينسيا. وفى غاراتهم، كان الأتراك يتبعون مسارا قديما، مستخدما قبل ذلك بقرون وبأمانة تقريبا عند القوطيين اللونجوبارديين والمجريين. ومن خــلال المــضايق الجبلية في جوريتسيا والكارسو والتشيفيداليزى، كان من السهل الانتشار عبر سهل الفريولى. وفى النهاية حصل الأتراك العثمانيون على ما كانوا يريدونــه : ســلام بين عامي ١٥٠٢ و ١٥٠٣ كان يسمح لفينسيا بالإبقاء على الجزر الأيونية زانتى وتشيفالونيا، في مقابل التخلي عن مطالبها بشأن دوراتسو وموانئ موريا.

وفى نفس الوقت كانت فينسيا تواجه آنذاك مشكلات أخــرى تمامــا : تحــول الطرق التجارية التي تسيطر عليها الذي يرجع لاكتشاف العــالم الجديــد وفــتح الطريق البرتغالي للهند، وهما حدثان أفقراها بالتدريج. وفى هذا كان لها زميل في

هذا الحظ العاثر : سلطان مصر، حيث كانت التوابل التي كانت تغـزو الأسـواق الأوربية والقادمة من تلك البرتغالية أرخص كثيرا من التي كانـت تـصل إلـى الأسكندرية ودمياط.

ولكن بينما كان العثمانيون يحققون الانتصارات في البلقان وفى بحر إيجه كان يكتمل الفصل الأخير من وجود الأندلس. كانت شبه الجزيرة الأيبيرية قد تـأثرت بصورة مميزة بالأزمة الاجتماعية والاقتصادية والروحية والدينية فـي منتـصف القرن الرابع عشر. وكانت سلسلة لا تنتهي مـن الحـروب العائليـة والخيانـات والهجمات العسكرية والهجمات المفاجئة قد أحدثت في النهاية في الممالك الأيبيرية المسيحية إنهاكا وجد حلا في ١٩ أكتوبر ١٤٦٩ بالزواج بين إيزابيلا ملكة قشتالة وفرديناندو ملك أراجونا، ومجيء الملكين في السنوات العشر التاليـة لعرشـيهما اللذين بقيا مع ذلك منفصلين، مؤقتا.

ولكن، بقدر ما كان هذا يخلق الظروف المواتية لعودة السلام، كانت تتقدم فـي نفس الوقت أيضا عملية تفكيك التعايش الأيبيري القديم بين المؤمنين في الـديانات الثلاث التي نشأت من سلالة إبراهيم. وكانت العلاقات بين المسيحيين والمـسلمين واليهود تتدهور بالتدريج خلال القرن الرابع عشر. وكانت شبه الجزيرة الأيبيريـة لا تزال تعتبر في ذلك العهد ملاذا آمنا للجاليات اليهودية التي طردت من فرنـسا ومن إنجلترا : وكان ملوك قشتالة قد رفضوا قبول مرسوم المجلس اللاتيراني في ١٢١٥ والذي حدد العجلة الصفراء كعلامة للتعرف على اليهود ؛ وكانت تطلـق كلمة *francos* تقريبا لتعريف أولئك اللاجئين الذين كانوا يتدفقون من جبال البرانس أو من موانئ البحر المتوسط، بعد أن اضطهدوا وطردوا من أوربا التـي كانـت تتهمهم بإقراض المال بأسعار باهظة، وتسميم الآبار لنشر الجذام والطاعون، وقتل الأطفال المسيحيين وخلط دمائهم بالخبز غير المختمر في عيد الفـصح، وسـرقة وتدنيس القرابين المقدسة. وكان التعايش يسمح بالخلاف الحر : كما حدث في عام ١٢٦٣، عندما حدث في برشلونة في حضور الملك جاكومو الأول ملك أراجونـا خلاف بين المسيحيين واليهود كافأ الملك في نهايته الحاخامـات لأنهـم دافعـوا بشجاعة عن قضيتهم، وفى السبت التالي حضر القـداس الـديني فـي المعبـد اليهودى.

ولكن تدفق اليهود إلى أسبانيا والبرتغال كان قد أدى للتغلغل الحـزين هنـاك أيضا لجذور نبتة الاضطهاد السيئة. ووضعت اللافتـة الـصفراء أيـضا هنـاك بالتدريج وبدأت المذابح بداية من الـ *navarreria* في بامبلونـا فـي عـام ١٢٧٧. وأدت الحرب الأهلية إلى تدهور الأمور : وفى العشرين عاما بين القرنين الرابـع

والخامس عشر بدأت السلسلة القاتلة من أعمال العنف وحملات التبشير التي كان بطلها شخصية بارزة أيضا في جوانب عديدة، وهو الدومنيكانى فينتشنتسو فيرير. وفى ١٤١٢، في قشتالة ، كان هناك مرسوم ملكي يفرض على اليهود والمسلمين الإقامة في أحياء منفصلة : وقامت أراجونا بتقليد هذا الإجراء في ١٤١٥. وهكذا بدأت، في نفس الوقت، أيضا مشكلة الـ *converses*، الـ *cristianos nuevos* الذين أصبحوا دائما أكثر عددا لأن المسلمين واليهود كانوا يواجهون صعوبة في مقاومة الضغط المزدوج المتمثل في عمليات الاضطهاد والتبشير، ولكنهم في نفس الوقت كان ينظر إليهم باحتقار وريبة من قبل الـ *cristianos viejos* المتغطرسين بدمائهم النقية.

أما المسلمون الأيبيريون، الـ *mudéjares* (وهى كلمة تشير إلى المسلم "المقيم- المواطن" في الأرض الأسبانية) فقد عوملوا بصورة أفضل عموما من اليهود. وتركوا في سلام لممارسة حرفهم كنجارين وبنائين وترزية – وكانوا هم صناع الملابس "على الطريقة الموريسكية" الموضة في أسبانيا القرن الرابع عشر–، وكبستانيين وبائعي خضروات وفاكهة. وكانوا أقل ثراء ونفوذا وإقداما من اليهود : ولهذا أيضا كانوا أقل عرضة للاضطهاد. وعلى الرغم من هذا، فسرعان ما أظهروا هم أيضا نفاذ صبرهم : وفى عام ١٢٧٦، في بلنسيه، بعد ثورة للمسلمين، أصدر جاكومو الأول مرسوما بطردهم و تحول فيما بعد إلى مصادرة ممتلكاتهم. وزادت الثورات وعلامات الاستياء في القرنين التاليين. وفى نفس الوقت، اختفت شيئا فشيئا علامات التكنولوجيا الزراعية وافرة النماء في أسبانيا المسلمة : فقد كانت الأرستقراطية الحربية المسيحية، السيدة الجديدة للأرض، تفرض تربية الأبقار والأغنام بصفة خاصة الأكثر ربحية على الفور والتي ستحول الجانب الأكبر من شبه الجزيرة إلى صحراء في بضع سنين.

وفى ١٤٨٠ أدخل الملوك الكاثوليك في أسبانيا محكمة تفتيش كان البابا يصرح لهم باختيار القضاة لها. وكان يبدو أن هدف المجتمع الأسباني الجديد هو "التطهر" من غير المسيحيين وتكريم من كان مسيحيا منذ أمد بعيد ولهذا فإنه يستحق أن يشعر بأنه حر من أي مشاغل مادية. وأصبح امتلاك الأرض، ووظائف الكنيسة والإدارة الملكية، ومهنة الأسلحة منذ ذلك الحين الوظائف الوحيدة الجديرة لمن كانت تجرى في عروقه دماء نقية وإيمان قوى. وستصبح الـ *cruzada*، التي كانت في نفس الوقت فكرة – قوة وشكلا من أشكال الضغط الضريبى، العمود الفقري الأخلاقي للمجتمع الأسباني طوال القرن السادس عشر.

وفي ١٥٠٢، اختار جميع الـ *mudéjares* في أسبانيا التحول عن دينهم بالجملة: ولكن المسيحيين الأيبيريين المتكبرين لم يكونوا يثقون في أولئك الموريسكيين، المتهمين بالبقاء مسلمين في قرارة أنفسهم، كما بقى الـ *marranos* يهودا. ولم ينتظر المسلمون واليهود الذين كانوا يودون البقاء على دينهم الطرد وركبوا السفن متجهين إلى أفريقيا الشمالية أو أقاليم الإمبراطورية العثمانية. وترك كثير من اليهود – الذين يطلق عليهم "السيفارديم" تحديدا – وطنهم *Sefard* (أسبانيا) الذي يحبونه للغاية للذهاب أيضا إلى إيطاليا. وأينما حلوا، حملوا إلى البلدان التي استقبلتهم الكنوز التي لا مثيل لها من ثقافتهم وذكائهم، وروحهم المقدامة : وفقدت أسبانيا بطردهم ميراثا تركها فقيرة إلى غير رجعة. فالانحدار الاقتصادي لشبه الجزيرة الأيبيرية يبدأ بالفعل من هنا، حتى قبل النتائج المدمرة بالنسبة لها لوصول الفضة من العالم الجديد و"ثورة الأسعار".

وفي نفس الوقت، كان قد اكتمل القضاء على الأندلس. وبعد السيطرة الرائعة للأمير محمد الأول، مؤسس العائلة النزارية *nazride* في غرناطة وقصر الهامبرا، كان تاريخ حكم تلك العائلة سلسلة طويلة من الثورات، والانقلابات والمبادارت التحريضية. وفي أليمريا وملقه، كان هناك أمراء انفصاليون يساندهم أهل قشتالة والمغرب يهددون أمن الإمارة الغرناطية، حيث قلبت العائلة الالنزارية *nazride* في عام ١٤٥٣ على أيدي المغامر مولاي سعد، في ١٤٦٠ بعد أن أقاله ابنه مولاي أبو الحسن الذي كان قد بدأ مرحلة جديدة من العداء، بعد انتهاء الهدنة الواحدة بعد الألف مع أهل أراجونا وقشتالة. وقام المسلمون بغزو مدينة الزهراء والمسيحيون بغزو الحماه : وهكذا بدأ ما يعرف الآن بـ "حرب غرناطة". ولكن عائلة الأمير كانت مقسمة : من ناحية كان هناك أبو الحسن وشقيقه زغال، ومن الناحية الأخرى أبو محمد (الـ"بوعبدل" في الوقائع المسيحية)، الابن الأكبر لأبي الحسن والمتمرد على الأب. وقد سار الصراع بصورة وحشية ومعقدة في نفس الوقت : كان المسلمون يتقاتلون فيما بينهم، متنازعين على عاصمتهم الرائعة، بينما كان زاغال يبعد المسيحيين أيضا بشجاعة.

كان فرديناندو على أي حال مصمما على إنهاء الموقف. وكان هناك قائد عسكري جديد شجاع يشق طريقه : كونسالفو دى كوردوبا، *el Gran Capitán*. كان الملك سيستو الرابع قد بعث لملك أراجونا، رهانا للنصر، صليبا فضيا رائعا استخدمه الصليبيون كراية. وبعد سقوط آخر القلاع الحصينة، ومن بينها ملقه، ألقى زاغال السلاح وفي أوائل عام ١٤٩٠ قام بتسريح قواته. وكان بوعبدل قد

وعد بالتنازل عن غرناطة للمسيحيين عندما استسلم عمه أيضا : ولكنه عند هــذا الحد رفض الخضوع وأخذ على عاتقه عبء قيادة المقاومة الإسلامية الأخيرة.

وجنوب غرناطة، كان أهل قشتالة وأراجونا قد جمعوا جيشا أراده الــبعض أن يبلغ ٨٠٠٠٠ رجل : وكانت إيزابيلا وفرديناندو وكونسالفو يقــودون الحــصار. وكان المعسكر المسيحي مدينة مترامية الأطراف من الخيام : وأطلق عليها اســم سنتا فيه. وقد انهزم المسلمون من الجوع خلال الــشتاء القــارس فــي المدينــة المحاصرة بالجبال المغطاة بالجليد. وتم الاستسلام – الذي تفاوض عليه الــ *Gran Capitán* مباشرة باللغة العربية، وهى اللغة التي كان يعرفها – في ٢ ينــاير مــن عام ١٤٩٢، ولكن الملوك الكاثوليك انتظروا عيد الغطاس لاقتحام أسوار المدينة. وجرت احتفالات وأفراح وعروض فنية ومواكب بهذه المناسبة في جميع أنحــاء أوربا.

كان للاستيلاء على غرناطة صدى غير عادى في كل العالم المسيحي : فقــد احتفل فيها تقريبا بانتقام كبير لهزيمة القسطنطينية قبل ذلك بتسعة وثلاثين عامــا. وفى مارس من عام ١٤٩٤، أنشد الناس قصيدة ألفها سانادزارو خصيصا لـــ *La presa di Granada*، في القلعة الكابوانية في نابولى، في أثناء احتفال أراده ألفونــسو دوق كالابريا.

ولكن الحدود الجنوبية الغربية القصوى للحملة الصليبية رسمها البرتغــاليون، الذين قاموا في عام ١٤١٥ بنهب مدينة *Ceuta* وفى عام ١٤٧١ – بعــد هزيمــة إنريكو البحّار ضد نفس المدينة في عام ١٤٣٧، في حملة باركها البابــا إوجينيــو الرابع – يقومون بغزو طنجة. كانت الحملة الصليبية قد مدت جذورها بعمق فــي الثقافة البرتغالية. وفى عام ١٤٢٠ كان إنريكو (الذي سمى فيما بعد بــ "البحــار") قد أصبح معلما كبيرا في طائفة المسيح التي "أسسها الملوك البرتغــاليون بهــدف قتال واضطهاد السراسنة، أعداء صليب المسيح والكفار الآخرين والــدفاع عــن المسيحيين ضد اعتداءاتهم"[٣]، كما كان يقول مرسوم التعيين الصادر عن مــارتينو الخامس.

كان بوسع البرتغاليين مواصلة غزو المغرب، لو لم ينجذبوا للجهد المتجه الآن لمواصلة الاستكشاف البحري للساحل الغربي لأفريقيا : وسيتم الإبحار حول رأس

---

[3] *La caduta di Costantinopoli. L'eco nel mondo*، روما-ميلانو ١٩٧٦، ص ٩٩؛ راجع أيضا ب. إ. راسل، *Portugal , Spain and the African Atlantic 1343-1490. Chivalry and Crusade from John of Gaunt to Henry the Navigator*، ألدرشوت ١٩٩٥.

الرجاء الصالح في عام ١٤٨٨. وكان التحالف مع "الراهب جانى الأفريقـــي"، أي *Negus* إثيوبيا الذي كان يقال أنه يسيطر على قناطر النيل وكان بمقدوره أن يغرق مصر أو يصيبها بالجفاف كما يحلو له، رهنا لحملة صليبية جديدة ضـــد ســـلطان القاهرة. وكان بحر إيجه والبلقان بعيدين عن لشبونة وألجارفى : حيث لم يـــدرك البعض حتى الآن أن الخطر الإسلامي كان مختلفا تماما عـــن خطـــر المماليـــك واستمر التفكير في ضرب السلطان النيلي الذي لم يعد يمثل منذ عقود طويلة – إن كان يمثل على الإطلاق – تهديدا على المسيحية.

"Teucri et Turci"

أهل طروادة والأتراك

كانت حروب المسلمين الأخيرة في أسبانيا قد تمت تحت راية الـــ *cruzada*، التي تحولت أكثر بكثير من الحرب الصليبية إلى حرب دفاعية أوربية ضد التوسع العثماني، وأعادت إلى الأذهان سمات الفروسية في بطولات القرون الوسطى التي كانت تمتد من شبه الجزيرة الأيبيرية حتى ســـوريا. وتعـــيش روايـــة الفروســـية الأسبانية في هذا المناخ، الذي يكون فيه الخصم الكافر كريما وشهما أسوة بالبطل المسيحي ومن الحرب تولد الصداقة والاحترام. ولكن "الولع" بمسلمي الأندلس من الناحية الأخلاقية والجمالية – وهو أحد مكونات النزعة لحـــب الأشـــياء الغريبـــة والرومانتيكية – كان مصحوبا بجوانب أخرى، وأبعاد أخرى للمشكلة الصليبية في ذلك الوقت. وكان "التركي" و"الكافر" و"السراسينى" يدخلون فـــي أعيـــاد الـــبلاط والشارع في عصر النهضة الأوربية ومن خلالها إلى الفلكلـــور .و كـــان مـــسلم الأندلس بعاداته الثرية ومظاهرة الرهيبة الخصم للعديد من الـــ *pas d'armes, pasos honrosos*، "مسابقات الإنشاء"، وهى عروض مسرحية حقيقية كان الصدام المسلح فيها يشبه المشهد الرئيسي. وفى ألعاب الرماية أيضا كان "السراسينى" هو الهـــدف الذي كانت توجه إليه رماح المتنافسين. وهكذا كان عدو الصليب، الـــذي أصـــبح يشار إليه أيضا على أنه عدو أوربا، يحتل بطبيعـــة الحـــال أيـــضا أدوار العـــدو الميتافيزيقي والعدو في اللعب : وأصبح وجوده أيضا في الخيال الجماعي جاثمـــا ومألوفا في نفس الوقت.

ومن ناحية أخرى إذا كان "مسلمو الأنـدلس" و"الـسراسنة" مـألوفين تقريبـا للأوربيين وإذا كان أيضا للتتار وللمماليك بصورة أو بأخرى صورة محددة نسبيا، فإن الأتراك ظلوا يمثلون لغزا. وقد كان ذلك الاسم يجوب أوربا منذ نهاية القـرن الحادي عشر، عندما وصلت أنباء مبهمة عن السلاجقة : وكان أوربانوس الثاني، في كليرمونت، قد وصفهم (بحق، في نفس الوقـت) – حـسبما نـستخلص مـن الشهادات غير المؤكدة لتلك الواقعة – بأنهم أناس قادمون من تركيا. وكان الفارس الإيطالي الروماني المجهول الذي ألف في بدايات القرن الثـاني عـشر الوقـائع المعروفة تحت عنوان *Gesta Francorum* قد بدأ بذكر شجاعتهم في المعركة ليطرح الرأي القائل بأنهم ينحدرون مع الفرنسيين والرومان من أصل واحد يرجع لأهـل طروادة القدامى: وهو ما سيضعهم فـي مواجهـة مـع الـ *graeculi* الخونـة، والبيزنطيين الجبناء الغدارين. وقد استخلص الفارس المجهول أن حالتهم المتدنيـة فقط هي التي كانت تعيق الأتراك من أن يكونوا شعبا عظيما : وهو استنتاج سبق استنتاج بيو الثاني في الـ *Lettera a Maometto*.

ولكن احتمال ارتباط التركي بصورة ما بأهل "بيو التقى" كـان يثيـر اسـتياء العديد من أتباع الحركة الإنسانية، ، الذين كانوا يجدون مبررا لمزيد من الرعـب إزاء البرابرة الكفار لمجرد أنهم كانوا أعداء لليونـانيين فـي بيزنطـة وبالتـالي خصوما للثقافة الإغريقية. ولم يكن من الممكن أن يقترب ناهبو القسطنطينية مـن أهل طروادة الشجعان والنبلاء ، ولكن ربما من البربرية الـ *scitica* أي بربريـة المغيرين القدماء المتوحشين الذين تتحدث عنهم المـصادر القديمـة فـي رعـب واشمئزاز. ومن الـ *sciti*، انتقل ذوق وتعليم أتباع الحركة الإنسانية على الفور – وبصورة طبيعية – إلى الشعب القاسي بامتياز في العصر القـديم، إلـى العـدو الرئيسي لليونان وروما : إلى أولئك الفرس الذين أشار إليهم أوربـانوس الثـاني بإصبع الاتهام بصورة ما. وكان بتراركا نفسه، في أغنية *O aspettata in ciel beata e bella* ، قد أقام علاقة مباشرة بين الحملة الصليبية في عصره وحروب الإغريق القدماء ضد الفرس. وبهذه الطريقة، أعيد الصدام بين المسيحيين والكفار إلى بعـد آخر لم يكن يمحو معناه الديني، ولكنه كان يمجده بتقريبه مـن معـان أخـرى : الصراع بين أوربا وآسيا، طبقا لرؤية هيرودوت وإسـخيلوس للفـرس، كرؤيـة تتنازعها الحضارة والبربرية. وباستخدام صفحة لهيرودوت، اجتهد إنيـا سـيلفيو بيكولوميني بالفعل في إثبات أن الأتراك ينحدرون من الـ *sciti*. وبهذه الطريقـة وضعت بالتدريج معادلة بين قيم أوربا والمسيحية والحضارة من ناحية، تواجههـا آسيا والوثنية والبربرية من الناحية الأخرى. ولا يعني هذا أن الناس نسيت بهـذا الجدل المناهض للمسلمين، أو بالتحديد المناهض للقرآن، كمـا تثبـت الكتابـات

الخلافية للعصر – التي تدين على نطاق واسع لبيترو الفينيرابيلــي وريكولــدو دا مونتى كروتشى –، مثل الـــ *Cribratio Alchorani* لـــ نيكولو دى كوزا والـــ *Contra principales errores perfidi Machometi* لـــ خوان دى توركويمادا، والتي ألفت علـــى التوالى في عامي ١٤٦٠ و١٤٦١ وقبل ذلك بعام، في ١٤٥٩، واســتخدمها بيــو الثانى.

لم يكن *Nikolaus Chrypffs* المولود في ١٤٠١ في كيوز على نهر موزيللا فـــي إقليم الألزاس، والذي نعرفه نحن الإيطاليون باسم نيقولو كوزانو، مواليا للمسلمين بالطبع ولا مواليا للأتراك. ومنذ ١٤٣٢، أثناء اجتماع لزعماء الكنيسة المـــسيحية الغربية عقد في بازل – بينما كان آخرون من أنصار الحركة الإنسانية يتجمعون في الأديرة في كل أوربا بحثا عن القوانين اللاتينية والإغريقية المحفوظـــة فيهـــا ولتأسيس نهضة الـــ *humanae litterae* –، وقعت في يده وثيقة تتـــضمن الروايـــة اللاتينية للقرآن لروبرتو كيتون، وهى نتيجة ثمينة للعمل الترجمى الكبير الذي بدأ في طليطلة قبل ذلك بثلاثة قرون تقريبا. وفيما بعد، عندما كان ممثلا للبابـــا فـــي القسطنطينية عشية سقوط المدينـــة فـــي أيـــدي الأتـــراك، كلـــف الـــدومنيكانيين والفرنشيسكان بتقديم ترجمات جديدة للكتاب.

وبعد أن أصبح كاردينالا في ١٤٤٨، وأسقفا لبريسانونى مـــن ١٤٥٠، كـــان الكوزانو مبشرا متحمسا ومنظما لحملة الصحوة التـــي كـــان يجـــب أن تنتـــزع القسطنطينية من العثمانيين وهو ما لم يحدث أبدا في الواقع، علـــى الـــرغم مـــن الإعلان عن ذلك أكثر من مرة. ولكن في خـــط مـــواز لحملـــة الـــسلاح، كـــان الكاردينال نيكولو يفكر بالتزام كبير في تلك الأفكار : فرواية للقرآن، تنشر بـــين المسيحيين فكرة أكثر دقة عن كم السخافات والتناقضات التي كانت تميزه – طبقـــا للتأويل الغربي غير المنصف في ذلك الوقت –، بدت الطريقة المثلـــى لخـــوض المعركة الفكرية لمساندة المعركة العسكرية. وبالتالي فإن هذا الشروق للدراســـات الإسلامية في الغرب لم يكن ثقافيا ولا دينيا ولكـــن تقـــديريا وخلافيـــا بـــصورة صارمة.

ولخدمة أهدافه بصورة أفضل، لم يكن الكاردينال بحاجة لباحث محترم بقـــدر حاجته لشخصية فوق أي انتقاد محتمل : وقد وجده في واحد من أكثـــر الرجـــال ورعا في عصره، وهو الناسك ديونيجى دى رايكل الذي نعرفه جميعا أكثر باســـم "ديونيجى التشرتوزينو" (١٤٠٢-١٤٧١)، الذي كان يرى أن الخطر التركي يعود بقوة.

ويعود الفضل إلى ديونيجي في الكتاب الذي كان على شكل حوار *Contra Alchoranum et sectam machometicam*، وأصبح اليوم في الحقيقة أفيد لمعرفة الأحكام المسبقة الغربية في القرن الخامس عشر ضد الإسلام أكثر من مجرد الاقتراب جديا من جوهر الثقافة الإسلامية. وعلى الرغم من استلهامه ترجمة روبرتو كيتون، كان ديونيجي يشطب أو يخفى بانتظام تلك الفقرات التي كان التقارب فيها بين الإسلام والمسيحية أكثر وضوحا، وفى هذا واصل بأمانة طريقة ريكولدو دا مونتي كروتشى التي لاقت اعتراضا كبيرا.

وقد ساعدت المادة التي جمعت على هذا النحو كوزانو نفسه على أي حال في كتابة كتاب آخر، وهو الـ *Cribratio Alchorani* ("تحقيق القرآن")، وكان موجها في نية المؤلف بصورة خاصة لمن أراد الشروع في عملية التحول عن دينه من المسلمين. وقد أهدى الكاردينال الكتاب لصديق كبير له، هو إنيا سيلفيو بيكولوميني، الذي أصبح في نفس الوقت البابا بيو الثاني، الذي سيستخدمه في تلك الوثيقة الغامضة المكتوبة في ١٤٦١ وهي الـ *Epistola ad Mahometem*.

الإسلام والإصلاح

الأتراك كتهديد، إذن. وكان ديونيجي التشرتوزينو قد سأل متألما خلال زيارة نسكية قائلا : "سيدي، هل سيأتي الأتراك إلى روما؟". وبعد ذلك ببضع سنوات سأل ماكيافيللي بخبث على لسان أحد شخصيات كتابه *Mandragola*، قائلا : "هل تعتقدون أنتم أن التركي سيمر هذا العام من إيطاليا؟ ". بين هذين السؤالين، حيث يظهر أيضا الألم المشترك ويعبر عنه بنبرات وظروف مختلفة جدا فيما بينها، يكمن الخوف الكبير الذي أمسك بتلابيب أوربا بين النصف الثاني من القرن الخامس عشر والعقود الأولى من القرن السادس عشر ؛ ولكن يكمن أيضا مفتاح تجاوز هذا الخوف والسيطرة عليه بصورة ما، وترويضه وإزالة تأثيره. إلى أي مدى، بالفعل، كان يمكن أن يفهم تقدم التركي على أنه علامة على نهاية الزمن؟ وما هو الدور الذي كان يجب أن يلعبه الوحي داخل الاقتصاد؟ الإجابات كانت تبدو متعددة : فقد تضافرت فيها السياسة والثيولوجيا والنبوة والتنجيم في حوار محتدم فيما بينها.

وفى نفس العام الذي سقطت فيه القسطنطينية فريسة للسلطان، وكان نيكولو دى كوزا – الذي كان أيضا متحمسا متقدا للحملة الصليبية – قد كتب واحدا من أروع أعماله : الـ *De pace fidei* ، حيث كان يظهر الأتراك والكفار الآخرين على أنهم الـ *gentiles* المرشحين للتحول النهائي عن الدين، بدلا من أن يكونوا مسلحين بالمسيح الدجال.

ولم يجد الدور السلبى للأتراك أيضا مجالا داخل نبوة سافونارولا. ولم يكن الراهب جيرولامو يقترح حملات صليبية، ولم يكن يعتبر أن الكفار يستحقون العقاب، بل إنه كان يعتقد أن تحولهم القادم ربما تزامن مع عقاب الـ "المسيحيين الزائفين". وقد كان يعلم مدى إخلاص المسلمين للمسيح وكان يتقبل القول القائل بأن العدالة قائمة بين الأتراك. وبينما كان الخصم الصاخب لراهب فيرارا، أنجيلو دافاللومبروزا ، ينذر بمذابح هائلة للكفار ، كان سافونارولا يؤكد على التحول عن الديانة كعلامة ستصاحب تجديد الكنيسة.

كانت ضرورة الوفاق بين المسيحيين كشرط للكفاح ضد الكفار – وكذلك حتمية الكفاح ضد الكفار، الذي كانت وحدة المسيحيين شرطا ضروريا له – موضوعا أعرب البابا ليونى العاشر دائما عن حساسيته الشديدة تجاهه. وقد أكد على هذا في الـ *Libellus الذي* كتبه، بين مايو وأغسطس من عام ١٥١٣، في روما باولو جوستينيانى وبيترو كويرينى الكمالدوليان – وهما ناسكان ملتزمان تابعان لسان ميكيلى دى مورانو – اللذان قدما للبابا الأسباب التي لم يكن من الممكن على أساسها تأجيل الـ *reformatio* المنتظر منذ قرون طويلة لأكثر من ذلك، وأوضحا ماذا يجب عمله للصراعات بين الإخوة في المسيح إذا كان المسلمون قد حققوا الكثير من التقدم في غزواتهم في العقود الأخيرة. ومن ناحية أخرى، لم يكن هناك بروتوكول ديبلوماسى ولا إعلان رسمي للقوى المسيحية – وخاصة عندما كان البعض منها يتحد ضد أخرى، كما حدث في كامبراى في ١٠ ديسمبر ١٥٠٨ بالتحالف بين الإمبراطورية وأسبانيا وفرنسا والبابا ضد فينسيا – يؤكد على ضرورة وقف الـ *immanissimi* أو الـ *truculentissimi*، أو الـ *perfidi* الأتراك : ربما لكي يلقوا على الخصم آنذاك مسئولية الخيارات التي ظهرت على أنها أعمال مقصودة وموضوعية من التواطؤ تجاه الكفار.

وفى عشية الإصلاح القلقة، كان التركي يستعد للعب دور محوري ولكنه غامض على طريقته. ومن كان المسئول عن نجاحاته، إن لم يكن المسيحيون أنفسهم، *peccatis exigentibus*؟ ولكن هل كانت ذنوب المرتدين أم شرور الكنيسة، هل كانت عيوب المؤمنين أم رذائل الإدارة البابوية والأساقفة الفاسدين هي التي

جلبت على المسيحية غضب الله؟ والكفار، الذين كانوا بلا شك تعبيرا ومظهرا لذلك الغضب، هل كان يتعين اعتبارهم رسلا للمسيح الدجال أم أدوات للعقاب الإلهي؟ وهل كان قتالهم ضروريا، ومفيدا، ومشروعا على أقصى تقدير؟

كان إرازمو دا روتردام في الـ *Encomion Morias* قد وضع الحرب، حتى الحرب ضد الكفار، في عداد الأعمال المجنونة. وفى الـ *Querela pacis*، التي كتبت في ١٥١٧، عندما كانت الآمال لا تزال حية في تجنب الصدام المباشر بين فرنسا وآل أسبورجو يأسى السلام على الكوارث التي يوقعها الإنسان بنفسه في جنون : أليس من المخجل أن يتقاتل المسيحيون الأشقاء وأن ينظروا بعد ذلك بفزع للأتراك على أنهم "أعداء المسيح"، كما لو كانوا يتصرفون بطريقة أفضل منهم؟ يقال إن الكفار يضحون من أجل الشياطين : ولكن مسيحيا يقتل مسيحيا آخر ألا يقوم ربما بنفس الشيء؟ من المؤكد أن التركي خطر : ولكنه لهذا بالذات شاهد على جنون المسيحيين، الذين يتحاربون فيما بينهم على الرغم من المخاطر التي تحيط بهم ؛ بل إنه غالبا ما ينظر إلى الاتفاقيات التي يبرمها المسيحيون مع الأتراك أنفسهم.

ولا يعنى هذا أن إرازمو كان يعبر عن رأيه من ناحية أخرى بصورة مطلقة ضد الحملة الصليبية : بل إنه كان يعتبرها على أي حال شرا أصغر بالقياس إلى الحرب بين المسيحيين وكان تقديره أن الاقتتال بين الإخوة في المسيح كان أشد جنونا وذنبا بقدر ما كان يساعد التركي.

وفى خطاب كتب من بازل إلى باولو فولتز في ١٨ أغسطس من عام ١٥١٨، وهو تمهيد لطبعة بازل من الـ *Enchiridion militis christiani*، كان إرازمو يؤكد أن السلام فقط هو الذي يمكن أن يكون مقدمة قوية للسلام : وبالتالي فإنه كان من غير المجدي ومن العبث الأمل في الإعداد له بشن الحرب. وفى تعليق عن الإعلان البابوي على مشروع جديد لحملة صليبية في ١٥١٧، سيعود، في خطابات العامين التاليين، أكثر من مرة، إلى المفهوم القائل بأن الطريقة الوحيدة المؤكدة للمسيحيين لهزيمة الأتراك ستكون اتباع المسيح بصدق. وكانت إدانة خيلاء الحرب ضد الكفار على أي حال أشد بين *Adagia* إرازمو، الـ *Dulce bellum inexpertis* : لأن أسبابها في هذا النص بالذات كانت تلقى فهما واضحا. ومع ذلك، كما يقول إرازمو معلقا، فإن الأمر سيكون سيئا حقا بالنسبة للمسيحيين، إذا كانت قضيتهم تتوقف على الاستعدادات للحرب على الكافر. ولا يمكن حتى لعنف الآخرين أن يكون ذريعة لعنفنا. ولا يعنى هذا أننا لا يجب أن ندافع عن أنفسنا من

المسلمين، إذا هاجموا : ولكن لا يمكن للإنسان أن يتخلى عن دينه، ولابد أن يتصرف أيضا في الحرب بروح مسيحية.

ومع الإصلاح الديني سيظهر أيضا بين المسيحيين الرفض الدرامي الذي كان قد شق طريقه عشية سقوط القسطنطينية بين المسيحيين اليونانيين : هل الأفضل العمامة التركية أم العمامة الرومانية. ومن ناحية أخرى، فإن الاتهام التقليدي لرجال القانون وأعضاء محاكم التفتيش، الذين كانوا يرون أن المهرطقين والمنشقين "أسوأ من الكفار"، كان يُرد عليه من الجانب البروتستانتي بأن البابا وأتباعه أسوأ وأخطر من الأتراك ؛ ولوقت طويل سيتقاذف الكاثوليك والبروتستانت الاتهام بأنهم حلفاء للكفار، ولكن مع التأكيد على أن التحالف معهم سيكون على أي حال أفضل من التحالف مع المسيحيين على الجانب الآخر. والحقيقة هي أن لوثر كتب ضد المسلمين؛ ولكن الحقيقة أيضا هي أن الإصلاح الديني كان يطرح الحملة الصليبية للمناقشة ، ليس بانتقاد أهدافها، بقدر الاحتجاج في الأساس على نظام الأعشار والنذور والغفران الذي يشترى بالمال والذي كان يقوم عليه الـ *negotium crucis* على الأقل من منتصف القرن الثالث عشر، أي منذ أن اتضح الحق في الحملة الصليبية بفضل رجال القانون أمثال إنريكو دى سوزا أو سينيبالدو فيسكى.

وقد حكم البابا على الفور على بداية الإصلاح، في نفس الوقت، على أنه أمر يجبرنا على أي حال على تأجيل مشروع وحدة المسيحيين ضد الأتراك. وبهذا المعنى كتب البابا، في مايو ١٥١٨، للأمير فيدريكو الساجّو أمير سكسونيا وبعد ذلك بعامين، أرسل للأمير نسخة من المرسوم البابوي *Exsurge Domine*، مؤكدا على المفهوم القائل بأن تمرد لوثر كان يشجع العثمانيين .

وقد كانت هناك في نفس الوقت أسباب موضوعية تجعل هذه المخاوف معقولة. وكان حقيقيا بلا شك أن لوثر، في ذكره لمبدأ الانتقام الإلهي، أشار عدة مرات إلى الأتراك على أنهم أداة العقاب الإلهي ضد البابويين : وهو ما شجبه ليونى العاشر في مرسوم ١٥٢٠ وأكده المصلح مرات عديدة من جانبه بكلمات تتسم بالتحدي الصريح، مؤكدا أنه لا يجب السير ضد الكفار، ولا الإسهام بالمال في الحرب ضدهم، لأنهم يظهرون حكمة أكثر بكثير من المبادئ الكاثوليكية. وبما أن مجلس مدينة سبيرا قرر أن الدعاية الإصلاحية يجب أن تكون محدودة بقدر المستطاع، فقد رد لوثر، بعد ذلك ببضعة أشهر، في سبتمبر، معلنا حياد من كان قد انضم لاحتجاجه حتى في ظروف درامية مثل الحصار التركي لفيينا. حتى كان إرازمو، في الـ *Epistola ai fratelli della Germania inferiore*، يشهد بأن الجنود

اللوثريين كانو يصيحون قائلين بأن " التركي غير المعمد" (السلطان) أفضل من "التركي المعمد" (الإمبراطور) وأن الجيش الإمبراطوري الذي تجمع في هولندا شوهدت فيه أعلام مزدانة بالهلال وعملية *Plutost Turcs que Papaux*.

مثل هذه الأحداث تبرر نشأة موضوع جديد، في خط مواز للأزمة، في المنطقة الكاثوليكية : وهو الموضوع المتعلق بـ "أوجه التشابه" بين المسيحية البروتستانتية والإسلام. كان البروتستانت يردون بتوجيه الاتهام : ويستأنفون رأيا كان لجون وايكليف، الذي كان يؤكد بين عامي ١٣٧٨ و١٣٨٤ – في وقت كان فيه الخطر الإسلامي يبدو في الحقيقة شيئا من الماضي – على اللا أخلاقية والفساد اللذين كانا يجعلان الكنيسة التي يتزعمها البابا والإسلام متشابهين في رأيه؛ ولذا فإن التجديد الأخلاقي للكنيسة – كما كان يستطرد مؤيدو الإصلاح – أكثر إلحاحا من الناحية الموضوعية من مكافحة الإسلام، التي كانت ستكسب تلقائيا ودون حاجة للأسلحة إن استطاع المسيحيون، بعد أن يصبحوا الأفضل، أن يقدموا للمسلمين العرض النموذجي لفضيلتهم. بهذه الطريقة وبهذه الموضوعات أدخل الإصلاح والحركة المضادة للإصلاح في الحملة الصليبية عناصر جديدة من التمييز والتعقيد، مثل الـ *defensio Europae* ومثل *defensio Christianitatis* .

وفى منطقة لوثر، كان ينتشر في نفس الوقت تأويل الفصل السابع للنبي دانيال– الذي كان يؤكد عليه جوستوس جوناس وميلانتونى نفسه : وهو تفسير سيرفضه كالفينو – الذي كان يرى أن "القرن الصغير" للوحش كان إمبراطورية الأتراك. وكان هذا موضوعا أكد عليه لوثر نفسه. وللرد على كتاب لوثر *Von Kriege wider die Turken*، في ١٥٢٩، كان إرازمو من جانبه – وربما بناء على حث غير مباشر على الأقل من إمبراطوره – قد كتب في العام التالى، في فريبورجو في برايسجاو، الكتاب الصغير *Utilissima consultation de bello Turcis inferendo*، الذي توج نشاط المراسلة الطويل وكان يلح من خلاله ومنذ سنوات طويلة، على الحكام الأوربيين حتى يضعوا جانبا العداوات المتبادلة ويتحدوا ضد العدو المشترك.

وفى الحقيقة، كان الدكتور لوثر أيضا قلقا بسبب الأتراك، مثل كل الألمان في عصره تقريبا.ولكن ليس أكثر من اللازم : فإقليمه سكسونيا كان في مأمن من الغارات، بينما رأينا كيف أن حصار العثمانيين لفيينا الكاثوليكية للغاية لم يؤلمه كثيرا. وفى مرات عديدة، على أي حال، كان يظهر أنه يصنع من كل عشب حزمة، معاديا كل خصومه دون تمييز وواضعا إياهم تقريبا على نفس المستوى :

اليهود والأتراك والبابويين والزوينجليانيين وهكذا. وكان يتحـدث عـن الأتـراك كثيرا في الـ *Tischreden*، أحاديثه الشهيرة "على المائدة".

وفى عام ١٥٣١ كان المصلح التورينجى الكبير قد صرح بأنـه لـو أن دوق سكسونيا سار ضد الكفار، لسار وراءه عن طيب خاطر واثقا مـن أن استـشهاده سيدفع الله لإبادة العثمانيين. وفى أبريل من عام ١٥٣٢ – عندما كان معروفـا أن السلطان سليمان، بعد أن أجبر قبل ذلك بثلاث سنوات على الانسحاب من حـصار فيينا، كان يعد لهجوم جديد – كان يظهر قلقه من كيفية استعداد الألمان للحـدث، وكان يصرح بأن فرديناندو داسبورجو سيهزم وأنه يخشى من أن تكون نية البابـا هي إلقاء الألمان بعضهم ضد بعض والتركي فوق الجميع. وكانت فكرة تحـالف الأتراك والكاثوليك سريا في خلفية هذه الإعتبارات : وكان الكاثوليـك، بـدورهم، يقومون بالدعاية في نفس الوقت بأن التهديد التركي كان يتوقف على غـضب الله لانتشار العقيدة اللوثرية.

ويرى لوثر أن الأتراك (أي المسلمين) والكاثوليك كانوا مرتبطين بأوجه شـبه على الصعيد الديني : فعلى سبيل المثال، كلاهما كان يعتقد أن الله يمكن أن يغيث الأتقياء فقط، وليس الخاطئين. والتقريب بين نظرية التبرير من خـلال الأعمـال (أي المذهب الكاثوليكي الذي يرى أن اتجاه الأرواح يتوقف على أعمالها الطيبـة) والديانة الإسلامية يمكن أن يبدو غريبا على الأقل : ولكن النقطة – كما كان يقول لوثر مستطردا – هي أن المسلمين مثل البابا لا يمكنهم الصعود للأب من خـلال المسيح، لأن الفريق الأول لا يعترف بطبيعته الإلهية، ولأن الآخر خان رسـالته. وفى الحقيقة لم تكن أفكار المصلح الكبير واضحة جدا عن الإسلام – الذي كـان يعامله كطائفة مرتدة تارة ، وكديانة تارة أخرى – ولم يكن يبدو حتى مهتما بـه : فالأتراك الذين كانوا يمثلون خطرا شيء ؛ ودينهم الجدير بالثناء شيء آخر. وقـد بقى لوثر على أي حال تابعا وفيا لكارلو الخامس ؛ وعلى هذا الأساس فإنـه فـي سبتمبر ١٥٣٢، كان يذكر بسرور كيف أن فرنشيسكو الأول ملك فرنسا تعـرض للإذلال في بافيا قبل ذلك بسبع سنوات، على الرغم من أنه كان يثق في مـساعدة التركي. وقد حاول الفرنسيون والأمراء اللوثريون بعد ذلك بقليل الوصـول إلـى اتفاق مع العثمانيين مرة أخرى، ولا يبدو أن لوثر كان يتوقع هذا الأمر.

ومن ناحية أخرى، لم يندهش من النجاحات التركية. وكان لوثر خبيرا عارفـا بالتاريخ الروماني، وفى عيد الميلاد عام ١٥٣٧ بالذات قـال إن الإمبراطوريـة العثمانية فيما يقرب من مائة عام لم تكبر بقدر ما فعلت الإمبراطورية الرومانيـة

في نصف هذا الزمن ؛ وأن إمبراطوريتي كارلو وسليمان معا لم يكونا سوى ظلا بالقياس لإمبراطورية روما القديمة.

وكان هذا الحديث المستمر عن الأتراك والإسلام ينطوي حتما على تزايد في الطلب التعليمي المتعلق بهذه الموضوعات : حتى على صعيد الأعمال التاريخية في مجملها – مثل الـ *Fasciculus temporum* لفيرنر رولنفيك أو الـ *De inventoribus rerum* لبوليدورو فيرجيليو –، حيث كانت الأخبار المتعلقة بالإسلام، والقائمة على المخزونات المعتادة البيزنطية والتي تعود للعصور الوسطى، دائما أكثر وفرة وتكرارا. بل إن الأخطاء المنتشرة بكثرة في هذه النصوص كانت تنشأ عنها التباسات مستمرة قد يكون من الصعب الفصل بينها، أو حتى مجرد وصفها. وهكذا، كان إرازمو، على سبيل المثال، في الـ *Consultatio de bello turcis inferendo*، قد طور من بوليدورو فيرجيليو سوء تفاهم مثير اتضح على ضوئه أن النبي محمد (صلعم) قتل على أيدي الأتراك الذين تمردوا عليه، بعد أن اتبعوه في غاراته الحربية.

وعلى أي حال، كان التركي موضع نبوءة فوق كل شيء. وفي ١٥٣٨ – كما يتضح من *Diario* لاوترباخ – تحدث الناس كثيرا عن المسيح الدجال، و"عن عظمة وقوة التركي"، التي تنبأ بها النبي دانيال وسفر الرؤيا. وكان لوثر – الذي يميل للاعتقاد بأن النبي قد ورد ذكره بصورة ما في سفر الرؤيا المسيحي – يؤكد على أن بعض النبوءات كان يمكن أن تتوافق معا، مع البابا ومع التركي، موضحا كيف أن البابوية والإسلام على حد سواء بدأا معا في النمو، من القرنين السابع-الثامن. وبمحاولة تطبيق تفسير معقد نسبيا لسفر الرؤيا، ١٢، ١٤، حيث يعطي لحكم المسيح الدجال مدة من "ثلاثة أزمنة ونصف"، وبتفسير "الزمن" على أنه فترة مساوية لعمر المسيح، الذي كان يشير إليه لوثر بثلاثين عاما، فإن الفترة المنسوبة للمسيح الدجال تعادل مائة وخمسة أعوام. ومن الاستيلاء على القسطنطينية في ١٤٥٣، كما استدل الدكتور لوثر في ١٥٣٨، كان قد مر خمسة وثمانون عاما ؛ وكان يتبقى للتركي إذن عشرون عاما لقمع المسيحيين مرة أخرى .و اختتم حديثه قائلا إن كل شيء بيد الله وإن البشر يستطيعون فقط الدعاء والتوبة.

وبالنسبة للأخبار، بعد عشرين عاما من النبوءة، في ١٥٥٨، لم يحدث شيء تقريبا داخل البناء التركي : ولكن كانت تجرى آنذاك الحرب بين الإمبراطورية العثمانية وفرديناندو داسبورجو، التي بدأت في ١٥٥١، وستنتهي في ١٥٦٢ بالإحتلال التركي للمجر وبجزية سيتعين على فيينا دفعها للباب العالي. وبينما كانت أوربا المسيحية تنزف بالفعل في المواجهة بين أسبورجو وفالوا وبين

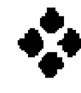
الكاثوليك والبروتستانت، كان ظل الهلال يمتد بصورة مخيفة على البلقان وشبه جزيرة الدانوب وعلى البحر المتوسط.

وقد أدى الإصلاح على أي حال إلى رؤية طيبة لكل اللعبة، ولكن مع نتيجة غير متوقعة : اندفاع حازم للتقييم الإيجابي للإسلام وبالتالي لنشأة وتدعيم مناصرة الإسلام التقليدية والمتكلفة غالبا، والتي ستنتج مع ذلك ثمارا وفيرة – بمجرد أن يخف الضغط العثماني على أوربا – سواء في تجاوز الأنماط العقلية والحربية للحروب الصليبية أوفي الثقافة الاستشراقية الوليدة.وكانت افتراضات كل هذا حية منذ العصور الوسطى، كما كانت تبرهن على ذلك أساطير الفروسية المرتبطة بصلاح الدين والتأملات المتكررة لمثقفين وجدليين، ولكن أيضا لتجار وحجاج مسيحيين حول طيبة وسخاء الكفار الذي يتعارض أخلاقيا ربما مع خسة وخشونة إخوانهم في الدين. ولكن الإصلاح، في فرضه لجدل أشد وأقوى تماسكا بين المسيحيين، كان ينتهى موضوعيا بتأييد المسلمين : وأصبح معتادا بين الكاثوليك وكذلك البروتستانت جلد "رذائل" الديانة المنافسة ولكن مع التأكيد على أن الكفار كانوا حملة الفضيلة المضادة، التي كانت بالطبع ستتناسب مع المسيحيين بصورة أفضل بكثير. وكان بوستيل يمتدح استخدام المسلمين للصدقات والتعقل الذي كانت تتم به ؛ وكان لوثر، في المقدمة لمجموعة النصوص الإسلامية المطبوعة من إعداد بيبلياندر في ١٥٤٣، يميز بين العقيدة الإسلامية المستحقة للتوبيخ وممارستها الأخلاقية القيمة ؛ أي أن الجدل بين الكاثوليك والإصلاحيين انتهى غالبا إلى سباق بين من كانوا يغمرون الكافر بثناء أكبر، لكي يضربوا الخصم بصورة أفضل.

وبالنسبة للعالم الإسلامي – الذي أفلت في نفس الوقت من المراقبين الأوربيين، باستثناء الأرض المقدسة ومصر وأفريقيا الشمالية وإيران إلى حد ما – كان الأتراك يتفاخرون في نفس الوقت بسبب آخر لسحرهم : ما اشتهروا به من شجاعة وبسالة وانضباط من الناحية العسكرية. وأمام المشهد المحزن من الفوضى والفساد الذي قدمته الجيوش والمعسكرات في أوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت جيوش السلطان تقدم مثلا نموذجيا من النظام والتوفير والاعتدال : وكانوا يشتهرون بالقسوة، ولكنهم كانوا بعيدين تماما عن ذلك النوع من الحماس البربري المتكرر جدا، على العكس من ذلك، بين الغربيين قبل الإصلاحات العسكرية في القرن الثامن عشر. وسرعان ما أضيفت لمدح الكتاب للأمور العسكرية أصوات كثيرة : فسوف يُجْمِع الدبلوماسيون والتجار والرحالة ورجال الدين على أن هؤلاء الأتراك المخيفين جدا والذين لا يستكينون في

المعركة، ويتسمون بالصرامة وعدم الرحمة في القمع وإدارة العدالة، كانوا في الوقت نفسه أوفياء وأمناء ومخلصين وأبرار ومعتدلين ومضيافين في الحياة اليومية والخاصة.

وسوف تقوم الأدبيات التي نشأت حول مشكلة المرتدين بنشر هذه الموضوعات بكثافة كبيرة جعلتها تبدو تقريبا من الناحية الموضوعية كتبرير تجاه من كان يترك الدين لينتقل إلى الإسلام. وسيكون "اعتناق التركية" من اليأس أو الإحباط ، أو لحلات الحياة التي لا تنتهي أحد الـ *Leitmotiv* في التاريخ الأوربي والبحر أوسطى في القرنين السادس عشر والسابع عشر.



١٠

السلاطين والقراصنة والمرتدون

المُشَرِّع العظيم

في عام ١٥٢٠ مات سليم الأول، الذي كان قد أخضع مصر المماليك بين عامي ١٥١٦ و١٥١٧ ومدّ نفوذه المباشر على المدينة المقدسة وارتبط بعلاقة وثيقة مع الأمراء المسلمين في طرابلس وتونس والجزائر. وقد خلفه ابنه البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما وكان يحمل نفس اسم أحكم الملوك التوراتيين، سليمان: سليمان المعروف في الغرب باسم "العظيم"، ولكنه مشهور – في التقليد التركي والإسلامي – بصفة أكثر مجدا وهي "القانوني"، "المشرع"، المرتبط صراحة بالتقليد الجوستينياني. وبهذا تتأكد الاستمرارية المشروعة بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية العثمانية.

وربما لم يؤثر حاكم مسلم من قبل على المصائر الأوروبية كما فعل **العظيم**. وقد أسهم وجود العثمانيين في أوربا الجنوبية الشرقية وبالذات في سنوات الإصلاح بقوة في تحديد مسار الأحداث، وخاصة تاريخ المنطقة الوسطى الجنوبية من القارة. ويدين السلطان بجانب كبير من نجاحاته، وخاصة في المعارك البرية، لولاء وكفاءة جيشه المفضل المختار من المشاة، "الجند الجديد" من الانكشاريين. وقد أسست فرقة الانكشاريين في النصف الثاني من القرن الرابع عشر على أيدى السلطان مراد الأول، وهم يختارون من خلال الـ *devshirme* – " التجنيد الإجباري" للغلمان المسيحيين – الذين يقيمون في مدارس داخلية وثكنات أعدت لهم، ويتميزون بملابس خاصة من بينها غطاء الرأس الناصع المرتفع، ويربون في نظام حديدى، ويعيشون حياة متقشفة ملتزمين بالعزوبية ومنضمين إلى نفس الجمعية الدينية (الطريقة البكتاشية). وكان عددهم بالكاد ٥٠٠٠ عندما صعد سليمان إلى العرش، ووصل عددهم إلى ما يقرب من ١٢٠٠٠ عندما ترك ساحة هذا العالم. وكانوا حتى القرن الثامن عشر مصدر رعب والسبب الرئيسي

لإعجاب الأوربيين : وكان هناك في أوربا نفسها زعماء الدول والقادة العسكريون الذين حاولوا تقليد مؤسساتهم ونظمهم، وحتى تقليد راياتهم وأسلحتهم ومظهرهم الخارجي.

وعلى أي حال، أدت ضرورة تشجيع الإنكشاريين، وكذلك إبقاؤهم مشغولين على الأقل جزئيا إلى النشاط الهجومي المكثف لسليمان في العقد الأول من حكمه. وشن على الفور حملة بلقانية انتهت في عام ١٥٢١ بغزو بلجراد. وفي نفس الوقت، كان الأتراك يقومون بتعبئة أنفسهم على البحر وفي عام ١٥٢٢ قاموا بغزو جزيرة رودس : وقام الإمبراطور كارلو الخامس على الفور بتزويد فرسان سان جوفاني، الذين أصبحوا الآن جماعة بحرية قوية – ولكنهم اضطروا للنزوح عن تلك الجزيرة التي كانت مقرهم الرئيسي لما يزيد على قرنين – بقاعدة جديدة في جزيرة مالطا. وبين عامي ١٥٢٦ و١٥٣٣ قام السلطان بشن حملة عسكرية وحشية بين البلقان والدانوب، اكتملت بحصار فيينا نفسها في سبتمبر-أكتوبر من عام ١٥٢٩، مستفيدا من الانقسام بين الأوربيين والحروب التي كانت تعذب المسيحية ؛ وفي نفس الوقت كان القرصان خير الدين، يبث الرعب في صقلية وإيطاليا الجنوبية، من قاعدته التونسية.

كان الهدف الرئيسي لهذا الهجوم بالغ الضراوة هو كارلو الخامس، المعروف بأنه العدو اللدود للإسلام : فقد ورث بالفعل من ملوك الكاثوليك الأمر المقرر صراحة في وصيتهم، *"que non cessen le la conquista de Africa y de pugnar por la fé contra los infieles"*[4] (ألا يتوقفوا، لا في عزمهم على غزو أفريقيا ولا في عزمهم على محاربة الكفار : ففي العالم المسيحي في ذلك الوقت كان المسلمون يوصفون عادة بأنهم "كفار"، للتأكيد على أنه لم يكن من الممكن وصفهم بأنهم غريبون على الدين الموروث عن إبراهيم، ولكنهم لم يكونوا يعتنقونه بصورة صحيحة).

ولم يكن الإمبراطور من جانبه يعتبر خصما للمسلمين على الإطلاق دون تمييز. بل إنه تعلم مع الوقت أن يميزهم بدقة على أساس المبدأ السياسي الذي يقول ان عدو عدوك هو صديق محتمل : وبدأ مع شاه فارس **طهمصب** مفاوضات تهدف لمهاجمة سليمان على جبهتين والضغط عليه بين فكي كماشة. وقد رد "التركي الكبير" – كما كانوا يسمون السلطان في أوربا آنذاك – بمهاجمة الفرس

---

[4] المذكور فى ر. مينينديز بيدال، *Formación del fundamental pensamiento politico de Carlos V*, فى مجموعة من المؤلفين، *Charles V et son temps*، باريس ١٩٥٨، ص ٢ .

والاتفاق ضدهم مع الملوك الأوراليـين الألطـائيين فـي ترانسوكـسيانا ورثـة إمبراطورية تيمورلنك والقريبين من الأتراك من حيث السلالة وهم مـن الطائفـة السنية .

وقد أجبر الهجوم الأسبورجى واسع النطاق سليمان علـى الإسـراع بالقيـام بحركة أكثر جرأة : فقد بدأ مفاوضات مع فرنشيسكو الأول ملك فرنـسا – الـذي كان قد ضمن لنفسه مع "رابطة الكونياك" تحالف البابا كليمنتى السابع، وهو عازم على الانتقام من عار الهزيمة في بافيا وقلْـب الموقـف الـذي يتميـز بهيمنـة الإمبراطور .

ولكن كان لابد من عمل حساب التوقعات المتجددة والمخاوف الجهنمية التي لم تهدأ أبدا. وفى عام ١٥٢٧ كان البابا كليمنتى السابع قد ألقى القبض على "النبـي" براندانو، الذي تنبأ بأن الأتراك سيأسرون البابا والإمبراطور وملك فرنسا في عام ١٥٣٠ وعندئذ فقط سيسمح الله بإنقاذ المسيحية. وكانت النبوءة تبـدو موضـوعيا كإدانة لجميع الأقوياء في الأرض من المسيحيين؛ ولكنها ربما كانت قبل كل شيء إدانة للاتفاق بين كليمنتى السابع وفرنشيسكو الأول ضد كارلو الخامس هذا الـذي كان يبدو حصن الإيمان ضد المسلمين. ويبدو أن كليمنتى الـسابع كـان يـصغى السمع بترحاب لـ"النبيين" اليهوديين ديفيد روبينى وشلومو مولكو، اللـذين كانـا يتوقعان له إمكانية فتح جبهة يهودية مسيحية ضد الإمبراطورية العثمانية، لموازنة التوقعات السوداء لأولئك الذين كانوا يهددون بأن ينسبوا للصلافة السياسية للبابـا أيَّ ترسيخ سياسي وعسكري محتمل جديد للأتراك. وهذا الافتراض – الجـريء على الأقل، في زمن الـ *conversos* – ربما كان ينطوي علـى تلمـيح منـاهض للأسبان لم يكن يتعين أن يغضب البابا ميديتشى، على الأقل قبل معاهدة كـامبراى في عام ١٥٢٩. فخوض الحرب ضد الكفار مع عزل الأسبان الإمبريـاليين فـي نفس الوقت كان يمكن أن يبدو عملية نبيلة وهـدفا اسـتراتيجيا–سياسـيا هامـا. والصعوبة كانت في ترجمة هذه المخططات إلى امر واقع.

وقد كانت الجبهة الصليبية في البحر المتوسط تتطور أيضا علـى أي حـال، وهو ما كان أيضا يضفى أهمية كبيرة على المناورات الجريئة شيئا مـا للـبلاط البابوي. ومن بين الخصوم التاريخيين للباب العالي، رجال فنسيا والألمان الـذين شاركوا في الجبهة البلقانية والأدرياتيكية وفى بحر إيجه. ولكن فنيـسيا – التـي صعد إلى عرشها الملكي منذ عام ١٥٢٣ ذلك المدعو أندريا جريتى الذي أمـضى في اسطنبول سنوات جميلة ومليئة بالمغامرات وكان صديقا شخصيا لـسليمان –

احتفظت مع ذلك بموقف مستتر ومبهم : ولم تكن حتى تتوانى في إرسال إشارات تقدير واحترام للسلطان.

ولكن أسبانيا وجماعة سان جوفانى كانوا مشغولين جديا بالجبهـــة الجنوبيـــة : وكان كل الساحل من جبل طارق وحتى مضيق صقلية مهددا، والتجارة غير آمنة وكان استنزاف الرجال والبضائع الناجم عن حرب القراصنة مستمرا. وفى عـــام ١٥٢٩ المصيري، وهو نفس عام حصار فيينا من جانب القوات العثمانيـــة، قـــام مرتد يوناني ربما يرجع أصله إلى ليسبو، اسمه خير الدين – وسيعرفه الغربيـــون باسم "باربارِوسا" –، وكان يسيطر بالفعل على الساحل المغربي، قام باحتلال قلعة الجزائر باسم السلطان.

وأجبر حصار فيينا والقضية الجزائرية الإمبراطور والبابا على إنهاء الحـــرب بينهما بأسرع ما يمكن وإجبار فرنشيسكو الأول على الانحياز إلى خياراتهما ضد رغبته. وفى فبراير ١٥٣٠ حثّ البابا والولايات الإيطالية والمجر علـــى تنظـــيم حملة صليبية جديدة بينما نجح الاسبتارية الذين طردوا من رودس في التمركز في طرابلس. وحاول الأسبان، الذين استغلوا السلام لمحاصرة قلعـــة الجزائـــر علـــى الفور، عقد اتفاق مع السلطان على منح تلك القلعة في مقابل السلام فـــي المجـــر. ولكن خير الدين الذي عينه السلطان أدميرالا كبيرا، نجح في عام ١٥٣٤ – بعـــد أن نهب السواحل الإيطالية حتى مصب نهر التيبر – في الاستيلاء أيـــضا علـــى تونس، وطرد منها الأمير الذي كان يحميها حتى ذلك الحين وكان يحميه الأســـبان : وبهذا خلقت قاعدة معادية قريبة للغاية من السواحل الصقلية وكانت تمنع عمليـــا حركة السفن المسيحية عبر قناة صقلية.

وبالتالي فإن البحر المتوسط كان الآن تحت سيطرة المسلمين : حتى أنهم كان بوسعهم الاعتماد على التحالف الخفي للملك الفرنسي، الذي كان عاجزا لأســـباب عرقية عن إدانة المثل العليا وممارسة الحملة ولكنه كان مقتنعا تماما بأن أي عدو لعدوه كارلو الخامس كان صديقه.

وقد سارع الإمبراطور في عام ١٥٣٥ إلى اجتياح تونس بكل قواته وإضـــفاء الطابع المقدس للحملة الصليبية على هذه الحملة. وقد اعتمد رسميا علـــى "المنقـــذ المصلوب"، وقام بالحج إلى السيدة العذراء في مونسيرات سيدة البحرية الكاتالونية وضمن لنفسه مساندة البابا باولو الثالث والاسبتاريين والبرتغـــاليين. وقـــد هـــبط الأسطول الإمبراطوري، الذي كان يضم ٧٤ سفينة شراعية كبيرة و ٣٣٠ ســـفينة، في ١٦ يونيو على الساحل التونسي ؛ وبعد أقل من شهر تم الاستيلاء على قلعـــة

جوليت، وأسر الأسطول التركي- البربري في معظمه، وتحرير ٢٠٠٠٠ من الأسرى المسيحيين ؛و في ٢١ يوليو، في النهاية، جرى نهب مدينة تونس. وسوف يحتفل كارلو بهذا الانتصار الإمبراطوري حاملا إلى روما أقفال ومزالج أبواب المدينة. وفى حين هرب خير الدين إلى الجزائر فإن الأسبان عهدوا من جديد بحكم تونس لحاكم مسلم آخر خاضع لهم، ولكن مع الإبقاء على السيطرة المباشرة على جوليت.

ولكن نجاح الجيوش الإمبراطورية على الساحل الأفريقي كان من نتيجته مزيد من التقارب بين عدوى كارلو الخامس، أي سليمان وفرانشيسكو الأول. وقد ترتبت على ذلك سلسلة من المعاهدات ("الامتيازات"، التي تأكدت بعد ذلك في ١٥٦٩) التي كانت تسمح للملك الفرنسي بأن يقدم نفسه في الأراضي العثمانية - وخاصة في الأرض المقدسة - كمدافع عن الجاليات المسيحية. وإلى جانب العلاقات الدبلوماسية أضيفت الالتزامات العسكرية المتبادلة، السرية في جانب منها. ولكن النجاح حالف المحاولة المشتركة، التركية والفرنسية، لجذب فينسيا في فلك تحالفهم المستتر : وقد هزمت سياسة الدوق جريتي - المؤيد دائما لصديقه القديم في اسطنبول - أمام "حزب الحرب" القوى الذي كان يضغط في اتجاه استعادة الأنشطة العسكرية في البحر، بعد أن وثق من نجاح الجيوش الإمبراطورية. وفى انتقام واضح إزاء "المسار الجديد" لفينسيا، قام الأتراك بإغلاق قناة أوترانتو وحاصروا كورفو.

وبين ٢٦ و٢٧ سبتمبر من عام ١٥٣٨، وفى مياه البحر الأيوني المطلة على بريفيزا (اليوم بريبيزا)، عند مدخل خليج أرتا، هزم خير الدين بصورة مدوية جيش الرابطة البابوية- الفنسية - الإمبراطورية، التي كانت تضم أيضا ٩٥ سفينة ، وما يقرب من ٦٠٠٠٠ رجل وأكثر من ٢٥٠٠ مدفع. وقد قيل إن الهزيمة كانت راجعة أيضا للالتزام الهزيل لقائد الأسطول المسيحى، أندريا دوريا القادم من جنوا، الذي لم يكن متحمسا لفكرة النجاح المسيحى باعتباره كان سيحقق ميزة لفينسيا بصفة خاصة. وبالفعل فإن هزيمة بريفيزا كانت المقدمة لنهاية سيطرة فينسيا في موريا. أما جريتي العجوز الذي سيموت في نهاية نفس العام فقد شعر بالرضا المرير لأنه يستطيع أن يوبخ خصومه على نزعتهم الحربية غير الحذرة.

وقد ذاب التحالف بين القوى المسيحية آنذاك مثل الجليد تحت الشمس : وبعد ذلك بعامين، وقعت فينسيا مع الباب العالي على سلام منفصل كان يتضمن دفع تعويض ثقيل جدا عن الحرب والتنازل عن آخر قلاع فينسيا على الأرض

اليونانية، مثل ناوبليا ومونمبازيا. وفى ١٥٤١ حاول الإمبراطور الانتقام بحصار الجزائر، قلعة خير الدين : ولكن الحصار انتهى بفشل جديد أيضا بسبب عاصفة عاتية. ورد القرصان-الأدميرال التابع للسلطان بغارة غاضبة وأرهب السواحل الغربية والتيرانية والأيونية. وكان هذا الحدث يمثل خروجه الرائع من مسرح الأحداث: وسيموت بالفعل بعد ذلك بقليل، في ١٥٤٦ .

كان الأسطول التركي يمتلك أدميرالات آخرين شجعان، وهم غالبا من المسيحيين المرتدين : ويكفى أن نذكر الكرواتى بيليه باشا ؛ أو الكالابرى لوقا (أو ربما جوفانى) جاليينى، المولود في ١٥٢٠ والذي اختطفه البرابرة عندما كان في السادسة عشرة من عمره لكي يصبح بعد ذلك *Uluj-Ali Reis*، والمعروف بين الإيطاليين باللقب المضحك "نظارات". ولكن اختفاء خير الدين كان قد حطم أسطورة. واستفاد كارلو الخامس من ذلك لكي ينقض في يونيو من عام ١٥٥٠ على المدينة التونسية المهدية، قاعدة خليفة بارباروسا، الذي يدعى تورغوت على والذي كان الغربيون يعرفونه باسم "دراجوت". وقد تم الاستيلاء على المدينة بالفعل في يوم ميلاد السيدة مريم، في الثامن من أغسطس : ولكن دراجوت نجح في الهروب.

كان التهديد التركي- البربري الآن يثير أيضا مخاوف الآباء المؤتمرين، المجتمعين آنذاك في ترنتو : والبابا جوليو الثالث الذي لم يكن يتردد في عام ١٥٥٣ في تهديد خليفة فرنشيسكو الأول، الملك إنريكو الثانى، بالإعلان عن حرب صليبية مباشرة ضده لو استمر في المساندة التي كان يقدمها للأتراك والبروتستانت.

ولكن ساحل شمال أفريقيا في نفس الوقت كان يتعرض لنكسات أخرى : ففى أغسطس من عام ١٥٥١ كان الاسبتارية قد اضطروا للجلاء بصورة غير مشرفة، عن مدينة طرابلس، التي سلمها السلطان لدراجوت .وكانت المسيحية تعطي إشارات بعدم الثقة والتعب : حتى أن البابا باولو الرابع، الذي كانت تنتابه الهواجس من القوة الأسبورجية، أعطى الانطباع بقبول نوع من الهدنة غير المكتوبة مع الباب العالى. ووصل الحال إلى الجهر بأنه عرض تحالفا سريا على الأتراك ضد أسبانيا. ومن ناحية أخرى أصبحت حرب القراصنة في البحر المتوسط الآن متوطنة ومتبادلة : ولكن *el rey prudente* فيليبو الثاني أيضا، الذي خلف الأب على عرش أسبانيا، أعرب عن اعتقاده بأن الأتراك بعيدون في نهاية المطاف، بينما كان الأكثر خطورة منهم بكثير هم المرتدون والمتمردون داخل الحدود الأيبيرية. كانت المبارزة في البحر المتوسط تتناوب في نفس الوقت مع

المبارزة البلقانية وأحيانا ما كان يتداخل مسرحا الحرب فيما بينهما : فبين عـامي ١٥٦٠ و١٥٦٥ تعرضت الأساطيل المسيحية لهزيمة مهينة أمام ميناء جربة، بينما فشلت الأساطيل العثمانية في الهجوم على مالطة، التي دافع عنها الفرسان ببطولة، ولكنهم استولوا في مقابل ذلك على جزيرة كيو، وقلعة زيجيت في المجر.

وفي عام ١٥٦٦ مات سليمان العظيم. والتقط الغرب أنفاسه ؛ وكانت هناك أيضا مظاهرات فرح هنا وهناك. ولكن غلالة من الحزن بدا أنها تطغى على هذا الإبتهاج المتوقع.فقد غاب واحد من أبطال التاريخ في ذلك القرن، رجل سياسى وملك استطاع أن يسحر الغرب أيضا : الذي تحدث عنه دائما، وقلد فخامته وعاداته في احتفالاته وفى مواكبه، وأعجب به، حتى أنه رسمه مرات عديدة. وقد رسم تيتسيانو نفسه صورته ثلاث مرات، معتمدا على صور وضعت تحت تصرفه واجتهد في تفسيرها. وامتدحه باولو جوفيو ووصفه بالتقوى والشهامة. ويرجع الفضل إلى سليمان بصفة خاصة ولأسطورته الغربية – التي غذاها مونتين وبودان وشارون – في ترسيخ الفكرة الشائعة عن العدل والنظام والقوة القاسية والتي لا ترحم للإمبراطورية التركية والموازية للفكرة الشائعة عن رهبتها في الحرب وقسوة عاداتها.ولم يبخل العديد من الرحالة الفرنسيين في القرن الخامس عشر بالثناء على التركي العظيم الذي كان يحكم شعوبه في سلام وعدل. وكان هناك تكريم لـ "السلام التركي" الذي فرضه على إمبراطوريته، وهو تعبير للتكريم مستوحى بوضوح من الـ *pax romana* على الرغم من أنه كان هناك من يؤكد على طبعه الاستبدادى والوحشى.

كانت آلة الحرب التركية الهائلة لا تزال تعمل على أي حال. وعاد السلطان الجديد سليم الثاني (١٥٦٦ –١٥٧٤) لاجتياح ساحة البحر المتوسط وعلى عدة جبهات، بعد أن رتب الأمور ولو بصورة مؤقتة على الجبهة البلقانية–الدانوبية بسلام أدريانوبولى في عام ١٥٦٨. وفى بحر عامين فقد المسيحيون بالفعل، على التوالي، تونس (التى احتلها في ١٥٦٩ *Uluj-Ali* الذي خلف دراجوت المتوفى كحاكم للجزائر)، وقبرص التي غزاها الكفار بين يوليو من عام ١٥٧٠ وأغسطس من العام التالى، عندما استسلمت قلعة فاماجوستا في فينسيا. وكان الهجوم التركي أكثر فعالية بفضل الاتفاق القائم مع الفرنسيين.

وقد تزايد في نفس الوقت لدى السلطان النشاط السياسي والدبلوماسي لرجل عبقري : جوزيبى نازى، الممثل الرفيع لليهود الأسبان المنفيين في اسطنبول وفى المدن الأخرى من الإمبراطورية العثمانية. وبينما كان الوزير محمد سوكولو يلح لمواصلة الحرب ضد أسبانيا للسيطرة على أفريقيا الشمالية وربما استئناف الحرب

ضد الإمبراطورية من أجل المجر، كان نازى على العكس من ذلك يشجع الحرب ضد فينسيا : وكثف الدعاية في هذا الاتجاه بعد أن عينه الملك التركي، في ١٥٦٦ دوقا على نازو وجزر أخرى في بحر إيجه. وكان ينشئ في نفس الوقت حول طبرية مستوطنات يهودية داعيا إليها اليهود المطرودين من إيطاليا.

وإذا كان السلطان يتبع تعليمات وزيره في سياسته في شمال أفريقيا، فإنه لم يكن يهمل بالطبع نصائح صديقه اليهودي. وفى ٢٥ مارس من عام ١٥٧٠ كانت قد وصلت بالفعل إلى فينسيا المطالب التركية المتعلقة باستسلام قبرص. وبعد بريفيزا، كانت فينسيا قد تجنبت حتى ذلك الحين تعريض نفسها للخطر في تحالف سافر مناهض للأتراك مع أسبانيا حتى لا تتورط في قضايا شمال أفريقيا، واضطرت للتوجه بحرارة، الآن، للشخص الوحيد الذي كان يبدو مستعدا لوقف العثمانيين : فيليبو الثاني. وقد ردت أسبانيا المسيحية بحماس، بعد أن اهتزت من نزول المغاربة في الأندلس وما أعقبه من ثورة الموريسكيين في تلك المنطقة بين عامي ١٥٦٥ و١٥٧٠. وكانت قبرص تسير وراء مصيرها : فقد سقطت نيقوسيا في ٩ سبتمبر من عام ١٥٧٠، وسقطت فاماجوستا في ٥ أغسطس من عام ١٥٧١ : وبعد ذلك بأربعة أيام قام الأخ غير الشقيق للـ *Rey prudente* جوفاني داوستريا – المنتصر على الموريسكيين الأندلسيين – بالهبوط في نابولي ؛ وبعد ذلك بأكثر من شهر بقليل كان هناك أسطول أسباني– فينسيانى– بابوى يبحر من ميسينا.

وقد اجتاحت الغرب الأخبار المتعلقة بقبرص، والتي أحدثت مع ذلك أثرا عكسيا لما كان الأتراك يتخيلونه، ببثهم الرعب من خلال القسوة الاستعراضية عن عمد كما هي عادتهم. وحكاية العذاب الذي لحق بقائد فاماجوستا الفينسيانى، مارك أنطونيو براجادين، الذي تحمّله برزانة جسورة، سرعان ما جابت المسيحية : وأسهمت بالذات في إثارة ما كان رئيس الوزراء قد فعل كل ما بوسعه لتجنبه حتى الآن، وهو التحالف بين أسبانيا وفينسيا.

وفى ٧ أكتوبر من عام ١٥٧١ حدث في مياه خليج باتراسّو ما رحبت به المسيحية، ليس فقط الكاثوليكية ولكن البروتستانتية أيضا، بالإجماع على الأقل في تلك اللحظة، على أنه معجزة.

كان انتصار ليبانتو الذي تحقق ضد الجيش البحري الرهيب بقيادة *Uluj-Ali* ، عظيما حقا : فمن الـ ٢٣٠ سفينة تركية (التي واجهتها الرابطة بـ ٢٠٨ فقط ولكن مع ست سفن حربية ضخمة)، أغرقت ٨٠ وأسرت ١٣٠ ؛ وقد أفلتت سفن

قليلة للغاية من الحصار. واجتاح العالم المسيحي سيل من الكتابات، والملاحم الشعرية والكتيبات والآمال الاحتفالية من كل نوع.

ولكن إطار الانتصار كان هشا جدا : وكان يبدو أن الأحداث تعطى الحق للإمبراطور ماسيميليانو الثاني، الذي لم يكن يريد نزول الميدان، على الرغم من "عهد العائلة" الذي كان يربطه بأقاربه وحلفائه من عائلة أزبورجو في أسبانيا ؛ وكان وفيا لما وعد به في المعاهدة، واستمر في دفع جزية عالية من المال للأتراك، كما فعل والده فرديناندو الأول أيضا. وكان الإمبراطور قد رفض بقسوة محسوبة جيدا الدعوات لتغيير سياسته، الآن وقد أصبح السلطان في ورطة، على ما يبدو : كان يبدو له أنه لا يليق بأمير مسيحي أن يخل بكلمة أعطاها، حتى وإن كانت للكافر. وقد أجبره الضغط التركي من ناحية أخرى على الإبقاء على التنازلات المقدمة للبروتستانت وزيادتها : فقد كان يعلم أنه لا يستطيع أن يسمح لنفسه بمواجهة المشكلات التي كان يمكن أن يواجهها من تلك الناحية، والأتراك متمركزون بقوة في المجر. كما كان يقال في ألمانيا في ذلك الوقت، *"Der Türke ist der lutheranischen Glück"*. وقد أكد البعض أن البروتستانت في القرن السادس عشر كانوا سيلقون نفس مصير المرتدين في القرن الثالث عشر، الذين سحقوا، بدون الأتراك، فهل كانت هذه مبالغة؟

وفى نفس الوقت أصبح واضحا دائما أن نتائج يوم ليبانتو لم تستغل بالكامل بسبب ظهور خلاف أساسي بين الحلفاء. وفى ١٠ فبراير من عام ١٥٧٢ جُددت الرابطة المقدسة ؛ وبعد ذلك ببضعة أيام بعث البابا بيو الخامس لكل المؤمنين خطابا يضفى على المرحلة الجديدة من الصراع ضد الأتراك اللون الذي لا لبس فيه، وهو لون الحرب الصليبية المتجددة. ولكن السلطان كان في نفس الوقت قد أعاد بناء أسطوله بسرعة غير معقولة ؛ ولكن جوفانى داوستريا، بدلا من مهاجمته في البحر الأدرياتيكى ومحاولة إعادة غزو قبرص بعد ذلك كما كان يريد رجال فينسيا – المشغولين في موريا – أعاد غزو تونس في عام ١٥٧٣ واحتل بيسرتا. وكانت الرابطة المقدسة قد انحلت : فبعد أن حل الإنهاك والغضب برجال فينسيا، أبرموا مع سليم سلاما منفصلا تاركين الاتفاق مع أسبانيا. وقد كلف هذا فينسيا التخلي النهائي عن قبرص ودفع تعويض عن الحرب يبلغ ٣٠٠٠٠٠ *ducati* وسمح للسلطان بتركيز جهوده على رقعة شمال أفريقيا. وبعد أن خف العبء عنهم على جبهة فينسيا استطاع الأتراك أن يطردوا الأسبان من جديد من تونس ومن بيسرتا. ولكن نتائج يوم ليبانتو العابر يجب أن تقاس أيضا على أبعاد أخرى، كانت ستصبح فيها أكثر رسوخا. كانت المعركة قد أعدت نتيجة لمناخ كثيف من

النبوءات والحديث عن نهاية العالم لا يخلو من تكرار لنقاط انطلاق يواقيمية قديمة. وشجع الانتصار هذا المناخ. " وها قد ظهرت في السماء علامة عظيمة : امرأة ترتدي الشمس، والقمر تحت قدميها، ومتوّجة باثنتي عشرة نجمة "[5] وقد أصبحت المرأة في سفر الرؤيا، كما هو معروف، قاعدة أيقونية تفسيرية أساسية لتمثيل السيدة مريم العذراء. وقد فسرت صورة سفر الرؤيا الواقفة على القمر، على الأقل من القرن السادس عشر فصاعدا، في اتجاه معاد للإسلام بصورة مميزة، وهي صورة تذكرنا بسلسلة طويلة من الشخصيات السماوية تحمل رمزا ليليا أو قمريا أو metroaco ، من أرشميدس–ديانا إلى إيزيس إلى سلسلة طويلة من "الإلاهات الأمهات" من أصل آسيوي محليّ وسامي. العذراء تطأ القمر، وهو في الحقيقة ليس الرمز التقليدي للإسلام بقدر ما هو رمز الإمبراطورية العثمانية تحديدا ؛ وليس من قبيل الصدفة أن العذراء المسبحة هي التي تتوسط انتصار ليبانتو الكبير ؛ ويصبح يوم ٧ أكتوبر، يوم ذلك الانتصار في عام ١٥٧١، نزولا على إرادة بيو الخامس، عيدا لعذراء الانتصارات، ، وقد حدده جريجوريو الثالث عشر كعيد لسيدة المسبحة عندنا.

الأمر إذن لا يتعلق بالتقليل من شأن طابع ولا مغزى واقعة ليبانتو : فقد كانت أهميتها العسكرية هائلة، وقيمتها الرمزية غير عادية. والواقع على أي حال هو أن قبرص كانت قد بقيت للأتراك وأن الرابطة المقدسة المبرمة بحماس كبير لمجابهة العثمانيين لم تحتمل النتائج الأخيرة للحرب، والتي اتضح أنها غير مثمرة. فقد استمر اللعب في مباراة بلا منتصرين ولا منهزمين : وكان الاعتقاد السائد – سواء في أوربا أو في الإمبراطورية العثمانية – هو أن السلطان كان في حالة هجوم، سواء بدا منتصرا أو مهزوما في المعارك، في حين بقى المسيحيون عند الدفاع الخجول. واستمر حاكم البوسفور سيدا للخوف.

ولكن المسيحية كانت فخورة بانتصاراتها. ولم تكن هناك غنيمة من القرن الخامس عشر– السادس عشر لا تحمل بوضوح الأعلام التي يزين صواريها الهلال والرايات التي على شكل ذيول الخيل المنتزعة من الأتراك؛ ولا يوجد أثر لحاكم أو جنرال في ذلك العصر لا يظهر الأسرى بالرأس الحليقة والضفيرة الطويلة والشوارب المتدلية والذين يسيرون في حزن فى الأغلال وراء عربة النصر التي يركبها المنتصر أو الذين ينهارون في قيودهم عند قدميه.

---

[5] *Apocalisse* ، ١٢، ١.

ومن ناحية أخرى كانت الجبهة الصليبية واسعة جدا : لا نستطيع بالطبع أن نقول إنها متلاحمة وموحدة، ولكن جانبا كبيرا من مغزى الصدام العسكري بين المسيحية والإسلام في تلك الفترة – وأيضا في فترات أخرى في نفس الوقت – يفوتنا إذا لم نأخذه في الاعتبار في أي مشهد يمتد من جبل طارق ومن المغرب حتى البحر الأحمر والبحر الأسود وبحر قزوين والمحيط الهندى. فعلى سبيل المثال كان السلطان سليم الثاني قد ساند بقوة بين عامي ١٥٦٨ و١٥٧٠ ثورة الموريسكيين الأندلسيين، ناصحا إياهم أيضا بأن يحاولوا إقامة تحالف مع اللوثريين ؛ وفى نفس الوقت درس إمكانية حفر قناة تصل بين الفولجا والدون. ولو أن الأساطيل التركية استطاعت أن تنتقل من البحر الأسود – وبالتالي من البحر المتوسط – إلى بحر قزوين والعكس، معرضة للخطر الحدود الشمالية للإمبراطورية الفارسية المنافسة، لكانت النتائج على التاريخ العالمي بعيدة المدى للغاية.

كانت اللعبة، في نهاية المطاف، تتخذ مظهرا عالميا أكثر فأكثر. وكان يدرك هذا جيدا بيو الخامس، الذي كان يراقب دائما بعين يقظة الموقف البرتغالي داعيا الطوائف العسكرية في ذلك البلد أن تتخذ موقفا على خط الحدود في شمال أفريقيا وأصدر تعليماته بأنه لا يمكن لأي أحد أن يعتبر نفسه منتميا لهذه الطوائف ما لم يقم بالخدمة فيها لمدة ثلاث سنوات على الأقل. وفى نفس الوقت كانت أسبانيا تنوى مراقبة الأحداث الأفريقية عن كثب، وكان من الواضح أنها لم تعد لديها أي نية بعد حرب قبرص في التدخل في أمور البحر المتوسط الشرقية : ولهذا كانت تستعد في عام ١٥٧٣ لغزو جديد لتونس وكان غزوا عابرا ولا طائل من ورائه. وبعد أقل من سنة، في يوليو من عام ١٥٧٤، قام أسطول تركى مؤلف من ٢٣٠ سفينة و٤٠٠٠٠ جندي باستعادة المدينة : وهذه المرة نهائيا.

وتابع هذه الأحداث باهتمام سيباستيانو، حفيد فيليبو الثاني، ملك أسبانيا وملك البرتغال من عام ١٥٥٧. وقد ولد في ١٥٥٤، وكان ملكا منذ أن كان عمره ثلاث سنوات ولكنه كان خاضعا لنظام طويل من الوصاية على العرش، وكان سيباستيانو مجموعة متشابكة من التناقضات الغامضة والمتلألئة، وقد بدد ممتلكات التاج وكان يسعى وراء أحلام العظمة. وتربى تربية صارمة لدى جماعة يسوع، وكان معبوده الملك إنريكو البحار، الذي أسس قبل ذلك بقرن القوة البحرية البرتغالية. وكان حلم إنريكو هو الوصول بالمسيحية حتى الهند ؛ وكان حلم سيباستيانو هو الوصول بها إلى أفريقيا وراء المنحنى الكبير عند النيجر وتيمبوكتو الرائعة : الاستيلاء على طرق الذهب والعاج والعمل على انتصار المسيحية في

تلك القارة التي كانت تبدو هائلة، وأكبر بكثير مما اعتقد الجغرافيون القدماء. ولكن كان لابد للقيام بهذا من السيطرة على المغرب، بنفس الطريقة التي حاول بها الأسبان، في حوادث متعاقبة، السيطرة على المنطقة المعروفة حاليا بالجزائرية التونسية، بانتزاعها من الإمبراطورية العثمانية وقمع نشاط القراصنة "البرابرة" هناك.

كان من أجل غزو المغرب نهائيا أن أبحر سيباستيانو في يونيو ١٥٧٨ من لشبونة بجيش يبلغ تقريبا ١٠٠٠٠ من البرتغاليين المختلطين مع ١٦٠٠ من الأسبان، الذين أنضم إليهم ربما ٥٠٠٠ آخرون من المتطوعين أو المرتزقة من مختلف الشعوب : من الألمان والإيطاليين والمغاربة من أتباع السلطان الذين كان يود تنصيبهم على العرش المغربي بدلا من الحاكم الذي كان يحكم هناك وكان مواليا للأتراك. وقد هبط الصليبيون بالقرب من طنجة وبدأوا مسيرة للتغلغل في الداخل. وحدث الصدام في ٤ أغسطس عند القصر الكبير (*Alcazarquivir*، كما كان يسميه الأوربيون) : وقد سميت"معركة الملوك الثلاثة"، لأن ثلاثة من الملوك هم الذين شاركوا فيها - سيباستيانو والسلطانان الخصمان - ولم يبق أي منهم على قيد الحياة. وقد قتل أيضا السير توماس ستوكلى، وهو إنجليزى كاثوليكى كان يقود قوة بابوية، كانت مخصصة في الأصل لأيرلندا، وحوّلت في اللحظة الأخيرة إلى المغرب. وهذا أحد التفاصيل التي تقول الكثير عن تعقيد فكرة الحرب الصليبية.

لم يعثر على أي أثر لسيباستيانو. ولم تُعد رمال وأحجار المغرب جثمانه : وولدت بدلا من ذلك النبوءة - التي بدأها الـ *Camões* في الـ *Lusiades* وواصلها بعد ذلك فرناندو بيسوا في أبياته الشعرية - بأن الملك الشاب الذي أصبح اسمه الآن *O Encoberto* ("المستتر"، "المختبئ")، سيعود يوما من البحر، بعد أن يبزغ من ضباب المحيط الأطلنطي. وستبدأ معه " الإمبراطورية الخامسة" التي ستؤكد في النهاية هيمنة البرتغال، بعد الإمبراطورية اليونانية والرومانية والمسيحية والإنجليزية : وستجد فيها النزعة الدينية الأوربية كمالها.

قراصنة ومرتدون وأسرى

وفى عام ١٥٨٠، بعد عامين من وفاة دون سيباستيانو وبالذات في نفس ذلك العام الذي تولى فيه فيليبو الثاني السلطة على البرتغال، كان هناك محارب فرنسي آخر على غرار ستوكلى، هو البروتستانتي الفرنسي فرانسوا دو لا نويه، يكتب أحاديثه *discours* : وهى من الأعمال الرئيسية في الأدب السياسي والحربي في القرن السادس عشر، وذلك في أحد سجون ليمبورج حيث ألقى به الأسبان لأنه كان قد هرع إلى فياندرا لكي يدافع عن الكلفانيين هناك. وكان يدعو إلى حملة صليبية جديدة ، متحررة من قيد الهيمنة البابوية ويشعر بها الناس كعملية جماعية لتحرير أوربا من الكابوس التركي كأحد الطرق التي ستستطيع المسيحية من خلالها أن تجد وحدتها.

وفى نفس الوقت كانت القوى الأوربية تدرس أنسب الطرق لخلق مشكلات للسلطان في المنطقة الشرقية من إمبراطوريته. وقام فريق من الرحالة والمستكشفين والتجار والدبلوماسيين – أو شخصيات تتأرجح في غموض بين هذه النماذج – بزيارة إيران بين القرنين السادس عشر والسابع عشر من أجل محاولة دفع الشاه الصفوي في إيران للقيام بـ "حملة صليبية " مشتركة ضد سيد اسطنبول. وبالفعل خلق الفرس مشكلات كثيرة للأتراك ؛ بينما كان قيصر روسيا إيفان الرابع يتجه بصورة حاسمة ضد تتار الـ Orda d'Oro، من أتباع الباب العالي، وضد مفتاح آسيا الوسطى، أستراخان. ولو كان الروس والإيرانيون متحدين بين بحر قزوين وبحيرة آرال، لتعين على الأتراك أن يواجهوا في الشرق حدودا قارية جديدة ومتماسكة. ولهذا فإن سلطان اسطنبول كان ملتزما بتوطيد علاقات صداقة وتحالف عسكري مع الملوك الأتراك المغول في المناطق الشاسعة بين ترانسوكسيانا وتيين شان والباراكوروم. وفى نفس الوقت، بدأ الغربيون أيضا في النظر إلى آسيا الوسطى. واستمر الأوربيون، من تجار فلورنسا مثل جوفان باتيستا وجيرولامو فيكييتي حتى الكاتب الروماني المغامر بيترو ديللا فاللى في السعى بحماس وحرص على المعرفة لتحقيق الحلم القديم الذي ولد في أوج القرن الثالث عشر، حلم حليف آسيا الوسطى الذي سيضغط على الإسلام في البحر المتوسط محررا أوربا المسيحية من هذا الكابوس.

ولكن التركي لم يكن فقط كابوسا ؛ أو بمعنى أصح لم يكن كذلك بالنسبة للجميع. وقد رأينا كيف أن كثيرين – من فرنسا إلى إنجلترا إلى ألمانيا

البروتستانتية – كانوا ينظرون إليه، ربما خفية، على أنه حليف محتمل : "عدو للعدو". وكان هناك علاوة على ذلك – وخاصة على سواحل "القارة السائلة"، البحر المتوسط – من كان، رغم شعوره بالتعرض للتهديد التركي أو لأتباع تركيا الحلفاء، القراصنة البربر، يعتبره الشر الأصغر أو حتى فرصة محتملة. وكان الفقراء والضعفاء والرعايا المحرومون من الثروات والموارد في النظام السياسي والمؤسسي الصارم جدا للمسيحية، ينظرون بأمل وحسد لعالم الكفار حيث كان يمكن للإنسان أن يولد صيادا في كالابريا أو من سكان الجبال الألبان ويصبح وزيرا أو أدميرالا. وكان البعض – من المرتدين والخاسرين الحانقين والحالمين والمعدمين – قد وصل به الحال إلى الأمل في انتصار للكفار على وطنهم المسيحي ناكر الجميل والظالم. وفي أوربا كان من يظهر روحا دينية حرة زائدة يحرق في النهاية ؛ ولكن التركي القاسي الذي كان يخوزق ويسلخ الجلد أيضا، كان يترك الناس أحرارا في عبادة إله إبراهيم كما يحبون في مقابل خضوع بسيط ودفع ضريبة هينة. وكان المسلم الذي تأسره سفن مالطة أو سانتو ستيفانو أثناء قرصنة مسيحية على سواحل دار الإسلام ينتهي به الحال إلى التجديف في السفن الشراعية أو الموت ببطء في أقبية ليفورنو أو طولون ؛ ولكن المسيحي الذي كانت تأسره سفينة تحمل راية الهلال – إذا كان شابا وجميلا بما فيه الكفاية، أو مغامرا أو محظوظا جدا ويقع مع ملك رحيم أو مستبد – كان بوسعه صعود درجات مهنة وعرة، وربما لأعلى من ذلك حتى الباب العالي، حتى أقدام السيد الكبير. وكان الوقوع في الأسر في أيدي المسلمين حدثا عابرا يمكن أن يقع غالبا، إذا كان الشخص ينتمي لشعب ساحلي أو إذا كان يعمل تاجرا أو ذاهبا للحج، أو إذا كان يوفي بالنذر الصليبي : ففي المسيحية كانت قد نشأت طوائف دينية خاصة، مثل الثالوثيين والـ*Mercedari* ، لتحرير الإخوة في المسيح الذين وقعوا في الأسر.

وهناك قصص كثيرة في البحر المتوسط لفتيان وفتيات، ورجال ونساء أسرهم الأتراك أو البرابرة. وهناك العديد من الحوادث التي نعرفها : وهناك أكثر منها ستبقى دائما مجهولة. حكايات مأساوية في معظم الأحيان : ومغامرات أيضا انتهت نهاية سعيدة. وأحيانا ما كان الواقع يتجاوز الخيال : وهناك حوادث أخرى كانت تترجم إلى مذكرات مكتوبة أو يوميات على شكل رواية ربما "زائفة" على صعيد الحدث المحدد التي كانت ترويه، ولكنها مبنية على أساس من شهادات حقيقية. كما في حالة الطبيب القادم من مدينة سيجوفيا أندرياس لاجونا المعروف جيدا بأعماله العلمية، والمؤلف المفترض لكتاب بعنوان *Viaje de Turquía* الذي نشر

في عام ١٥٥٧ ويروى على شكل سيرة ذاتية زائفة – مغامرات بدرو دى أورديمالاس، الذي أسر في أغسطس من عام ١٥٥٢ في عرض البحر أمام جزيرة بونزا واضطر لتحمل التجارب الشاقة للمجدف في السفن والعبد في القسطنطينية، قبل أن يحرر نفسه من ذلك بالتظاهر بأنه طبيب – بفضل العناية الإلهية التي أمدته ببعض الكتب – ومعالجته هكذا للباشا سيده وحتى السلطانة على حد سواء.

ولكن إذا كانت رواية يمكن أن تستخدم كشهادة غير مباشرة لمغامرات أكثر عجبا من الحكايات الأدبية التي تعيدها إلى الأذهان فإنه كان يحدث أيضا العكس : فوراء القصص الأدبي، كان يمكن أن تكمن تجربة حقيقية. كما حدث لأشهر عبد من البرابرة، ذلك المدعو ميجويل دى سيرفانتس الذي أسره القراصنة البرابرة الذين جروه في الأغلال إلى الجزائر، في أثناء رحلة من نابولي نحو أسبانيا. وبعد أن حاول الهروب مرات عديدة بلا جدوى أطلق سراحه فيما بعد في أعقاب دفع فدية في عام ١٥٨٠. ومن تجربته سيترك لنا شهادة مؤثرة في الفصول ٣٩–٤١ من *Don Chisciotte*، "قصة" الـ *cautivo*. والجانب الأروع من مغامرة الـ *cautivo* ميجويل سيرفانتس – الذي سيتعين عليه فيما بعد الدفاع عن نفسه من تهمة مهادنة المسلمين لدرجة اعتناق الإسلام – كان علاقته بحاكم الجزائر، حسن باشا، الذي لم يعاقبه على محاولاته المتكررة للهروب، ولكنه اجتباه لنفسه.

والفكرة هي أنه يوجد بين وضع الأسير المسيحي ووضع المرتد ليس فقط تكرار لنفس الظواهر، ولكن هناك أيضا نوع من التشابه. ولن يتمكن أحد إطلاقا من هتك ستار الصمت الذي يرجع لأربعة قرون مضت والذي يفصلنا عن لغز الاستلطاف المتبادل بين ميجويل وحسن. وعلى أي حال فإن سيرفانتس في معارفه المتعلقة بالعالم الإسلامي، كان يتجاوز الآفاق الأندلسية والمغربية التي كانت تخص عادة الأشخاص المثقفين في بلاده. وكان العالم المثقف الأيبيري يشعر بالألفة مع التاريخ والحضارة العثمانية وهذه هي خلفية العمل المسرحي *El otomano famoso*، بين نهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر من لوبى دى فيجا إلى عثمان، مؤسس العائلة التي استمدت منه الإسم.

وكان الباى صديق سيرفانتس مرتدا دلماتيا : وكان هناك مثله أناس تحولوا إلى "أتراك" مثل الحكام السابقين للجزائر من بارباروسا نفسه إلى السرديني حسن أغا، إلى حسن "الكورسيكي"، حتى *Uluj-Ali* القادم من كالابريا ؛ وكان هناك الكثير من المرتدين الذين أصبحوا في النهاية قادة للأسطول وقادة حكوميين في الأقاليم الداخلية. وكان الذين حققوا نجاحا في عملهم في الجزائر من القادمين من جنوا

وفينيسيا ؛ ولكن كان هناك أيضا أناس من كالابريا وصقلية ونابولى وألبانيا وفرنسا وبعض اليهود. وقد صاحبت الشهرة أوستا موراتو، القادم من ليجوريا، والذي أصبح حاكما لتونس في عام ١٦٣٧ حتى أنه أسس أسرة – أسرة المراديين– بقيت في السلطة حتى أوائل القرن الثامن عشر ؛ وعلى "الصغير"، وهو أصلا من فينسيا، وحكم الجزائر أساسا بين عامي ١٦٣٠ و١٦٤٥. وبعد منتصف القرن السابع عشر فقط بدأت شهرة المرتدين من أصول بحر أوسطية تصبح أكثر ندرة : فقد استبدلوا في جانب منهم بمرتدين آخرين – وخاصة من الإنجليز والفلمنكيين – كان يقال لهم *"ponentini"*.

وقد صاحب انحلال الإمبراطورية أيضا، حتما، التضاؤل المتزايد في دور المرتدين. باستثناء حالات خاصة كما هو مفهوم : كما في حالة النبيل الفرنسي الكونت كلود ألكسندر دى بونيفال، الذي ربما يستحق بعض الكلمات. فقد ولد في ١٦٧٥، وهو ينحدر من عائلة كبيرة وهو من أقارب الكونت فينيلون وكان الكونت عقيدا في الجيش الفرنسي ؛ وترك الخدمة العسكرية في ١٧٠٦ (وحكم عليه الفرنسيون بالإعدام) لينتقل إلى جانب الإمبراطوريين، حيث حصل على رتبة فريق ؛ وكان لفترة طويلة مساعدا لإوجينيو دى سافويا، حتى وصل إلى خلاف معه أيضا. وقد اتهم بالخيانة العظمى وأدخل سجن سبيلبرج، وهرب منه ؛ وبعد أن أصبح ممتعضا من المجتمع المسيحي، وجد مأوى في النهاية في اسطنبول – حيث عين قائدا لجيش السلطان – وأصبح شخصية بارزة تحمل اسم أحمد بونيفال باشا في الإصلاحات العسكرية للسلطان محمد الأول، مع تقاربه من جديد مع وطنه الأصلي بفضل الصداقة مع سفير لويس الخامس عشر في اسطنبول الماركيز فيلنيف.

وكثير من هذه المغامرات البحر أوسطية تستحق منا أن نتذكرها قليلا. كان قراصنة طرابلس قد قاموا بأسر أوراتسيو باترنو كاستيللو، من عائلة نبلاء سان جوليانو في كاتانيا، وهرب في ١٧٨٣ لقتله زوجته : وقد اعتنق الإسلام واتخذ اسم حمد، وأصبح مترجما واستطاع أن يحكى مغامراته للآنسة توللى شقيقة القنصل الإنجليزي في المدينة الأفريقية. وهناك أرستقراطي صقلي آخر، هو الأمير جوفان لويجى مونكادا الذي أبحر في يوليو من عام ١٧٩٧ من باليرمو إلى نابولي واعترضه التونسيون (الذين ربما كانوا على اتفاق مع قائد السفينة) واستعاد حريته بعد ذلك ببضعة أشهر فقط بعد أن التزم بدفع فدية كبيرة. ولكن بمجرد عودته إلى صقلية، رفض الأمير الوفاء بوعده. ونشأت عن ذلك دعوى

قضائية طويلة : وتوجه باى تونس للمحكمة الملكية للدفاع عن آرائـه، وامتـدت القضية لعقود عديدة.

وبالطبع، بعد فترة طويلة نسبيا كان الكثير من المرتدين – الذين تم طهورهم، إن لم يكونوا قد تمكنوا من تجنب هذا الإجراء – يعودون إلى الوطن ويعلنون عن توبتهم لكي يقبلوا من جديد في الكنيسة. ومن الصعب أن نفهم حالة بحالـة مـدى صدق وعمق تحولهم عن دينهم، ومدى صدق وعمق عودتهم إلى ديـن آبـائهم. وبالنسبة لكل من هذه القصص التي حفظتها الأوراق لنا، يبقى صـمت القـرون بالنسبة لقصص أخرى لا نهاية لها ابتلعها الماضي إلى الأبد.

وبداية من القرن السابع عشر تقلص إلى غير رجعة نشاط حـرب القراصـنة وكان هذا أساس تحول جماعات الضغط من المرتدين على قمم المجتمع العثمـاني ونظام الأسرى والعبيد في كلا الجانبين. ولكن بعد ذلـك بقـرن اسـتمر النـاس يشعرون بالخوف في صقلية وفى سردينيا. وفى ١٧٩٨ حدثت غارة تونسية على جزيرة سان بيترو بالقرب من ساحل سردينيا وأدت إلى أسر ألف شـخص. وقـد حدث تفاقم في نشاط القرصنة الإسلامي بداية من عامي ١٨١٥-١٨١٦ واسـتمر لبضعة أعوام، ليضرب جنوب إيطاليا وتوسكانا والجزيرتين الكبيرتين في البحـر التيرانى. وهناك مغامرة متأخرة لأسير من أهل شمال أفريقيا كانت مـن نـصيب راهب يدعى فليتشى كارونى، الذي أسره القراصنة البرابرة واقتيد إلى تونس فـي يونيو من عام ١٨٠٤، ومن هناك تمكن من العودة إلى وطنه بعد بضعة أشـهر. ولكن كان من الواضح الآن أن مناخ توقعات الأسر نفسها في أرض الكفار قـد زال التوتر عنه كثيرا. ولم يكن من الممكن أن تولد أبدا *Entführung aus dem Sarail* لفولفجانج أماديوس موتسارت والـ *Italiana in Algeri* لجواكينو روسينى، لو لم تكن قد تحسنت في نفس الوقت ظروف الأسرى المسيحيين. ومن ناحية أخرى لم تكن ستكتب أبدا، لو أن خطر الوقوع في الأسر لم يمثل كابوسا للمسيحية لزمن طويل.

وقد أدى تناقص أنشطة القرصنة التركية والبربرية إلى نتيجة عكسية أيضا في انكماش الأنشطة البحرية والقرصنة سواء لفرسان مالطـة وسـانتو سـتيفانو أو للقراصنة الخصوصيين المسيحيين في البحر المتوسط : وهى أنشطة كانت قويـة خاصة في فترة الثلاثين عاما من ١٥٨٠-١٦١٠. وعلاوة علـى الـرد ضـربة بضربة على الهجمات الإسلامية بعمليات انتقامية مناسبة كانـت هنـاك الحاجـة للأيدي العاملة من العبيد للتجديف على متن السفن الشراعية وللعمل فـي القـلاع الساحلية. وكان يجرى الاستيلاء على الأسرى سواء من الشرق الأدنـى أو مـن المغرب : ومن الحالات الشهيرة نهب حمامات، في أغسطس مـن عـام ١٦٠٢،

حيث قامت سفن أتباع سان ستيفانو بالاستيلاء على عدد يتراوح بين أربعمائة وسبعمائة شخص ؛ ونهب بونا في سبتمبر من عام ١٦٠٧، الذي أثمر عن ما يقرب من ألف وخمسمائة من العبيد، حتى أنه جرى الاحتفال به، في نهاية القرن، من خلال ملحمة شعرية مملة للغاية لفنتشنتسو بياتسا، بعنوان *Bona espugnata*. وبين عامي ١٧٠٨ و١٧١٥ قام القراصنة المسيحيون أيضا – على سبيل المثال من ليفورنو، تحميهم "رخصة قرصنة" من الجراندوق في توسكانا – بنهب الساحل الفلسطيني، وتسببوا في مشكلات كثيرة للسلطات القنصلية الفرنسية التي كان السلطان يعتبرها "حامية" (وبالتالي مسئولة) عن الغربيين في تلك المنطقة : ولأن سفن القراصنة في معظم الأحيان أيضا كانت تمر على أنها سفن غير مؤذية لنقل الحجاج المتجهين إلى الأراضي المقدسة. وكان المسيحيون في المكان بمثابة كبش فداء في هذه الحالات، لتعرضهم للانتقام من قبل المسلمين الغاضبين.

كانت حوادث الأسرى المسلمين في الأرض المسيحية في البحر المتوسط أقل تنوعا وأقل حظا من أمثالها المسيحية. لم تكن هناك ظاهرة ملحوظة من "المرتدين" من الإسلام إلى المسيحية : إما لأن الدين الإسلامي كان أكثر قوة من المسيحي أو لأنه كانت هناك ضغوط قليلة (ولا نتحدث هنا عن عملية تبشير) كانت تمارس على الأسرى حتى يتحولوا عن دينهم. وكان التحول عن الديانة سيصبح غير اقتصادي : فالعبد الذي أصبح مسيحيا كان سيتعين إطلاق سراحه. والحالات القليلة من التحول عن الدين كان يحتفل بها على أنها أحداث هامة : وهو ما يؤكد ندرتها. ومن ناحية أخرى كان يفضل الاحتفاظ بالعبيد لأي تبادلات محتملة للأسرى. وفى ١٥٤٣ كان باولو الثالث قد أسس في روما مدرسة للمعتنقين الجدد للدين كان من المقرر أن تستضيف مسيحيين من أصل يهودي أو إسلامي تحولوا عن دينهم ولكن سكانه لم يكونوا أبدا على درجة كبيرة من الكثافة. ولكن هناك مصادر مسيحية – ونادرا ما تؤكدها أنباء إسلامية – تتحدث عن تعاطف دفين من جانب العديد من المسلمين تجاه المسيحية. كانت عقوبة الردة في دار الإسلام هي الموت مما أدى على أي حال لأن تبقى مثل هذه الحالات – إن حدثت ومتى وجدت – في سرية تامة.

ولكن مناسبات الالتقاء السلمي والمشاركة الثقافية كانت كثيرة في "القارة السائلة" البحر أوسطية. كان منطقة للحدود، وكان كذلك أيضا للتبادل والانصهار إلى حد ما. وكانت هناك الكثير من الأضرحة التي يزورها المسيحيون والمسلمون: وكانت الديانتان تتلاقيان وتتقاطعان، دون أن تنصهرا، في أماكن مثل كنيسة التجلي في القدس، و"مغارة اللبن" في بيت لحم، وسان جورجو في اللد في

فلسطين، وسانت كاترين في سيناء، والضريح المريمى في المطرية بالقرب من القاهرة (ومن هناك يستخلص البلسم الشهير)، و *Nostra Signora del Buonconsiglio* في سكوتاري في ألبانيا ومغارة العذراء في لامبيدوزا. وكان الضمير العميق بالأصل الإبراهيمى المشترك للمسيحية والإسلام والتوقير المؤثر عند المسلمات للسيدة مريم هو الذي شجع هذه الأشكال من التلاقى، والتي لم تكن تتضمن في نفس الوقت ظواهر حقيقية للتوفيق بين الديانتين.

نحو ميلاد الدراسات الإسلامية

شارك فن جوتنبرج مبكرا في نشر الثقافة الإسلامية. وليس معنى هذا أنه كانت تنشر نصوص إسلامية : ليس على الفور، على الأقل. ولكنها كانت كتابات تتحدث عن الإسلام، على الرغم من أنها كانت تتحدث عنه بصورة سيئة للغاية (سواء لأنها كانت تقدمه بصورة غير صحيحة، أو لأنها كانت تكيل له السباب)، هذا ما كان يحدث. كانت إشارة على أن "ميزانا ثقافيا" قديما (مماثلا للميزان التجاري) كان يقلب علاقاته. وحتى ذلك الحين، كان الإسلام قد عرف المسيحية أفضل مما عرفته المسيحية : ولكن الاهتمام الذي أثاره التقدم التركي في أوربا مع تزايد عدد التجار والرحالة الأوربيين إلى أرض الإسلام، كان يغير الآن بالتدريج من توازنه. وفى حين كان المثقفون المسلمون لا يهتمون كثيرا بتعميق معرفتهم بالمسيحية، كان يحدث العكس بين المسيحيين.

كانت توجد منذ أوائل القرن السادس عشر أدبيات يمكن أن نصفها بأنها "إسلامية" : وكانت تنشر من ناحية الأخطاء القديمة للخلاف في القرون الوسطى، ولكنها كانت من الناحية الأخرى تركز الانتباه على ظاهرة كانت قوتها واسعة النطاق. وفى عام ١٥١١ أرسل عالم الدين *Jacques Lefebvre d'Etaples* إلى المطبعة صورة بالفرنسية لكتاب ريكولدو دا مونتى كروتشى القديم، منعشا بهذا شهرته وأخطاءه. وقد كان هذا يسهم في تلويث المعلومات، ولكن أيضا في انتشارها : كان هناك قمح وقشر قمح ينموان معا وكان من المستحيل الفصل بينهما في تلك اللحظة.

وفى القرن الخامس عشر كان الراهب الشارتري ديونيجى دى رايكل، بتشجيع من الكاردينال كوزانو، قد ألف على مهل حواره في كتاب *Contra*

Alchoranum.وقد طبع بعد وفاته، بعد ما يقرب من ثمانين عاما من تأليفه، في عام ١٥٣٣، بينما كان المسيحيون والأتراك يتصادمون في السهول المجرية، وكان جانب من النبلاء المجريين قد اختار، ضد آل أزبورجو الديانة البروتستانتية والتحالف العثماني ؛ وقد أهدى كتاب ديونيجى إلى شقيق كارلو الخامس، فرديناندو الذي كان آنذاك ملكا للمجر وبوهيميا وسوف ينتخب بعد ذلك بعشرين عاما إمبراطورا.

وبعد ذلك بعشر سنوات تقريبا، في عام ١٥٤٣، خرجت إلى النور في بازل، عن دار نشر أوبورينو الشهيرة، الترجمة اللاتينية للقرآن التي أعدت في منتصف القرن الثاني عشر على يد روبرتو دى كيتون : التي ترجع لأربعمائة عام، وفى حالة جيدة في نفس الوقت. وكان ناشرها هو تيودور بوخمان، وهو رجل دين من زيورخ ، ومشهور في عالم الدراسات بالاسم اللاتيني المتكلف، بيبلياندر. وفى كتابه الذي يحمل عنوانا طويلا هو *Machumetis saracenorum principis vita ac doctrina omnis , quae et Ismahelitarum lex et Alchoranum dicitur*، كانت قد ظهرت أيضا *Apologia* كتبها بيبلياندر نفسه، و*Praemonitio* للوثر، وسلسلة من النصوص الأخرى، من بينها طبعات ريكولدو دا مونتى كروتشي ونيكولو دى كوزا. وقد انتهى كل شيء ليصب في عمل كبير ونصب تذكارى حقيقى للدراسات الإسلامية الناشئة : وهو كتاب *Sylloge scriptorium adversus mahomedanos*، الذي نشر في بازل بين عامي ١٥٤٣ و ١٥٥٠. والمؤسف فقط أننا لم نستطع الاستفادة منه في المنطقة الكاثوليكية : فالإهانات *ingiurie suo more solito* التي تقيأها الدكتور لوثر ضد الكنيسة الرومانية المقدسة دفعت البابا ألساندرو السابع لحظر تداوله في بلاد روما التي بقيت مؤمنة.

وفى العالم البروتستانتي، كانت الأمور تسير بصورة مختلفة : حتى أنهم في بازل اقترحوا ترجمة النصوص اللاتينية المقدمة من بيبلياندر إلى الألمانية، بحيث يمكن أن يستفيد منها جمهور أكبر. ولكن عالم الدين الكبير *Bonifaz Amerbach* نصح بعدم التصرف فيها : من الأفضل ألا نضع في متناول أناس لا خبرة لهم آراء ديانة يمكن أن تسحر بعض البسطاء، إن لم تقنعهم مباشرة .

وإذا كانت نصوص القرون الوسطى التي نظمها وأعاد ترتيبها بيبلياندر تسهم في نشر معلومات خاطئة ومغرضة عن الإسلام واستشهادات محرفة ومفهومة خطأ من القرآن، فإن الاهتمام المتزايد بالعالم الإسلامي والحاجة لمزيد من الأخبار الدقيقة – وكلاهما نتج عن نجاحات سليمان والأهمية المتزايدة دائما التي كانت تحظى بها أسواق الإمبراطورية التركية بالنسبة للاقتصاد الغربي – فرضا تطور

كتابات سياسية وأبحاث رفيعة المستوى. والدليل على ذلك، على سبيل المثال، المساحة المخصصة للإسلام بصفة عامة وللعالم العثماني بصفة خاصة، في ذلك الكتاب الرائع *De orbis terrae concordia*، الذي نشره جيوم بوستيل في عام ١٥٤٤.

كان بوستيل قد حمل معه إلى فرنسا، من غاراته الشرقية العديد من المخطوطات العربية والسريانية والأرمينية الثمينة. كان أستاذا في الـ *Collège de France*، ثم انضم لفترة وجيزة لجمعية يسوع التي سرعان ما طرد منها، وقد نشر من بين الأشياء الأخرى كتابا في اللغويات المقارنة وقواعد اللغة العربية، بهدف وضع هذه المعارف لخدمة حلمه : تأسيس حضارة وديانة عالميتين.

وعلى الرغم من أنه كان ينهل بكلتا يديه من نصوص بيبلياندر، فإن بوستيل قلب توقعاته رأسا على عقب منفذا ثورة منهجية حقيقية : إذا كان المخالفون قد أكدوا على الاختلافات بين المسيحية والإسلام بحجب وإخفاء أوجه الشبه والتلاقي، فإنه كان يتخذ مبدأ مخالفا تماما. وكان هذا يقوده حتما للعودة إلى قضية الترجمات اللاتينية للقرآن، والتي كان بمقدوره مراجعتها مباشرة، بفضل معرفته اللغوية : مع نتائج أظهرت التقدم على مستوى فهم النص، وكذلك التعقيد التأويلي غير العادي، حتى أنه كان يعيد النظر باستمرار في النتائج التي تحققت.

ولا يدهشنا في نفس الوقت أن بوستيل قد جلب على نفسه انتقادات الرقابة من كل الأطراف ؛ وأن أشخاصا مثل المثقف هنرى إستين كانوا يصفونه بأنه *monstre exécrable* "لتعاطفه" مع الإسلام. وفى نفس الوقت كانت مقارنته بين الدين الإسلامي والعقائد المسيحية البروتستانتية تنتهي فعليا بسلسلة من الموضوعات المؤيدة لقانون النبي (صلعم). ومن ناحية أخرى، فإن اقتراحه بضرورة وجود توازٍ بين الإسلام والبروتستانتية إلى حد التسليم بوجود *calvinoturcismus*، قُورن بموضوع البحث عن اتفاق عالمي، بدا للبعض أنه استئناف لخيوط الإلهام في *de pace fidei* لكوزانو وبدا للبعض الآخر أنه سير في مسارات طرقها بعد ذلك روسو وكانط، أعطى الانطباع بوجود جرأة متناقضة. ومع ذلك فإنه تحت راية تناقضات من هذا القبيل بدأ بالفعل في ترنتو المجلس الذي كان ينتظر منه استئناف الحملة الصليبية المضادة ضد العثمانيين، في حين كان البعض يتساءل ما إذا كان هذا سيؤدى إلى إدانة حاسمة للكلفانيين أم إلى مصالحة معهم.

هل كان ما فعله بوستيل بالتالي "هروبا إلى الأمام"، في عالم لم يُعَدّ بعد لقبول أصوات أكثر إنصافا حول عدو الصليب؟ أم أنها الثمرة المعزولة لعلم جارف،

خارج السيطرة، ومذهل ولكنه مهووس؟ ربما لا شيء من كل هذا : إن الإحساس الذي نخرج به من تحليل السياق الذي خـرج فيـه إلـى النـور *De orbis terrae Concordia* هو أن أوربا كانت الآن ناضجة لقفزة نوعية حاسـمة فـي المعـارف الموضوعية المتعلقة بالإسلام. وقد عاد بوستيل مرات عديدة للاهتمام بـالأتراك، كما في كتاب *De la République Turcs*المنشور في ١٥٦٠.

وفى أرض أسبانيا، حيث كان الصراع الفكري ضد الإسلام مجرد جانب مـن جوانب قمع المسلمين السابقين الذين تحولوا عن دينهم بالقوة، وهم الموريسكيون، كان الكاردينال فرانشيسكو إكسيمينيس دى تشيزنيروس – بوصفه كبيـر أسـاقفة طليطلة ومحقق أسبانيا الكبير – قد عمل بلا كلل على جمع المخطوطات العربيـة من كل نوع لحرقها في نيران *Auto de Fé* هائلة في الميدان الرئيسي من مدينتـه. ولكن إجراءات من هذا القبيل، كان لابد أن تبدو غير كافية، لأن الكتيبات المعادية للمسلمين تكاثرت : مثل أوبريت *Confusión*، الذي صدر في ١٥٤٠ في أشبيلية من إعداد جوفانى أندريا الذي قدم نفسه على أنه خبير قانونى مسلم، ولكنه في الحقيقة كان يحاول تحت هذه اللافتة إضفاء الشرعية على الموضوعات التقليدية للخـلاف المسيحى. ويبرهن العناد الذي كانت تنتشر به هـذه الإفتـراءات المطبوعـة، *e contrario*، على أن مصداقيتها تعرضت لتجربة صعبة من انتشار وذيوع مزيد من الأخبار التي يمكن تصديقها والتي كانت تكذبها.

فقد صدر بالفعل في ١٥٤٧ في الأرض التي ربما كانت مفتوحة أكثر من أي أرض أخرى للاتصالات مع العالم التركي، وهى جمهوريـة فينـسيا أول نـسخة للقرآن باللغة العامية الإيطالية : التي كانت تستخدم – كالمعتاد – الترجمة اللاتينية لروبرتو كيتون، مع التلاعب فيها بشدة واختصارها ؛ ولكنها كانت تـدعى أنهـا نهلت مباشرة من النص الأصلي. وكان معد النسخة الإيطالية، أندريا أريفابينى، قد أهداها لجبرييل بويتز بارون أرامون وسفير فرنسا الجديد لدى الـسلطان والـذي واصل سياسة التحالف مع الباب العالي التي أرادهـا ملكـه. واسـتكمل خطـاب الإهداء من أريفابينى لسيد أرامون بالملخص التاريخي المعتاد حول شبه الجزيـرة العربية وحياة النبي (صلعم) والدين الإسلامي .

وكانت الأدوات هي المعتادة : الإسلام ردة مسيحية، ومجموعة متشابكة مـن التناقضات. مرة أخرى سوء تفاهم، وأحكام مسبقة: ولكن تكاثر المنشورات كـان على أي حال مؤشرا لاهتمام لم يكن من الممكن ألا يثمر ثمارا أفضل، على المدى الطويل.

وقد تصاحبت وتشابكت الأهواء الكاثوليكية والبروتستانتية، التي كانت تترجم تارة إلى منافسة على صعيد الانطلاق الصليبي وإلى اتهامـات متبادلـة بممـالأة الإسلام تارة أخرى، طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر، مع تطـور الدراسات العربية والتركية والإسلامية التي أصبحت أشد قوة، والتي ستجد فـي القرن التالي تنظيما علميا حقيقيا. وكان بوستيل المعتاد قد قدم فـي هـذا الـشأن إسـهاما هامـا بكتابـه *Histoire et consideration de l'origine , loi et costume des Tartares , Persiens, Arabes , Turcs*، المنشور في باريس في ١٥٦٠ .

ولا شك في أن هناك التباسات وفوضى وأخطاء (وأحيانا ما نتساءل مـا إذا كانت عفوية) كثيرة بين صفحات مؤلفين لامعين أيضا، انكبوا في نفـس الوقـت على قضايا التاريخ العام مثل جرونسيو وبوتيرو وبارونيو ؛ ولم يكن من الـسهل تجاوز وتنحية التقليد الخلافي الراسخ ولذا فإن قلة من المؤلفين هم الذين تنـاولوا الإسلام وقاوموا بصدق الميل لدحض مذهبه. وقد سجلت بعد ذلك أشكال من عدم الفهم وضآلة المعلومات عند شخصيات مثل بليز باسكال، الذي كان يتساءل فيمـا يتعلق بمحمد (صلعم)، حول ما إذا كان الكتاب المقدس قد أعلن عنه – فأظهر أنه فقير تماما في الأخبار المتعلقة بالجدل حول نبـوءة "القـرن الـصغير" الـشهيرة لدانيال– وما هي الأخلاقيات التي مارسها وما إذا كان قد قام بمعجزات : حيـث كان لابد أن يعرف على الأقل من بوستيل أن القرآن يؤكد بحسم شديد أن النبـي (صلعم) لا علاقة له ببُعد المعجزة.

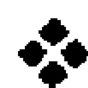
ويتزايد في نفس الوقت ظهور المتخصصين الحقيقيين. مثل إربينيوس، توماس فان إربين، أستاذ اللغات الشرقية في ليدا، الذي نشر في عام ١٦١٣ كتابـا فـي النحو العربي ؛ وإدوارد بوكوك، الأستاذ في أكسفورد والمؤلف في عـام ١٦٣٩ لكتاب *Specimen historiae Arabum*؛ والمستعرب جوهان هوتينجر، الأسـتاذ فـي زيوريخ ثم في هايدلبرج، الذي ألف كتبا في النحو، والمفردات ومجموعات مـن المصادر ؛ وجبريل الصهيوني، المستشرق في روما ؛ ويوسف سمعان السمعانى، السورى، مدير المكتبة الفاتيكانية مع البابا كليمنتى الثـاني عـشر وجـامع الـ *Biblioteca Orientalis* ؛ وإبـراهيم الإقلينـي ("Abrahm Echellensis") ، المـؤرخ والفيلسوف، ومؤلف *Synopsis propositorum* المنشور في ١٦٤١. وقد قدم بعض الرحالة وكتاب اليوميات المثقفين والشجعان في نفس الوقت، مثل الرومانى بيترو ديللا فاللى، إسهاما حاسما للعلوم الاستشراقية الناشئة. ونشأ في نفس الوقت أيـضا تأريخ استشراقى ، موجه بصفة خاصة لدراسة العالم العثمانى : كما نرى جيدا في

كتاب جوفانى ساجريدو حول الـــسلاطين، الـــ *Memorie istoriche de' monarchi ottomani* الصادر في فينسيا في ١٦٧٧.

كانت هزيمة الأتراك تحت أسوار فيينا، في عام ١٦٨٣، في جوانب عديـــدة، نقطـــة نهايـــة وإشـــارة التحـــرر النهـــائي مـــن كـــابوس الهـــلال، ومـــن الـــ *Türkenfurcht*. وأصبح من الممكن الآن دراسة الإسلام والإمبراطورية العثمانية بمزيد من الهدوء. ولم تغب، بالطبع، الانعكاسات الانفعالية : فقد أعلن الكثيـــرون أن انتصار الأسلحة المسيحية كان علامة على التأييد الإلهي، بينما انهالت الكتابات المتعلقة بتحول الكفار عن دينهم، وهو ما اعتبره البعض أسهل تحقيقـــا الآن وقـــد عاقبهم الله على كبريائهم. كان هذا على سبيل المثال رأى تيرسو جونزاليس دى سانتاللا في كتابه *Manuductio ad conversionem mahumetanorum*، المنـــشور فـــي مدريد بعد أربع سنوات من الحدث المشئوم في فينسيا. وكانت ثمرة نهاية الخوف وبالتالي التناقص التدريجى للأسباب التي ألهمت لقرون طويلة الأدب الخلافيّ، في نهاية القرن السابع عشر، العمل الضخم الذي قام بـــه رجـــل الـــدين لودوفيكـــو ماراتشى القادم من مدينة لوكا، والذي ترجم بأمانة وبالكامل إلى اللاتينيـــة كتـــاب الإسلام المقدس مقدما له أيضا تفسيرا هادئا : وهو كتاب *Refutatio Alcorani* وبعـــد ذلك كتاب *Alcorani textus universus* ، وهما كتابان نشرا في بادوفـــا فـــي عـــامي ١٦٩١ و١٦٩٨ على التوالي.

وفى تلك الأعوام بالذات، في ١٦٩٧ – صدر في باريس بعد عامين من وفـــاة مؤلفه – الـــ *Bibliotèque orientale* لبارثيليمى ديربيلـــو مـــصحوبا بـــــ *Discours* لأنطوان جالاند وهكذا بدأت الدراسات الإسلامية المنتظمة.

ومرت الدراسات التركية، التي كان يتعين بالطبع أن تسير جنبا إلى جنب مـــع الدراسات العربية والإسلامية بنمو أكثر بطأ : ولكنها سارت على أي حال خـــلال القرن الثامن عشر حتى الدراسة الممتازة حول *Principii della grammatica turca ad uso dei missionari apostolici a Costantinopoli* لكوزيمـــو دى كاربونيـــانو متـــرجم الـــمفوضية القسطنطينية في مملكة نابولى، والمنشور في روما في ١٧٩٤. وقـــد سارت خلفها أيضا الدراسات الإيرانيـــة بفـــضل Abraham Hyacinthe Anquetil du Perron، والدراسات الكردية، بفضل الأب الدومينيكانى ماوريتسيو جارتسونى.



١١

قرن الحديد وقرن التنوير

خسوف الهلال

كان انحدار الإمبراطورية العثمانية، في النصف الأول من القرن السابع عشر لا يزال يبدو بعيدا، إن لم يكن مستحيلا : كانت اسطنبول لا تزال عاصمة عملاق مهاب. ولكن الغرب كان قد بدأ قفزته بفضل تفوق تكنولوجي لم يكن بوسع العالم العثماني إزاءه سوى أن يضع نفسه في وضع الزبون السلبي. وكانت حقوق الامتياز الاقتصادية والمالية والضريبية الكثيرة التي منحت بصفة خاصة للفرنسيين والهولنديين والإنجليز قد وضعت الإمبراطورية في حالة لا رجعة فيها لاقتصاد "خاضع للسيطرة". وكانت خزانات السلاطين تنفتح بفضل عوائد الامتيازات، ولكن لم تولد برجوازية محلية.وكان المجتمع التركي يتميز دائما بتزايد المسافة بين أرستقراطية عسكرية وإقطاعية من الأثرياء الكبار وسكان المدن والقرى الذين يتجهون لمزيد من الفقر ؛ أما الطبقة المتوسطة الهزيلة من المزارعين الصغار، والتجار المتواضعين والمحرومين من الوسائل الائتمانية، وأصحاب الدكاكين والحرفيين فلم تكن كافية للنهوض باقتصاد تنافسي بالنسبة لأوربا.

وأمام الضغط الأوربي الذي يزداد ضراوة، كانت الحكومة التركية قد ردت أيضا في البداية محاولة الاستحواذ على الطرق والتقنيات التي تستطيع أن تقدم لاحتياجاتها ردا مناسبا : ولم تستطع تطوير اقتصاد ولا تكنولوجيا خاصة بها، ولكنها اعتمدت على التجار والممولين والمهندسين الغربيين. وفى الأراضي الشاسعة للإمبراطورية كانت البيروقراطية التركية دائما أكثر شراهة وعجزا : كانت هناك نزعة ضريبية عمياء وغبية – وهى أيضا في معظمها وريثة التقاليد البيزنطية – تخنق كل مبادرة وكانت تعرف فقط الفساد الملازم للنهب.

ولكن في الفترة بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، كان يبدو أن الباب العالي قد نظم جيدا علاقاته مع القوى الأوربية. كان هناك سلام دائم قد جرى التوقيع عليه في ١٥٨٠ مع أسبانيا، بينما انتهت حرب ضد الإمبراطورية الألمانية في البلقان في ١٦٠٦ بالتنازل للأتراك عن ترانسيلفانيا في مقابل التخلي من جانبهم عن تحصيل الجزية بالنسبة للمجر كلها. ولكن الملك الذي فتح المجال للعديد من الآمال، السلطان الشاب مراد الرابع، فاجأه الموت في عام ١٦٤٠ بعد أن حقق ضد خصمه في الشرق، الشاه عباس، نصرا جعله سيدا لأذربيجان وجورجيا.

كان الالتزام الشرقي لمراد سيعرضه لمخاطر كبيرة، لو أن الغربيين حاولوا القيام بهجوم جديد. وقد بدا بالفعل أن شيئا كان يتحرك، بدءا من مملكة فرنسا. وفى العقد الثاني من القرن السابع كان ريشيليو وسكرتيره-المستشار، الكابوتشينو الأب جوزيبى، قد شجعا وساندا أيضا لدى الفاتيكان مشروع الحملة الصليبية لكارلو جونزاجا دوق نيفير الذي كان حفيدا من ناحية الأب لأميرة من سلالة آل باليولوجى ،آخر ملوك القسطنطينية، وكان يحلم بعملية كان يتعين أن تنقله للعرش الإمبراطورى لأجداده. وكان اليونانيون في موريا قد بعثوا لسليل طغاتهم *despotai* المسيحيين بوفد حزين، معربين عن استعدادهم للتمرد ؛ وكان يمكن لفينسيا أن تساندهم. وكان المجد الصليبى ضروريا لتدعيم عائلة البوربون الجديدة، التي كان عليها أيضا أن تعمل على نسيان أصولها البروتستانتية الفرنسية، وليس من قبيل الصدفة أن الكالفينى جاك بونجار، كان قد خصص في عام ١٦١١ للملك الشاب لويس الثالث عشر مجموعة قيمة من المطبوعات للوقائع الأولى الصليبية، وكتابي *Gesta Dei per Francos*.

وقد كتب الأب جوزيبى للبعثة الجديدة قصيدة قوية من ٤٦٣٦ بيتا من الشعر، الـ *Turchiade*، وبدأ سلسلة وثيقة من الاتصالات الدبلوماسية بين البلاط البابوى والسباودى والأسبورجي- الأسباني. ولكن بداية حرب الثلاثين عاما أدت إلى غرق أي اتفاق، وإذا كان الصراع الأوربى يمثل النجاة بالنسبة للباب العالى، المشغول ضد بلاد فارس، فإن النزاع التركى-الفارسى كان من ناحية أخرى حظا سعيدا بالنسبة للأوربيين الذين كان يمكن أن يتعرضوا بخلاف ذلك للهجوم من قبل الأتراك. فقد منع الأطراف الأوربية المتصارعة من ناحية أخرى من اللجوء صراحة أو خفية للتحالف مع السلطان كما حدث غالبا في القرن السابق.

ومن ناحية أخرى لم يكن بوسع أي قوة كاثوليكية وبحر أوسطية - وبالنسبة للآخرين كان الأمر مختلفا- أن تعفى نفسها، على الأقل على المستوى النظري

وعلى المستوى الرسمي، من إظهار التزامها ضد القوة التركية والخطر البربري. وقد وجد البابا والإمبراطور وملوك أسبانيا وفرنسا وجمهورية فينسيا في ذلك إعاقة موضوعية للنشر الحر لمواردها السياسية والدبلوماسية، ولكن أيضا ذريعة جيدة لعرقلة موارد الآخرين.

ولكن من الناحية العملية كان هناك اتجاه للبحث عن نقطة اتفاق وصيغة للتعايش. وربما كان الصوت الأخير الكبير "المتنبئ" الذي كان يجمع بصورة قوية وصريحة المطالب الصليبية والحرب ضد التركي والرغبة في التجديد في العالم كان صوت تومازو كامبانيللا، ، في البداية مع كتاب *De monarchia Hispanica* الذي كتب في عام ١٦٠٠ في نابولي في سجن كاستيل نووفو وبعد ذلك، في عام ١٦٣٨، مع قصيدة *Ecloga* بمناسبة ميلاد ولي عرش فرنسا الذي حياه على أنه *orbis christiani Summa Spes* والذي سيصبح الملك الشمس، وهي صفة ستعجب جدا راهب كالابريا بلا شك. ولكن لا يجب أن يفوتنا مذاق الواقعية الدقيقة وما يبدو من العبقرية الاستراتيجية في توجيهات كامبانيللا في الصراع ضد الإمبراطورية العثمانية. ولم يكن الراهب تومازو يضع في الحسبان إطلاقا القوى السياسية الفعلية والظروف التاريخية الحقيقية في اللحظة التي كان يكتب فيها، وكانت مقترحاته تتحرك بمنطق الـ*renovatio saeculi* .

وفي عام ١٦٤٥ انتهت فجأة الفترة الطويلة من السلام النسبي في البحر المتوسط التي بدأت بالهدنتين بين تركيا وفينسيا في ١٥٧٣ وبين تركيا وأسبانيا في ١٥٨٠، عندما شن العثمانيون هجوما عنيفا ضد جزيرة كريت، و"كانديا" الفينسية. ولكن مقاومة فينسيا، التي فرضت على الجيش السلطاني إذلالا شديدا، أثارت في عام ١٦٤٨ ثورة الانكشاريين الذين وضعوا على العرش – بعد إسقاط السلطان إبراهيم الأول – محمد الرابع، وهو صبي في العاشرة من عمره تحت رحمة الصراعات ومكائد البلاط. وكانت هذه هي اللحظة المواتية لضرب القوة العثمانية: وخاصة وأن حرب الثلاثين عاما كانت قد انتهت وكانت معاهدات وستفاليا، الموقعة بالذات في نفس ذلك العام، تسمح لكل الدول بالانضمام إليها مع استبعاد التركي صراحة. وكان هذا يعني أن استئناف الأعمال الحربية تجاه العثمانيين ويقوى السلام بين الأوربيين. وهكذا أقيمت على فكرة الـ *pax inter christianos*، التي كانت تعتبر شرط الحروب الصليبية منذ القرون الوسطى، مقدمات الـ *mutua inter christianos tolerantia*.

وفي عام ١٦٥٦، حققت سفن فينسيا في عرض البحر أمام الدردنيل انتصارا تاريخيا. واعتقد الناس لبعض الوقت أن الإمبراطورية العثمانية قد انتهت بالفعل :

ولكن رئيس الوزراء الجديد، الألباني محمد كوبرولو، استطاع أن ينهض بها من جديد وقضى على جيوب المؤامرة والفساد في البلاط وأعاد النظام بلا رحمة للإنكشاريين الذين اعتادوا العصيان، وبدأ سياسة صارمة للإصلاح الضريبي فأعاد التوازن للموقف مع فينسيا من خلال إعادة غزو جزيرتي ليمنو وتينيدو.

وفي نفس الوقت كانت الحكومة التركية قد أعلنت سقوط تابعها جورجو الثاني راكوزي، أمير ترانسيلفانيا، واختارت مكانه شخصية تروق لها. وكان رفض راكوزي الإنسحاب قد أدى إلى نزول باشا بودا الميدان : وعند هذا الحد كان المجريون قد توجهوا إلى بلاط فيينا حيث كانوا ينتظرون منه مساندة في الأمور الترانسيلفانية. وفي عام ١٦٦١ أرسل الإمبراطور ليوبولدو الأول إلى تلك المنطقة جيشا، تعرض لخسائر فادحة ؛ وقد اجتاح الهجوم التركي المضاد الأباطرة ودفعهم حتى شمال غرب المجر. وعندما وصل العثمانيون في عام ١٦٦٣ إلى بريسبورجو تقريبا، شعرت فيينا نفسها بأنها مهددة وطلب الإمبراطور مساعدة المسيحية.

وفي هذه المرة لم يتمكن الملك الشمس نفسه من التراجع، بعد أن قام دائما بعمل دبلوماسي مؤيد للأتراك على الرغم من مطالبته بمجد صليبي لفرنسا. وانضم للجيش الإمبراطوري جيش فرنسي كبير : ووضعت كل القاعدة المسيحية تحت قيادة الفيلد مارشال الإمبراطوري رايموندو كونت مونتيكوكولي، الذي هزم جيش الـ *gran vizir* في الأول من أغسطس من عام ١٦٦٤، في معركة سان جوتاردو على الراب. ولكن الانتصار الكبير تبدد جزئيا من هدنة فاسفار التي استمرت عشرين عاما، والتي بقى الأتراك بفضلها ليس فقط سادة للحصون التي غزوها بعد ١٦٦٠، ولكنهم كانوا أيضا أحرارا في مواصلة حرب كريت بمزيد من القوة حتى سقوط كانديا، في عام ١٦٦٩.

كان يبدو أن كانديا قد محت سان جوتاردو. وفي التعاقب المعتاد للأحداث والجبهات بين البلقان والبحر المتوسط الشرقي، بصرف النظر عن علاقات القوة الفعلية، كان يبدو أن الدبلوماسية والدعاية تمليان القوانين الحقيقية للتوازن. وفي الحقيقة، كان الإمبراطور قد أظهر تساميا زائدا مع الباب العالي (وانهالت عليه انتقادات عنيفة جدا لهذا السبب)، لأنه كانت ترتسم بالفعل في الأفق أزمة الخلافة الأسبانية : وفي ظل رايات الحروب الصليبية ومجد سان جوتاردو، لن تدوم هذه العلاقة الرومانسية مع الملك الشمس.

الخوف الكبير الأخير

اشتعلت الأعمال العدوانية من جديد، نتيجة لأزمة جديدة نجمت هذه المرة عن حملة عسكرية للأتراك ضد بولندا. فبين يوليو وسبتمبر من عام ١٦٨٣ وصلت قوات رئيس الوزراء كارا مصطفى لمحاصرة فيينا؛ في حين قام الملك الشمس، على أساس قرارات "مجالس المصالحة" التي كان يعقدها، بضم أقاليم الألزاس واللورين والسار ولوكسمبورج لفرنسا وقام بغزو هولندا الأسبانية : وعلى الرغم من الدعوة الحارة للبابا نفسه، فإنه كان يرفض أي مساعدة لمدينة الجنوب المحاصرة من قبل الكفار.

لم يكن السلطان محمد الرابع يريد أن تصل الأمور إلى الحصار، بعد أن أثناه أيضا خان التتار وباشا بودا : فقد كانت عاصمة الأزبورجو في النمسا هدفا يمكن أن يطلق رد فعل كل العالم المسيحى. ولكن كارا مصطفى تنازل دون حذر أمام ضغوط ونصائح النبلاء المجريين الموالين للأتراك ؛ وكذلك، بلا شك، أمام توقعات استسلام سهل ونهب وفير. ومع ذلك كان القائد العام الإمبراطورى كارلو دى لورينا، يائسا من مواجهة العدو، بدون المساعدات التي كان يتعين أن تصله من ألمانيا وبولندا، على الرغم من امتلاكه لخمسين ألف رجل.

ولكن الدفاع الشجاع للمحاصرين، والمثال الرائع لقائدهم روديجر فون ستاريمبرج، والكلمة المتأججة للراهب الكبوتشى ماركو دافيانو سمحت لدوق لورينا وملك بولندا جان سوبيتسكى مع جيشهما من البولنديين، والسكسونيين والبافاريين بعبور غابة فيينا وهزيمة العدو في معركة كالينبرج، في ١٢ سبتمبر.

وقد بدا جنود الخيالة التابعين لسوبيتسكى آنذاك، بالأجنحة الكبيرة المثبتة على ظهر الدروع التي كانت تعلو خوذاتهم، كالملائكة المحررين والمنتقمين حقا. وبالكلمات المقدسة في الـ *Prologo secondo Giovanni*، *"Fuit homo missus a Deo cui nomen erat Johannes"* جرت تحية ملك بولندا هكذا في الـ *Te Deum* التي أنشدت من أجله في جميع كنائس المسيحية اللاتينية.

كان الانتصار رائعا وشاملا. وفي هروبه تخلى الوزير عن معسكره تاركا في أيدي المنتصرين كنزا حقيقيا : وبعد ذلك بقليل سيقوم الانكشاريون بشنقه بحبل من الحرير أرسله السلطان لاستخدامه عند الحاجة ، في معسكر بالقرب من بلجراد.

وغداة النجاح غير المتوقع لفيينا، والذي كان له صدى حماسي في كل العالم المسيحي، أُبرِمَ وشُنَّ هجوم أجبر محمد الرابع على التنازل عن العرش. واضطر السلطان الجديد سليمان الثاني للتقهقر على كل الجبهات – من بحر دازوف إلى البلقان إلى بحر إيجه – يتعقبه الإمبراطوريون والروس وقوات فينسيا. وفى تلك المناسبة، في سبتمبر ١٦٨٧، فجرت قنابل فينسيا مبنى البارثينون في أثينا الذي كان الأتراك قد حولوه إلى مخزن للبارود. ومنع اشتعال الأعمال العدوانية من جديد بين الإمبراطورية والملك الشمس إخضاع العثمانيين، ربما نهائيا. وأدرك السلطان أنه لم يكن من الممكن على أي حال التباطؤ أكثر من ذلك في التباحث حول هدنة لمدة خمسة وعشرين عاما كانت في الواقع استسلاما بالنسبة له. ومع اتفاق كارلوفيتز، في ٢٦ يناير ١٦٩٩، آل للإمبراطورية الرومانية – الجيرمانية كل المجر باستثناء إقليم تيمسفار)، وترانسيلفانيا وكرواتيا وسلوفينيا ؛ وآل إلى فينسيا جزء كبير من دالماتسيا ؛ وحصلت بولندا على بودوليا.

كان التاريخ بالفعل يقف عند منعطف جديد. فعلى الساحة الأوربية الآسيوية، إلى جانب الإمبراطوريات الكبيرة الثلاث (المسلمتين في اسطنبول وأصفهان والمسيحية في فيينا) كانت تطل إمبراطورية رابعة لم تكن تخفى مطامحها : وهى الإمبراطورية الموسكوفية بقيادة رومانوف، المهتم بالمنطقة الواقعة بين البحر الأسود والقوقاز وبحر قزوين وأيضا بآسيا الوسطى والبحر المتوسط الذي كان يحلم بالوصول إليه من خلال طريقين، الطريق البحري في الدردنيل والطريق البرى في البلقان. وكانت القوة الروسية تلعب، لهذا السبب، على مختلف الأصعدة: تجاه الشعوب السلافية في مجموعها كانت تقدم نفسها على أنها نصيرة الشعب السلافى ضد التهديد التركي والقوة الطاغية الجيرمانية ؛ وتجاه المسيحيين الأرثوذكس، كانت تعمل كوريث تاريخي للإمبراطورية البيزنطية وكسيدة للروحانية الشرقية ضد الطغيان العثماني والهيمنة البابوية. وكان لا يجب فصل هذا الموقف عن اهتمام قوى بالقدس والأرض المقدسة، حيث ألمح جميع قياصرة روسيا شيئا فشيئا إلى أنهم يريدون أن يعتبرهم السلاطين الورثة الحقيقيين للملوك البيزنطيين في القسطنطينية وبالتالي حماة الـ *millet* المسيحية–الأرثوذكسية التي كان يرأسها الأساقفة اليونانيون – وبالتالي رعايا الباب العالي – وكانت في معظمها مؤلفة من مؤمنين من الأمة العربية ويتحدثون العربية. كان كل هذا ينشط شبكة معقدة من التحالفات تقوم على المعارضات "المثلثية" : النمساويون والروس والأتراك في البلقان؛ والأتراك والروس والفرس في المنطقة القوقازية ؛ والفرنسيون والروس والأتراك في اسطنبول وفى القدس، حيث كانت المطالب

القيصرية الجديدة تقلب العادات القديمة والراسخة في اعتبار فرنسا حامية لفرنسيي الشرق.

لم يقبل القيصر بطرس الأكبر أن يشترك في معاهدات كارلوفيتز : وفي ١٧٠٠ دفعه الاعتراف بامتلاك آزوف لإشهار سيفه مؤقتا كمدافع عن الكنيسة الأرثوذكسية في البلقان، ولكن الحرب استؤنفت بعد بضع سنوات بسبب سلسلة من الاستفزازات المتبادلة : فالقيصر، من جانبه، لم يكن يتوقف عن إثارة ثورات الأرثوذكس البلقانيين ؛ والسلطان، من الناحية الأخرى، كان يحرضه على الرد على التهديد المتمثل في التوسع الروسي : وقد أتته هذه الدعوة من عدو لدود للقيصر، وهو كارلو السابع ملك السويد، الذي هزمه الروس في معركة بولتافا في ١٧٠٩، ولجأ إلى الأتراك وهو يضمر الانتقام. وبالطبع كان سيد فيرساى العجوز ينفخ في النار من بعيد. وسارت الحملة العسكرية إلى الأسوأ بالنسبة لبيترو : فبعد حصاره على نهر بروت، اضطر للتوصل إلى سلام مهين، ولأن يعتق نفسه بمبلغ كبير من المال والتنازل عن حصن آزوف.

وقد أعطى الانتصار على الروس للقاعدة العثمانية ثقة جديدة : فكانت النتيجة حربا جديدة مع فينسيا. واتجه الأتراك صوب كورفو، وهى جزيرة كانت فينسيا تعتبرها بحصونها الرائعة (*ingens opus Corcyrae*) مفتاح الأدرياتيكى. وكان النظام الدفاعي لكورفو محور نظام جمهورية فينسيا بالنسبة لكل الشرق. ولكن الحرب أدت إلى الغزو التركي لكورينتو والحصون التي كانت فينسيا قد احتفظت بها في جزيرة كريت بعد عام ١٦٦٩. وبعد ذلك بقرن سيخصص بايرون لحصار كورينتو قصيدة هجاء.

وقد تغيرت مصائر الحرب مع نزول الإمبراطورية الميدان : ففي ٥ أغسطس ١٧١٦، هزم الأمير أوجينيو دى سافويا، في بيترفارادينو، الجيش العثماني، على الرغم من تفوقه العددي في معركة قدر لها أن تكون حجر الزاوية في تاريخ الحروب في كل الأزمنة. وكان الطريق لبلجراد مفتوحا من جديد : فقد سقطت المدينة بالفعل في أيدي الإمبراطوريين في العام التالي. وأكدت معاهدة باساروفيتز انتصاراتهم في ١٧١٨ : وكان أسد الإنجيلي ماركو مضطرا لسحب مخالبه العجوزة المجيدة من موريا والأرخبيل اليوناني، ولكن النسر ذى الرأسين، في المقابل، كان يضم إقليم تيمستار، وجزءا من صربيا القديمة مع عاصمتها التاريخية وفالاكيا الصغرى.

ومع ذلك فإن الألعاب لم تكن قد اكتملت بعد. فقد أدرك الباب العالي جيـدا أن القوى المسيحية المتنازعة على الساحة الأدرياتيكية البلقانية سينتهي بها الحال إلى التصادم : وسوف يمكن الحصول على الكثير باستغلال الخصومات المتبادلة بـين النمساويين والروس وقوات فينسيا. وفى نفس الوقت كانت روسيا تنظر باهتمـام أيضا للحدود القوقازية : وهو ما قادها للصدام مع خصم تاريخي آخـر للـسلطان وهو شاه إيران. وقد اختبر الروس منطقة القوقـاز فـي ١٧٢٢-١٧٢٣، ببعثـة أشعلت نفوس الأرمن في الأقاليم الجبلية في كاراباخ وسيونيك وحثتهم على الثورة تحت قيادة داويت بك ؛ وقد قمعت هذه المغامرة بقـسوة. وبـين عـامي ١٧٢٥ و١٧٢٧ أبرمت اتفاقية عسكرية ودبلوماسية بين روسيا وتركيا أدت تقريبـا إلـى السيطرة التركية على إقليم Transcaucasia : ولكن الفرس نجحوا، بعد ذلك بـثلاث سنوات، في إفشال هذه المحاولة.

وفى ١٧٣٠ اندلعت للمرة الواحدة بعد الألف ثورة للانكشاريين الغاضـبين - عشية حملة أخرى ضد إيران - بسبب تأخير أجورهم، وجاءت لعرش إسـطنبول بالسلطان محمد (١٧٣٠-١٧٥٤) : الذي دفع بانتظام بالطبع أجور قواته، طـوال فترة حكمه. ولكنه لم يقصر إصلاحاته على هذا الأمر : فقد قام بـسياسة دفاعيـة منتظمة لحدود الإمبراطورية، وشيد قلاعا، ووضع حاميات دائمة للحراسة واعتمد على خبرة وعبقرية السيد دى بونفال، أي "أحمد بونفال باشا"، الذي وصل في عام ١٧٣٤ إلى حد تأسيس مدرسة للمهندسين في اسطنبول مخصصة لتقـديم الفنيـين الجدد للمدفعية، وأنهى بذلك دَفعة واحدة ضرورة اللجـوء للأجانـب والمرتـدين الغربيين. وقبل ذلك بخمس سنوات ، في ١٧٢٩، كانت مطبعة مقامة في العاصمة قد أنتجت الكتاب الأول المطبوع باللغة التركية. كانت البذرة قد ألقيت، على الرغم من أن الوقت لم يكن قد حان بعد : وبالفعل لم تقاوم مدرسة المدفعية ولا المطبعة طويلا رد الفعل التقليدي، الذي اقتصر في فترة أولى على فرض عـدم طباعـة المصحف - وبالتالي كان لابد أن يقتصر النشر على الأشياء الدنيوية - ثم نجـح بعد ذلك في التسبب في إغلاق كلتا المؤسستين التجديديتين. ومن ناحيـة أخـرى، منع عداء الانكشاريين المعتادين بونفال باشا من إتمام الإصلاحات العسكرية ومد نطاقها لتشمل كل القوات المسلحة السلطانية. وبفضل الصداقة بين بونفال والسفير فيلنوف على أي حال، تطورت كثيرا العلاقات الدبلوماسية والعـسكرية التركيـة الفرنسية ولكن الـ *lale devri*، "عصر التوليب" كان يغرب على أسطنبول الرائعة : وكانت الناس تتنفس منذ فترة محاولات التجديد التالية المضنية، التي كان لابد لها من فترة من السلام. وكان للسلام "الأبدى" الموقع في ١٧٣٣ هذا المعنى بالذات.

ولكن المكائد الفرنسية لم تعد تضغط بثقلها على الموقف الفعلي للانفجار الجديد للأعمال العدائية بين روسيا والنمسا وتركيا. وكان الأتراك قلقين للسياسة الروسية في بولندا بشأن حرب الخلافة على عرش تلك الدولة، بينما كان الروس يتجهون مرة أخرى صوب آزوف والقرم. وكانت هناك معاهدة أبرمت في ١٧٢٦ وأجبرت الإمبراطور كارلو السادس على الانضمام إلى الروس، بعد أن تعرض لانقلابات عسكرية في ألمانيا وفي إيطاليا. ولكن من الواضح أن إصلاحات بونفال باشا آتت ثمارها : فقد هزم النمساويون الروس مرارا وتكرارا بين عامي ١٧٣٧ و١٧٣٩ وأُجبِروا على معاهدة بلجراد، التي أعادت تلك المدينة للأتراك وأعادت الموقف البلقاني بالنسبة للإمبراطوريين إلى ما قبل باساروفيتز، باستثناء إقليم تيمسفار. ولكن سُمح للروس بالحفاظ على آزوف : ولكن مع إزالة دفاعاتها، مع حظر الملاحة في البحر الأسود لأى نوع من الأساطيل، بما في ذلك السفن التجارية.

وقد استفاد السلطان، في مباحثات السلام، بالمساندة المستمرة للحكومة الفرنسية والمساندة الدبلوماسية غير العادية لماركيز فيلنوف. ومنحه الباب العالي في عام ١٧٤٠، كجائزة لمساعيه الحميدة، تجديدا للامتيازات المتعلقة بالقدس، والتي لم يعد يتعين اعتبارها مؤقتة. و التزم السلطان محمد الأول بالفعل، باسم خلفائه ولحسابهم أيضا، بما كان يبدو آنذاك على الصعيد الدبلوماسي معاهدة حقيقية : خاصة أنه كان يضمن أن رجال الدين "الفرنجة" المستقرين داخل وخارج المدينة المقدسة لن يتعرضوا بعد ذلك للإزعاج وأنهم سيمنحون الحق في إصلاح أديرتهم من قبل الباب العالي دون صعوبة، بشرط أن يطلب سفير فرنسا ذلك.

وقد قابل النجاح الدبلوماسي الكبير لبلجراد، على أي حال، **الصيف الهندي** للقوة السلطانية. وسرعان ما أغلق طريق الإصلاحات التحديثية نتيجة أيضا لمطالب متمردة متشددة من جانب رجال القانون والدين المسلمين ؛ في حين كان تطور سياسة وسط أوربا يقدم ذرائع جديدة للقوى المعنية باعتداء جديد للإمبراطورية التركية.

وفي ١٧٦٨، كانت انتفاضة عنيفة ضد التدخلات الروسية في بولندا قد دفعت جيش القيصرة كاترين الثانية لغزو الدولة البائسة المجاورة. وكان العديد من المتمردين البولنديين قد حاولوا النجاة، بتحريض ومساندة من فرنسا، مع التوغل في تركيا حيث وجدوا أنفسهم مرة ثانية – ككاثوليك متحمسين – يتلقون المساندة والدعم من الملك الفرنسي ؛ ولكن الروس لم يترددوا في تعقبهم.

كانت هذه حالة الحرب، على الرغم من أن حكومة سان بطرسبرج ربما لم تتسبب فيها عن عمد. وكالعادة، كانت فرنسا تنفخ في الجمر المتأجج في الكبرياء التركي الجريح : وهكذا انفجرت حرب أكدت أن الإصلاحات العبقرية لبونفال باشا لم تمد جذورها في إمبراطورية الهلال. وعلى الرغم من الجيش الرائع المؤلف من ٦٠٠٠٠ من الجنود المسلحين، ويضاف إليهم المساعدون التتار، تعرض الأتراك للإذلال ودُمّر أسطولهم في البحر الأسود. وبينما كانت الجيوش الروسية تجتاح مولدافيا وفالاكيا، بعد استقبالهم كمحررين من قبل الأهالي الأرثوذكس (ولكن ليس من قبل البويار، أتباع الباب العالي)، كان هناك عملاء للقيصرة يجوبون اليونان وهم يحثون الأهالي المسيحيين هناك أيضا على الثورة. واستمرت الحرب على الرغم من عروض الوساطة لفردريك الثاني ملك بروسيا – الذي انزعج من النجاحات الروسية الكثيرة، فنظم في ١٧٧٢ أول تقسيم لبولندا – وتوقفت فقط لأن كاترينا الثانية كانت قلقة بسبب ثورة بوجاتشوف.

وقد أقرت معاهدة كوتشوك كاينارجي، في ٢١ يوليو ١٧٧٤، الانتصار الروسي : وقبلت القيصرة الروسية التراجع عن مولدافيا وفالاكيا وبيسارابيا، ولكنها حصلت بصورة نهائية على آزوف وكل الأراضي الواقعة بين دنيبر وبوج، بينما حصلت على اعتراف بحقها في الملاحة في البحر الأسود وفي البحر المتوسط وفرضت الاستقلال عن الباب العالي، سواء بالنسبة لتتار القرم، أو بالنسبة لأمراء رومانيا، وهي خطوة أولى لدخول الاثنين في منطقة النفوذ الروسية. ولكن كان هناك ما هو أكثر من ذلك : فقد دخلت القوة المنتصرة للمرة الأولى في قلب النظام السياسي والمؤسسي للدولة المهزومة وانتزعت من السلطان الوعد بتنفيذ بعض الإصلاحات "التحديثية" و"الغربية".

ويعد الجانب الديني–المؤسسي للمعاهدة أهم بكثير مما يبدو للوهلة الأولى. فقد كانت الإمبراطورة على علم تام بأهمية ومكانة موقف فرنسا في الأرض المقدسة: وكانت تنوى القيام مع الأرثوذكس بنفس الوظيفة التي كان يقوم بها الملك الفرنسي بالنسبة للكاثوليك لدى الباب العالي.

وقد حصلت بموجب المعاهدة على حق "التحدث لصالح" اليونانيين الأرثوذكس في جزر بحر إيجه والمسيحيين الأرثوذكس في مولدافيا وفالاكيا ؛ أما النقاط الأخرى من المعاهدة – التي صيغت في الحقيقة بصورة غامضة إلى حد ما – فقد كانت تمنح روسيا نفس المزايا التي كانت الامتيازات الأجنبية تعترف بها لفرنسا أو لإنجلترا وكانت تنص على أن الملكة الكبيرة يتعين أن تقوم بدور الحامية للأرثوذكس في الشرق بأسره. وبذريعة حماية المسيحيين في الأرض المقدسة،

كان قد بدأ بالفعل الصراع الفرنسي-الروسي (والكاثوليكي-الأرثوذكسي) للإشراف على الجاليات المسيحية في القدس الحزينة، وشبه الخاوية من السكان والمدمرة .

كانت البروتوكولات التركية الروسية متناقضة بصورة واضحة مع اتفاقيات أخرى، أبرمها السلطان وأسلافه مع فرنسا بصفة خاصة. ولكن من الواضح أن الأمر كان يتعلق بـ "خطأ" ارتكبه عن عمد كل من الموقعين، لأغراض مختلفة. وكانت روسيا تحرص على كسر الاحتكار ؛ وكان للتركى مصلحة في أن يفعل كل شيء لإثارة العداوات وحالة الحرب بين الأوربيين.

وفى نفس الوقت، كان يتجسد على أي حال حلم كاترينا الثانية في جميع جوانبه – السياسية والعسكرية والدينية : إمبراطورية من البلقان إلى البحر المتوسط ومن اليونان إلى بحر قزوين. ولكن كان من الضروري لهذا السبب الاتفاق على الأقل مؤقتا مع الشريك الخصم في منطقة التوسع البلقانية، وهى النمسا، وفى نفس الوقت ركوب موجتى الوحدة السلافية والحرية الأرثوذكسية. وفى ١٧٨٠ قابلت القيصرة زميلها الإمبراطوري، القيصر الروماني الجيرمانى جوزيبى الثاني. وانبثقت عن هذا اللقاء معاهدة ١٧٨١ التي كانت بالفعل *in nuce* مشروعا لتقسيم الإمبراطورية التركية على نطاق أكبر بكثير مما حدث في بولندا. وبعد ضم القرم والشاطئ الشمالى للدانوب، ستكون روسيا إقليما مستقلا عن الحدود غير المحددة بوضوح والتي سيحكمها الأمير المفضل عند الإمبراطورة وهو الأمير بوتيومكين ؛ وستستولى النمسا على البوسنة وصربيا وجزء من دالماتسيا ؛ وسوف تستعيد فينسيا قبرص وموريا. ولو طرد السلطان بعد ذلك من اسطنبول، لعادت روما الجديدة، القسطنطينية : وسوف يحكم الإمبراطورية البيزنطية التي بعثت من جديد حفيد قيصرة روما الثالثة، الأمير قسطنطين (*nomen omen* بالضبط). وفى نفس الوقت كان الروس يتآمرون مع تتار القرم وكانوا يحاولون تقوية دورهم في جورجيا، بهدف التمهيد لهجوم جديد.

ولم تكن خطة كاترينا إطلاقا خطة "مجنونة" فلو كانت نجحت – وكان بوسعها أن تنجح– لقلبت التوازنات في القارة بصورة عميقة وربما أعادت تأسيسها بصورة دائمة. ولكن الذي كان يصعب تقديره في هذه الحالة، كان السلطان عبد الحميد الأول، الذي شن في ١٧٨٧ ضد روسيا حملة وقائية حقيقية غير متوقعة فاجأت القيصرة وجيشها الذي لم يكن بعد مستعدا. وبعد معاهدة كوتشوك كاينارى المدمرة اجتاحت الإمبراطورية التركية الآن نوبة من الكبرياء : فقد دفع الوعي بأن التأخر التكنولوجي والاقتصادي – الصناعي هو الذي جعل موارده العسكرية

غير مناسبة، دفع السلطان وحكومته للتخلي عن الشكوك التقليدية إزاء التقدم الأوربي : نفس تلك الشكوك التي عرقلت التحديث الذي اقترحه بونفال باشا قبل ذلك بأربعين عاما تقريبا. ومن المفارقات أن المطالب الروسية بتحديث المؤسسات والعادات التركية – المكروهة لأنها مفروضة من أجانب وكفار في إطار معاهدة سلام غير كريمة على الإطلاق – كان من أثرها وضع أسس الصحوة. وفى ١٧٨٤ كانت علامة ورمز كل هذا هو إعادة افتتاح المطبعة التي كانت تطبع كتبا باللغة التركية. وقد عمل السلطان الذي كان مؤيدا للإصلاحات أيضا، على إعادة افتتاح مدرسة بونفال للمدفعية – وعهد بها الآن للبارون دى توت –، بينما جرى شراء مدافع جديدة من فرنسا وأعيد بناء البحرية وتحديثها بفضل عمل المهندسين الفرنسيين لى روى ودوبرست.

وقد تحالف الأسطول التركي الجديد وسوء الطقس لتدمير الجيش الروسي في البحر الأسود ؛ وفى نفس الوقت، هُزم الإمبراطور جوزيبى في صربيا، بعد أن خاض الحرب لمساندة القيصرة وفاء لمعاهدة ١٧٨١. وتعرض إقليم تيمسفار للغزو : وبعد سنوات من الحملات المؤلمة التي لم تسفر عن شيء، رأى الإمبراطور الجديد ليوبولدو الثاني نفسه مضطرا لقبول سلام منفصل في ١٧٩١. وبعد ذلك ببضعة أشهر، قام الروس بدورهم، بعد أن تركوا بمفردهم، بتوقيع سلام جاسى، الذي كان يسمح لهم على الأقل بضم باسارابيا، أي منطقة مولدافيا الواقعة شرق دنيستر : وقد أخطأ الفلاسفة الذين كانوا قد توقعوا نهاية قريبة وحتمية للاستبداد العثماني – وبالتالي قطع رأس "التعصب الإسلامي" .... وفى نفس الوقت كانت فرنسا وانجلترا من جانبهما تعترضان على الإمبراطورية في البوسفور : فلم يكن من المأمول بالطبع استبدالها بقوة عظمى روسية تسيطر على المضايق والبحر المتوسط الشرقي وتهيمن على العالم الأرثوذكسي وتنسق لمصلحتها النشاط الاقتصادي والتجاري في البحر الأسود والبلقان وجزر فينسيا.

وكانت الشعوب والأديان مستبعدة من كل هذه التوقعات وهذا التدبير السياسي–الدبلوماسي–العسكري المعقد. وكانت الشعوب الواقعة بين الدانوب والقرم ترى نفسها خاضعة للعبة التعديلات المستمرة في الحدود والتي كانت تنظر إليهم كمجرد أشياء. وكان الأرثوذكس يُنظر إليهم، سواء أكانوا على وعى بهذا أم لا، على أنهم ذريعة للمناورات الإمبريالية الروسية ؛ وكان يبدو أن المسلمين لا وجود لهم بالنسبة للأوربيين الذين كانوا يعتبرونهم أتباع عقيدة "متعصبة" توشك على الغروب أمام المسيرة الحتمية للتقدم والعقل. وكان يبدو أن الأمور كانت بالضبط على هذا النحو: ولكن الحقيقة كانت غير ذلك.

"تركيّات"

"هل تعتقدون أن التركي سينتقل هذا العام إلى إيطاليا؟". خرج هذا السطر من *La Mandragola* التي ألفها نيكولو ماكيافيللي. وفى ١٨١٤ قام جواكينو روسينى بتأليف "أوبرا كوميدية"، هي *Il turco in Italia*، ويبدو عنوانها استشهادا أدبيا وحرفيا للسكرتير الفلورنسي.

ولكن "التركي في إيطاليا" الأول والثاني يفصل بينهما ثلاثة قرون، وأي قرون! : القرون من السادس عشر للثامن عشر. وقد حدثت فيها أمور كثيرة. وطوال تلك الفترة، كان الخوف من الأتراك *Türkenfurcht*، والمشكلة التركية *Türkenfrage* من الملامح الأساسية لحياة أوربية بحرأوسطية تعيش كلها تحت ظل الهلال المثير للقلق. وتبرهن على ذلك أبراج المراقبة العديدة التي انتشرت في كل مكان تقريبا على سواحلنا الأوربية من أسبانيا إلى بحر إيجه. والحقيقة هي أن أبراجا أخرى للمراقبة كانت منتشرة هي الأخرى في كل مكان تقريبا على السواحل الأفريقية والآسيوية من تركيا للمغرب وهى شهادة على أن الأوربيين كانوا يعاملون الأتراك وسكان أفريقيا الشمالية نفس المعاملة : فالبشر المساكين الذين تعرضوا للختان والذين كانوا يذبلون في أقبية ليفورنو كانوا يعانون من آلام مماثلة لآلام البشر المساكين الذين تعرضوا للتعميد والذين كانوا يذبلون في أقبية الجزائر.

ولكن بين نهاية العصور الوسطى والعصر الحديث، كان الشعور العام بالطبع هو أن الإسلام التركي والبربري في حالة هجوم، والمسيحية في حالة دفاع. وما هي الحكمة – من التراجيديا إلى الأوبرا الكوميدية – التي أدت بالتركي لأن يملأ بعمائمه وزيناته الأوبرا الكوميدية الأوربية بداية من موتسارت مع المسلم مونوستاتوس في *Zauberflöte* والشوارب "أمجاد الرجال– ريش الحب" عند الأتراك المزعومين في *Così fan tutte?* وتلك الشخصية النموذجية لـ "الشرقى" طبقا للكليشيه الأدبي لـ "الراجوزى" في الـ *Mulino del Po* للكاتب ريكاردو باكيللى الذي يعلن بشيء من الغموض : "أنا في بيتى تركيّ تماما" ؟

وليس من السهل أن نحدد ما إذا كان يمكن أن نتحدث حقا عن الاستشراق كبعد مماثل ومواز لتيار الإغرابية الأكثر اتساعا، أم كأحد روافده أو ربما كأحد مشتقاته.

كان عالم العصور الوسطي قد أظهر تجاه المسلمين، كما رأينا اهتماما انتقل من "أسطورة محمد" (صلعم) إلى ترجمات القرآن ومن الخيالات حول عالم "الكفار" الذين كانوا يصورون ربما على أنهم "وثنيون" – مع عجائب وسحر آسيا العميقة – إلى الأخبار المليئة غالبا بالملاحظات الدقيقة والواقعية، والتجار والدبلوماسيين والحجاج بداية من العصور الوسطى المتأخرة. وكان وصول العبيد والمنتجات أيضا من الشرق إلى أوربا قد أسهم في زيادة اهتمام كانت تتخلله غالبا أشكال من المعرفة المتزايدة والتعاطف الواضح. يوجد إسلام خفي – ولا يمكن استعادته إلا من خلال القرائن – في أعماق الخيال الغربي : فالجواري والخادمات الأفريقيات اللائي كن يملأن المدن الأوربية بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر، وتلك التتاريات الموجودات في العالمين الروسي والبولندى بين القرنين السادس عشر والعشرين، والهنديات والأندونيسيات المنتشرات في إنجلترا وفي هولندا، كن يمكثن طويلا مع الأطفال والأولاد والبنات الصغار في سن مبكرة جدا؛ وكن يحكين الحواديت، وينقلن الصور. وكم ملأ البساط السحرى ومصابيح علاء الدين، في صور مختلفة على أي حال، أحلام الأوربيين منذ ذلك الحين، قبل أن ينقل لنا جالان ألف ليلة وليلة بألفاظ مألوفة للآذان التي اعتادت على *Contes* بيرو وقبل أن يترجم إيرفينج ودوريه أفنية وحدائق ونافورات غرناطة بكلمات وصور يألفها الغربيون؟

كان إسلام العصور الوسطى مؤلفا من "العرب" و"السود"، أي الأفارقة : الذين يصورهم الفن في القرنين الثاني عشر والرابع عشر، مع التتار، في معظم الأحيان، وخاصة في مشاهد مثل عبور السحرة في اتجاه بيت لحم، وهو استعراض مميز للإغرابية في "خريف العصور الوسطى".

وبداية من القرن الخامس عشر، يبدأ الأتراك في التغلغل أكثر فأكثر في هذا الإطار، بعمائمهم الضخمة وثيابهم الطويلة المزركشة ، والقبعات العالية الناصعة للانكشاريين المخيفين. ونقابلهم بصفة خاصة في الرسوم الإيطالية القديمة في الشمال الشرقي : في أعمال مانتينيا وكارباتشو ؛ ولكن الفن والمنمنمات القوطية المتأخرة الفرنسية والأسبانية والألمانية والإيطالية الجنوبية تقدم لنا نماذج عديدة وهائلة منها.

وقد كان يصل في نفس الوقت، في تزايد مستمر، سفراء "شرقيون" – حقيقيون أو مزعومون – إلى بلاط أوربا : وكانوا ينتقلون أحيانا من البلاط إلى الشارع. وفى أثناء المجلس الكنسي في فلورنسا، في ١٤٣٩، وبعد ذلك في أثناء حكم البابا بيو الثاني، تضاعفت العروض التي أسهمت في نشر ذوق يمكن وصفه بأنه

غريب في مجتمع كان يتفاخر في نفس الوقت – مثل المجتمع الإيطالى في القرن الخامس عشر – أسوة بالمجتمع الأيبيري، حتى وإن كان ذلك لأسباب مختلفة، بألفة هائلة مع العالم الآسيوى والأفريقى الشمالى. وغالبا ما كان الأمر يتعلق بالمحتالين الذين كانوا ينجحون بخداعهم في ابتزاز بعض المال من البابا وبعض الحكام وكسب الضيافة والهدايا : وبعد ذلك كانوا عادة ما يختفون بهداياهم. ولكن مذاق هذه الحفلات التنكرية ينعكس في العديد من الأعياد في عصر النهضة في رسوم ذلك العصر.

ومن الواضح أن العادات والعمارة الإسلامية كانت تبدو في هذه الصور الأولى أقل "بلاغة" من الأوصاف التي كان يقدمها التجار والحجاج والمبشرين والمحدثين عن العادات وطرق التفكير المنتشرة في عالم الإسلام : حتى وإن كان هناك، كما رأينا، تنوع كبير من المعلومات ووجهات النظر الشائعة في هذا الشأن. وكان من المنطقي أن تأتى من المجتمعات المسيحية بصفة خاصة، وهى الأكثر عرضة للاتصال بـ "الكفار" المعلومات الأكثر صدقا وقربا من الحقيقة (والتي لم تكن دائما تقبل على أي حال بصورة أسهل من غيرها) : وبالتالي من أسبانيا وصقلية ومن المدن البحرية الإيطالية القديمة طوال العصور الوسطى ثم من فينسيا بين القرن الخامس عشر والسابع عشر، خاصة فيما كان يتعلق بالأتراك (في حين كان العالم العربي يبدو الآن وراء الأفق والعالم الفارسي أكثر بعدا).

وكانت لفينسيا علاقات كثيرة وعميقة بصفة خاصة مع العالمين العربى–المصري والعربي–السوري أولا، ثم لوقت طويل مع العالم التركي والفارسي أيضا. وبين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، يمكن أن نقول إنه كان شيئا عاديا أن موانئ الشرق كانت المدرسة الاقتصادية – المالية (والسياسية واللغوية أيضا) للشباب من الطبقة الحاكمة في المدينة.

وإذا كان بوسع التجار الغربيين التحرك بحرية في دار الإسلام، فإن نفس الشيء لم يكن متاحا للتجار المسلمين في دار الحرب، على الأقل حتى القرن السادس عشر – ولكن قليلا أيضا بعد ذلك – وليس فقط لأن هذا كان يعود عليهم بفائدة هزيلة. والحقيقة هي أن الراهب دونيتسيونى، في قصيدته اللاتينية في القرن الحادي عشر المخصصة للكونتيسة ماتيلدى دى كانوسا، كان يشهد على وجود أفارقة ذوى بشرة داكنة في ميناء بيزا : ولكننا لا نعلم ما إذا كان الخبر (الذى قدمه كإدانة لكي يوضح إلى أي مدى كان أهل بيزا من المسيحيين الأشرار) يشير إلى مجرد واقعة عرضية. وعلى أي حال كانت السفارات الإسلامية نفسها نادرة ويمكن أن نقول استثنائية في أوربا – وقد اشتهرت سفارتا بغداد وأسبانيا في عهد

شارلمان. ومع أوائل القرن السادس عشر فقط، وبمجرد أن مدت الإمبراطورية العثمانية جذورها لتحل نهائيا محل الإمبراطورية البيزنطية والاعتراف ولو ضمنيا بأن الأتراك شركاء تجاريون لا يمكن إنكارهم ويمكن أن يصبحوا أيضا محاورين دبلوماسيين، أصبح السفراء الأتراك والإيرانيون ضيوفا يترددون كثيرا على بلاط أوربا وموضع فضول في قطاعات كانت عادة محدودة من المجتمعات الغربية.

ولم يظهر التجار الأتراك ظهورا مؤكدا في فينسيا قبل عام ١٥١٤ ؛ وبعد ذلك، ومع سلام ١٥٧٣، افتتح المتجر ومقر الإقامة المخصص "للأمة التركية"، أي "فندق الأتراك" الحقيقي. ولم يكن تأسيس مقر إقامة تجاري للكفار خاليا من المصاعب والمجادلات، حيث كانوا شركاء تجاريين وفى بيتهم ضيوفا مهذبين عند أهل فينسيا، ولكنهم كانوا أيضا "أعداء تاريخيين". وبفضل هذا المقر التجاري أيضا – ولكن ليس بفضله وحده – لعبت فينسيا طوال القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، على أي حال، دور المكان الغامض الذي تتلاقى فيه المعلومات حول الأتراك لتوزع في كل أوربا والمعلومات حول القوى الأوربية المتجهة على العكس من ذلك إلى السيد الكبير. وتبدو حكومة فينسيا في مرات عديدة متغلغلة في هذه الشبكة الجاسوسية، ويبدو أنها أدارتها ولوثتها ايضا حتى أنها عاملتها أحيانا كسلعة من السلع الكثيرة التي كانت تستوردها وتصدرها المدينة. وفى ١٦٢١ لم يعد "صندوق الأتراك" في ريالتو كافيا : وتمت الموافقة عندئذ على مشروع لدائرة كبيرة كان يتعين أن تستضيف هذه المرة التجار المسلمين من كل حدب وصوب، بما في ذلك الإيرانيين، والأرمن أنفسهم في أماكن منفصلة.

وكان من المنطقي إذن أن تسجل معرفة الإسلام في فينسيا بالذات خلال القرن السادس عشر قفزة نوعية هائلة. وكان دوناتو داليتسى، الذي كانت تربطه صلة قرابة مع بيت زين الذي كانت له علاقات كثيرة مع اسطنبول، قد كتب *Historia Turchesca* الذي كان يشمل القرنين الرابع عشر والخامس عشر ؛ وكان مؤرخ الجمهورية مارك أنطونيو سابيلليكو، من جانبه، قد خصص للشئون العثمانية اهتماما خاصا، كما كان منطقيا في نفس الوقت نظرا أيضا للموقف السياسى ؛ كان جوفان باتيستا إنياتسيو قد عاد للحديث عن الأتراك في كتابه *De Caesaribus* ؛ وبينما كان الجوفيو يقوم بطبع كتابه *Commentario delle cose de' turchi*، في ١٥٤١، وكتاب *Origine de' turchi e imperio delli ottomani* لأندريا كامبينى ، الذي نشر أكثر من مرة بين ١٥٢٨ و١٥٤١، وكتاب *Cose de' turchi* لبنيديتو رامبرتى؛

وأخيرا استأنف نيكولو زين، في كتابه *Dell'arabico*، الحديث عن الـدين والثقافـة الإسلامية، وأظهر أنه يريد تناولهما بانتظام، وهو أمر أدى إلى أن يحظى كتابـه بتقدير فرنشيسكو سانسوفينو عندما كتـب كتابـه *Storia dell'origine e impero dei turchi*.وفي هذا السياق تتدرج ترجمة القرآن التي قـام بهـا أنـدريا أريفـابيني، والمنشورة في فينسيا بالذات في ١٥٤٧، بعد أربع سنوات من الجهد الكبير المنظم لبيبلياندر والذي توج بظهور كتابه في الدراسات الإسلامية في بازل عام ١٥٤٣.

وكان من أثر الظهور المتكرر لسفراء حقيقيين، وخاصة من الأتراك، زيـادة الفضول، والتعاطف أيضا جزئيا، إزاء المسلمين. وقد كان يقال بالطبع إن السفراء يأتون "للتجسس" : وبالفعل سرعان ما أصبحت بيانات الدبلوماسيين الأتراك مـن أوربا للباب العالي، الـ *faretname*، شهيرة أيضا بسبب مزيج الملاحظات الحـادة والأحكام المسبقة والالتباسات. وعلى أي حال، كانت هناك احتفالات كبيرة تجرى لممثلي السلطان : كانت المدينة تتزين، وكانوا يُحملون في جولة لكي يتمكنوا مـن مشاهدة أجمل الأشياء وكانوا يحاطون بالتقدير والاهتمام.والحقيقة هي أنه كان لابد أن تكون هناك بعض مبررات القلق : ففي عام ١٥٩٤ كان هناك مرسـوم قـاس لـ Avogadori de Comun يفرض عقوبات قاسـية علـى مـن يتحـرش بهـؤلاء الضيوف.

ثم جاء بعد ذلك زمن السفارات الكبيرة. وفي ١٦٦٥ ذهب كارا محمد باشـا إلى فيينا مع وفد من مائة وخمسين شخصا ؛ وفي نهاية ١٦٦٩، اسـتقبل لـويس الرابع عشر سليمان أغا. وكان هذا الحدث الأخير إذلالا للملك، فـسليمان الـذي حقق نجاحا غير عادي في الصالونات الأرستقراطية، لم يتحرج من نقـل أخبـار إيجابية له حول الخلاف الموجود آنذاك بين فيرساى واسطنبول (وكـان الـسفير الفرنسي قد سجن منذ قليل وطرد بعد ذلك). ويروى الفارس دارفيو، وهو خبيـر بالشئون التركية، في مذكراته أن الملك أمره بدراسة موليير ولوللي لتأليف عمـل مسرحي تدخل فيه بصورة ما ملابس وأساليب الضيوف الجدد. ونتج عـن ذلـك *comédie-ballet* مثلت في شامبورد فـي ١٤ أكتـوبر ١٦٧٠ بنجـاح كبيـر، و *Il borghese gentiluomo*، حيث عرض على المسرح في نفس الوقت الاحتفال المبهج بارتداء البرجوازي جوردان الملابس النبيلة بعد ترقيته للمرتبة التركيـة الخياليـة *mamamusci* مع وجود العديد من رجال الإفتاء، والدراويش الراقصين والتظاهربـ "لغة حرة " ذات سمات إيطالية الـصبغة :" Mahametta per Giurdina – mi pregar sera e mattina – voler fare un Paladina – con galera e brigantina – per deffender Palestina -... dara dara dara dara – bastonara bastonara ..." (إنني أدعـو محمـد

صباح مساء، أن يجعل من جوردينا محاربا عظيما، وأن يذهب بأسطول من السفن للدفاع عن فلسطين. هيا، اضربوه، اضربوه بالعصا). وبعد ذلك بمائة وثلاثة وأربعين عاما، في *L'Italiana in Algeri* التي عرضت في ١٨١٣ – والتي كانت تمثيلا لحدث واقعي، وهو تفاقم حرب القرصنة البربرية في ذلك الوقت – سيصور جواكينو روسيني الشخص الخانع على أنه مصطفى بك، فرد بذلك على الأتراك الزائفين عند موليير.

كانت هناك أصوات أخرى وأكثر مهابة ترتفع في نفس الوقت تعيد للتركي والمسلم السحر والغموض والكرامة. وفى تراجيديا *Cid* لكورنى، المستلهمة في ١٦٣٦ من الـ *Mocedades del Cid* التي كتبها قبل ذلك بأقل من عشرين عاما جيلين دو كاسترو، يتصف المسلمون بعظمة الأعداء الأوفياء والنبلاء. وفى ١٦٣٧ كان الميريه قد عرض على خشبة المسرح النهاية القاسية لمصطفى، الابن الثاني لسليمان الكبير، الذي قتله الأب بتحريض من السلطانة روكسلان. وحتى راسين العظيم نفسه – الذي اعتاد قرض الشعر فقط حول موضوعات مستلهمة من الحقبة القديمة الكلاسيكية – عرض في ١٦٧٢ ليس فقط موضوعا كان يصفه هو نفسه بأنه جريء لأنه حديث، ولكنه مأخوذ بصفة خاصة من قصة حزينة ووحشية حدثت في مقر السلطان في اسطنبول في ١٦٣٥، وعرفها الشاعر من خلال بلاغات كونت سيزى الذي كان سفيرا آنذاك لدى الباب العالي. وكانت تتعلق بقتل مراد الرابع لشقيقه باجازيت، طبقا للقوانين الصارمة للخلافة السلطانية المعقدة مع ذلك في هذه الحالة بقصة حب وشرف منتهك وخيانة. وبعد راسين لن يكون "المقر السلطاني" كما هو : فالحريم كموضع للذة والموت يستمد بدايته من هذه الأبيات، على الرغم من أنه مستلهم من الموضوع القديم المتعلق بالشرق الإسلامي المضطرب، القاسي والشهواني.

ولكن بعض مكونات هذا الخيال لم تكن إطلاقا "رومانسية" *avant la lettre* : وكانت تتلاقى وتتركب مع أسباب عملية وواقعية جدا. فقد كان جون بابتسيت كولبير – الذي كان يحث على تأسيس "شركات" الصين والهند الشرقية والشرق في العشر سنوات من ١٦٦٠إلى ١٦٧٠ – كان يحارب بحماس من أجل تعليم ودراسة اللغات الشرقية في الكلية الملكية كأداة لدعم السياسة الاستعمارية والتجارية الفرنسية. وفى السنوات العشر التالية أرسل رئيس الوزراء إلى الشرق أحد معاونيه المؤتمنين وهو الماركيز دى نوينتيل، بمهام واسعة ومعقدة تتراوح بين تجديد "الامتيازات مع تركيا إلى العلاقات التجارية، إلى جمع المخطوطات والأشياء الثمينة. وفى فريق السيد دى نوينتال عمل لفترة معينة أيضا شاب "خبير

باللغات الشرقية"، هو أنطوان جالاند، الذي سافر طويلا وعلى فترات متتالية إلى الشرق بين ١٦٧٠ و١٦٨٨و تدرب على "المثلث اللغوي" الإسلامي – العربية والفارسية والتركية – الذي أضاف إليه أيضا اليونانية "العامية" وانهمك في عدد هائل من الترجمات قبل أن يدخل الكلية الملكية، في ١٧٠٩ ، كأستاذ للغة العربية.

وعندما وصل جالاند لمنصب الأستاذية في باريس، كان قد ترجم وطبع، في ١٧٠٤ الجزء الأول من **ألف ليلة وليلة**، التي ستصبح منذ ذلك الحين – في جميع الأحوال – حجر الزاوية في الخيال الغربي عن الشرق. ولكن قبل ذلك أيضا، في ١٦٩٧، كان قد صدر عمل آخر بعد وفاة مؤلفه وهو أستاذ آخر في الكلية الملكية، هو بارثيليمي ديربيلو دو مولانفيل : وهو الـ *Bibliothèque orientale* وكان عنوانه الثاني *Dictionaire universel contenant généralement tout ce qui regarde la connaissance des peoples de l'Orient*. وكانت تتدفق في نفس الوقت على المطابع الفرنسية تقارير الرحالة الذين كانوا مستكشفين ودبلوماسيين وتجارا وعلماء آثار وهواة يجمعون الأشياء الثمينة وجواسيس ومبشرين في آن واحد : من جون ثيفنو إلى فرانسوا بيرنييهن ومن جون بابتيستا فرنييه إلى جون شاردان. وكنا قد وصلنا، مع جالاند ومع هيربلو، للتصور النهائي سواء للدراسات الشرقية كنظام علمي، أي كشكل من أشكال المعرفة المنظم منهجيا والذي كان يتضمن كما هو مفهوم العديد من المواد أو الدراسات الشرقية كمذاق وكجزء هام، بل أساسي وغلاب، لما سيسمى بالإغرابية.

وستتولى الـ *Encyclopédie* فيما بعد التمييز بين الشرق "Oriente"بمعنى الكلمة، أي المناطق الآسيوية الواقعة شرق نهر الفرات، عن الشرق"Levante" الذي كان لابد أن يعنى مجموع الأراضي الآسيوية الواقعة غرب ذلك النهر. وكثير من أشياء الشرق كان مقدرا لها أن تزرع أيضا في العديد من الأماكن الأخرى من العالم والدخول في الحياة اليومية الحديثة، مع عدم فقدانها تقريبا لشيء من سحرها.

وهكذا فإن القهوة، التي ستقتسم مع شقيقها المنافس، الشاي المصير الغريب في تمثيل "إنجاز الذين تعرضوا للغزو" وهو نوع من الانتقام الثقافي لمن كان أضعف عسكريا وتكنولوجيا وبالتالي فريسة للأكثر جشعا وقوة ونجح مع ذلك في أن يفرض عليه شيئا من نفسه. وقد غزا المشروب الأسود أوربا انطلاقا من إثيوبيا ومن شبه الجزيرة العربية بعد أن شمل مصر وتركيا وفرض نفسه من خلال ألمانيا وإيطاليا وفرنسا، بينما كانت زراعته تغير بعمق زراعة أمريكا الجنوبية ؛ وقد انتشر الشاي من الهند ليغزو إنجلترا، ومن الصين وآسيا الوسطى

ليغزو روسيا وبولندا اللتين تعرضتا للهجوم في نفس الوقت من الجنوب الشرقي من خلال الخانات التركية المغولية وراء بحر قزوين ومن الجنوب من خلال إيران والقوقاز. وقد أنقذت القهوة والشاي، بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، أوربا من إدمان الكحوليات وغيرا بصورة عميقة في نفس الوقت من العادات اليومية وأساليب الإتيكيت والعلاقات بين الأشخاص.

ولم تكن أحداث القهوة في أوربا سهلة في البداية. فقد انتشرت في القارة منذ العشرين عاما الأخيرة من القرن السادس عشر ولكنها كانت لا تزال منزوية في الحدائق النباتية، وبدأت في إثارة الفضول لأن الدبلوماسيين مثل فرانشيسكو موروزيني الفينسياني والرحالة مثل الروماني بيترو ديللا فاللى كانوا يصفون العادة التركية الغريبة في شرب المزيج الغريب المثير للقلق.وتفجرت المجادلات : فكان هناك من يؤكد أنها تساعد التنفس والهضم، ومن كان يؤكد على العكس من ذلك أنها تضر الأمعاء وتتسبب في *impotentia coeundi*، ومن كان يقسم على أنه سيستمر من جانبه في تفضيل الخمر على "القهوة المريرة الشريرة"، مثل فرانشيسكو ريدى طبيب البلاط لدى غراندوق توسكانا. وعندما مات كولبير في ١٦٨٣، شاع الخبر بأنه عند تشريحه وجدوا معدته محروقة من السم الأسود.

وفى أثناء زيارته غير الموفقة في جوانب أخرى للملك الشمس، كان سليمان أغا قد نشر موضة القهوة، التي انتشرت بسرعة من باريس عبر فرنسا : وفى فينسيا ومرسيليا، في بداية السعينيات، كان الصيادلة يقومون بتخزين الحبوب التي أصبحت الآن ثمينة، مع قلق بالغ لمنتجي وتجار الخمر. ومن جانبه، صرح هارفى الكبير وتلميذه رمزى أن القهوة يمكن أن تكون مفيدة في الكفاح ضد ما أصبح الآن – خاصة في إنجلترا – جرحا اجتماعيا ملوثا، وهو إدمان الكحوليات. وقد وصل التصديق النهائي لاستخدام القهوة غداة حصار فيينا في ١٦٨٣. وهناك أسطورة قوية تقول إن جنديا مجهولا، يدعى فرانتس جيورج كولشيتسكى فتح بأكياس الحبوب التي عثر عليها في معسكر كارا مصطفى أول متجر غربى للقهوة : على الرغم من أن عادة تحليتها بالعسل واللبن ربما روعت أي مسلم جيد. ويقال إنه في غمرة الفرحة بتحرير فيينا اخترع أيضا الـ *Kipfel*، أي الكرواسان، ، وهو الشطيرة الحلوة التي كانت بشكلها الهلالى تعيد إلى الأذهان رمز الإسلام المهزوم. وهى تصاحب قهوة الصباح جيدا، منذ ذلك الحين.

وقد بقي بعض الخصوم للمشروب الجديد، في الحقيقة : فالأميرة المنتخبة كارلوتا دى بافييرا، على سبيل المثال، وهى زوجة ملك فرنسا فيليبو دورليانز، لم تكن تدع فرصة لإظهار عدائها للقهوة والشاي والكاكاو وكل المشروبات المقرفة،

التي كان تفضل عليها البيرة الألمانية الجيدة القديمة. ولكن على الرغم من أن الهولنديين والفرنسيين نجحوا بعد ذلك، بين نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، في زراعة الشجيرة تحت سماوات أخرى، من جاوه إلى الأنتيل، فإن فكرة القهوة بقيت مرتبطة بالشرق الإسلامي الذي جاء منه استخدامها : وكان بوسع مدام دوبارى أن تقف أمام رسام ليرسمها وهى ترتدي "ثوب السلطانة" وهى ترتشف القهوة من فنجان ثمين. وفى فينسيا التي كانت لا تزال بابا للشرق، كان التجار الأتراك يملأون بعمائمهم الكبيرة الناصعة وثيابهم الطويلة بلون الكريز مقهى بينياتا في سان ماركو، بينما أصبح مقهى *Procope* في باريس معبد الفلاسفة الفرنسيين : وهناك أيضا – كما يبدو أنه حدث في مكة قبل ذلك بقرنين – كان الناس يسهرون وهم يرتشفون السائل المنبه ويتحدثون عن كيفية تغيير العالم. وفى *Lettres persanes* لمونتسكيو كانت القهوة تتلقى التصديق الأدبى النهائي لها.

وكانت الـ *Letrres* قد صدرت للمرة الأولى دون ذكر اسم المؤلف، في ١٧٢١، في كولونيا. وبعد ذلك بعدة أعوام، كان جوهان سيباستيان باخ يضفى التكريم الموسيقى على المشروب القادم من شبه الجزيرة العربية في الأغنية رقم ٢١١، وهى الـ *Schweigert stille*، والمخصصة للولع اللطيف بالقهوة عند النساء، نساء ليبسيا.

كانت الـ *Lettres persanes* قد أظهرت أن الشرق كان بوسعه أن يقدم نفسه كمكان مجازى، كوجهة نظر خيالية "وراء المكان/ خارج المكان"، ومن الأفضل أن نلتقط منه وننتقد الأمور الغريبة وجنون الحضارة ونظام الحياة الذي كان الناس مع ذلك يشتركون فيها. وكان الخطر التركي ينقشع الآن بالتدريج وكان الخوف من الأتراك – الذي أمسك بتلابيب أوربا لثلاثة قرون – يتجه بسرعة للاختفاء حتى من الذاكرة. وكان من الطبيعي أن تنطلق من فرنسا بالذات تلك المطامح التي تجمع بين الأخلاق وعلم الجمال والموضة والتي سرعان ما قلدها الناس في كل أوربا. كان هذا عصر الـ *turqueries* : زمن الملابس والبناء والتأثيث "على الطريقة التركية" ؛ الزمن الذي كانت فيه أوربا كلها تجتاحها موضة المشروب التركي بامتياز – على الرغم من أن الناس في روسيا وفى إنجلترا كانوا يفضلون مشروب الهنود والإيرانيين والصينيين –، بينما كان فولتير يعلن عن تفضيله لحكمة وطيبة قلب الناس الذين كانوا يعيشون عند البوسفور، الذين كانوا يزرعون الحدائق وبساتين الورد ويتسمون بالوداعة والحلاوة، كما كان يمتدح الحكمة والاعتدال والخبرة في الحياة عند الصينيين. وكان الأتراك والإيرانيون والصينيون والهنود و"البدائيون الطيبون" يملأون قرن الـ *Encyclopedie* العظيم : ولكن على

خلاف كل هذه الشعوب التي زارها الأوربيون وأعادوا اكتشافها، فـإن الأتـراك كانوا يتميزون مع ذلك بشيء يدعو للرثاء والفكاهة والضحك تقريبا، على الـرغم من حفاظهم على نموذج الحكم الاستبدادي – والذي لا يحتمل، في نظر الفلاسـفة – الذي كان قاسما مشتركا على أي حال مع الموسـكوفيين واليابـانيين. ولكـن مونتسكيو في الـ *Esprit des lois*، كان يرى أن الذي يميز الإسـلام هـو العلاقـة العملية بين الاستبداد القائم على القدرية والإستعداد للقبول السلبي للـسلطة : فـي حين أن روح الحرية في المسيحية كانت قد عملت في اتجـاه معـاكس. ولكـن المعرض الكبير للأنماط المقدر لها أن تؤسس نموذجا للثقافـة كـان مـستمرا : فالإيرانيون كانوا يحتفظون بسر أصولهم الثقافية البعيدة والتـي كانـت تمتـزج بالسحر ؛ والعرب كانوا يحملون معهم لغز الصحراء وعاداتهم البدويـة والقبليـة القاسية ؛ وكانت الهند الشمالية الغربية – تلك المغولية التي بدأت في الظهور على مسرح الإستعمار بعد الصراع الفرنسى/الإنجليزى في حرب الأعـوام الـسبعة – كانت تتوه في الألوان المنتشرة في منحدراتها المغطاة بالجليد، بـين كـاراكوروم وإندو كوش ؛ وفي آسيا الوسطى كان يظهر سحر فنادق القوافل في بخارى وكيوا وسمرقند، وفي خاناتها الوحشية والفاخرة التركمانية والقرقيزيـة والتركـستانية، ورثة مغامرة تيمورلنك البعيدة ؛ وفى الجنوب، وراء ذكريـات المـسلمين فـي الأندلس وسفن القراصنة البربرية التي كانت تجتاح البحر المتوسط، كانت هنـاك المدن القديمة المبنية بالطوب والفخار والطين الجاف والخشب الفـوّاح ومراكـز زعماء القوافل بين جبال أطلس والصحراء التي كان يصل إليها، مـن تيمبوكتـو ومن خليج النيجر الكبير الذهب السوداني مع الذهب الأبيض، والعـاج، والـذهب الأسود، والعبيد القادمون من أعماق أفريقيا. وكان الإسلام مزيجا يربط كل هـذه الشعوب المختلفة جدا فيما بينها، وهؤلاء الناس الغامضين الذين يرتدون ألف ثوب ويتحدثون ألف لغة ولكنهم كانوا يصلون في نفس ساعات النهار والليل، متجهـين نحو نقطة واحدة من الأرض، وهم يتلون نفس الصيغ بنفس اللغة حتى ولو كانـت منطوقة بتنوع كبير من النبرات والأصوات. وإذا كانت أوربا التنوير تتجه لتحديد العقل، والطبيعة والسعادة، فإن الإسلام كان يبدو كظـل محمـل بـالنور البـاهر والصمت الغامض : دين سماوي يتجاوز العقل ولكن خرجت منه مجموعـة مـن أروع الفلاسفة في تاريخ البشرية، عقيدة يدعي البعض أنها دموية وغير متسامحة واستطاعت مع ذلك أن تنتج الذوق والرحمة وكرم الضيافة. وهى مفارقة يجب أن ننحني أمامها بتواضع وننصت إليها، الآن وقد صمتت الأسلحة. ولكـن أصـحاب عصر التنوير لم يكونوا جميعا مستعدين لتعليق هذا الحكم.

ومن ناحية أخرى، لم يكن من الممكن أن ننسى أن الإسلام أثار الرعب طويلا في أوربا.وفى المناخ السلمي المتجدد الذي بدأ بالنقاش حول التسامح، كان المؤمنون بقانون القرآن يندفعون بعناد لطيف للقيام بالدور الذي كان يبدو أنه يخصهم تاريخيا : وهو دور الحالمين المحبطين، وأصحاب الإمبراطوريات الضائعة أو المتهاوية، والمخدوعين، والبلهاء في معظم الأحيان. ومن ناحية أخرى، فإن فرنسا نسيت تماما مخططات الهيمنة إزاء تركيا في القرن السابع عشر الفرنسي.

وبين عامي ١٦٨٥ و١٦٨٦، فى هولندا حيث كان يعيش منفيا عن وطنه إنجلترا، كان جون لوك قد كتب *Epistula de Tolerantia* : وكان قد ألفها لمواصلة الـ *Essay concerning Tolerance* في عام ١٦٦٧، من أجل إنجلترا متعبة الآن من الحروب الأهلية والمذابح، ومن أجل أوربا التي كانت قد خرجت منهكة من حرب الثلاثين عاما والتي كانت قد التقطت أنفاسها، بعد الانتصار على الأتراك في فيينا في ١٦٣٨، وكانت تأمل في فترة طويلة من السلام. وكتاب لوك العظيم هو أساس ذلك الـ *mutua inter christianos tolerantia*، الذي ساد التوتر إزاءه التاريخ الأخلاقي للغرب في القرون الثلاثة التالية، وكان مرتبطا أيضا بعملية العولمة. وعلى الرغم من انشغاله قبل كل شيء بالتسامح بين بلدان وشعوب مسيحية، كان لوك يتوقف في حاشية الـ *Epistula*، عند اختلاف مفاهيم الهرطقة والانشقاق بالقياس إلى مفاهيم الردة والخيانة. ولكن إذا كانت هناك ديانات مختلفة تبرر قوانين مختلفة، وبالتالى قيما وسلوكيات من نوع غريب بين المؤمنين في كل ديانة، فما هي المساحة التي كان يمكن أن تكون هناك للصراعات التي تهدف لتحديد صحة طرف دون طرف آخر من الأطراف المتصارعة؟

وقد طرحت المسألة، على الرغم من أنها كانت بعيدة عن الحل. هل كان التسامح مسألة بين المسيحيين أم احتياجا عالميا؟ وسيعود فولتير مرات عديدة لهذا الموضوع، الذي كان يسحره منذ الفترة التي أمضاها وهو في سن الثلاثين تقريبا، بين عامي ١٧٢٦ و١٧٢٩، في إنجلترا، حيث تعلم تقدير أعمال نيوتن ولوك، والتي كان يروجها بلا كلل. وكانت فترة العامين بين ١٧٦٣ و١٧٦٤ "لحظة حاسمة" فولتيرية، ينتمي إليها سواء الـ *Traité sur la Tolerance* أو الـ *Dictionaire philosophique*. ومن الاثنين، وخاصة من بعض صفحات من العمل الثاني – مثل الحوار بين توكتان، باشا سامو، والخضرى كاريوس في الـ *Catéchisme du jardinière* – تنبع تلك الرسالة من التفهم والتعاطف تجاه العالم الإسلامي الذي كان قد ألهم، من ناحية أخرى، الصفحات بالغة الشدة ضد الحروب الصليبية في الـ

Essai sur les moeurs et l'ésprit des nations، التي جمعت بعد ذلك في مجلد مستقل ضد التمجيد الباروكي لـ *gesta Dei per Francos* في القرن السابق والتي ألفها العلماء في بلاط الملك الشمس.

ولكن هل كان يمكن للإسلام أن يطرح نفسه بصورة جادة كمسرح مناسب للتسامح، في نفس اللحظة التي كان يُقدَّم فيها من جوانب أخرى على أنه البيئة التاريخية التي نمت فيها وتنمو الشهوة والتعصب في تشابك فيما بينهما : لدرجة أن مدام دو بمبادور كان يشار إليها عادة بصفة "السلطانة"، التي لم تكن تضايقها إطلاقا، كما يذكرنا بذلك خطاب المقدمة، الذي كتبه الكاتب الفولتيري *Zadig* (المستلهم من *Gulistan* للشاعر الفارسي سعدي)؟ وقد جاءتنا إجابة من جوتهولد إفرايم ليسينج ومن العامين ١٧٨-١٧٨٠، عندما ألف ونشر الـ *Nathan der Weise* : وهو عمل لا يمكن أن يفهم إلا إذا ارتبط بصورة وثيقة بالعملين الآخرين في نفس الفترة، وهما كتاب عن تربية الجنس البشري والحوارات حول الماسونية. والـ *Nathan* هو البيان الحقيقي للـ *Aufklärung* حول التسامح : وهو يدل على أن ليسينج يتخذ كمصادر لكتابة كتابه وكمسرح لبنية الكتاب لفظين للمقارنة، الشرق الإسلامي في عهد صلاح الدين والعصور الوسطى في الفترة الصليبية، حيث أن هذا الشيء أو ذاك يبدوان لنا إعلانا عن الرومانسية التي أصبحت قريبة.

ومع ذلك فقد كان بين اختيارات ليسينج عنصر مستتر يكشف لنا الموقف. فصلاح الدين، على الرغم من أنه كان سيدا نبيلا وكريما فإنه كان لابد أن يمثل الميل الإسلامي للطغيان، طبقا للحكم المسبق المنتظم الذي يحبه الأوربيون. وبما أن التجربة كانت تبين لهم، على العكس من ذلك، السمات الإيجابية للعالم الإسلامي، فإن المسئولية عن الجوانب التي كان لابد أن تقدم بصورة مغرضة على أنها سلبية كانت تنسب للطابع الشخصي للنبي (صلعم). فمع التراجيديا التي ألفها *Mahomet, ou le fanatisme*، كان فولتير، الذي قدم المسلمين مرات عديدة على أنهم متفهمين ومتسامحين، والإسلام على أنه إيجابي إزاء المسيحية نفسها، كان ينسب للنبي (صلعم) كل خصائص سلبية. وفي أغسطس ١٧٤٥، أرسل نسخة من التراجيديا التي ألفها لبنديكت الرابع عشر مصحوبة بخطاب من الإطراء النادر، باللغة الإيطالية، يعرض فيه على "رئيس الدين الحقيقي هذا العمل ضد مؤسس طائفة زائفة وبربرية ".

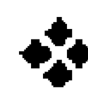
وكان هناك طريق مختلف رسمه كتاب *Vie de Mahomet* لهنري دو بولانفييه، الذي كان يرى أن النبي مشرع عظيم وحليم وصادق، وأسس ديانة عقلية وأصيلة، خانها فيما بعد رجال القانون والدين في الإسلام. مرة أخرى، حديث استشرافي

نقرأه على أساس المجاز الغربي والجدل ضـد الكنـائس المـسيحية التاريخيـة، والكاثوليكية قبل كل شيء : ولكنه كان يفتح الباب مع ذلك لفريق من الممتـدحين للإسلام ولمؤسسه على أساس توحيدي وعملي أو حتى إلحادي.

وفي نفس الوقت، كان الشرق يجتاح مجال الفن المجرد، أي الموسيقى والأدب الشعري. وقد حدث هذا ليس فقط مع الـ *Zauberflöte* لموتسارت، حيث كان يبدو أن خادمه المسلم الخائن مونوستاتوس يجسد الانحدار المعرفـي لـشرق أصـبح فريسة للتنطع الديني السراسيني، فـي مقابـل الحكمـة المـصرية-المجوسـية والغنوسطية-الشمسية عند ساراسترو ؛ ولكن أيضا مـع مـسرحية الـ *Armide* لكريستوف فيليبالد جلوك بصفة خاصة، التي ظهرت على خشبة المـسرح للمـرة الأولى في القصر الملكي في باريس وسبتمبر ١٧٧٧و كانت مستلهمة من تاسـو، ويبدو أنها تضع نهاية لحقبة العقلانية الهادئة التي فرضها شغف فولتير المـستنير والباسم بأريوستو.

والشرق كإغراء ولغز وسحر يعود بانتظام في قـصيدة *Oberon* لكريـستوف مارتين فيلاند، صديق جوته وفون كلاسيت والتـي نـشرت كــ *romantisches Heldengedicht* على صفحات "*Der teutsche Merkur*" في عام ١٧٨٠ وكانت تـضع الغرب المسيحي والفروسي والشرق الساحر والإسلامي في مقارنة وتضاد. ومـع قصيدة *Oberon* التي ستجد بعد ذلك ببضع سنوات في كارل ماريا فون ويبر ممثلا موسيقيا، كان الإسلام مستعدا لأن يصبح الآن – مع العصور الوسـطى – مـرآة سحرية و"مكانا آخر" إزاء الحداثة الرومانسية. و"مكان آخر"، كما نعلم تعنـي *alibi* باللاتينية.

كان موتسارت وروسيني يحبان المزاح : وكان يمكن المزاح مع الانكشاريين والمخصيين ومع الحريم والمآذن، بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وربمـا كانت الناس تمزح بشيء من الراحة : بعد أن خرجت مـن الكـابوس الطويـل للتركي الذي كان يربط بالسلاسل ويميت على الخازوق والبربري الذي كان ينهب ويقتل. وكان من الممكن الآن أن تصبح العمامة والسيف المعقوف أشـياء علـى المسرح والحريم والمساجد خلفيات لمسرحية أو عمل كوميدي.



١٢

من "مرض" الإمبراطورية العثمانية إلى "الموجة الثالثة" الإسلامية

الحجاج الجدد، "الصليبيون" الجدد

كان الجنرال بونابرت قد أبحر من طولون في مايو ١٧٩٨ ؛ وهبط في مصر في الأول من يوليو، واستولى على الإسكندرية في اليوم التـالي. وسـيبقى فـي الشرق لما يزيد على العام، حتى يوليو من عام ١٧٩٩ : وبين فبراير ومايو مـن نفس ذلك العام سيحارب بين فلسطين وسوريا. وفى يافا قتل بدم بارد ثلاثـة آلاف من الأسرى مع عائلاتهم، ولكنه واجه الطاعون بشجاعة. ولم ير القدس أبدا.

وقد أظهر الجنرال الشاب طموحات عظيمة : ففي ٢ يوليو وجه للمـصريين نداء كان يختلط فيه ثالوث الحرية-المساواة-الإخاء بالنداء باسم "الإسلام الحقيقي"؛ وكان يحلم بحكم الشرق من الإسكندرية، وإثارة إيـران والهنـد ضـد الـروس والإنجليز، وفرض مبادىء الثورة والمطالبة في نفس الوقت بمجد الـــ *gesta Dei per Francos*. وكان يعرف القليل عن الإسلام : ولكنه اختـار لنفـسه مـساعدين ممتازين وكان له حدس غير عادى للمواقف التي كان يتواجد فيها.

ومع علم المصريات، وجدت الحملة الصليبية الحديثة ميلادهـا مـع الحملـة الشرقية لبونابرت : ولم يكن من الممكن لشتوبريان وميشو ودوريـه أن يكونـوا حجاجا في الأرض المقدسة ولا مغرمين بملحمة الحملة الصليبية بدون المغـامرة الشرقية لبونابرت.

لم يكن بوسع السلطان سليم الثالث، من جانبه، أن يثـق "بحُمَاتـه" الإنجليـز والروس والنمساويين : الذين وحدت بينهم بلا شك مصلحة مشتركة فـي إغـلاق طريق الهيمنة في البحر المتوسط أمام فرنسا الثورية، ولكـنهم كـانوا مـصممين

أيضا – معها أو بدونها – أمام وليمة الشرق الثرية على أن يتغذوا ببقايا إمبراطورية كانت حدودها تمتد من الدانوب إلى دجلة ومن الفولجا إلى أعالي النيل، حتى بضعة عقود مضت. وقد قبل السيد الكبير بالتالي دون صعوبة الوصول في يونيو من عام ١٨٠٢ إلى سلام أمينس، بناء على اتفاق مع فرنسا التي جددت بالكامل إملاء الاستسلامات.

وكانت السياسة تجاه الباب العالي من جانب من كان منذ ٢ ديسمبر ١٨٠٤ إمبراطور الفرنسيين مليئة بالغموض ، ولكنها مستلهمة من تعاطف معين. كان نابليون قد مسه منذ أن كان شابا ما نسميه نحن اليوم "بالنزعة الشرقية" : كان قد قرأ كتاب *Histoire des arabes* لفرانسوا أوجييه دو مارينى وكان معجبا بكتاب *Voyage en Egypte et en Syrie* وكذلك كتاب *Considérations sur la guerre actuel des turcs*، وكلاهما من تأليف كوستانتين فرانسوا دو شاسبوف كونت فولنى، والمطبوعين بين عامي ١٧٨٧ و١٧٨٨. وهناك ما يشهد على أنه ربما ناقش مع جوته كتاب*Mahomet* لفولتير، مدافعا عن الإسلام والنبي (صلعم). ومن ناحية أخرى كان هذا الموقف مصحوبا بالتعاطف مع الحملات الصليبية – في قلب منتظم للتصورات الفولتيرية – : وكانت الدعاية الإمبراطورية تعود للمطالبة بالتفوق الفرنسي، على الخط المتبع من لويس التاسع إلى لويس الرابع عشر ومع ادعاء شفاف بالاستمرارية.

وقد مر نابليون كالشهاب، ولكنه ترك لأوربا بين مواريثها الكثيرة – مع القانون المدنى والليبرالية – علم المصريات أيضا الذي ولد مع بعثته على النيل وترك للمصريين الذكرى بأن المُثل العليا والثورية متلاقية بصورة ما وترك حتى بذرة القوانين الماسونية. وفى نفس الوقت فإن الحملة الصليبية وإحياءها كان يمكن أن تفهم بطرق عديدة. سنذكر البعض منها.

أولاها كان شاتوبريان المعهود هو الذي جسدها. ففي عام ١٨١١، عندما كانت شمس الإمبراطورية لا تزال عالية سار رينيه – على آثار رحلة القرن السابع عشر، ولكن أيضا رحلة الحج التقليدي المسيحي – على طريق الأرض المقدسة : وسوف يترك ذكرى شهيرة لهذه التجربة، كتاب *Itinéraire de Paris à Jérusalem*. وفى أثناء الرحلة كان قد مر بتونس ؛ وبعد ذلك بعشر سنوات تقريبا، وقد انطلق الآن في السياسة – بعد أن دفع للإصلاح ثمن مقالته النقدية ضد بونابرت – ذكر في خطاب له في مجلس نواب المملكة في ٩ أبريل من عام ١٨١٦ تجربته في وصم عودة أنشطة القرصنة من جانب البربر بالعنف والدعوة باسم التقاليد الفرنسية بأن ترتفع راية حرب صليبية جديدة. وقد ردد صداه بعد

ذلك بثلاثة أعوام، في ١٨١٩، بيير ديفال القنصل الفرنسي في الجزائر ؛ وفى ١٨٢٢، في ملزمة نشرت في جنيف بتوقيع جانبيترو فيوسو طالب بأن تتحد القوى الأوربية كلها تحت علم واحد لإفهام القراصنة البربر لغة " العدالة والعقل"[٦].

وقد نضج مناخ الغزو الفرنسي للجزائر في هذه الظروف : وكانت هذه هي المحاولة الأخيرة من جانب كارلو العاشر ملك بوربون في استعادة الشعبية بالحد بصورة ما من موجة العداء التي قلبته. ولكن قريبه وخليفته، "ملك يوليو " لويجى فيليبو، سبق بدوره على طريق المطالب والتوسع الاستعماري الذي كان يحتاج للتذرع بالملحمة الصليبية والرغبة المعلنة في التقدم والتحضر. وقد خصصت للحملات الصليبية خمس صالات مزدانة بالرسوم الجدارية في فرساى للبوربونى الليبرالي والدستوري. وقد قبل نابليون الثالث واستمر في نفس الخط، مشجعا أيضا عمل المثقفين المستشرقين في *Société de l'"Orient Latin*، وناشرى الـ *"Recueil des Historiens des Croisades "*. وكانت الدعوة للدين – وهو موضوع كان البعض مع ذلك يتحدث عنه خفية، ويجب أن نعترف بذلك : ولم يكن من الممكن تصديق عكس ذلك –، وتوسع المصالح الاستعمارية، و"رسالة" نقل الحرية السياسية والتقدم الحضاري والاجتماعي والتكنولوجي للشعوب خارج أوربا كانت تتنافس، مع اختلاطها في صور مختلفة، بتبرير المغامرات الآسيوية والأفريقية التي كان يحدث فيها أحيانا أن نرى بريق راية الحملة الصليبية – ربما كوسيلة دعائية. وسيحدث نفس الشيء مع اختلاف الظروف في البعثة الفرنسية في تونس ١٨٨١-١٨٨٣ ؛ وفى حملة ١٨٨٤-١٨٨٥ التي قام بها الجنرال جوردون ضد المهدي محمد أحمد ؛ وفى الاحتلال الإيطالي لإقليم طرابلس في ١٩١١-١٩١٢ ؛ وفى الحملة الأسبانية للريف بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٦ التي تميز خلالها *il galiziano* فرنشيسكو فرانكو، الذي أصبح فيما بعد *caudillo* في حملة صليبية أخرى؛ وحتى في الحربين الإيطاليتين ضد إثيوبيا، التي كانت أيضا في غاية المسيحية وربما كانت أيضا حليفة على الأقل في المشاريع الصليبية لقوات جنوا والبرتغال في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

---

[6] ج. - ا . همبرت ، ج. فيوسو ، *Les barbaresques et les chrétiens* (وقد أعقبه ج. فيوسو ، *Extrait d'une lettre du Lazareth de Livourne*) ، من إعداد ل. نيبى مودونا ، فلورنسا ١٩٨٣ .

أبنية بعيدة

"أنت تبتسم للأرض التي تسلبها". هكذا كان جبرييلي دانونتسيو يتوجه بحديثه للنصر الإيطالي أيام الغزو الإيطالي للساحل الليبي، في ١٩١١. ولقرون طويلة ولكن مع كثافة خاصة بين نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين، ابتسم الأوربيون للأرض التي يقومون بسلبها: من فولتير إلى كيبلينج. وعشقوها، كما يحدث غالبا أن يغرم الخاطف أو السجان بصدق بضحيتهما : التي ربما تبادلهما لبعض الوقت هذا الحب أو توهم نفسها بذلك. كان اللورد بايرون يهرع لمساعدة اليونانيين الذين يتعرضون لقمع الأتراك ويموت بالملاريا في ميسولونجي عام ١٨٢٤ ؛ ولكن في نفس الوقت كانت هناك أعداد لا تحصى من مواطنيه أو على أي حال من الأوربيين الذين كانوا يملأون متاحفهم ومجموعاتهم الخاصة بأشياء وآثار من الشرق وبنوكهم بثمار السرقة الكبرى .

والحب ربما كان يغشاه قليلا الهذيان الجمالي : ولكنه كان حقيقيا. كان واشنطن إيرفينج يزور بين ١٨٢٦ و١٨٢٩ جراندا مليئة بالغبار ومتداعية، وكان يحيى فيها البريق القديم – هو أيضا مثل شاتوبريان في *Ultimo degli Abenceragi* – وكان يؤسس في كل الغرب مذاق أسبانيا ذات الأطلال الرائعة. وكان ميشيل دو نيرفال يعبر الشرق بين عامي ١٨٤٢ و١٨٤٣ وكان يفجر من ذلك رواية حالمة طويلة لن يتحرر منها بعد ذلك أبدا بعد ذلك أمثال جوتييه وفلوبير وهوجو ولوتى والفريق الطويل من الرسامين "المستشرقين".

وقد ازدهرت أوربا القرن التاسع عشر بالقصور والأبنية ذات الطراز "التركي" و"الإسلامي الأسباني" و"المغولي"، بالضبط كما كانت تزخر بالكنائس وحتى بمحطات السكك الحديدية والمصانع ذات الطراز القوطى الجديد : وهذا وذاك، الشرق الزائف والعصور الوسطى الزائفة، صور لمكان آخر نشعر به بالتوازى كمحاور ضروري نتحدث معه، وموضع للسحر والرغبة، والرفض العميق والجاذبية الأقوى.

وفى نفس الوقت كانت أوربا مختلفة تماما بالنسبة للعالم الإسلامي. ففي عام ١٧٨٥، في اسطنبول، كان رئيس الوزراء الإصلاحي خليل حامد قد اغتيل مع آخرين من "الموالين للغرب" وألقى به في البوسفور مع عبارة معلقة في رقبته توصمه بأنه عدو للشريعة والإمبراطورية. ومع ذلك فإن السلطان سليم الثالث الذي صعد إلى العرش في العام الحاسم بالنسبة للأوربيين، ١٧٨٩، لم يتخل عن

إرسال شباب العائلات المميزة للدراسة في الغرب، وفتح السفارات في كل أوربا وبدأ نظاما للإصلاحات الحذرة، ولكنها كانت تهدف لإرساء قواعد دولة حديثة بالمعنى الغربي للكلمة : جيش منظم، إدارة أمينة وعملية، نظام مالي منظم، واقتصاد تنظمه قواعد دقيقة. كان هذا ضروريا للبقاء على قيد الحياة : وإلا فإن الغرب كان سيخنق الإمبراطورية. وقد علمت الثورة والتجديد العالم العثماني أن الأنظمة في أوربا كان يمكن أن تغير اتجاهها السياسي : ولكن المالية والاقتصاد والتكنولوجيا استمرت في السير في اتجاه واحد.

وكان انتصار التحالف المقدس على نابليون والحربان بين روسيا وتركيا في ١٨٠٣–١٨١٢ وفي ١٨٢٨–١٨٢٩ قد بدا أنها تسلم تركيا لأيدي القيصر. وكان هذا يعني هيمنة الأسطول الروسي على البحر الأسود ودخوله المظفر، عبر المضايق، إلى البحر المتوسط: وهو ما دفع الفرنسيين والإنجليز للتحالف ضد روسيا، ولكن في نفس الوقت لتشجيع ثورة اليونانيين المناهضة لتركيا وبالتالي لمساندة تجربة محمد على. كان هذا الأخير ضابطا عثمانيا من أصل ألباني، وأصبح نائبا للملك على مصر في ١٨٠٥، وقضى على من بقى من المماليك في مذبحة لا ترحم غدرا في القاهرة (١٨١١) وبدأ بقوة في تحديث البلاد. وواصل ابنه إبراهيم (١٧٨٩–١٨٤٨) عمل الأب – الذي كان خليفته المعين، ومع ذلك فقد مات قبله – محققا انتصارات رائعة بجيشه المنظم على الطريقة الأوربية ؛ وقد أذل الطائفة الوهابية في شبه الجزيرة العربية مخضعا كل الشريط الغربي من شبه الجزيرة العربية، الحجاز، للسلطة المصرية في ١٨١٨؛ وكان بطل القمع التركي ضد المتمردين اليونانيين ؛ ولكن في النهاية، عندما كان الأب قد تمرد صراحة على الباب العالي مع الرغبة في جعل مصر مستقلة، قاد حملة رائعة في سوريا. وبعد الاستيلاء على عكا في ١٨٣٢ بدأ في تنظيم قواته لتحقيق حلمه الجريء : غزو الإمبراطورية التركية. وكان يدعو الغربيين في نفس الوقت للتدفق إلى الأرض المقدسة (وافتتح الإنجليز قنصلية هناك في ١٨٣٨) وأصدر تعليماته بأن تلغى كل الرسوم المزعجة لدخول الأماكن المقدسة والتي أثرت الباشوات العثمانيين وعذبت الحجاج لقرون طويلة.

وقد أحيا إبراهيم آمالا وعواطف كثيرة : فقد كان يرنو إليه عالم عربي بدأ يستيقظ شيئا فشيئا ويشير إلى أنه يريد أن يزيح عن كاهله النير العثماني الثقيل ؛ وعلى الرغم من أنه كان أكفأ سفاح للحرية اليونانية ، فقد كان الليبراليون في الغرب يأملون فيه مقتنعين بأنهم يتعاملون مع محرر ومحدّث. وقد تطلب الأمر جيشا روسيا لوقف مسيرته نحو اسطنبول.

بعد إبراهيم إذن كان الطريق مفتوحا. واحتذاء بالنموذج الإنجليزي، افتتحت قنصليات أخرى لفرنسا وبروسيا والنمسا وأسبانيا في الأرض المقدسة، بينما بعثت روسيا مراقبا لها. وبما أن العامل الذي كان يبقى الغربيين بعيدين عن مواصلة الحج بأعداد غفيرة كان القلق بشأن الظروف الصحية والطبية في القدس، فقد سارعت القوى المعنية لتشجيع أعمال عامة وافتتاح مستشفيات هناك.

وبعد أن تشجعوا من هذا الحماس للتجديد، شرع اليهود في الشتات أيضا في حركة بطيئة ولكنها حازمة للعودة تجاه وطنهم الأصلي : واستقر كثيرون منهم هناك، ربما بعد شراء ممتلكات صغيرة، عازمين على أن يغرسوا جذورهم من جديد في أرض إسرائيل وكانوا موضع ترحاب من حكومة السلطان أو من السكان العرب أو من القنصليات الغربية على حد سواء. ولم ينس الشعب اليهودي أبدا أرض الميعاد، ولم يتوقف عن الإقامة فيها. وبتشجيع من السلطان، ازدهرت الجالية اليهودية في القدس من جديد منذ أواخر القرن الخامس عشر : وفي الأرض المقدسة ولد أكبر *qabbalista* في كل العصور، وهو إسحاق لوريا (١٥٣٤-١٥٧٢). وفي ١٧٠٠ كان الحاخام يهودا هيهاسيد قد هاجر من بولندا إلى القدس مع ما يقرب من ألف من اليهود الإشكنازيين : وقد تعرضوا على الفور إلى ضغوط واضطهادات من كل نوع (ولكن أقرانهم في الدين من السيفارديم، الذين اندمجوا بصورة أفضل، لم يتعرضوا عامة لأية مضايقات)، وفي ١٧٢٠ شهدوا تدمير معبد يهودي بني بتضحيات كبيرة في الحي الجنوبي الغربي من المدينة، لأنهم لم يكونوا قادرين على دفع جزية ثقيلة مفروضة عليهم. وبعد ذلك بقرن فقط استطاعوا العودة وإعادة المعبد الموقر الذي استكمل في ١٨٦٤ في ذكرى التدمير السابق وأطلق عليه اسم *Hurva* (وهى تعنى "دمار" باللغة العبرية).

ولكن القاعدة التي تقول بأنه توجد علاقة عميقة بين ما يحدث في الأرض المقدسة وما يحدث في العالم كانت لا تزال سارية في نفس الوقت : بكل جوانبها، وبعضها درامي جدا .

وفى مغارة الميلاد في بيت لحم، التي كانت منذ القرن الرابع سردابا للكنيسة القسطنطينية الرائعة التي لم يجرؤ الفرس حتى على تدنيسها، كانت هناك نجمة من الفضة مزينة بكتابة لاتينية تشير إلى المكان الدقيق الذي ربما جاء فيه السيد المسيح إلى العالم، وفقا للاعتقاد المتوارث. وفى يوم من الأيام سرق ذلك الرمز، الذي كان يشهد بكتابته بوضوح شديد على حقوق اللاتينيين، داخل كنيسة يحتفظ بها الأرثوذكس. وقد نشأ عن ذلك حادث دبلوماسي شمل الجاليتين الكاثوليكية والأرثوذكسية وتدخل القيصر بالشدة المعتادة إلى جانب الفريق الثاني، ووصل

إلى حد إرسال إنذار شديد اللهجة إلى الباب العالي. واحتشدت فرنسا وإنجلترا متحدثين دفاعا عن السلطان : وكان هذا لا يخلو من بعض الحرج، حيث أن الدعاية الرومانسية-الليبرالية منذ عقود طويلة كانت قد نجحت في أن ترسخ في كل أوربا صورة للحكومة العثمانية على أنها نظام منحل وفاسد، ووحشي ومليء بالرذائل. ولكن الآن كان هناك شيء أكبر من نجمة بيت لحم أو أحلام الأدب والرسم لدى "المستشرقين" يتعرض للخطر. فالمشكلة الحقيقية التي كانت النجمة والإنذار مجرد ذرائع لها هي الهيمنة على المضايق وبالتالي دخول الأساطيل الروسية إلى البحر المتوسط.

وقد اندلع عندئذ ما نعرفه باسم "حرب القرم"، التي دارت رحاها بين عامي ١٨٥٤ و١٨٥٦ وانتهت في نفس الوقت بجلسة ٢٥ مارس ١٨٥٦ لمؤتمر باريس، الذي أقر خلاله مبدأ الإصلاح لصالح المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية، في حين أُجبرت الحكومة القيصرية على التخلي عن مطالبها بحماية قصرية تجاههم. وأصبح وضع الجاليات المسيحية في الأرض المقدسة وموقف الأماكن المقدسة الآن من جميع النواحي جزءا من قضية أكبر، وهو ما يسمى بـ "القضية الشرقية". وكان يبدو أن فرنسا وروسيا لا تزالان على أي حال وعلى الرغم من كل شيء المتحدثتين الرئيسيتين فيما يتعلق بنظام العالم المسيحى في الأرض المقدسة. وفى نفس الوقت، في عام ١٨٦٩، كان يجرى افتتاح قناة السويس، التي قُدمت على أنها الطريق الذي ستتصل من خلاله الحرية والتقدم بسرعة إلى آسيا.

وقد كان المشروع استجابة لحلم قديم كان يراود السلاطين الأتراك منذ القرن السادس عشر : ولو كان تحقق آنذاك لاختلف تاريخ العالم. وفى عام ١٨٣٣ كان قد وصل إلى مصر بعض المتحمسين من أتباع سان سيمون، والمقتنعين بأن حفر القناة سيساعد "حملتهم الصليبية" من أجل التقدم : ولكن محمد على عرقل مخططاتهم خوفا من التعقيدات الدولية التي كان يمكن أن تظهر. وفى عام ١٨٥٤ كان حق امتياز أعمال القناة قد عهد به إلى الفرنسي فرديناند ديليسبس : وفى ١٨٥٨ أسست شركة قناة السويس برأس مال يبلغ ٢٠٠ مليون فرنك. وبدأت الأعمال في العام التالي : مع المقاومة الشديدة لانجلترا، التي كانت لا تخشى بعث البحرية العثمانية فحسب ولكن تزايد نفوذ فرنسا البونابرتية بصفة خاصة في الشرق الأدنى والمنافسة التي ستنشأ هكذا على طريق الهند. وقد افتتحت القناة في ١٧ نوفمبر من عام ١٨٦٩ في حضور الإمبراطورة أوجينى إمبراطورة فرنسا وإمبراطور النمسا فرنشيسكو جوزيبى (الذى أقام ذلك العام أيضا في القدس، وقبل

بتواضع كبير الضيافة البسيطة للفرنشيسكان عند قبر السيد المسيح، حيث لم يكن عندهم مبنى استضافة حقيقي): وعلى الرغم من أن النمسا كانت قد هُزمت أمام روسيا قبل ذلك بثلاث سنوات فإنه كان هناك مشروع دبلوماسي ربما لا يزال قائما جزئيا يداعب أوجيني، وهو التحالف السياسي-العسكري بين القوى الكاثوليكية الأوربية. ولكن الموقف انقلب بعد هزيمة نابليون الثالث في الحرب ضد البروسيين في العام التالي والتغلغل الواسع للإنجليز في مصر (مع غزو أعالي النيل على أيدي صمويل بيكر بين عامي ١٨٧٠ و١٨٧٣ وتعيين شارل جورج جوردون حاكما عاما للسودان في العام التالي) وأخيرا تنازل الخديوي – الذي كان يمر بضائقة مالية – عن أسهمه في قناة السويس (وما يعادل ١٠٠ مليون فرنك)، وهو ما كان يمثل غالبية حزمة الأسهم، للحكومة البريطانية. وبدأ عصر جديد للبحر المتوسط، الذي ابتعد عن مركز الملاحة في المحيطات بداية من القرن السادس عشر ليعود الآن مركزا للعالم. وأعطت قناة السويس التي هيمنت عليها انجلترا معنى جديدا أيضا لقلعة جبل طارق : الآن لن تضطر بعد ذلك سفن المدفعية وسفن الركاب والسفن التجارية البريطانية المتجهة إلى الهند للاقتصار على الرسو في الإسكندرية (المحتلة عسكريا من ١٨٠٧) لتفريغ ونقل حمولاتها ولن تضطر أيضا لتحمل عبء الدوران حول القارة الأفريقية.

وأمام التغلغل الدبلوماسي والاقتصادي للأوربيين الغربيين، لم يكن بوسع روسيا أن ترد سوى بالتلويح بالقضية الدينية. وفي عام ١٨٧٧ أعلن القيصر الحرب على تركيا مصرحا بأنه لا يستطيع التهاون أكثر من ذلك إزاء حالة الخضوع والانحطاط التي يتعرض لها المسيحيون الأرثوذكس الخاضعون للسلطان، وخاصة في شبه الجزيرة البلقانية. وقد أوقف الجيش الروسي، الذي وصل إلى أبواب اسطنبول بموجب السلام المسمى بسلام "سانت ستيفانو" (٣ مارس ١٨٧٨). وكانت الإمبراطورية التركية تتجه الآن للتفكك : فالامتيازات التي اضطرت لمنحها للقيصر في تلك المناسبة قضت نهائيا على مكانتها واستقلالها. وعند ذلك الحد ساور القلق أوربا الغربية من جديد : وخاصة إنجلترا التي كانت تخشى الهيمنة الروسية على تركيا (وهو ما كان سيعني دخول السفن الروسية البحر المتوسط والاستخدام المكثف من جانب الروس لقناة السويس، مع تهديد واقعي للسيادة البحرية البريطانية)، والنمسا التي كان يساورها القلق بسبب توازن القوى في البلقان. ووصل الموقف إلى أعتاب الحرب بين إنجلترا وروسيا، والتي لم تقع بفضل مؤتمر برلين والإدارة الحصيفة للأمير بسمارك "السمسار الأمين".

كان قد بدأ في نفس الوقت، وراء بحر قزوين، سباق معقد :مباراة في الشطرنج بين لاعبين، مع كثير من المراقبين المهتمين المحتشدين وراء كل لاعب ومستعدين لتغيير موقفهم من رقعة الشطرنج. كان هذا ما اسماه الإنجليز بـ "اللعبة الكبيرة" والروس "دوري الظلال" : فقد اجتاح السباق الوحشي بين روسيا وإنجلترا للاستحواذ على أكبر مساحة ممكنة من الأرض بين بحر قزوين ونهر الهند المنطقة الواقعة بين سير داريا وتيان شان بداية من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما لم يكن المسلمون الرحل من الأتراك المغول في آسيا الوسطى يستطيعون توقع أي مساعدة من "خليفتهم"، أي من سلطان اسطنبول الذي أخضعته القوى الأوربية .

منذ زمن بعيد كانت آسيا الوسطى مسرحا لتوترات مضطربة، ولكن أيضا لهزات مليئة بالتجديد. وكان غثاء السيل المتخلف عن أوربا اليائسة والشجاعة قد انجذب إلى تلك المنطقة مثل برادة الحديد. ولنذكر على سبيل المثال باولو أفيتابيلى، المولود في أجيرولا في ١٧٩١ وهو جندي من أتباع مورات[7] انتهت به مغامراته إلى البنجاب وأصبح حاكما لبيشاور، وكان يشنق الناس ويقطع الألسن ويمتلك الحريم، وعاد بعد أن أصبح مسنا إلى كامبانيا ومنحه الملك فرديناندو الثاني وساما ومات في مدينته الصغيرة الأصلية في عام ١٨٥٠. ولكن المغامرين في تلك الأنحاء كانت تحدث لهم أمور مختلفة تماما.

ولكن الروس والإنجليز لم يستعينوا بالطبع فقط بالجنود : فقد انطلق جيش كامل من الجواسيس المتنكرين في زى جغرافيين وعلماء أجناس وتجار في الصحارى والمنحدرات القاحلة في أعلى جبال العالم. وكان من بينهم أيضا مرتزقة رائعون وعلماء حقيقيون. مثل المستكشف نيكولاى ميخائيلوفيتش برزيفالسكى، الجنرال وعالم الحيوان صاحب الشهرة الدولية. أو مثل شوكان واليخانوف، حفيد أحد الحكام في كازاخستان، والذي كان طالبا في كلية عسكرية في أورنبورج وبعد ذلك عميلا سريا قيصريا بين شعبي كازاخستان"وقيرقيزيا : وكان عالم نبات وجغرافيا ورساما وصديقا للمنفى دوستويفسكى ومفكرا ليبراليا ديمقراطيا. ومات في عام ١٨٦٥ وعمره ثلاثون عاما فقط.

وبعد تفتت إمبراطورية تيمورلنك ، كانت آسيا الوسطى قد أصبحت فسيفساء من الممالك والإمارات في صراع وحشي فيما بينها، وكان التحالف معها تتنازعه الإمبراطوريات الثلاث التركية والفارسية والصينية. و دخلت روسيا وبريطانيا

---

[7] يواقيم مورات (١٧٦٧-١٨١٥) ملك نابولي (١٨٠٨-١٨١٥). (المترجم)

بقوة في هذه التوازنات وأثرتا عليها دون مواربة .و انقض الروس على أراضي ما كان يسمى عامة آنذاك تركستان، بعد شعورهم بالإحباط في محاولتهم الاختراق نحو البحر المتوسط بحرب القرم. وفى ١٨٦٥ قام الجنرال ميخائيل جريجوريفيتش بغزو طشقند ضد أوامر القيصر نفسه، وتلقي من الملك سيفا مرصعا بالجواهر والأمر بالاستقالة : ولكن الضربة كانت قد حدثت. وفى ١٨٦٨ استسلمت مدينة سمرقند للجنرال قسطنطين كاوفمان. وفى ١٨٨١ أكمل الجنرال سكوبيليف غزو آسيا الوسطى، بينما كان الخط الحديدي الروسي يمتد حتى آمو داريا.

كانت الممالك التركية المغولية قد حاولت أيضا المقاومة. ففي عام ١٨٦٣ كانت مملكة كوكاند قد بعثت إلى ما وراء تيان شان، في كاشجار – حيث كان الـ *uyghuri* والـ *dungani* " (أي المسلمون الصينيون) قد تمردوا على الحكومة الإمبراطورية للعائلة المنشورية –، ضابطا يحمل الجنسية الطاجيكية، يدعى يعقوب بيج، سرعان ما استولى على إكسينجيانج الحالية وبداية من عام ١٨٦٧، بدأ سياسة شخصية استطاعت التصرف بمهارة بين تركيا وانجلترا وروسيا. ولكن المشروع الطموح ليعقوب بيج غرق بسبب الخصومة بين الروس والإنجليز الذين كانوا يتنازعون صداقة إمبراطور الصين الذي كان المغامر قد انتزع منه إكسينجيانج. وعندما مات يعقوب، في عام ١٨٧٧، في ظروف غامضة، لم تبق مملكته على قيد الحياة بعده : كان سلطان اسطنبول وحده، وهو في نفس الوقت الزعيم المعترف به للسنة الأتراك المغول، هو الذي كان يمكن أن يساعده .و لكن كانت هناك أمور أخرى في البوسفور يتعين التفكير فيها.

ولم يتوقف البدو الرحّل في آسيا الوسطى أبدا عن النظر إلى العائلة العثمانية فقد كانت الديانة الواحدة ترتبط في هذا بالقرابة العرقية واللغوية. وفى نفس الوقت بدأت الكلمة الجديدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كلمة القومية، ومعها القومية التركية – التي ولدت على غرار القومية الألمانية – في التغلغل في تركيا على الأقل في الطبقات البرجوازية في المدينة وبين العسكريين.

وفى الهند كان يبدو أن المباراة قد انتهت عندما نقل البرلمان البريطاني، في ٢ أغسطس ١٨٥٨، حكومة شبه القارة من شركة الهند الشرقية إلى التاج. ولكن في آسيا الوسطى، في الوقت الذي كان فيه واضحا أن الإمبراطوريتين الفارسية والصينية المتداعيتين لن تستطيعا التطلع للهيمنة اقتصرتا على تقديم المساندة تارة لصاحبة الجلالة بريطانيا – وإمبراطورة الهند – ولقيصر كل الأقاليم الروسية تارة أخرى، و كان يبدو أن الفاصل بين القوتين الأوربيتين قد تركز بصورة ما

على طول المناطق الشاهقة في تيان شان وكاراكوروم. ولكن الموقف لم يكن بعد على هذا النحو.

وقد كتب الفصل الحاسم من هذه القصة المجنونة والساحرة بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٥ شخصيتان رائعتان : أنور باشا وميخائيل فرونز.

ولد أنور في ١٨٨١، وكان بطلا لثورة الشبان الأتراك فـي ١٩٠٨، وكـان معجبا كبيرا بالقومية الألمانية، ومتطوعا في ليبيا في ١٩١١ ضـد الإيطـاليين، ووزيرا تركيا للحربية في ١٩١٤، ومنفيا منذ ١٩١٧ أولا في برلين وبعد ذلك في موسكو، وكان قد أصبح مساعدا وثيق الصلة للغاية للينين بالنسبة لمشكلات آسـيا الوسطى. وعندما أرسل بعد ذلك إلى تركستان في ١٩٢١، سرعان ما ألقى قناعه: كان حلمه "القومي-الطوراني" [8] هو تأسيس إمبراطورية تركية بين بحر قـزوين وتيان شان، عاصمتها بخارى وستتحد بتركيا الجديدة بزعامـة مـصطفى كمـال أتاتورك. واعتمد عليه أولئك المحاربون الأتراك والطاجيك الرائعون الذين أطلـق الروس عليهم، من غضبهم، اسم *"basmachi"* (قطـاع الطـرق-القتلـة) وكـانوا خصوما أكفاء للجيش الأحمر الوليد.

ولكن السوفييت أيضا كانوا قد وجدوا، في نفس الوقـت، بطلهـم فـي آسـيا الوسطى. يا للألم ويالالعار أننا نذكر القليل جدا الآن عـن ميخائيـل فاسـيلييفيتش فرونز، هذا النابليون البولشيفى الرائع الذي ولد في بيشكيك، في قيرقيزيا الحالية، حيث لا يزال هناك حتى اليوم تمثال برونزى علـى حـصان ومتحـف صـغير يذكرانه ! كان فرونز قد أطلق على أحد أبنائه إسما مصيريا : تيمور وهو نفـس اسم الفاتح الطورانى تيمورلنك.ويتشابه أنور وفرونز في طريقيهما.

كان الثوري التركي قد بلغ الأربعين من عمره بالكـاد، وفـي تحـد للجـيش الأحمر، توجه لأمير أفغانستان طالبا منه المساعدة ولقب نفسه بـ "القائد الأعلـى لجيوش الإسلام، قريب الخليفة، ومبعوث النبي (صلعم)". وقد ألهب جهـاده آسـيا الوسطى. وفى ربيع ١٩٢٢ قام بغزو جزء كبير من إمارة بخارى : ولكنه مـات بعد ذلك بقليل، في ٤ أغسطس من نفس العام. ويقال إنـه قـاد هجومـا مفاجئـا انتحاريا من الفرسان ضد المدافع الرشاشة السوفيتية. واستمر الـ *"basmachi"* في المقاومة حتى الثلاثينيات، محاصرين وموضع قمع أخف فقط، من حيث الوحشية، من الأكاذيب والنميمة التي حاول البعض تلطيخ بطولتهم بها.

---

[8] طوراني : متعلق بمجموعة من الشعوب أو اللغات الآسيوية ليست بآرية و لا سامية . (المترجم)

وبعد ثلاث سنوات من موت أنور كان خصمه فرونز، المنشئ الحقيقي للجيش الأحمر، يسير وراء مصيره في ظروف لا تقل غموضا. فقد أقر زعماء السوفييت في موسكو بأنه كان مريضا بقرحة المعدة : وبالطبع لم تنجح العملية الجراحية. وكلفت اللجنة المركزية فوروشيلوف، وهو واحد من أصدقاء فرونز القليلين المخلصين برعاية أبنائه. وبقيت رواية بوريس بيلنياك، *Assassinio di un comandante*، كشهادة وحيدة تقريبا على واحدة من الجرائم المنفرة لثورة كانت تلتهم أبناءها. وخاصة أفضلهم.

حديث مفتوح

ولكن لنعد إلى غرب آسيا وإلى آسيا الغربية. كانت الحرب بين فرنسا وبروسيا في ١٨٧٠ قد أذلت القوة الفرنسية، وهو الأمر الذي لم يكن من الممكن ألا تكون له انعكاسات على المكانة والمزايا التي تحتفظ بها فرنسا منذ ما يزيد على ثلاثة قرون في الشرق الأدنى من حيث التمثيل ورعاية الجاليات الكاثوليكية الموجودة والمقيمة فيه. كانت أزمنة فرنشيسكو الأول والسيد فيلنوف بعيدة. وفى ١٨٧١ كانت قد أُعلنت الإمبراطورية الاتحادية الألمانية في صالون المرايا في القصر الملكي في فرساى : وكان مستشارها، الأمير بسمارك يعادي كما هو معروف الكنيسة الكاثوليكية ؛ ولكن هذا لم يكن يمنع أن جانبا كبيرا من رعايا الإمبراطورية الجديدة كانوا من أتباع الديانة الكاثوليكية، ولم يكن من الممكن ترك احتكار حماية مكانة الكاثوليك الألمان لإمبراطور النمسا، الذي كان ينظر إليه الكثير من الألمان بأسف لأنه تولى حتى ١٨٦٦ القيادة المعنوية على الأقل للاتحاد الألماني. وفى ١٨٧٥، وعلى الرغم من أن الناس كانت في أوج الـ *Kulturkampf*، صرح القنصل الألماني العام في مصر رسميا بأن حكومته لم تكن مستعدة للاعتراف لأي قوة بالحق المطلق في تمثيل ورعاية المستوطنات الكاثوليكية في الشرق بل إنه كان يحتفظ لنفسه بميزة الحماية بالقوة لأى مواطن من الرعايا الألمان يوجد في هذه المستوطنات.

وقد دعا الأمير بسمارك بين يونيو ويوليو من عام ١٨٧٨ لعقد مؤتمر في برلين اقترح خلاله أن يقوم بدور الوسيط النزيه لإنهاء الصراع التركي- الروسي

وإيجاد اتفاق ثابت بين روسيا والنمسا وانجلترا وفرنسا وتركيا ؛ وقد شاركت فيه أيضا إيطاليا، التي كانت حكومتها تكسب بهذا شيئا من المكانة الدولية، جزاء لخنوعها المستمر أمام السياسة الألمانية. وقد طرحت على مائدة البحث في الأساس قضايا إعادة النظام في البلقان : وفي الحقيقة كان الأمر يتعلق بالقيام بخطوة للأمام على طريق تمزيق أوصال الإمبراطورية العثمانية وتوزيع أثمالها. وحصلت انجلترا على الحق في احتلال قبرص، وفرنسا الحق في الاستيلاء على تونس (وستفعل ذلك في ١٨٨١)، وإيطاليا – التي كانت تأمل بدورها في توسع تونسي، يمكن تصديقه جغرافيا وتاريخيا – استبعدت بوعود غامضة بـ" تعويض" في ألبانيا. ولإنقاذ ماء الوجه، فرضت القوى الغربية على السلطان الالتزام ببعض الإصلاحات "الليبرالية " في إمبراطوريته : وبهذه الطريقة استطاع مؤتمر برلين أن يقدم نفسه – كما هي العادة ... – كمرحلة جديدة، ومتألقة على طريق الحضارة والتقدم وليس كما كان، كعمل من أعمال اللصوصية الاستعمارية.

وللمشاركة في المؤتمر، كانت فرنسا قد طلبت صراحة أن تبقى القضايا المصرية والسورية والمتعلقة بالأماكن المقدسة خارج المناقشة : ومع ذلك فقد تأكد في النهاية الوضع الراهن الشهير الذي كان تقريبا السبب العرضي لحرب القرم ولكن الحكومة الفرنسية كانت تطالب به الآن على أساس أنه كان يعترف بحقوقها. ومن ناحية أخرى، بدا واضحا من اجتماع برلين أن رجال الكنيسة والحجاج المسيحيين الذين يواجهون أية مشكلة سيتعين عليهم من الآن فصاعدا التوجه لسلطاتهم القنصلية ولحكومة كل منهم في نفس الوقت. وظهرت السلطة السلطانية مهمشة تماما من ممارسة أي نوع من المزايا على الشئون والأشخاص الغربيين ، على الرغم من أن الأماكن المقدسة بقيت جزءا من الأرض التي تحكمها.

وانتهت التدخلات الأجنبية المستمرة في قضايا الإمبراطورية العثمانية بتغذية تلك النزعات القومية التي كانت غريبة على الثقافة الإسلامية داخل طبقاتها الحاكمة، ولكنها دخلت في الأراضي التي كانت تسيطر عليها كجزء من عملية التحديث. وكانت تركيا التي خرجت من ثورة ١٩٠٩ قد طالبت المجتمع الدولي في مناسبات عديدة بإلغاء الامتيازات الأجنبية ؛ ومع بداية الحرب كانت قد أدانتها من جانب واحد. وفى ٢ نوفمبر من عام ١٩١٤ كانت روسيا بالفعل قد أعلنت الحرب على تركيا وجرّتها للحرب ضد قوى الاتفاق. وكان هذا بلا شك – كما قيل – نتيجة للسياسة الموالية لألمانيا في حزب "الشبان الأتراك" والاتفاقيات السرية التي كانت تربط تركيا، من ٢ أغسطس، بمصائر الإمبراطورية الألمانية ؛

ولكنها كانت أيضا نتيجة عقود طويلة من الإذلال وشتى صنوف الاستبداد التي تعرض لها السلطان من جانب الإمبريالية القريبة للروس، الذين هددوا الأمن والمكانة التركية على البحر الأسود، وفى المضايق وفى البلقان، والفرنسيين والإنجليز الذين اقتسموا بقايا الدولة العثمانية من تونس إلى مصر.

وقد ارتكز الرد الفرنسي-البريطاني على دخول تركيا الحرب على الروح الوطنية والوحدوية الناشئة في العالم العربي، الذي وعدوه ببناء "دولة عربية كبرى"، مملكة واحدة تحكمها أسرة محلية وتوحد جميع الشعوب العربية من سوريا ومن بلاد ما وراء النهرين حتى شبه الجزيرة العربية ومصر. ولكن كان لابد، لهذا السبب، من التحرر من الأتراك : لم يكن هذا بالأمر السهل، نظرا لأن الولاء الإسلامي كان يأبى فكرة حمل السلاح ضد السلطان الذي كانت له مكانة الخليفة ؛ وكانت العقلية الإسلامية التي تجد نفسها في الأمة (مجتمع المؤمنين) تواجه صعوبة في فهم المفاهيم الغربية مثل "الوطن" و"الدولة". وبالتالي فإن الفرنسيين والإنجليز، من أجل مصالحهم السياسية والعسكرية المباشرة التي كانت تتطلب انتفاضة العرب ضد الأتراك، قدموا إسهاما هاما من الناحية الموضوعية لتحديث وصبغ الإسلام العربي بالصبغة الغربية بمساندة وحتى إثارة مطالب التحرر من نير الاستعمار التركي. ولإقناع العرب بالتمرد على السلطان-الخليفة دون خلق مشكلات لديهم من ناحية الضمير الديني كان هناك وعد بتقديم عرش "الدولة العربية الكبرى" القادمة لخادم الحرمين الشريفين في مكة، الشريف الحسين من العائلة الهاشمية.

وكان الإسهام العربي في تحرير سوريا-فلسطين من الوجود العسكري التركي في أثناء الحرب العالمية الأولى هائلا، وربما حاسما : ولكن دواعي الدبلوماسية ستجعل مغزاه بلا جدوى. فالاتفاقيات الفرنسية-الإنجليزية المسماة (على اسم الدبلوماسيين اللذين وقعا عليها) سايكس- بيكو لم تكن تضع أي اعتبار للوعود التي قطعت للشريف حسين وأقرت بأن الشرق الأدنى عند نهاية الحرب سيقسم إلى منطقتي نفوذ محددتين : سيكون من نصيب فرنسا سوريا ولبنان، طبقا لتقاليد الوجود الثقافي الراسخ هناك بالفعل ؛ وستحصل إنجلترا على فلسطين وشرق الأردن وبلاد ما وراء النهرين، في حين أن شبه الجزيرة العربية سيتعين تنظيمها في مملكة تحت حكم العائلة الوهابية السعودية. وبقيت الاتفاقيات سرية : ولكن الحكومة الروسية كانت بالطبع على علم بها. وبهذه الطريقة، عندما خرجت روسيا بهذه الطريقة مع الثورة، وقد تحولت الآن إلى الاتحاد السوفيتي، كُشف النقاب عن جوهرها : فقد فعلت الدعاية التركية والألمانية كل ما في وسعهما

لتعريف العرب بأن وعود الحلفاء لحسين كانت خدعة وأن "الدولة العربية الكبرى" لم تولد أبدا. ولكن الحلفاء كانوا بالفعل قد دخلوا بغداد ودمشق والقدس نفسها. وأنقذ الإنجليز عرشا في العراق، من أجل فيصل ابن الحسين : ولكن الفرنسيين منعوهم بالقوة من أن يضموا إليهم سوريا، التي وعدوا بها أيضا ولكنهم كانوا ينوون إقامة جمهورية فيها تحت إشرافهم. وحصل عبد الله، شقيق فيصل – هو أيضا كملك – على شرق الأردن. وأكدت معاهدة سان ريمو في أبريل ١٩٢٠ على اتفاقيات سايكس بيكو، وألغت الامتيازات الأجنبية وبدأت سلسلة من المناورات الدبلوماسية المعقدة عهد مجلس جمعية الأمم في أعقابها بالإشراف المؤقت على فلسطين لـ "انتداب" بريطاني .

كان هناك عنصر جديد قد دخل في نفس الوقت في هذه اللعبة المعقدة بالفعل. ففي عام ١٨٦٢ كان الحاخام زيفي هيرش كاليشير قد أكد أن العودة الـ *messianica* المنتظرة من الشعب اليهودي، لن تتحقق بصورة إعجازية : سيتعين على الرجال التعاون لتحقيقها. وستكون عودة اليهود إلى الأرض المقدسة، إلى *Eretz Israel*، الضمان والعلامة على البعث الجديد. ومنذ عام ١٨٤١ كانت الحكومة العثمانية قد سمحت لليهود بأن يكون لهم رئيس حاخامات في فلسطين، يقيم في القدس. وفى أعقاب مبادرة الحاخام هيرش كاليشير، أسس التحالف الإسرائيلى العالمى في فلسطين مدرسة الزراعة *Mikve Israel*.

كان تدهور الظروف المعيشية لليهود الشرقيين، خاصة في روسيا، قد تسبب في النصف الثاني من القرن في نزوح حقيقي : واختار الكثيرون الولايات المتحدة، واستقر آخرون في أوربا، وخاصة في فرنسا، ولكن ما يقرب من ٣٠٠٠٠ فضلوا التوجه إلى فلسطين، بداية من ١٨٨٢ تقريبا. وبين عامي ١٨٨٩ و١٨٩٥ جمعت جمعية *Chowewei Zion* ("أصدقاء صهيون") لاستيطان المستعمرين في فلسطين مبالغ هائلة من المال، وأيضا بمساعدة أثرياء خيّرين مثل البارون إدموند روتشيلد. وفى ١٨٩٦، خلال بضعة أسابيع، كتب الصحفى ثيودور هيرتزل كتابا بعنوان *Der Judenstaat*، يعتبر البيان الحقيقي للصهيونية : وفي ١٨٩٨، سيقوم القيصر جوليلمو الثاني باستقبال هيرتزل في القدس. وفي ١٩٠٢ ظهرت أيضا صهيونية من النوع الديني، مختلفة عن المواقف العلمانية والوطنية التي كان هيرتزل على أساسها قد اقترح وأعرب عن أمله في "أمل مضمون في النهاية للشعب اليهودي" : ولكن الحاخام أبراهام إسحاق كوك، مؤسس حزب مزراحى، كان قد تقدم ببرنامج يمكن تلخيصه في صيغة "دولة إسرائيل لشعب إسرائيل باسم توراة إسرائيل".

واستقبل الرواد اليهود الأوائل في فلسطين بصفة عامة بصورة طيبة إلى حد ما. ولكن أعيان العرب الفلسطينيين كانوا قد وجهوا في عام ١٨٩١ للحكومة العثمانية نداء حتى تمنع اليهود من الدخول غير المنظم وشراء الأراضي بلا حدود. وكان هناك سوء تفاهم أساسي يكمن وراء التدفق اليهودي في الأرض المقدسة: فكرة أن تعتبر حقا "أرضا بلا شعب لشعب بلا أرض". ولكن الشعب الفلسطيني كان موجودا الآن بالفعل : وكان يجب أن نأخذ ذلك في الاعتبار، على الرغم من أن الحكومة العثمانية والقوى الغربية على حد سواء كانت متفقة على أن تلك الأرض يمكن أن تستضيف شعوبا أكثر مما فيها، إذا ما زرعت بصورة مناسبة.

وغذت الدبلوماسية البريطانية سوء التفاهم، فقد كانت بحاجة لاستكمال الدائرة بأن وضعت معا – ونجحت في ذلك ... – ثلاثة أهداف لا يمكن التوفيق بينها : إثارة العرب ضد الأتراك بالوعد بوطن عربي كبير متحد ومستقل ؛ وإبعاد اليهود الصهاينة – الذين كانوا في معظمهم من أصل ألماني ومرتبطين وطنيا جدا بدولتهم ألمانيا وحتى بالبيت الإمبراطوري – عن قضية القوى المحورية في الحرب العالمية الأولى ؛ وتلبية الاحتياجات الحزبية للحركة الصهيونية، التي لم تعد تكتفي بأي أرض لشعب بلا أرض ولكنها كانت تريد بالذات تلك الأرض، *Eretz Israel* والقدس (وذلك لتحقيق هدف إبعاد أو تخفيف التعاطف الصهيوني تجاه ألمانيا).

وفى ٢ نوفمبر ١٩١٧ أرسل اللورد آرثر جيمس بلفور، وزير الخارجية البريطاني، خطابا إلى رجل المال ليونيل وولتر روتشيلد، الرئيس الشرفي للمنظمة الصهيونية العالمية : وكان يؤكد فيه على أن الحكومة البريطانية تؤيد إنشاء *national home* يهودي في فلسطين. وكان هذا الإعلان، الذي انتقل بعد ذلك للتراث الدبلوماسي الرسمي، في تناقض بيّن مع وعد "الدولة العربية الكبرى" الذي قدم للشريف الحسين – وبصورة لا تقل عن اتفاقيات سايكس-بيكو.

ووجد اليهود والعرب أنفسهم هكذا، غداة الحرب، قد لُعب بهما ووُضعا كل منهما ضد الآخر، بصرف النظر عن نوايا ومصالح الطرفين. وبين نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين هاجمت عصابات عربية معزولة أراضي المستوطنين اليهود : ولكنها كانت حوادث توضع في حساب نشاط متوطن لقطاع الطرق. وفى مارس أيضا من عام ١٩١٩، رحب فيصل باليهود الذين كانوا ذاهبين للاستقرار في سوريا– فلسطين وأعرب عن اقتناعه بإمكانية النمو المشترك للجاليتين في المستقبل في روح من الوفاق.

ولكن التوترات بين العرب واليهود أثناء نظام "الانتداب" البريطـــاني، وتـــدفق اليهود إلى فلسطين غداة الـــ *shoah*، وتأسيس دولة إسرائيل والحروب التي أعقبت ذلك أسهمت في خلق قضية الشرق الأوسط التي لم تحلّ حتى الآن والتي لا تزال تبدو بعيدة عن أي حل نهائي.

وبعد الحرب العربية-الإسرائيلية في عام ١٩٦٧ تصبح بنية القدس بأســـرها، بما في ذلك الأماكن المقدسة والجزء القديم والأثري من أبنيتها، تحت سيطرة دولة إسرائيل التي نقلت إليها أيضا – على الرغم من بعض القرارات المعارضة مـــن جانب الأمم المتحدة – العاصمة من تل أبيب ("تل الربيع"، وهي مدينـــة يهوديـــة أسسها المستوطنون في أوائل القرن العشرين حول المركز التاريخي لمدينة يافـــا العربية). ولا تزال هناك حتى الآن مقترحات كثيرة لحل محتمل لمشكلة القـــدس : من الحل الفلسطيني الذي يأمل في مدينة واحدة كعاصـــمة لـــدولتين وحكـــومتين منفصلتين، الإسرائيلية والفلسطينية (ويذكر كنموذج حالة روما ومدينـــة الفاتيكـــان طبقا لاتفاقيات عام ١٩٢٩) إلى حل الفاتيكان، الذي يتجه على العكس مـــن ذلـــك نحو نوع من التدويل، وهو ما يقابل مقاومات شديدة في كل العالم اليهودي. بحث شاق ولكنه ضروري للوصول إلى تسوية : لأن ما يحدث في القدس، طبقا للقاعدة التاريخية القديمة، يهم العالم بأسره.

فالقضية العربية- الإسرائيلية، مع تغير التوازنات الـــسكانية والإنتاجيـــة فـــي العالم في العشرين-الثلاثين سنة الأخيرة ومع غروب أوربا كقوة عالمية، وهو ما حدث بعد عام ١٩٨٩ مع تأكيد نظام جديد للعالم يتميز بوجود قوة عظمى وحيدة، هي الولايات المتحدة الأميركية : كل هذا أثّر بصورة قوية وغير بعمق العلاقـــات بين أوربا والإسلام.

وكان من نتيجة هزيمة العالم العربي في الحرب العربية- الإسرائيلية في عام ١٩٦٧، في نفس الوقت، أن اهتزّت بعمق الثقة التي كانت لدى العديد من الدوائر الإسلامية حتى ذلك الحين تجاه الغرب وبالتالي في إمكانية تلك العملية التي غالبـــا ما وصفت خطأ بأنها "عولمـــة" (أو "تحـــديث") الإســـلام. فالمطالـــب التقليديـــة والراديكالية، التي وصفت خطأ أيضا بأنها "أصولية"، والتي ولدت بصفة خاصـــة في مصر وفي شمال غرب الهند في العشرينيات ولاقت حتى ذلك الحـــين حيـــاة بالغة الصعوبة، وهي منقسمة كما كانت فيما بينها إلى مدارس وجماعات متنـــافرة ومحاصرة من الأنظمة التي تنزع للتحديث والغرب والقومية التقدمية والتي كانت بصورة أو بأخرى تقتسم الحكم في جزء كبير من دار الإسلام ، أصبحت منذ ذلك الحين أكثر قوة دائما حتى المنعطف المتمثل في "الثورة الإسلامية" في إيران فـــي

١٩٧٩، والتي أظهرت مدى هشاشة قواعد النظـــام المـــستبد والمـــوالى للغـــرب المفروض من أباطرة عائلة بهلوى. وفى نفس الوقت كانت القضية الكردية تبـــرز إلى السطح بقوة متزايدة. كان المنتصرون في ١٩١٨، في رسمهم لحدود النظـــام الجديد للشرق الأوسط، قد أهملوا كردستان، أي المنطقة الجبلية التي تبلغ مساحتها تقريبا نصف مليون كيلومتر مربع بين القوقاز وخليج الإسكندرونة ونصف مجرى الفرات الذي يسكنه الأكراد البدو الذين يتحدثون اللغة الإيرانيـــة. وكانـــت هـــذه المنطقة مقسمة بين تركيا وإيران وسوريا والعراق : وبعد ذلك بقليـــل اجتاحتهـــا بالكامل موجة المصالح الدولية المرتبطة باستغلال آبار البترول. وعبثـــا حـــاول الأكراد، منذ ذلك الحين، جذب اهتمام العالم لقضيتهم – وهم مقسمون فـــي نفـــس الوقت بالحدود الجديدة وغير متحدين أيضا بسبب تركيبتهم القبلية نفسها. ومنذ أن كانوا أوفياء لسلطة السلطان حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، لم يـــستمع أحـــد لصوتهم. وكانوا ضحايا لسياسة من القمع والإبادة وهو مـــا ردت عليـــه بعـــض الجماعات منهم باستخدام الوسيلة الوحيدة الممكنة في هذه الظروف العصيبة، وهو الإرهاب، ونجح الأكراد فقط في العشرين سنة الأخيرة من القرن العـــشرين فـــي جذب الاهتمام الدولي بصورة ما.

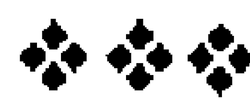
ومن بين العوالم الإسلامية الكثيرة التي ظهرت في نفس الوقت أو ظهرت من جديد على الساحة الدولية في العقود الأخيرة يبدو أن هناك دور خاص تلعبه إيران التي تحولت بعد ١٩٧٩ إلى "جمهورية إسلامية" أو بلاد الاتحاد السوفيتي السابق: تلك البلاد الإسلامية الأورالية الألطائية في معظمها (ولكن مع أقليات هند أوربيـــة قوية) التي انضمت لاتحاد الدول المستقلة مع روسيا ولكن بهـــا نزعـــات قوميـــة طورانية قوية من ناحية – تدفعها للنظر إلى تركيا ما بعد كمال أتاتورك والحلـــم، في مناطق متطرفة، بـــ "تركيا الكبرى"، "من البوسفور إلى البامير" –، ونزعـــات دينية ومستلهمة من "الإسلامية" (و هو اسم ربما نفضل اســـتخدامه علـــى كلمـــة "أصولية") من الناحية الأخرى، واضحة على سبيل المثال فـــي الاتجـــاه الـــشائع للعودة إلى الأبجدية العربية مع التخلي عن الحروف اللاتينية أو الـــسريانية التـــي فرضها السوفييت.

وأوربا التي لم تعد محورا للعالم سياسيا، وهى قوة عظمى ماليـــا واقتـــصاديا ولكنها لا تزال حتى الآن لا تمتلك مؤسسات موحدة ولا تزال غير قـــادرة علـــى التعبير عن سياسة دولية وخط دبلوماسي مستقل إزاء "الحليف" الأمريكـــي، تبـــدو اليوم حائرة ومبهمة أمام حكومات وشعوب دار الإسلام .ويبدو أن علاقاتهـــا مـــع الولايات المتحدة الأمريكية تؤثر على حريتها واستقلاليتها سواء في العمل أو فـــي

الحكم تجاه دول مثل إيران والعراق وليبيا ؛ في حين أن الرأى العام فيها لا يزال بعيدا جدا عن الحقائق ونادرا ما يتأثر بالحركات الدينيـــة والثقافيـــة فـــي العـــالم الإسلامـي، الذي تبدو إزاءه التمييزات المجردة بين "علمـــانيين" و"متطـــرفين" (أو صفات مماثلة غير دقيقة) غير مناسبة بـــالمرة. والمعلومـــات الهزيلـــة ورديئـــة المستوى التي تظهر وفيرة ودقيقة فقط من خلال الممارســـة المتكـــررة لوســـائل الإعلام ، تقترن ببقاء أحكام مسبقة قديمة مع تجـــددها بـــصورة مـــضحكة لمنـــع الوصول إلى رؤية هادئة ومرنة للأشياء بصورة واقعية، فيما يتعلق بالإسلام.

وقد أصبحت القارة الأوربية علاوة على ذلك هدفا لـــ"هجوم" إسلامي جديد له مع ذلك سمات متباينة. فالمسلمون الذين يصلون إلى أوربا بـــصورة شـــرعية أو دون ذلك، غالبا بحثا عن عمل أو ترتيب شخصي وعائلي، غالبا ما تكون لـــديهم ثقافة دينية أولية جدا : ولكن هذه الثقافة هي في نفس الوقت أداتهم الوحيدة للهوية والوعي الذاتي. وفى نفس الوقت، وجد المؤمنون الإسلاميون في أوربا في نهايـــة القرن العشرين أنفسهم في وضع جديد تماما من الناحية التاريخيـــة : فهـــذه هـــي المرة الأولى التي تجد فيها جماعات تتكون من مسلمين نفسها تعيش خـــارج دار الإسلام، وبالتالي في أراض لا تعرف الشريعة كقانون أساســـي ومعتـــاد. وإلـــى جانب المعاناة المتمثلة في العيش في وضع الأقلية، يضاف التوتر الناشـــئ عـــن الدعاية وبصورة ما أيضا عن النشاط الإرهابي لجماعات توصـــف عـــادة بأنهـــا "أصولية" والمشكلة المتمثلة موضوعيا في نمو الجاليات الإسلامية - بفضل العديد من الأوربيين الذين يعتنقون أيضا الإسلام - والتي تحصل الآن على أشكال مـــن الاعتراف في الكثير من الحالات.

وبالتالى فإن "الموجة الثالثة" الإسلامية وسعت من حدود دار الإسلام : ولكنهـــا يجب أن تتعامل مع أوربا، التي هي بدورها في مرحلة إعادة تعريـــف حـــساسة لنفسها، وهى قوية ولكنها غير متجانسة على الصعيد الاقتصادي-الاجتماعى ولـــم تتميز بعد بوضوح في الخيارات على الصعيد السياسي، وحـــائرة علـــى صـــعيد الهوية الثقافية. وقد قال المصرى فؤاد زكريا: "إن الإسلام ســـيكون مـــا ســـيفعله المسلمون به". ولكن أوربا أيضا ستكون ما سيستطيع الأوربيون فعلـــه بهـــا. إن أوربا يتزايد فيها يوما بعد يوم المواطنون والمقيمون الذين يتبعون قـــانون النبـــي (صلعم).



الترتيب الكرونولوجي

٦٢٢ (١٥ يونيو)	"هجرة" النبي محمد (صلعم) من مكة إلى يثرب (التي سميت فيما بعد بالمدينة).
٦٣٢	وفاة النبي محمد (صلعم) في المدينة.
٦٣٨	الخليفة عمر يدخل القدس.
٦٣٩	بداية الفتح العربي لمصر.
٦٤١	العرب يستولون على الإسكندرية.
٦٤٧	بداية الفتح العربي لأفريقيا (المقابلة للإقليم الروماني القديم لأفريقيا)، الذي انتهى نحو عام ٧٠٥.
٦٤٩	معاوية حاكم سوريا، يهاجم جزيرة قبرص.
٦٥٥	الانتصار الإسلامي البحري الكبير في فينكس ضد البيزنطيين
٧١١	العرب البرابرة يبدءون فتح شبه الجزيرة الأيبيرية.
٧٣٢ (٢٥ أكتوبر)	معركة بواتييه (التاريخ هو الأكثر قبولا عامة).
٧٥٠	انقلاب وتأسيس الخلافة العباسية.
٧٥٦	الأموي عبد الرحمن الأول يؤسس إمارة قرطبة.
٧٥٩	الفرنجة يطردون المسلمين من ناربونا.
٧٦٢	تأسيس بغداد، العاصمة الجديدة للخلافة العباسية.
٧٩٧	بداية العلاقات الدبلوماسية بين شارلمان وهارون الرشيد.
٨٠١	الفرنجة يعيدون فتح برشلونة.
٨٢٧	بداية الغزو الأغلبي لصقلية (الذي اكتمل في عام ٩٠٢).
٨٢٧ – ٩٦١	الإمارة العربية في جزيرة كريت.
٨٣٣	الفتح الإسلامي لباليرمو.
٨٤٤	الهجوم النورماندي على أشبيلية.
٨٤٦	الغارة العربية على روما.
٨٤٧ – ٨٧١	الإمارة العربية في باري.

٨٤٩	معركة أوستيا.
٨٥٩	النورمانديون يحرقون مسجد الجزيراس.
٨٧٠	الإحتلال الإسلامي لجزيرة مالطة.
٨٨٢ – ٩١٥	مستوطنة السراسنة في جاريليانو.
٨٩٠ – ٦٧٢	مستوطنة السراسنة في فراكسينيتوم (لا جارد– فراينيه).
٩٠٢	الفتح الإسلامي لجزر الباليارى.
٩١٠	تأسيس الخلافة الفاطمية الشيعية في أفريقيا.
٩١٢	بداية الدخول الإسلامي في منطقة الفولجا.
٩١٥	تأسيس مدينة المهدية التونسية.
٩٢٩	عبد الرحمن الثالث أمير قرطبة يلقب نفسه بالخليفة.
٩٦٠ – ٩٦١	البيزنطيون يعيدون فتح كريت.
٩٦٦	الدانمركيون من أتباع هارالد بلاتاند ("السن الأزرق") يهاجمون لشبونة.
٩٦٩	تأسيس القاهرة.
٩٨٢	في كابو كولونا في كالابريا، السراسنة يهزمون أوتوني الثاني.
٩٨٥ – ١٠٠٣	هجمات متكررة للسراسنة في برشلونة.
٩٩٧	المنصور يهاجم وينهب مدينة سانتياجو دى كومبوستيللا.
١٠٠٩	الخليفة الفاطمي الحاكم يدمر كنسية القبر المقدس في القدس.
١٠١٥– ١٠٢١ (تقريبا)	حروب جنوا وبيزا ضد مجاهد.
١٠٢٠	هجوم السراسنة على ناربونا.
١٠٣١	نهاية الخلافة الأموية في قرطبة.
١٠٦٢	تأسيس مراكش.
١٠٦٣ – ١٠٦٤	حملة بارباسترو في أراجونا.
١٠٦٤	استيلاء قشتالة على كويمبر.
١٠٨٥	ألفونسو السادس ملك قشتالة يفتح طليطلة.
١٠٨٦	القشتاليون يُهزمون على أيدى المرابطين في زلاقة.
١٠٨٧	حملة ضد المهدية.
١٠٩٠	روجيرو دالتا فيللا يحتل مالطة وجوتسو.
١٠٩٤ – (١٥ يونيو)	السيد يحتل مدينة بلنسية.

١٠٩٥ (١٨- ٢٧ نوفمبر)	المجلس الكنسي في كليرمونت دالفيرنيا.
١٠٩٥- ١٠٩٩	الحملة الصليبية الأولى في سوريا وفلسطين.
١٠٩٩ (١٠ يوليو)	السيد كامبيادور يموت في بلنسية.
١٠٩٩ (١٥ يوليو)	الصليبيون يفتحون القدس.
١١٠٢	المرابطون يحتلون بلنسية.
١١٠٨	انتصار المرابطين على القشتاليين في أوكليه.
١١١٣- ١١١٥	الحملة البيزانية الكاتالونية ضد جزر الباليار ي.
١١١٨ (١٩ ديسمبر)	الأراجونيون يفتحون سرقسطة.
١١٤٥ (١ ديسمبر- ١ مارس ١١٤٦)	البابا إوجينيو الثالث يصدر في طبعتين متتاليتين مختلفتين، الـ *Quantum praedecessores*، وهو منشور بابوي حقيقي لتنظيم الحركة الصليبية.
١١٤٧ (١٣ أبريل)	المنشور البابوي *Divina dispensatione*.
١١٤٧ (يوليو – أغسطس)	الحملة الألمانية الدانمركية ضد الـ *wendi*.
١١٤٧ (١٧ أكتوبر)	الصليبيون يستولون على ألميريا.
١١٤٧ (٢٤ أكتوبر)	الصليبيون يستولون على لشبونة.
١١٤٧- ١١٤٨	الحملة الصليبية الثانية في سوريا وفلسطين.
١١٤٨	الصليبيون يستولون على تورتوزا.
١١٤٩	المسلمون يخلون القلاع الباقية في كتالونيا.
١١٥٧	الموحدون يعيدون فتح ألميريا.
١١٨٧	انتصار السراسنة في حطين ؛ صلاح الدين يفتح القدس ؛ المنشور البابوي *Audita tremendi*.
١١٨٧- ١١٩٢	الحملة الصليبية الثالثة.
١١٩٥ (١٩ يوليو)	الموحدون يهزمون القشتاليون في الأاركوس:
١٢١٢ (١٧ يوليو)	معركة لاس نافاس دى تولوزا.
١٢١٧- ١٢٢١	الحملة الصليبية الخامسة ؛ زيارة فرانشيسكو داسيزي لسلطان مصر.
١٢٢٨-١٢٢٩	حملة فردريك الثاني ؛ القدس يعاد احتلالها من خلال اتفاق دبلوماسي مع سلطان مصر الملك الكامل.
١٢٢٩-١٢٣١	الحملة الأراجونية ضد جزر الباليار ي.

١٢٣٢ ١٢٥٣ الحملة الأراجونية ضد مملكة بلنسية.

١٢٣٦ (٢٩ يونيو) فرديناند الثالث ملك قشتالة يستولي على قرطبة.

١٢٤٨ (٢٣ نوفمبر) فرديناند الثالث ملك قشتالة يفتح أشبيلية.

١٢٥٨ المغول يفتحون بغداد ؛ نهاية الخلافة العباسية.

١٢٦٧ استكمال الفتح المسيحي للبرتغال.

١٢٧٠ (٢٥ أغسطس) موت لويس التاسع.

١٢٧٤ المجلس الكنسي الثاني في ليون ؛ صدور الـ *Constitutiones pro zelo fidei*.

١٢٩١ سقوط عكا.

١٣٤٠ (٣٠ أكتوبر) الفونسو الحادي عشر ملك قشتالة ينتصر على *merinidi* المغرب في معركة الريو سالادو.

١٣٤٤ -١٣٤٦ "حملة أزمير".

١٣٥٥ هجوم الجنوفيزي على طرابس.

١٣٦٥ (١٠-١٦ أكتوبر) بيترو دي لوزينيانو ملك قبرص يهاجم وينهب الإسكندرية.

١٣٨٠ ديمتري دونسكوي، كبير أمراء موسكو، يهزم التتار في كوليكوفو.

١٣٨٨ الجنوفيزيون والبيزانيون والصقليون يحتلون جزيرة جربا.

١٣٨٩ (١٥ يونيو) معركة كوسوفو : مراد الأول يقضي على القوة الصربية، ولكنه يموت في الصدام.

١٣٩٠ الحملة الفرنكية – الجنوفيزية ضد المهدية، بقيادة لويس الثاني دوق بوربون.

١٣٩٦ (٢٥ سبتمبر) معركة نيكوبولي : هزيمة الصليبيين.

١٤٠٢ تيمورلنك ينتصر على الأتراك بالقرب من أنقرة.

١٤٠٥ موت تيمورلنك.

١٤١٥ البرتغاليون يفتحون *Ceuta*.

١٤٤٤ (١٠ نوفمبر) معركة فارنا : هزيمة الصليبيين.

١٤٤٨ (١٧-١٩ أكتوبر) مراد الثاني يهزم الصليبيين المجريين في كوسوفو.

١٤٥٣ (٢٩ مايو) السلطان الثاني محمد الثاني يستولي على القسطنطينية.

١٤٥٦ (٦ أغسطس) جانوس هونيادي يفتح بلجراد ؛ وعلامة على الاحتفال يقام عيد التجلي.

١٤٦٣ البوسنيون يبدءون في اعتناق الإسلام ويتخلون عن المسيحية اليونانية والـ *bogomilismo*.

١٤٧٠ الأتراك يستولون على نجروبونتي.

١٤٧١ البرتغاليون يفتحون طنجة.

١٤٧٥ (٦ يونيو) الأتراك يستولون على كافًا.

١٤٨٠ كبير أمراء موسكو إيفان الثالث يوقف دفع الفدية، مستغلا الانقسامات بين زعماء التتار.

١٤٨٠ (أغسطس) أسطول تركي يهاجم ويفتح أوترانتو ؛ تأسيس محاكم التفتيش الأسبانية.

١٤٨١ (٣ أغسطس) موت محمد الثاني.

١٤٩٢ (٢ يناير) الملوك الكاثوليك يفتحون غرناطة.

١٤٩٧ -١٥١٠ فتح العديد من القلاع بين مليلة وطرابلس على أيدي الأسبان

١٥٠٢ المملكة التتارية أوردا دورو تنقسم إلى ثلاث ممالك : خازان وأستراكان والقرم.

١٥٠٤ (٤ مايو) مجلس العشرة في فينسيا يناقش اقتراحا بقطع خليج السويس

١٥٢٠ - ١٥٦٦ سلطنة سليمان الكبير.

١٥٢١ (٣٠ أغسطس) الأتراك يستولون على بلجراد.

١٥٢٢ الأتراك يفتحون جزيرة رودس، ويطردون منها فرسان سان جوفاني.

١٥٢٦ (٢٩-٣٠ أغسطس) الانتصار التركي في موهاكس. معاهدة مدريد بين كارلو الخامس وفرنشيسكو الأول من أجل "حملة صليبية عامة".

١٥٢٩ (١٠ سبتمبر) الأتراك يستولون على بودا.

١٥٢٩ (سبتمبر- أكتوبر) الحصار التركي لفيينا.

١٥٣٠ فرسان سان جوفاني يتمركزون في جزيرة مالطة وفي طرابلس.

١٥٣٣ خير الدين يعينه سليمان قائدا للبحرية السلطانية.

١٥٣٤ خير الدين ينهب السواحل الإيطالية ويحتل تونس، ويطرد منها الأمير الذي يحميه الأسبان.

١٥٣٥ (يونيو- يوليو) طرد كارلو الخامس من تونس.

١٥٣٥ "المعاهدات" بين فرنشيسكو الأول وسليه ن.

١٥٣٦	المعاهدة الفرنكية التركية.
١٥٣٨ (سبتمبر)	أسطول الرابطة البابوية- الفينسية- الإمبراطورية يهزم على أيدي خير الدين في بريفيزا، عند مدخل خليج أرتا. سليمان يفتح عدن لمواجهة الاختراق البرتغالي في المحيط الهندي.
١٥٤٠	السلام المنفصل لفينسيا مع سليمان، الذي تتنازل له فينيسيا عن آخر قلاعها في البيلوبونيزو.
١٥٤١	هجوم فاشل لكارلو الثالث على الجزائر.
١٥٤٣	نشر الـ *Machumetis saracenorum principis vita ac doctrina omnis, quae et Ismahelitarum lex et Alchoranum dicitur*، لتيودور بوخمان (بيبلياندر). الفرنكيون- الأتراك يحاصرون نيس.
١٥٤٤	دعوة المجلس الكنسي في ترنتو. نشر الـ *De orbis terrae* Concordia لجيوم بوستيل.
١٥٤٦	موت خير الدين.
١٥٤٧	أندريا أريفابيني ينشر في فينسيا الطبعة الأولى للقرآن باللغة العامية الإيطالية.
١٥٥٠ (يونيو- سبتمبر)	الحملة البحرية التي نظمها كارلو الخامس ضد المهدية، قاعدة القرصان تورغود على ("دراجوت").
١٥٥١ (١٤ أغسطس)	الإسبتاريون في طرابلس يستسلمون للأتراك ؛ السلطان يعين تورغود على حاكما لطرابلس.
١٥٥٢	فتح موسكو لخازان.
١٥٥٦	فتح موسكو لأستراكان.
١٥٦٠ (مارس – يوليو)	الصليبيون يفتحون جزيرة جربا ثم يفقدونها من جديد.
١٥٦٢ (١٥ مارس)	تكوين الجمعية البحرية العسكرية المقدسة لفرسان القديس ستيفانو في كنيسة بيزا.
١٥٦٥	الأتراك يحاصرون عبثا جزيرة مالطة. هبوط البرابرة في الأندلس بمساندة السكان الموريسكيين.
١٥٦٦	الأتراك ينتزعون من أهل جنوا جزيرة كيو.
١٥٦٦ (٣٠ أغسطس)	موت سليمان الكبير.
١٥٦٨	معاهدة أدريانوبولي التركية-الإمبراطورية.

١٥٦٨- ١٥٧٠	ثورة الموريسكيين التي يقمعها الأسبان.
١٥٦٩	المشروع العثماني لقناة بين الفولجا والدون لربط البحر الأسود ببحر قزوين.
١٥٦٩- ١٥٧٤	العثمانيون يفقدون تونس ويستعيدونها بصورة متكررة.
١٥٧٠- ١٥٧٢	حرب قبرص بين الأتراك أهل فينسيا.
١٥٧١ (٧ أكتوبر)	معركو ليبانتو.
١٥٧٨	معركة القصر الكبير وموت سيباستيانو ملك البرتغال.
١٥٨٣- ١٥٨٧	إقامةعلاقات دبلوماسية وتجارية بين إنجلترا والإمبراطورية العثمانية.
١٥٩٣- ١٦٠٦	الحرب النمساوية التركية التي انتهت بمعاهدة زيتفا توروك.
١٦٠٩ (٩ ديسمبر)	مرسوم ملكي بالطرد النهائي للموريسكيين من أسبانيا.
١٦٢٢	الإنجليز يطردون البرتغاليين من خليج هرمز، بمساعدة الإيرانيين.
١٦٢٧	غارة القراصنة البربريين في أيسلندا.
١٦٤٤-١٦٦٩	حرب كانديا بين الأتراك وأهل فينسيا.
١٦٦٤ (١ أغسطس)	الفيلد مارشال مونتيكوكولي يهزم الأتراك في سان جوتاردو على الراب.
١٦٦٩	سفارة تركية في باريس تلهم موليير باحتفال التنصيب النبيل في *Le bourgeois gentilhomme*.
١٦٧٢- ١٦٧٦	الحرب التركية البولندية.
١٦٧٧- ١٦٨١	الحرب الروسية التركية.
١٦٨٢ - ١٦٩٩	الحرب التركية– النمساوية–البولندية.
١٦٨٣ (١٧ يوليـــو – ١٣ سبتمبر)	الحصار التركي لفيينا.
١٦٨٤-١٦٩٩	حرب موريا بين الأتراك وأهل فينسيا.
١٦٨٦ (٢ سبتمبر)	كارلو ملك اللورين يفتح بودا.
١٦٨٧ (٢٥-٢٧ سبتمبر)	قصف فينيسي للأكروبول في أثينا يلحق الأضرار ببروبيلي وبارتينون، اللذين كان يستخدمهما الأتراك كمستودعات للذخيرة.
١٦٨٨ (٢ أغسطس)	معركة موهاكس.

١٦٩١	الأتراك يهزمزن في سلانهامين.
١٦٩١- ١٦٩٨	صدور ترجمة وتفسير للقرآن للأب لودوفيكو ماراتشي.
١٦٩٦ (٢٨ يوليو)	الروس يستولون على آزوف.
١٦٩٧ (١١ سبتمبر)	الأتراك يهزمزن في معركة زنتا.
١٦٩٧	صدور الـ *Bilbliothèque orientale* لبارتيليمي ديربيلو دو مولانفيل.
١٦٩٩ (٢٦ يناير)	سلام كارلوفيتز.
١٧١١ (٢١ يوليو)	السلام التركي الروسي : القيصر يجبر على التنازل عن قلعة آزوف.
١٧١٥-١٧١٨	الحرب التركية الفينسية التى سميت بحرب "كورفو".
١٧١٦ (٥ أغسطس)	انتصار أوجينيو ملك سافويا على بتروفارادين.
١٧١٨ (٢١ يوليو)	معاهدة باساروفيتز، التى كتبت باللاتينية وبالتركية.
١٧٢٢- ١٧٢٧	حملات عسكرية روسية وتركية في القوقاز.
١٧٢٩	صدور الكتاب الأول باللغة التركية من مطبعة في اسطنبول (أغلقت في عام ١٧٤٢ وأعيد افتتاحها في عام ١٧٨٤).
١٧٣٦- ١٧٣٩	الحزب النمساوية الروسية التركية.
١٧٣٩ (١٨ سبتمبر)	سلام بلجراد.
١٧٤٢ (٩ أغسطس)	العرض الأول لـ *Mahomet, ou le fanatisme* لفولتير.
١٧٦٨-١٧٧٤	الحرب الروسية التركية.
١٧٧٤ (٢١ يوليو)	معاهدة كوشوك كايناري بين روسيا وتركيا.
١٧٨١	المعاهدة النمساوية الروسية لاقتسام الإمبراطورية السلطانية.
١٧٨٣- ١٧٩٢	الحرب الروسية التركية على الأقاليم التتارية بين البحر الأسود وبحر قزوين.
١٧٩٢	معاهدة جاسي بين روسيا وتركيا.
١٧٩٨	بونابرت في مصر.
١٨٠١	روسيا تضم جورجيا.
١٨٠٤	روسيا تضم أرمينيا وأذربيجان
١٨١٦ (٩ أبريل)	رينيه دو شاتوبريان يقدم طلبا في مجلس النواب الفرنسي للقيام "بالحملة الصليبية الأخيرة" ضد البرابرة.
١٨٢١	الانتفاضة اليونانية والحرب اليونانية التركية.

١٨٢٦	السلطان التركي محمد الثاني يلغي قوة الإنكشاريين.
١٨٣٠	الاحتلال الفرنسي للجزائر.
١٨٣٩ – ١٨٦١	السلطان عبد المجيد الأول يعلن "التنظيمات المفيدة" حول ضغط القوى الأوربية.
١٨٥٣ – ١٨٥٦	الحرب في القرم.
١٨٥٦	معاهدة باريس و"إعلان الضمان" : أبواب تركيا تفتح لدخول رأس المال الغربي.
١٨٥٩ – ١٨٦٩	حفر قناة السويس.
١٨٦٤	ضم تركستان إلى روسيا.
١٨٧٦	الملكة فيكتوريا تحصل على لقب "إمبراطورة الهند". في تركيا "القانون الأساسي للدولة"، أول دستور يمنحه السلطان، ويلغيه على الفور عبد الحميد الثاني.
١٨٧٨	مؤتمر برلين و"تسوية" البلقان.
١٨٧٩ – ١٩٠١	في أفغانستان، عبد الرحمن يمنح بريطانيا حقوق الحماية والمراقبة.
١٨٨١	الغزو الفرنسي لتونس.
١٨٨١ – ١٨٩٩	في السودان، ثورة ضد مصر لمحمد أحمد المهدي ؛ وبعد هزيمة المتمردين، يصبح السودان محمية إنجليزية مصرية.
١٨٩٨	رحلة سياسية-دبلوماسية للقيصر جوليلمو الثاني في الإمبراطورية العثمانية، "خطاب دمشق" وزيارة القدس.
١٩٠٣	بناء السكة الحديدية برلين-بغداد.
١٩٠٥	في الهند، تكوين إقليم البنغال الذي يضم أغلبية مسلمة.
١٩٠٦	مؤتمر الجزيراس : الألمان يعترفون "بالوضع المتميز" لفرنسا في المغرب.
١٩٠٧	معاهدة سان بطرسبرج وتقسيم إيران لمناطق نفوذ ومصالح بين إنجلترا وروسيا.
١٩٠٨	الثورة العسكرية في سالونيك بقيادة أنور باشا. ثورة حزب الشباب الأتراك والأزمة البلقانية لضم البوسنة والهرسك للنمسا.
١٩١١ – ١٩١٢	الحرب الإيطالية التركية على ليبيا.

١٩١٢ -١٩١٣	الحروب البلقانية.
١٩١٤ -١٩١٨	الحرب العالمية الأولى.
١٩١٦	معاهدة سايكس بيكو: اقتسام الأراضي العربية في الإمبراطورية العثمانية بين فرنسا وإنجلترا.
١٩١٧	وعد بلفور لصالح إنشاء دولة يهودية في فلسطين.
١٩١٩	ميلاد الحركة الوطنية التركية بقيادة مصطفى كمال.
١٩٢٠	قيام الانتداب البريطاني على فلسطين.
١٩٢٠ -١٩٢٢	الحرب اليونانية التركية.
١٩٢٠ -١٩٢٦	الأزمة الإنجليزية الأمريكية الفرنسية على المنطقة البترولية في الموصل، والتي سويت في مؤتمر سان ريمو (١٩٢٠) ومعاهدة الموصل (١٩٢٦) باقتسام أسهم *Iraq Petroleum Company* (بأغلبية إنجليزية).
١٩٢١	الأمير فيصل يعلن ملكا على العراق ؛ وشقيقه عبد الله أميرا على الضفة الشرقية لنهر الأردن.
١٩٢٢ (١ نوفمبر)	في تركيا، إلغاء السلطنة.
١٩٢٣ -١٩٣٨	النظام الوطني العلماني والتقدمي في تركيا (مصطفى كمال أتاتورك).
١٩٢٤	إلغاء الخلافة وحل المحاكم الإسلامية في تركيا.
١٩٢٥	إعلان الإمبراطورية في إيران تحت حكم رضا شاه : نظام مستبد وعصري.
١٩٢٨	في مصر، الشيخ حسن البنا يؤسس جماعة "الإخوان المسلمين".
١٩٣٠	في الولايات المتحدة، تأسيس حركة المسلمين السود.
١٩٣٢	اتحاد الحجاز ونجد في المملكة العربية السعودية، تحت حكم عبد العزيز ابن سعود.
١٩٤٨	إعلان دولة إسرائيل في فلسطين والحرب العربية الإسرائيلية الأولى.
١٩٥٤	اتفاق "قومي عربي" مصري سوري سعودي.
١٩٥٤ -١٩٦٢	حرب التحرير الجزائرية.
١٩٥٦	أزمة السويس، وفي باكستان، إعلان الجمهورية الإسلامية

	المشتركة في الكومنولث.
١٩٦٧	حرب "الأيام الستة" : الإسرائيليون يستولون على كل المنطقة الحضرية في القدس، بما في ذلك الأماكن المقدسة.
١٩٦٩	الهند : مصادمات بين الهندوس والمسلمين في أحمد أباد.
١٩٦٩ (سبتمبر)	القمة الإسلامية في الرباط.
١٩٧١ (٣- ١٧ ديسمبر)	الحرب الهندية الباكستانية : باكستان الشرقية تصبح مستقلة تحت اسم بنجلاديش.
١٩٧١- ١٩٧٢	تكوين الإمارات العربية المتحدة في الخليج الفارسي.
١٩٧٣ (مايو)	في ليبيا، القذافي يعلن الإسلام "طريق الثورة الاجتماعية".
١٩٧٤	القمة الإسلامية في لاهور.
١٩٧٤- ١٩٧٥	الأزمة اليونانية التركية بسبب قبرص.
١٩٧٥- ١٩٧٦	الحرب الأهلية بين المسيحيين والمسلمين في لبنان.
١٩٧٩ (مارس)	توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل.
١٩٧٩ (١ أبريل)	آية الله الخميني يعلن الجمهورية الإسلامية الإيرانية.
١٩٧٩ (مايو)	مؤتمر الدول الإسلامية يعلق عضوية مصر بعد اتفاقيات كامب ديفيد.
١٩٧٩- ١٩٨٠	التدخل العسكري السوفيتي في أفغانستان.
١٩٨٠- ١٩٨٨	الحرب العراقية الإيرانية للسيطرة على مداخل المناطق البترولية في الخليج الفارسي.
١٩٨٠	إلغاء العبودية في موريتانيا.
١٩٨٠	دولة إسرائيل تعلن ضم الجزء الشرقي من القدس.
١٩٨١ (يناير)	قمة الدول الإسلامية تدين العدوان السوفيتي ضد أفغانستان.
١٩٨١	إسرائيل تعلن ضم مرتفعات الجولان السورية، شمال شرق بحيرة طبرية.
١٩٨٢	في لبنان، مذبحة المدنيين الفلسطينيين في مخيمات صابرا وشاتيلا على أيدي الميليشيات اللبنانية المسيحية. في سوريا، ثورة "الإخوان المسلمين" في مدينة حماة.
١٩٨٢ (مايو)	في أفغانستان، كبرى المنظمات الإسلامية تكوّن "التحالف الإسلامي للمجاهدين في أفغانستان".
١٩٨٣ (أبريل)	في لبنان، هجوم على السفارة الأمريكية على أيدي جماعة

الجهاد الإسلامية الشيعية.

١٩٨٤	مؤتمرالدول الإسلامية يقرر بالأغلبية (مع التصويت بالاعتراض من جانب سوريا وليبيا) على إعادة قبول مصر. مصادمات في بومباي بين المتطرفين الهندوس والأقلية المسلمة.
١٩٨٥ (أكتوبر)	غارة جوية إسرائيلية ضد قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في تونس.
١٩٨٦	عقوبات اقتصادية أمريكية ضد ليبيا وقصف الأراضي الليبية.
١٩٨٦ (٢٠ أكتوبر)	في كراتشي، في باكستان، يتكون "المجلس الدولي للدعوة الإسلامية ".
١٩٨٨	في لبنان، مصادمات بين الجماعات المسلحة الشيعية الموالية لسوريا ("أمل") والموالية لإيران ("حزب الله"). في إسرائيل، ثورة فلسطينية في الأراضي المحتلة ("انتفاضة").
١٩٨٩	القوات السوفيتية تنسحب من كل أفغانستان.
١٩٨٩ (٤ يونيو)	وفاة الإمام روح الله الخميني. مصر تدخل من جديد في الجامعة العربية.
١٩٩٠ (يوليو)	بداية "أزمة الخليج" بين العراق والكويت والأمم المتحدة.
١٩٩٠ (أغسطس)	القمة الإسلامية في القاهرة : إدانة الغزو العراقي للكويت.
١٩٩١ -١٩٩٢	في الجزائر، انتصار انتخابي للجبهة الإسلامية للإنقاذ وانقلاب عسكري.
١٩٩٣ (٩-١٣ سبتمبر)	تصريحات الاعتراف المتبادل بين دولة إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية والتوقيع في واشنطن على "إعلان مبادئ الحكم الذاتي للأراضي المحتلة".
١٩٩٤ مايو	حادثة في مكة وموت ما يقرب من ٨٠٠ من الحجاج.
١٩٩٤ (٢٥ يوليو)	الأردن وإسرائيل توقعان على اتفاق يضع نهاية لحالة الحرب المستمرة منذ عام ١٩٤٨.
١٩٩٦	في أفغانستان، هيمنة حركة طالبان الأصولية.
١٩٩٧ (مايو)	في إيران انتصار محمد خاتمي المعتدل في الانتخابات الرئاسية.

تعليق ببليوجرافي

هذه الإشارات ليست مستوفية لجميع المراجع. وخاصة أننا لا نذكر هنا العديد من كتب الدراسات القيمة التي لم تستطع مع ذلك، نظرا لموضوعها المحدود، أن تجد مكانا في تعليــق ببليــوجرافي يقتصر على الإشارات العامة المحددة، بناء على رغبة الناشر.

إن مقارنة تطور العلاقة بين أوربا والإسلام يمكن أن تحدد فــي عــدة اتجاهــات، وسنقتصر هنا على الإشارة إلى: *L'Occidente di fronte all'Islam*، من إعداد س. أليفي، روما، ب. ت. ؛ ف. كارديني، *Noi e l'Islam*، روما – باري ١٩٩٤ ؛ و. مــونتجمري وات، *Cristiani e musulmani* الترجمة الإيطالية، بولونيا ١٩٩٤؛ ب. لويس، *L'Europa e l'Islam*، روما – باري ١٩٩٥؛ إ. بانشي، *Islam e occidente* روما ١٩٩٥.

وهناك نقاط هامة يمكن استخلاصها مــن ب. برلــون، *La formazione dell'Europa cristiana* الترجمة الإيطاليــة، رومــا– بــاري ١٩٩٥ ؛ ج. فونتانــا، *L'Europa allo specchio*، الترجمة الإيطالية، روما – باري ١٩٩٥ ؛ م. مولا دو جاردان، *L'Europa e il mare* الترجمة الإيطالية، روما– باري ١٩٩٣.

راجع أيضا م. رودنسون، *Entre Islam e Occident*، باريس ١٩٩٨.

وحول أوربا والإسلام في العصور الوسطى هناك مراجع أساسية هي: أ. دوســيلييه *Chretiens d'Orient et Islam au Moyen Age . VIIe-XVe siècle*، بــاريس ١٩٩٦، و *Medieval Encounters. Jewish, Christian and Muslim Culture in Confluence and Dialogue*، ٥ أجزاء، لايدن – لندن – بوسطن ١٩٩٩.

وبالنسبة للفترة السابقة للحملات الــصليبية بــصفة عامــة: *L'Occidente e l'Islam nell'Alto Medioevo* ("أسابيع الدراسة في المركز الإيطالي للدراســات حــول العــصور الوسطى السحيقة"، XII)، ســبوليتو ١٩٦٥ ؛ م. لومبــارد، *L'Islam dans sa première grandeur*، باريس ١٩٧١ ؛ ر. هودجز، د. وايتهــاوس، *Mahomet, Charlemagne and the Origins of Europe*، لندن ١٩٨٣.

وحول طرق النظر إلى الإسلام في العصور الوسطى الأوربية: و. سذرن، *Western Views of Islam in the Middle Ages*، كامبريدج، ماس.، ١٩٦٢ ؛ ن. دانييل، *Islam and the West. The Making of an Image*، إدنبره ١٩٨٠.

وحول الثقافة العربية وتأثيرها، راجع بصفة خاصة: ج. فيرنيه، *Ce que la culture doit aux Arabes d'Espagne*، باريس ١٩٨٥ ؛ د. جاكـــار، ف. ميـــشو، *La médecine arabe et l'Occident medieval*، باريس ١٩٩٠.

وحول أسبانيا المسلمة، راجــع: ب. جويـــشارد، *Structures socials "orientales" et "occidentals" dans l'Espagne musulmane*، باريس – لاهاي ١٩٧٧.

وحول الجانب الخاص من "فترة ما قبل تاريخ" العصور الوسطى في الإستشراق: أ. دانكونا، *La leggenda di Maometto in Occidente*، طبعة جديدة من إعداد أ. بـــوروزو، روما ١٩٩٤.

وحول دور فينيسيا بين العصور الوسطى والعصر الحديث، راجع: *Venezia centro di mediazione tra Oriente e Occidente (secoli XV-XVI). Aspetti e problemi*، إعداد هـــ ج. بيك، م. ماموساكاس و أ. بتروزي، جزءان، فلورنسا ١٩٧٧.

وحول ليبانتو، هناك صورة عامة يقـــدمها ج. بيتـــشينج، *La battaglia di Lepanto*، الترجمة الإيطالية، ميلانو ١٩٨٩. وحول القراصنة البرابرة، ج. إ. همبرت، ج. فيوسو، *Les barbaresques et les chrétiens*، إعداد ل. نيبي مودونا، فلورنسا ١٩٨٣.

وحول العثمانيين والعلاقات مع الغرب هناك نقطة انطـــلاق رائعـــة تتمثـــل فـــي أ. بتروزي *I primi studi in Occidente sull'origine e la potenza dei turchi*، في "دراســـات فينيسية"، XII، ١٩٧٠. راجع بعد ذلك كتالوج معرض درسدا لعـــام ١٩٩٥، *Im Lichte des Halbmonds. Das Abendland und der türkische Orient*، درســـدن ١٩٩٥، وهـــو مرجع اساسي أيضا بالنسبة للإستشراق– الإستغراب.

وحول العلاقات بين الإمبراطورية العثمانية وروســـيا: أ. فيـــراري، *La Russia tra Oriente e Occidente*، ميلانو ١٩٩٤.

وحول مشكلة الأماكن المقدســـة: ن. بـــوكس، ف. كـــارديني، *L'anno prossimo a Gerusalemme*، ميلانو ١٩٩٧.

وبالنسبة للعلاقات بين الإسلام وأوربا المعاصرة، راجع: *L'Islam in Europa*، إعـــداد س. فيراري، بولونيا ١٩٩٦.

وحول الموقف الخاص للإسلام المعاصر، راجع: الكتاب الـــذي صـــدر حـــديثا م. خاتمي، *Religione, libertà e democrazia* روما– باري ١٩٩٩.

فهرس الأسماء

أ

ب

ت

ج

[9] دوج: القاضي الأول في جمهوريتي البندقية وجنوا (المترجم).

ح

ر

ز

س

ش

ط

ع

ف

ق

ك

ل

ن

هـ

و

ي

فهرس الكتاب

تصميم الغلاف عمرو الكفراوي

